رواية

مكتبة

جيرالدين بروكس

مارش

ترجمة: حنان علي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

مارش

روايــة

اسم المؤلف: جيرالدين بروكس
Author: **Geraldine Brooks**

عنوان الكتاب: مارش
Title: **March**

ترجمة: حنان علي
Translated by: **Hanan Ali**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2023**
First Edition: **2023**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Geraldine Brooks, 2005 All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form.

This edition published by arrangement with Viking, an imprint of Penguin Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC.

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800
☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017
☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieb Haddad Street - from 29 Ayar Street
☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275
☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

6 6 2024 مكتبة
t.me/soramnqraa

جيرالدين بروكس

مكتبة
t.me/soramnqraa

مارش

ترجمة : حنان علي

جيرالدين بروكس الحائزة على جائزة بوليتزر عن فئة الأعمال الخيالية؛ مؤلفة، كاتِبة، صحفية وروائية أسترالية من مواليد عام 1955، ألفت روايات *مارش* وسنة العجائب (حكاية وباء) وأهل الكتاب ومعبر كالب والوتر السري (حكاية الملك داوود) وتسعة أجزاء من الرغبة. كما كتبت مذكرات بعنوان المراسلات الأجنبية (1997).

عملت بروكس مراسلة لصحيفة وول ستريت جورنال في البوسنة والصومال والشرق الأوسط، ولدت ونشأت في أستراليا وتعيش في ريف فرجينيا مع زوجها توني هورويتز وابنهما ناثانيال وثلاثة كلاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة الترجمة

لم أتخيل يوماً أنّ رواية ستصيبني بلفحةٍ من الشوق، أو أنّ الشغف مع صفحاتها الأولى سيثير ذعراً لاحقاً من انفصالٍ مكلومٍ محتوم. يومَ أنهيتُ ترجمة روايتها «أهل الكتاب» أفشيتُ للناشر عن إحساسٍ مبهمٍ من الفقد وحزنٍ دفين. سرعان ما تلاه اغتراب وجداني مع اكتمال أيام «سنة العجائب». خشوعٌ ومكابداتٌ عميقة وحرب وخسارات خضتها مع «مارش»، ألغازٌ، أزمنة قصية، إثارة تشويق، حكايات حميمة دافئة، موت وفقد وبؤس، تلمستُ أزهاراً مجففة بين الصفحات لعلها من شرفتها المنسية.

من تُراها جيرالدين بروكس؟ أكانت مخبأة في مقصورةٍ سريّةٍ، قصيّة عن هذه الأركان؟ بعيداً، حيث أضاءت الشموع وجهها شدة العشق وما يورثه من حزن؟ أيّ أحداث طبعتْ ذهنها؟ أيّ تفاصيل؟ لعلها أوهام! لا ريب كوابيس، أو ذكريات لمجهولين لم يلتفت إليهم أحد في يومٍ من الأيام!

رسمت مكنونات رواياتها ملامحَ روحها الشاعرية الوقادة، فأيّ سيرة بات عليّ سبر أغوارها، وقد وسمها النقّاد بجودةٍ لا تنضب سواء خطّت حواراً سياسياً مع أحد الزعماء، أو نثرت حكايات أبٍ مفقودٍ لنساءٍ صغيرات، يرى الكثيرون أن كل ما تكتبه بروكس لافت للنظر، مطعّم بالشِّعر هامساً أو رناناً.

«تحظى باحترام وشعبية واسعة»، أول عبارة طالعتها أثناء بحثي عن الكاتبة الحاصلة على وسام أستراليا لتميز مساهماتها في الكتابة، أما رواياتها وتقاريرها الصحفية المفتتنة بالكون الأوسع، المحفّزة على التعددية الثقافية والتفاهم المتبادل والمحذرة من التحيز الطبقي، فلها حشد من القراء والمتابعين والمعجبين حول العالم.

صحفية مستشرقة وكاتبة أمريكية من أصل أسترالي، عملت بعد تخرجها من جامعة سيدني، في صحيفة سيدني مورنينج هيرالد، انتقلت بعد ذلك إلى الولايات المتحدة، كي تستكمل درجة الماجستير في مدينة نيويورك جامعة كولومبيا الدراسات العليا للصحافة في عام 1983.

لن يتوقع الكثير من القراء العرب، أن الروائية بروكس بدأت مسيرتها المهنية كمراسلةٍ حربيةٍ لصحيفة وول ستريت جورنال، أما الـ «بوليتزر» فليست الجائزة الأولى التي نالتها، فقد حازت جوائز عدة عن إنجازاتها في ميدان المراسلة الصحافية، وتحديداً عن تغطيتها أحداث الشرق الأوسط بما فيها وقائع حرب الخليج الأولى، فازت بجائزة الكتاب الأسترالي للعام وجائزة الخيال الأدبي الأسترالي عن روايتها أهل الكتاب عام 2008، كما خوّلها تنقلها بين العديد من المناطق الساخنة في العالم واحتكاكها المباشر بثقافات بلدانٍ وحضاراتٍ متمايزة، لاكتناز تجربةٍ مثيرةٍ ورصيد مجتمعي هائل: «لأنني عملت مراسلة صحفية لمدة أربعة عشر عامًا تقريبًا قبل محاولة روايتي الأولى، تعلمت الكتابة تحت أي ظرف تقريبًا – على ضوء الشموع، في القرى الأفريقية النائية وتحت القصف في كردستان، أعتقد أنه ليس من قبيل المصادفة أن تدور رواياتي أساسًا حول كيفية تصرف الناس في وقت الكارثة، هل يمضون إلى أفضل ما لديهم أم أسوأ ما لديهم؟».

جائزة الـ «بوليتزر» عن كتابها الثاني مارش ضمن مسيرتها الروائية، كانت حدثاً مفاجئًا أثار الدهشة ضمن الأوساط الأدبية الأمريكية وتسبب للكاتبة نفسها وعائلتها بسعادة غامرة، مبكراً انضمت الروائية جيرالدين بروكس إلى لائحة كبار الأدباء الأميركيين الذين حازوا البوليتزر قبلها أمثال: إرنست همنغواي وتوني موريسون وهاربر لي ونورمان مايلر وفيليب روث وغيرهم.

تغيران أقعدا بروكس عن ممارسة عملها الصحفي الحربي؛ الأمومة والمرض العضال، إلا أنها أبدت مرونة بمواجهة ظروفها الجديدة عبر البدء بكتابة الروايات رغم الظروف المضنية، فحطت بروايتها الرائعة مارش المستوحاة من ولعها بكتاب «نساء صغيرات» للكاتبة لويزا ماي ألكوت. هديةٌ من والدتها أثارت هواجس طفولتها عن «الأب الغائب» لتجسد حياته فيما بعد، عبر تأريخٍ جامعٍ للخيال مع واقعِ الحرب الأهلية الأمريكية

والكتابات الفلسفية لبطريرك عائلة ألكوت، لتمسي بذلك أول أسترالية تفوز بالجائزة التي «فاجأت كتاباتي!»، في إشارة لمقاطعتها لأوراقها لفترة من الوقت؛ «لكن بضعة أسابيع من الإلهاء اللطيف، عدتُ بعدها إلى مكتبي لأقوم بما أحب فعله على الدوام، أفضل ما لدي سطراً بعد سطر!».

في إحدى مقابلاتها الصحفية؛ أسرّت بروكس بأنها لا تملّ التواصل مع ضحايا الحروب، فكلما عصف الجو بشاطئ مدينتها، هرعت لزيارة المقابر، هناك حيث تتحرك شواهد قبور مخلخلة فوق أجساد شاباتٍ راقدات جوار أطفالهن، بأصابعها جالت حول حروف أسمائهن المنحوتة، متخيلةً شكل حكاياتهن وأعمارهن المسلوبة لتحوك بعضاً من أحداث رواياتها: «من الصعب أن تشرح سبب حبك للموتى، كثيراً ما ينعتني أبنائي بأنني ميتة غريبة الأطوار!».

روح الصحافة ما جعل كاتبتنا راغبة بمجاورة الحقيقة والخوض بمضمارها، لعله اسم تائه في تاريخ ما، قطعة ثياب مهملة، ورقة، أو أي شيء عائد لشخصٍ لم تتح له الفرصة لتأريخ عمره، يُحمّلها واجب سرد حياته وتخليدها: «الشيء الوحيد الذي أؤمن به تمامًا هو أن قلب الإنسان يظل قلب الإنسان، بغض النظر عن كيفية تغير ظروفنا المادية بينما نتحرك معًا عبر الزمن».

المترجمة

إطراءات بحقّ الرواية

«**مارش** الفائزة بجائزة بوليتزر لعام 2006؛ تسردُ حكاية حبٍّ قوية تدور أحداثها على خلفية الحرب الأهلية الأمريكية، حرّكت مؤلفة الرواية جيرالدين بروكس شخصية الأب الغائب، مارش من رواية «نساء صغيرات» الكلاسيكيّة المحبوبة للكاتبة لويزا ماي ألكوت، لتحبك روايةً مكتظة بأوجاع الحب والزواج وجورِ الحرب الجاثمة فوق عقل وقلب رجلٍ وحيد لا يُنسى»

• سو مونك كيد (الولايات المتحدة الأمريكية اليوم)

«حينما سمعتُ عن إصدار الرواية، شعرت بوخزاتٍ متداخلة بين الغبطة والحسد، من المثير للفضول ملء الركن الخاوي الخاص بالسيد مارش الغائب عن نسائه الصغيرات! من اللافت الضلوع بحكاية قسيسٍ مجندٍ في حربٍ أهلية، مكابدٍ لمحنٍ متوازية مع خُطب بناته الأربع في الديار،،،، في روايتها **مارش** تجرأت جيرالدين بروكس على خلق رجلٍ عصريٍّ تمكن من كبح جماحِ زوجته كما يمليه الواجب الزوجي، تاه ثمّ حاول إصلاح نفسه، مثلما يُتوقع من رجلٍ يتمتع بقناعات الحكمة المحتدمة».

• كريستينا شوارتز، الأطلسي الشهري

«في كثير من الأحيان؛ يمكن تشريح الكتب الجيدة وتحليلها أكثر من تلك العظيمة المذهلة – خاصة مع محاولة نقل قوتها وتأثيرها تقصياً عن ملامحها المُشعلة للفضول والارتياب، أعتقد أن رواية جيرالدين بروكس كتاب رائع للغاية كونه يبث حياة جديدة في خيالٍ تاريخيٍّ عبر استعارة

شخصية من واقعٍ عميقٍ عتيق، أو لنقل رواية قديمة بأسلوبٍ شخصي، أعتقد أنها تستحق التكريم والاحتفاء كأفضل رواية خيالية».

• شيكاغو تريبيون

«مارش حكايةٌ جميلةٌ عن قسوة الحرب وهدمها للمُثُل والمبادئ الأخلاقية، إسفين من تجاربَ مريرةٍ وذكريات قاهرة بين زوج وزوجته».

• لوس أنجلوس تايمز

«رؤية جليّة عبر سردٍ فاخرٍ دقيق، تفاصيلُ تاريخية غير متوقعة يخوضها رجل عادي ضمن مفارقاتٍ لا يمكن تصورها، يكرس مارش دور الزوج السلس بين الحقيقة والخيال،،، نسخة بروكس لحكاية مارش مروّعة ومؤثرة في الوقت ذاته،، الرواية ناجحة للغاية، تلقي تعويذة ما على القارئ لتدوم في ذهنه أبدًا».

• كارين جوي فاولر، واشنطن بوست عالم الكتب

«تكتب جيرالدين بروكس بطلاقة مثالية».

• الولايات المتحدة الأمريكية اليوم

«بعد بحثٍ تاريخيّ أخّاذ، تلتحم مارش بإخلاص مع روحِ رواية ألكوت الأصلية،،، يعزز الكتاب العمل الشقيق منذ عام 1868 بدلاً من الاستيلاء عليه، لا بد أنّ لويزا ماي ألكوت سعيدة للغاية».

• الإيكونوميست

«قوية!».

• بوسطن غلوب

«مارش رواية تاريخية من الطراز الرفيع،،، إنها توهجٌ للشعور المشرِّف والأنيق والحقيقي، ختامٌ ناضجٌ للمثالية الصّاخبة لرواية نساء صغيرات».

• دالاس مورنينغ نيوز

«يصعب في بعض الأحيان مراجعة كتاب بهيّ والوقوف على أركان قوته دونما الرجوع لبعض الأحداث المثيرة للشك، قد تتسم الكتب الجيدة بالوضوح والتميز لكن الكتب العظيمة غالباً ما يشوبها الغموض، مشاهدُ تمزيق الحرب للجنوب الأمريكي مروّعة بالفعل، لا سيما الحالة المزرية للمزرعة المحررة!».

أيّ ثراء بالزمان والمكان صاغته بروكس! أيّ نضالٍ دؤوب للارتقاء بمارش ليبلغ الشخصية التي يطمح إليها! أيّ سحر! ليست الصورة من أحالته رجلاً مدهشاً، أو التوصيف لحياته وأحاسيسه، بل الصدق والقدرة على الإقناع إلى جانب شعور القارئ بأنه شاهد على الحقيقة؛ بما يرتقي برواية مارش إلى أبعد من جاذبيتها كقصةٍ مثيرةٍ مستفزةٍ للأفكار».

• دنفر بوست

«مبهرٌ،،، الشقاق بين الذات الداخلية (ما يعرفه المرء ويشعر به) والمظهر الخارجي (ما يسمح المرء للآخرين برؤيته ومعرفته عن نفسه) انفصالٌ زوّد روايتنا الرائعة بتوترٍ سرديٍّ مذهل،،،، الصراع -بين إنسانيتك ومبادئك- سعياً للتوازن هنا تكمن ضربة بروكس الإبداعية المبتكرة، في حين أشرقت الفضائل متوعدة في (نساء صغيرات) شقيقة مارش مختارة الخنوع التام للمبادئ، سمحت جيرالدين بروكس لشخصياتها بأن تمسي بشرية بالكامل، إذ لديهم بالنهاية ما يودون تعليمه لنا».

• جريدة أتلانتا جورنال – كونستيتيوشن

« قصة آسرة عن الزمن المستحيل، تفكيكٌ وإعادة بناءٍ أنيقةٍ لواحدة من أشهر أيقونات الأدب الأمريكي».

• أوريغونيان (بورتلاند)

«يا لها من مخيّلة غنية،،،! الحكاية طالها بحث دقيق ثم نالتها صياغة مذهلة، لتكشف بروكس النقاب عن فظائع تحدث على ضفتي الحرب، فاضحة الجرائم والأخطاء الفادحة التي يرتكبها كلا الفريقين حتى أكثرهما تفانياً».

• روكي ماونتن نيوز

«تاريخٌ مفعم بالحيوية يقفز خارج الصفحات، طائفاً حولك مكبلاً إياك عن الرحيل، عبقرية بروكس كامنة بقدرتها على خلق التاريخ وإحياء شخصياته».

• ميلووكي جورنال سينتينل

«ملهمة،، حكاية مربكة لكنها رشيقة ومُرْضية، مكللة بحرفيةٍ ورعايةٍ وإيقاعٍ يليق بكاتبة وشاعرة،،،، التقطتُ كتاب **مارش** لأنني أحببت فكرته،، ثم سرعان ما أدركت مع إغلاق دفتيه أنني وقعتُ بغرامه».

• كليفلاند بلين ديلر

«ابتكرت بروكس سمة خارقة في روايتها **مارش**، الإثارة والمتعة جنباً إلى جنب مع التحفيز الفكري حين بثت الحياة بحكايةٍ مألوفة محببة، على الرغم من المشقة والمعاناة التي قاساها، ما زال مارش الأكثر التزامًا بقصة الإصلاح، يا لها من قصة عميقة وإنسانية صادقة!».

• شارلوت أوبزيرفر

«الوصف الحي للمعارك والفظائع الوحشية يماثل الوصف الدقيق لرواية الشارة الشجاعة الحمراء[1] وسجن أندرسونفيل، **مارش** رواية تاريخية آسرة وجسورة بما يكفي للكشف عن الأركان الرمادية للسياسة والحرب، على الرغم من أحداثها العائدة للقرن التاسع عشر، لكنها ما برحت صالحة للأزمان كافة، إتقان بروكس للغتها وقدرتها على إضفاء الفتنة على شخصياتٍ قاصرةٍ، يرسخ وجودها الأدبي بقوة».

• روكي ماونتن نيوز

«**مارش** رواية ناجحة، سواء على صعيد التاريخ المعاد تشكيله أو من

1- رواية الشارة الشجاعة الحمراء لكاتبها ستيفن كرين، تصف الرواية قساوة وغلاظة الحرب الأهلية الأمريكية، حققت هذه الراوية ما لم تحقق لكاتبها كرين أي رواية أخرى من نجاح وشهرة عالمية.

ناحية الجوانب الإنسانية التي التقطتها بروكس، لغةٌ ماهرةٌ وقدرةٌ روائيةٌ تُحسد عليهما تضاف إليهما المرجعية التاريخية متقنة السرد، لتمسي روايتها بالمقام الرفيع ذاته جنباً إلى جنب مع رواياتها الأخّاذة - يا له من إنجاز رائع!».

• ذا تايمز بيكايون (نيو أورلينز)

«مدهشة،،، رائعة، مدروسة بدقة،،، ومحبوكة ببراعة».

• بوك بيج

«خلاب،،،! كتاب عظيم،،،! تمتلك بروكس رخصة روائية بامتياز».

• بيث كيبهارت، شيكاغو تريبيون

«قصة لافتة مثيرة، حبكة محكمة، شخصيات حية وقضايا استفزازية».

• هيلر ماك ألبين، لوس أنجلوس تايمز

«كتاب أصيل بالكامل،،،! جذاب للغاية!».

• رون تشارلز، كريستيان ساينس مونيتور

«نيّرة،،، تقودنا رواية جيرالدين بروكس المؤثرة والمكتوبة بأسلوبٍ جميل إلى أهوال ومفارقات الحرب الأهلية جنباً إلى جنب مع صعوبة العيش المطمئن المشوب بالمعاناة الإنسانية».

• الناشرون الأسبوعية

إلى دارلين وكاسي –

لستما امرأتين صغيرتين

بأي حال من الأحوال

جيرالدين بروكس

الجزء الأول

«إننا نفتقد أبانا وقد نُحرمُ رؤيته لوقتٍ طويل!»، هذا ما قالته جو بأسىً، دونما النطق بما يريعها: «وقد لا نراهُ أبداً»، عبارةٌ دارت في خَلد كلٍّ منهن، صمتٌ رانَ بينهن للحظات، متفكراتٍ بوالدهن القصيّ الذي سحلته الحرب إلى ساحاتها.

- لويزا ماي ألكوت

من روايتها نساء صغيرات

الفصل الأول

الدربُ الوعرُ إلى فرجينيا

21 أكتوبر (تشرين الأول) عام 1861

«الغيومُ الليلة تزركشُ الأفق!» هذا ما كتبته لها، «ها هي الشمس تأفلُ لافحة حواف الجرف المنحدرة بأطيافٍ نحاسية براقة، راتقة السماوات العاليات بخيوطٍ نفيسة مذهبة»، توقفتُ هنيهةً لأتلمس وجعاً أصاب عيني التي لا تكفُّ عن التقطر بدموعها، لعلّ ما قصدتُ قوله نقشتُه فوق الورقة مأمونَ المعنى مُزدانَ الحروف، إلا أنّ زوجتي الحصيفة رغم قدرتها على قراءة ما خفي بين السطور، ما انفكتْ ناقدة بارعة سمحة دمثة، لاحظتُ أنّ أصابعي الملطخة بآثار الرَمَص الجاف، ما زالتْ ترتعش من شدة الإرهاق.

«اغفري لي رداءة خطي يا عزيزتي، فأنت تعلمين أنّ المسير العسكري الحثيث آخر ما يوفر بقعة هادئة لتأملٍ جليّ أو كتابةٍ سلسةٍ للمراسلات، (آمل من كاتبتي الغالية الصغيرة، أن تعثر وسط مهامها العديدة الجيدة، على الوقت الكافي للاستفادة من جُحريَ الهادئ الضيق لممارسة هوايتها المحببة، فلا تسنح الفرصة للفئران الودودة بغزوٍ مفاجئ إبان غيابي القصير) أما بعد، فإن جلوس زوجك هنا في فيء شجرةٍ ضخمةٍ وارفةٍ يجلبُ لروحه قدرًا هائلاً من السلام والطمأنينة، فيما يتنقل الرجال جذلين متمازحين جامعين أعواد الحطب مشعلين النيران تحت مواقد الطهي، ها أنذا أكتب بامتنانٍ على وجه المكتبِ الصغيرِ المحمول الذي أهديتِه والفتيات لي، على الرغم من أنني أنفقتُ مخزونَ محابري كله، لكن لا داعي لتحملِكنّ المشاقّ لإرسال المزيد منه، فقد اقترح أحد الرجال استخدام حبرٍ بديلٍ مبتكرٍ صالحٍ للكتابة، إنه

مُحضّرٍ من عصير توت العليق الناضج في آواخر موسمه، كم أسعدتني فكرة مراسلتكم ببضع «كلماتٍ حلوة»!

إنْ تذكري قصائد سبنسر[1] التي ألقيتها لك في أمسياتٍ مشابهةٍ لهذه الأمسية الخريفية المنعشة، فلا بدَّ سيلوح في خاطرك ألقُ أوراق الإيبرو[2] المرمرية الحافظة لها، عندئذ يا عزيزتي يمكنك تخيل السماء كما تمتد أمامي الليلة، بأطيافها الملونة الجائلة عبر الأفق بوفرة أخاذة وحبور».

أخبار مُطمئِنة لكنها في الحقيقة متضاربة مع واقع الحال، فأوراق القصائد المرمرية الموشحة بالألوان ما شابهها سوى دماء القتلى العائمة فوق دوامات نهر الطمي المضطربة المتماوجة بتصميمٍ مماثلٍ موجعٍ - أو على نحو أدق، المشابهة للبقع التي شكلها اندلاق الحبر القرمزي من يد فنانتنا الصغيرة فوق ألواح الأرضية، لكني وبكل تأكيد، لن أخط عباراتٍ مريرةً في أيّ من رسائلي لزوجتي، فأنا مذ وعدتها أن أكتب لها كل يوم، وجدت نفسي ملزماً بالإيفاء بعهدي كلما اشتد ارتباكي الذهني، لا أنكر أنها تتجلى متجسدة أمامي بين فينة وأخرى، مرخية يدها برفقٍ فوق كتفي، مع ذلك، فأنا ممتنٌ لعدم وجودها قربي هنا، كي لا تتورط بمشاهدة ما يُفرض عليّ رؤيته من فظائع، أو معرفة ما يتحتم عليّ معرفته من أنباء أليمة، فكرةٌ ملائمة حررتني من أصفاد رقابتها، إنني لم أعدها قط بأنني سأكتب الحقيقة.

نضدتُ بضع كلمات حفظتها عن ظهر قلبٍ مترعة بالأشواق الزوجية، لأتبعها ببعض العبارات المفعمة بالحنان الأبوي: اسمحن لي بتقديم خالص حبي وقبلاتي، واعلمنَ أنني أفكر فيكن في النهار حيثما وطئت أقدامكن، في الردهة، في المكتب، داخل الحجرات أو بين المروج؛ أتأمل أياديكن تحملن كتباً أو أقلاماً أو تمسكن قبضة أختكن العزيزة، أصغي لأحاديثكن المعقودة عن أبيكن الغائب الذي أغشاه درب الرحيل الطويل، متسائلات

1- إدموند سبنسر Edmund Spenser (1552-1599) شاعر إنجليزي وصاحب القصيدة الملحمية ملكة الجن، يعد سبنسر أحد أهم رواد الشعر الإنجليزي المعاصر.

2- فن الإيبرو (ويعرف أيضا باسم الرسم على الماء) (بالإنجليزية: Paper marbling) يعتمد على الرسم على الماء المخلوط بمواد معينة لجعله كثيفاً ويستخدم له ألوان خاصة يتم رشها وتشكيلها على السطح بحيث يمكن فيما بعد أخذ ذلك الرسم على ورق مرمري خاص سميك لتحمل الماء.

عن حاله وضفاف مرساه، كنّ على يقين يا عزيزاتي أنني عاجزٌ عن مغادرة أيّ منكنّ بالمطلق، فجسدي الذي ناء بعيداً، أطلق روحه تحوم حولكن، تصلي لأجلكن في الليالي، كي تخلدن بسلام لراحتكن،،،» باعتذار عن كتابة المزيد أنهيت خطابي موضحاً لهنّ ضرورة الاستجابة لنداء الواجبات الضرورية، مختتماً بوعد كتابة المزيد من الأخبار في وقتٍ لاحق.

من المؤكد أن المهام الملقاة على عاتقي ملحّة بدرجة كافية أكثر مما يتخيلن، فالرجال حولي بأمسّ الحاجة لمساندتي وعوني، مع ذلك أتكاسل عن إغلاق مكتبي المحمول الذي أبقيته مفترشاً ركبتيّ، لعلني أمنح مقلتيّ فرصة أثيرة لغَرْف مشهدِ الغيوم التي أوقفت زحفها على نحو مفاجئ، ثمّ احتشدت داكنة متكاثفة مُغلقة آخر بوابات الضوء، لا عجب أن البشر البسطاء منذ الأزل، أسكنوا آلهتهم في أعالي الملكوت، إذ بمجرد أن يهوي المرء بأنظاره نحو الثرى، فإنه يتورط بطمسِ فؤاده بلطخاتِ القفر والخراب.

لمحتُ بعض الرجال منهمكين بإنهاء الإجراءات الخاصة بجمع جثامين زملائهم القتلى للمسارعة بدفنهم، متوغلين حتى صدورهم داخل المياه الموحلة في محاولة لانتشال الجثث العالقة بين الأغصان المتكسرة أسفل النهر، بعكس ما كتبته تماماً، فلا رجالٌ يتمازحون الليلة، ولا مواقد مستعرة النيران، ولا أوانٍ تتلظى بالمرق فوقها، لا شيء سوى الدخان يطوف في الأرجاء كثيفاً لاذعاً حارقاً لعينيّ الدامعتين، حين وقعت عيناي على نسرٍ روميٍّ[1] يحدق بي من أعلى شجيرات القيقب، أدركت حرص هذه الطيور الجارحة الضخمة على مرافقتنا طوال اليوم بترصدٍ وتوقٍ لغنائم فاخرة، إلا عند لحظاتِ الصباح الباكرة حين اختارت التحليق بجلالٍ مع ضياء الفجر اللؤلئي، باسطة أجنحتها كغراغيل[2] فخمة تترقب سطوع الشمس، ما برحتْ

1- النَّسْرُ الرُّومِي أو نسْرُ الحَبَش أو البُغَاث الرشيق المعروف أيضًا في بعض مناطق أمريكا الشمالية باسم السَّقاوة الروميَّة، وفي بعض مناطق البحر الكاريبي باسم غرابِ جُون أو غرابِ الجيَف، هو الأكثر انتشارًا بين نسور العالم الجديد، يتميز النسر الرومي بحاسة شم قوية على مستوى الحيوانات.

2- الغرغول (جمعه: غراغيل) في العمارة هو عبارة عن غروتيسك (مخلوق قبيح) منحوت أو مصنوع مع صنبور مصمم لنقل مياه السطح بعيداً عن جانب المبنى.

هاماتها المرعبة مسمَّرةً طيلة الساعات المريرة لعبورنا لنهر بوتوماك[1]، ناظرةً احتشادنا داخل الجزيرة الواقعة في منتصف مجراه، اليابسةُ التي ارتفعت كبارجةٍ عملاقة شقّت المياه الرحبة إلى مساراتٍ مائية ضيقة دفّاقة، متحيّنة للحظة المناسبة، ما زالت تلك الجوارح ترقبنا من دون حراك، وادعة حتى عبورنا نحو الضفة الأبعد، من ثمّ صعودنا الحذر لدرب الأبقار الوعر على وجه جرفٍ شديد الانحدار، لاحقًا؛ رأيتها تفرد أجنحتها معانقة السماء من جديد، راسمة أقواساً رشيقة شامخة فوق الحقل، لعلها اطلعت من موقعها الباسق على المأزق الذي بات يترصدنا حين سيطر جيش العدو على الربوة المقابلة ما جعلنا في مرمى نيرانه، لم يعِ أحد من جنودنا متى تسللت فرقٌ من قواته خلسة عبر الغابة إلى يسار موقعِ تمترسنا لتطوقنا بحصارٍ تام، لكوني قسيساً، لم أتلقَ أي تعليمات أو أوامر بالتقدم، لذلك اخترت لنفسي موقعاً ظننته مثالياً لتقديم المساعدة الأسمى للمصابين، وبينما كنتُ أصلي مع الجرحى في مؤخرة الجيش، ارتفع العويل صارخاً: يا إلهي، إنهم يهاجموننا!

ناشدتُ حاملي النقالات لإسعاف الجرحى وإخراجهم من المكان، فأخبرني أحد الجنود المُدْبرين، أن أي شخص يحاول ذلك سيرديه وابل الرصاص الكثيف قتيلاً، سيلاس ستون، المصاب بجروحٍ طفيفةٍ في ركبته آنذاك، زلّ مراراً قبل مساندتي له، ليمضي بصحبتي متأبطاً ذراعي بقصد الالتحاق بالحشد المضطرب الفارّ إلى عمق الغابة، كنا نحاول جاهدَيْن بلوغ قمة درب الأبقار الزلق بصفته المسار الوحيد المؤدي إلى النهر – حين صادفنا نسراً رومياً آخر، نسراً قريباً بما يكفي للمسه، أبصرناه معتلياً صدر جثةٍ طريحةِ الأرض، أدار رأسه مع اقتحامنا رامقاً إيانا بنظرةٍ حادةٍ رادعة، فلمحنا ما يشبه حبلاً طويلاً بنياً لامعاً متدلياً من منقاره، رفع ستون بندقيته لقتله، لكن طاقته التي اُستنفدت بالكامل أفقدتْ يديه المرتعشتين قدرة الضغط على الزناد، كان عليّ تذكيره في حال عدم المسارعة بوصولنا للنهر أو العبور لضفته بأمان، فإننا سنُضحي بدورنا وجبتين دسمتين للنسور.

1- بوتوماك: نهر يمتد داخل إقليم الأطلسي الأوسط بالولايات المتحدة، ويتدفق من مرتفعات بوتوماك نحو خليج تشيزبيك الواقع وسط الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية المطل على الأطلسي ليصب فيه.

شققنا طريقنا عبر الأكمة الشعثة بخطى متعثرة نالت من توازنها النتوءات الحادة لقضبان الأغصان القصيرة المتشابكة المتناثرة على طول الدرب الوعر، من هناك، تمكنا من رؤية فرقة من رجالنا المدفوعين بإطلاقاتٍ كثيفة دحرتهم صوب طلعةِ المنحدر، لمحناهم واقفين حيارى للحظات، ثمّ وعلى نحو مفاجئ، بدوا كأنهم يتحركون ككتلة واحدة كقطيعٍ من البهائم المذعورة، تدحرج بعضهم، هرع آخرون للقفز من ارتفاع يصل إلى تسعين قدماً، كبَوا فوق الحواف الشديدة الانحدار، تخبطوا بعضهم ببعض، تزاحموا متدافعين متساقطين غارقين في النهر، صرخاتٌ شقّت الأفق لجنود فاقدين صوابهم من هول الألم، بعد أن ألقوا بأنفسهم فوق رؤوس وحراب زملائهم المنحدرين قبلهم، حذاءٌ ثقيلٌ لجنديّ ضخم هوى بعنفٍ فوق رأس شاب هزيل، هارساً بالصخر عظام جمجمته على نحوٍ مثيرٍ للغثيان، سرعان ما أدركت عدم الجدوى من محاولةِ بلوغِ وجهتنا المنشودة التي اجتاحتها الخطوات المنحدرة الممسوسة المسعورة، زحفتُ نحو شفا المرتفع، ثم أفلتُّ يد صاحبي متخذاً قرار التدحرج بجسدي بقوة عبر المنحدر الضيق المغطى بحبات الجوز الأسود التي سرّعت من حدة انزلاقي، زلق سيلاس ستون قدميه بدوره مندفعاً خلفي من دون الاعتراض بكلمة حتى وصولنا إلى وجه الضفة المائية، حينها نطق مذعوراً مفشياً بأنه لا يجيد السباحة!

بدأ العدو بحلول ذلك الوقت بمعاودة إطلاق نيرانه المدرارة من أعلى الجرف، حاول بعض رجالنا رفع الرايات البيضاء بعد ربط الخرق أعلى العصيّ والتسلق إلى أعلى الجرف معلنين الاستسلام والتسليم للعدو، عمل جنود آخرون على قذف أنفسهم تباعاً إلى النهر، كثيرون من شدة هلعهم فاتهم التخلي عن صناديق الذخيرة والمعدات الثقيلة المعلقة بأكتافهم، فساعدت بسحل قاماتهم إلى القاع، القاربان الوحيدان المتوفران لنجدة قواتنا كانا الصندلين[1] الملطخين بالطين، اللذيْن أبحرا بنا قدوماً إلى هنا، بالنسبة للرجال الذين انقضّوا بأجسادهم إليهما، متشبثين بعضهم ببعض

1- الصندل: قارب مسطح القاع، تم تصميمه أساسًا لنقل البضائع الثقيلة عبر الأنهار والقنوات، بعض الصنادل لا تكون ذاتية الحركة ويلزم قطرُها أو دفعها بواسطة زورق سحب.

كعنقودِ نحلٍ متدلٍ من قفيره، انزلقوا في المياه غائصين ضمن مجموعات ضمت أربعة أو خمسة أشخاص غرقوا جميعاً، أما أولئك المتعلقون الصامدون فكانوا أهدافًا جليّة لرصاصات العدو التي سارعت باقتناصهم وقتلهم الواحد تلو الآخر.

خلعتُ حذائي وطلبتُ من ستون فعل الشيء نفسه، ثم دعوته لرمي بندقيته في أعماق مجرى النهر حرصاً على إبعادها عن متناول أعدائنا، غطسنا بعد ذلك، محاولين الخوض بأقدامنا عبر المياه الباردة وصولاً إلى الجزيرة، اعتقدت أنه بإمكاننا اجتياز المجرى مشياً لأطول مسافة ممكنة، فالجدولان أوحيا عند الفجر بأنهما ضحلان لا يهويان لقاعين عميقين، لكن فاتني التنبه لأمرين كارثيين أولهما شدة أمواج التيار العاتية وثانيهما البرودة الشديدة للمياه، «سأعبر بك إلى شاطئ الأمان،، ثق بي!» هذا ما عاهدتُ سيلاس به! لعلّي كنتُ سأفي بوعدي لو لم تعثر رصاصة على جسده المنهك المحطم، أو أنّ قماش معطفه حيث تكورت قبضتي لم يكُ هشاً رديء الصنع، أمكنني سماع تمزق النسيج خيطاً فخيطاً عبر التدفق العنيف الصاخبِ بالعويل، لم أعِ كيف أطبقتْ يده اليمنى بقوةٍ على حنجرتي، ضاغطة بأصابعها المتصلبة الجافة على العظام الرقيقة لقصبتي الهوائية، أما يده اليسرى فرفعها بذعرٍ محاولاً نشب أظافره برأسي، غطستُ في المياه، محاولًا بلا جدوى تفادي قبضته عالماً بأنه سيعمل على دحري للعمق من شدة روعه، تمكن الشاب الممسوس من اجتثاثِ خصلة من شعري، غارزاً إبهامه في عيني اليسرى، انحنيت إلى الأسفل، فدفعني بثقل جسده صوب القاع مغرقاً إياي بالكامل، جاهدتُ لإزاحة رأسي للخلف وقد اشتعلتْ بالوجع رقعته المنزوعة الشعر، ثم اصطدمت ركبتي بقوة بما بين فخذيه، فما كان من يده إلا الابتعاد عن حنجرتي، ممزقة عنقي بأظفر إصبعها الوسطى.

طفونا كلانا لسطح النهر وصرنا نتقيأ ما غرفناه من الماء البنيّ المُحمَر، ما زالت يدي قابضة على سترته المهترئة، ولو أنه توقف عن التخبط الأرعن في تلك الأثناء، لتمكنتُ من الاستيلاء على مزيدٍ من القماش للتشبث بقامته وسحبه وصولاً إلى الضفة، إلا أن التيار الهائل غلبني خاطفاً إياه، ممزقاً ما تبقى من النسيج المتهتك، مع استيعابه لضياع الفرصة الوحيدة لنجاته،

تلاشى الذعر من عينيه مُخلياً محله لنظرةٍ تائهةٍ خاويةٍ لمقلتي طفلٍ حديث الولادة، كَتم سيلاس صراخه مطلقاً تنهيدةً عميقةً أخيرةً طالتها غرغرة متسربة من حلقه المحشرج بالمياه، سارع التيار بإبعاده عني بما يقارب قدماً واحداً، رافعاً إياه باسطاً جسده لثوانٍ فوق أديمِ مياهه، مدّ ذراعيه مناشداً النجدة، فطفقتُ بالسباحة بمشقةٍ حتى صفعتني موجة وأرجعتني للوراء، كافحتُ للتشبث بصخرةٍ غائرة ثمّ أمسكتُ بساقيه محاولاً رفع نصف جسده إلى الأعلى بحيث يتمكن من معاودة الوقوف منتصبًا على قدميه بمواجهة الأمواج المتضاربة، لكن التيار قام بتدويره، فالتفّ ضمن حلقة كاملةٍ بذراعين مرفوعتين حتى بدا أشبه ما يكون براقصةٍ غجريةٍ تتخفّفُ من ثقلِ روحها، وابلٌ من أوراقِ الشجر انهمر مع إطلاقِ نيرانٍ غزيرةٍ من أعلى الجرف، خاتماً طقس الرحيل الجنائزي بتناغمٍ هائلٍ مع الانعكاسات الفضية لخيوط شمس النهار، حين قابلته وجهاً لوجهٍ، ورفَّ وشاحٌ قرمزيٌّ رحيبٌ مظللاً نظرة الوداع في عينيه قبل أن تبتلعه الدوامة عميقاً إلى قاعها، جررت نفسي بصعوبة في محاولة مضنية لاجتياز النهر، ومع وصولي إلى الضفة عثرتُ على إِرْبِ نسيجٍ مبللٍ داخل قبضتي.

مِزقةٌ خشنةٌ من قماشٍ أزرق بعرضِ ست بوصات في عهدتي الآن، لعلها كل ما تبقى من البائس سيلاس ستون، الحرفي التلميذ صانع الأواني الخشبية بسنواتِ عمره العشرين، المترعرع على ضفاف نهر بلاكستون الذي ضنّ شُحّاً بتعليمه السباحة. عقدت العزم على إرسال الأمانة لوالدةٍ كان سيلاس فلذة كبدها الوحيد.

تساءلتُ بجزع أين حطّ جثمانه آنذاك، أتراه محشوراً تحت صخرة غائرة محاطاً بألفٍ من الكائنات المُداهمة الفاغرة أفواهها لالتهام لحمه الإسفنجي، أم أن جسده المنتفخ يفترش المياه مضطرباً صعودًا وهبوطًا، صعوداً وهبوطاً وصولاً إلى مجرى أوسع وأكثر سكينة، جلتُ بناظري بينهم فرمقتهم محتشدين معاً: الغرقى الطافين بجثامينهم من جهة والمصابين المتصارعين مع الموت من جهة أخرى، بأذرعهم العائمة المتقصية عن أيّ إصبعٍ تتلقفه للنجاة، عن قبضةٍ، عن ذراع، في غضون يوم أو يومين، سينزلقونَ جميعهم في موكبٍ جنائزي على طول النهر، عابرين المجرى

الوضيع أسفل القبة البيضاء قيد البناء المرفوعة على السقائل، المعتلية ربوة واشنطن الموحلة، تأملتُ بأسى! هل سيتعرف مواطنوهم عليهم؟ أولئك القتلى الشجعان، هل ستُرفع القبعات تبجيلاً واحتراماً لتضحياتهم الجليلة؟ أم إن الناس سيشيحون بأبصارهم متنفرين متقززين من مشاهد الجثث البشرية المتضخمة المتفسخة؟!

يتوجب عليّ الآن التطواف في هذه الجزيرة بحثاً عن الملاذ الجديد للجرحى، كنت على يقينٍ من أنّ الطبيب الجراح المعتنق لمذهب الكالڤينيّة[1] لن يكلّف نفسه بإعلامي ولو بكلمةٍ عن وجهة المكان، فالرجل الشرس المتجهم القسمات المتحفظ فيما يخصّ الأمارات الدينية الملتبسة وغير المكتملة، يعتقد أن الإنسان عليه التمرس في المهنة التي اختارها لمعيشته، فعلى الحدّاد إجادة حرفة الحِدادة، المزارع إتقان الحراثة، أما القسيس فمثله مثلهما من ناحية التَضَلُّع التام بتعاليم العقيدة، منذ اللحظات الأولى لعظتي المرشدةِ للجنود، جاهر الطبيب باستخفافه بي وازدرائه لمهمتي الكهنوتية، فمن وجهة نظره، أسلوب الهداية المرن الذي لا يُمعن النظر في تهويل الخطيئة الهاوية بمقترفِها إلى الجحيم، لا تأتي إلّا بنفعٍ ضنينٍ لرجالٍ يواجههم الموت على نحو يوميّ، سمعته يعترض باستهزاء: «لو أردتُ الإصغاء لقصيدةٍ عن المحبة، فمن الأولى بي اللجوء إلى زوجتي لسماعها».

حاولتُ تمرير أصابعي بين خصلات شعري المتلبدة الشعثة كخيوط كوزٍ من الذرة مرميّ مهمل، فتسبب رفع ذراعي للقيام بهذا الجهد الطفيف بمعاناةٍ في ظلّ أنينِ عضلات جسدي المتوجعة، لعلّ عمتي كانت محقة في شجبها العنيف المُهين لفكرة مجيئي إلى هنا حين قرعتني بالقول: «الرجلُ الكهل في سن الأربعين، الذي لا يجيد سوى النطق بالكلمات، لا تلائمه المجازفة بمغامرةٍ مماثلة في ميادين الموت»، مع ذلك، ما برحتُ أنا المترع بوسائل اللغة والإقناع، أفكر بأيّ قدرٍ منحطٍّ من الرجال سأهوي إن هربتُ من صراع

1- الكالڤينيّة (المعروفة أيضاً باللاهوت المُصلح): مذهب مسيحي بروتستانتي يُعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و1559م مؤلّفه (مبادئ الإيمان المسيحي) الذي يعتبره الكثيرون من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية.

الدم هذا؟! لذلك قررتُ ألّا أتخلى عن دعم أولئك المتكئين على ذراعيّ، طالما تحملني ساقاي، إلا أنّ الحقيقة كشفت النقاب عن وجهها اليوم عبر ملاحظة أطلقها جنديّ من ميلبيري حين نطق عبارته: «أحسبُ الطريق إلى فرجينيا شاقّ ووعر».

لا تزال الجزيرة تحتفظ بمكتبي المحمول داخل الحقيبة الملقاة جوار العديد من معداتنا الضرورية التي خلفناها إبان مسارعتنا إلى مغادرة المكان، تشبعت بطانيتي بالمياه بعد استخدامها لتجفيف جسدي وملابسي المبلولة، إلا أنها لا تزال تدخر بعض الدفء داخل صوفها، رطيبة حملتها قاصداً الشاب الذي تناهى صوت نشيجه إلى مسامعي، المتكور حول نفسه بأسى قرب ضفة النهر، كان الصبي مبتلاً مرتعش الأوصال، وتوقعتُ إصابته بحمى قاتلة بحلول الصباح، سألته برفق: «هلاّ سمحت لي بمساعدتك بصعود التل إلى أرضٍ أكثر جفافاً؟» لكنه لم يُجب، أرديتُ البطانية فوق مرقد جسده، عالماً بأننا كلينا سنقاسي برداً لاذعاً الليلة،، لكنه صقيع لن يعادل بأي حال من الأحوال، الزَمْهرير السفّاك الذي نال من سيلاس ستون.

شققتُ طريقي بين أعواد الحشائش الزلقة العالقة بالطمي، متابعاً صعود التل المنحدر بمشقةٍ بالغةٍ لأتدافع لاحقاً بخطواتٍ مثقلةٍ عابراً الحقل المحصود، أومض لهيبُ نيرانٍ بعيدة واشياً بثلةٍ قليلةٍ من المُشاة المصابين، أبصرتهم جاثمين مقشعري الأبدان من شدة البرد في قعر كوماتٍ من القش حيث سيمضون ليلتهم، استعلمتُ منهم أين نُصبت خيام الجرحى، «لم تُقَمْ أيّ خيام،، لقد لجؤوا إلى بيتٍ منعزلٍ قديم» هذا ما أجاب به أحد العساكر ممسداً ساعده المُضمّد، «يا له من مكانٍ غريب! بأروقته المترعة بتماثيل بيضاء ضخمة عارية كلها، وقاعاته المكتظة بالكتب العتيقة، يقيم في المنزل رجلٌ عجوزٌ معطوبٌ كوعاءٍ فخاريٍّ متصدعٍ صفعته صخرة، لا يقوم على خدمته أحد كما يبدو، سوى امرأة مُستعبدة واحدة تلبي احتياجاته جميعها، «أمرٌ لا يصدق! إذ تقوم المرأة بمساعدة الطبيب بمهارة فائقة، انظر! لقد قامت بتفحص جرحي، نظفته وضمدته جيدًا»، قال بافتخار بينما يرفع حمالة كتفه حتى أجفله الوجع، «أخبرتني أن ما فاق العشرة عبيد لبثوا في خدمة السيد قبل إدبارهم، لتظل الوحيدة التي آثرت عدم الفرار».

لا أعتقد أن الجنديّ قادر على التميز بين يساره واليمين، فاتجاهات المنزل وفق دليله بدتْ غير منطقية على الإطلاق، أما صديقه العاجز عن النطق بفعل جرح عنقه الملفوف، فظلّ يلوّح بيديه معترضاً على كل منعطف أشار إليه زميله، لذلك تخبطتُ مرتبكاً في الظلام لأجد نفسي على ضفة النهر مرة أخرى، غير متأكد أي الضفتين الأبعد! أكانت ماريلاند أم فيرجينيا؟ عدت إلى الوراء فلمحتُ خط سياجٍ خشبيٍّ ذي أعمدة مزدوجة تتلوى كالثعبان عابرة الأنقاض المتبقية لمبنى لعله كان طاحونة في يوم من الأيام، واصلت اللحاق بمسار السياج حتى انعطف عند أحد البوابات، جولةٌ مطولةٌ انتهت بمواجهةٍ مع احتشادٍ كثيفٍ لأشجار القرانيا المنفرجةِ عن دربٍ مرصوفة بحصى صلبة أدمت قدمي الحافيتين.

رائحة الصنان أرشدتني لوجهةِ الطريق الصحيح، في العادة، لا تفوح المستشفيات الميدانية بالرائحة النتنة المنبعثة من خنادق مراحيض المعسكر[1] فحسب، بل من الرجال الأحياء المبقورة أحشاؤهم بأدواتٍ جراحية[2] معدنية للتخلص من فضلات الهضم العالقة ودلقها خارجاً، رائحة أقل نتانة نفحت من لحوم الدواب المذبوحة المعلقة، التي أعتبرها مثيرة للغثيان مثلها مثل الأسوأ منها، راودني شعور رهيب بالاشمئزاز، فانعطفتُ مسرعاً صوب شجيرة لأتقيأ سائلاً مراً، حاليَ المزرية في ذلك الوقت، منحنياً منهكاً وضعيفًا، أعادت إلى ذهني ذكرى متعلقة بوالدي الذي داوم على ضربي بالعصا، كلما رفضت تناول حصتي من لحم الخنزير المملح، كان يعتقد أن اتّباع نظامٍ غذائيّ خالٍ من اللحوم كنظامي النباتي الخاص، هو ما تسبب بتقاعسي عن أداء الواجبات اليومية الملقاة على كاهلي، لكنه غفل عن السبب الحقيقي لتلكئي بالعمل، العائد لموقفي الشاجب للمهام بحد ذاتها، التي وجدتها عنيفة ووحشية للغاية، أيّ ظلمٍ يكتنف الطلب من أي

1- مراحيض ذات خنادق ضحلة تستخدم في حالات الطوارئ.

2- تم إجراء التدخلات الطبية الحقيقية لأول مرة حوالي عام 1850. حيث أدخلت الجراحة في العلاج، في البداية كانت مهنة عسكرية لبعض الوقت، تستند إلى إزالة طلقات الرصاص وبتر أجزاء من الجسد، لم يكن من الممكن أن تعني الجراحة أكثر من ذلك قبل هذه الفترة.

روح الكدح طوال اليوم خلف ثيرانٍ صفراء مقيدةٍ بالنير، عاتيةٍ من شدة سلخ السوط لجلودها، معاندة من جراء إفراغ الرجاء من عيونها! يا له من جهدٍ مستنزِفٍ للجسد والروح! أن تخوض في الوحل خلف مؤخراتِ البهائم منذ شروق الشمس حتى غروبها، غارقاً في أكوام روثها، نافحاً قذارة ريحها! أما فيما يخص الخنازير! أوه! كيف يمكن لأي امرئ تناول لحم خنزيرٍ تناهى لمسامعه استجداء صريخه أثناء ذبحه؟ مبصراً دمه الأسود طافراً في الأرجاء؟!

ربما السبب عائد للظلام، أو أنه الفصل المختلف عن بقية فصول السنة،، لعلّه تشاؤمي وحزني وإنهاكي،، أو لنقل ببساطة إن عشرين عامًا فترة طويلة جدًا كي يحتفظ العقل النشط المكتظ بالمعرفة بأي ذاكرة، ناهيك عن شخصٍ متخمٍ بالضبابية والقلق يتوسلُ لنيل نعمة النسيان لماضيه الكمد مهما كلفه الأمرُ، كدتُ أرتقي نصف الدرجات الحجرية العريضة صعوداً قبل أن أتعرف على المنزل، شعورٌ مبهمٌ راودني بأنني زرتُ هذا المكان من قبل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

جوزة الطيب الخشبية[1]

حدث ذلك في صباحٍ ربيعيٍّ قام بحشدِ الضباب أبيضَ كثيفاً حول النهر، فلا يراود المرء شكٌّ أن السماء دلقت غيومها اللبنية في قلب الوادي، كنت آنذاك في الثامنة عشرة من عمري، أعبر الطريق الطويل الصاعد من ميناء نورفولك على مراحل متقطعة بجسدٍ فتيّ نحيلٍ وقوي، يعلو هامته شعر بلاتيني عالق ببعض خصلاته المشرقة أسفل حافة القبعة القشية، ما انفك الزورق الصغير الذي أقلني يومها يتوقف وفق الطلب عند رصيف الميناء المخصص للمراكب على طول رأس الجزيرة الشمالي، لكن شغف الشباب وفضوله دفعاني للترجل مؤثراً التنقل مشياً على قدمي لمسافة تبلغ الميل ونصف الميل وصولاً إلى مقصدي، مدندناً أغنية الملاح الذي دفع القارب نحو المعبر، ما زال الدرب المذهل متجلياً أمام ناظري، هناك حيث كللتني أغصان القرانيا المزدانة بأزهارها الثلجية الناصعة، معطِّرة النسمات اللزجة بالأريج الزكي لعسلها، بتناقضٍ لافتٍ مع رائحة الطين المتسللة من صباحات مايو البائسة الباردة فوق رابية سبيندل، تابعتُ المسير بكاهلٍ مثقلٍ بحمله، بصندوقَي صفيح ضخمين محزومين بوتدٍ أعلى الكتفين، عبءٌ أفقدني الحيلة تماماً حين تبعني اثنان من كلاب الدرواس النابحة، مبعثرين الحجارة تحت

1- جوزة الطيب الخشبية أو المنحوتة من الخشب (A Wooden Nutmeg): يعود المصطلح الإنجليزي الأمريكي إلى عام 1829، ويقصد به «المزيف أو المخادع»، أما الحكاية فبدأت حين قام تجار كونيتيكت بوضع مجموعات من جوزة الطيب الخشبية المزيفة بين الثمار الحقيقية بهدف الاحتيال على الزبائن.

أطرافهما الغليظة السريعة، يمكنك القول إنه ترحيب نموذجيّ لبائعٍ متجولٍ قادمٍ من ولاية كونيتيكت، خاصة في ظلّ السمعة السيئة التي التصقت بنا، حين تخلّى الكثير من ممارسي المهنة عن مبادئهم أثناء سعيهم لتحقيق المكاسب، مؤثرين المكر والخديعة بدل الصدق والأمانة، لتحلّ فظاظة أهل الديار باستقبالنا محلّ الدماثة واللطف، لحسن الحظ، كنتُ على دراية بالتعامل مع الكلاب، فقد تربى في مزرعتنا كلب كولي ضخم يقوم بمهمة رجلين معاً حين الحاجة لتجميع الأغنام، أما جولاتي شمالاً عبر نورفولك فعلمتني الكثير من السبل الآمنة للتعامل مع الوحوش تفادياً لأذاها، أجزم أنّ أكثر ما نفعني كان سيربيروس، فما إنْ جاءني نابحاً مزمجراً حادثته بنبرةٍ مبتهجةٍ حماسية تحيله أليفاً في الحال، تجارب عممتْ نظريتي الشخصية المفضية إلى أنّ تسعة من عشرة كلاب تقابل خوفك بالعدوان وملاطفتك بالوداد، بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الدارة الفخمة، بات هذان الوحشان يطفران فرحيْن حولي، يتحسسان ساقيّ بين الحين والآخر بأنفيهما الرطبين.

خادمة شابة أهلّت أعلى الدرج مذهولة أو لنقل منزعجة مما رأته، فما كان منها إلا أنْ صفرت بحدة، لتنسدل آذان الكلبين ناحية الأمام أثناء إذعانهما وابتعادهما جانباً، «من المرجح أنك روضتهما بتقديم قطعٍ من لحم الخنزير قبل وصولك إلى هنا، وإلا لما كانا يتزلفان لك على هذا النحو!»، شدتِ الفتاة بصوتٍ مباغتٍ نقيّ رنان صافٍ كما الجرس، ثم وقفتْ بساقين متباعدتين وذراعين طوتهما جانبي خصرها الأهيف، أما يداها الطويلتا الأصابع المخضبتان بتمازجٍ آسرٍ بين البني الداكن والوردي الباهت؛ فأسندتهما إلى حزام تنورتها المقلمة بالكريمي والرمادي المنشّاة الأنيقة الخالية البقع، يعلوها صدّار[1] ذو ياقة عالية، في حين عقدت شالًا قماشياً شونديريّ اللون أومض بانعكاس خلاّب فوق جبينها النحاسي، مظهرها المهندم أثار عجبي آنذاك، مبشّراً إياي بخيرٍ جزيل: فالأسرة التي ترعى تفاصيل عبيدها بهذه الدقة من المرجح أنها عائلة ليبرالية.

1- الصدّار: قطعة ملابس نسائية تصنع من ثوبٍ سميك بلا كُمَّين وياقة يُغطَّى بها الصَّدر،.شاع ارتداء الصدار من بين الملابس النسائية التقليدية في أوروبا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

سارعتُ مع اقتراب خطواتها نحوي، بإنزال صندوقَي الصفيح كي يتسنى لي رفع قبعتي بإيماءة تحيةٍ وتقديرٍ مع حرصي الشديد على رسم ابتسامةٍ أكثر تملقاً، إن احترام الأعراف والتقاليد مسألة مهمة للغاية في الجنوب، هذا ما شهدته خلال جولاتي ومقابلاتي مع أيادٍ عاملةٍ كثيرة، فما انفكّ أولئك الأشخاص الحفاة نصف العراة، يتسمون بكياسة وتهذيب يفوقان كل ما تلقنه أهل نيو إنجلاند من علمٍ وتثقيف، أدركتُ في الوقت نفسه؛ أن الفوز برضا كبير الخدم يشكل الخطوة الأولى لإقناع أسياده النبلاء بالشراء، فهو في النهاية، من يقدم التماس البائع بالإذن بالدخول لعرضٍ بضاعته، كما يعتبر ضليعاً بإبداء القدر الكافي من الاهتمام لما في جعابنا - لا ريب أنّ لديه القدرة على التأثير والمساعدة بطريقةٍ أو بأخرى.

ها أنا أرقب ذاك الفتى المتسمر على بعد ستة أقدام من امرأة فاتنة، وجهاً لوجهٍ في موقفٍ لم يعتد عليه من قبل! لكن عينيّ الزرقاوين الذابلتين آثرتا حينها التحديق بحدقتيها السوداوين المشرقتين بأطيافٍ من المرح، ما زلتُ أذكر أنني من أطرق بصره أولاً.

«أتظن أنه بإمكانك إبهاري وفتنتي كما فعلت مع الكلاب؟» عَنْدَلت برنين صوتها الفضي[1] ثم استفسرتْ بسؤالٍ عن هويتي: «هل أنت يانكي[2] من ولاية كونيتيكت؟» رفعت ذقنها بخفة، ثم هدهدتْ مرتين أو ثلاثاً ثم تابعت بالقول: «آخر بائع متجول زارنا كان فتى من ولاية كونيتيكت أيضًا، قام بخداع الطاهية وبيعها جرة من جوزة الطيب الخشبية المغشوشة!».

«يا له من عار!» قلت موصوماً بمشاعر من الخزي، خاصة أنني كنت شاهداً على قيام الكثير من البائعين الجوالين بنحتِ الخشب لتشكيل جوزات الطيب المزيفة خلال ساعات سمرهم الكليلة.

1- تعد النغمة طبقة صوتية تكشف عن ألوان *الأصوات* ومعادنها فهناك *الصوت* النحاسي والذهبي *والفضي*.

2- يانكي Yankee أو Yank (في بريطانيا) مصطلح له عدة استعمالات، يستعمل في بريطانيا وبعض دول العالم للإشارة إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية، بينما يستعمل في أمريكا للإشارة إلى سكان نيوإنجلاند خصوصاً ذوي الأصول الإنجليزية، يطلق على سكان الولايات الشمالية عموماً «يانكي».

«لا أعتقد أن العائلة المالكة مهتمة برؤية ما يحويه صندوقاك، لكننا سنُعاتب إن لم نكرمك بتقديم مشروبٍ باردٍ منعشٍ في صبحٍ حارّ كهذا الصباح».

كما توقعتُ بالضبط، ها أنتِ ذي،، فتاة زنجية مسترقة ليست في مثل سني، تجيد مخاطبتي بأسلوب دمثٍ لا يُخجلُ صنواً رفيع المقام، لا يمكن لأحد ممن عرفتهم في بلادي التحدث بمثل هذه السماحة ولا حتى الكاهن نفسه، دربٌ ضيقٌ وحيدٌ يسير إلى رابية سبيندل المرتفعة ألف قدمٍ علواً، مكانٌ ضنينٌ يتحدث قاطنوه بلهجةٍ وجيزة قَتور لا يمكن فهمها بسهولة حتى من قبل سكان هارتفورد، جيراننا على بعد عشرين ميلاً! إذ نستخدم في قريتنا الصغيرة مفرداتٍ غير معتادة بعض الشيء، متبادلين الحديث فيما بيننا بلهجةٍ مبهمةٍ خاصة، فعلى سبيل المثال يدعونني القرويون بـ (Loping Nimshi) كلقب ينعتني بالكسول الأحمق! في حين نجمع بعض الكلمات بجمعٍ لا يماثل جمعها المتعارف المألوف، حتى والدي كلما رغب بإثبات قضيةٍ لأحد ما، أنهى خطابه بعبارةٍ عجيبةٍ لا يفسرها الغرباء إلا بمعنى واحدٍ لا يمتُّ لمقصده بصلة: (أنا أشخر!!).

حوالي القرن يفصلني عن زمن اغتصاب أجدادي العِظام لهذي الجرود المقفرة التي يتخلل صخورها حشدٌ من غابات الصنوبر والسنديان، إرثٌ يبابٌ بنى والدي فوقه منزلاً ضيقاً بلبِّ فسحةٍ عارية، قام صائدو الغزلان من الهنود الحمر بإفراغها من أشجارها لاستخدامها حلقةً ناريّة تطوفُ بتجمعاتهم، لم تتسع مساحة البيت لأكثر من ثلاث غرف مبنية من الألواح الخشبية العريضة غير المطلية، التي نالها التصدع والتهالك عبر مرور السنوات، كم حلمتُ بإمكانية كسبِ الأموال لمساعدة والدي في بناء منزلٍ جديد! بل تطلعتُ توّاقاً لليوم الذي سأعود فيه محملاً بأرباحٍ وفيرة أجمعها خلال تجوالي التجاري، لكن في مكان ما هناك، على طول يورك أو جيمس، سرعان ما تحجّم توقي وانحسر شغفي،، لأنني ويا للخزي! سأجد مقلتيَّ تحدقان بالقاماتِ المترفة لزوجاتٍ مكتسيات بالحرير، حتى يتقد وجهي حنقاً، خاصة مع استعراضٍ آنيٍّ لهيئة والدتي الرثة أثناء كدحها بينما ينفث غليونها الفخاري دخانه أعلى ذقنها المترع بشعراتٍ متطايرة، بينما تلوح

في خاطري يداها المشغولتان بكدٍّ دؤوبٍ لا ينقطع منذ لحظة لمسهما لضرعِ البقرة قبيل حلول الفجر حتى قذفهما لمكوك نول الكتان في وقت متأخر من الليل.

«سأكون ممتنًا لكرمكم الجزيل» أجبتُها متفكراً بالقيمة المضافة العظيمة التي يغتنمها المرء حين يصادف أشخاصاً ذوي أخلاقٍ نبيلة ممن يجعلون ارتقاءه أمراً محتوماً، قادتني الشابة عبر الدرب المحاذي للمنزل الحجريّ الجدران، ثم مررنا عبر بوابة منخفضة وصولاً إلى حديقة المطبخ التي أهلت بتنسيقٍ أخاذ لا مثيل له، بدءاً من ترتيب رؤوس الهليون الأرجوانية المستقيمة السامقة وانتهاء بصفوف شتلاتِ الفراولة المنخفضة المعلقةِ المثقلة بثمارها الخضراء المبكرة، لا بد أنهم سيحظون بحصاد أوليّ للفراولة قبل أن يتسنى لأرضنا التخلص من نوء ثلوجها، تبعتها متأملاً بملاحة القامة الهيفاء الرشيقة الخطوات.

تضوّع المطبخ بعبيرٍ منعشٍ لصباحٍ فوّاحٍ مزج بين عبق كعكة المجرفة[1] ورائحةٍ غنيّة لقهوةٍ لذيذة،، اللذيْن تضورا جوعاً بمعدتي، «ما الذي تحملينه بجعبتك يا غريس؟» سألتِ الطاهية، المرأة ذات الوركين العريضين والوجه المسطح المتلألئ بحبّاتِ العرق، لا بد أن الجوع بدا جلياً على محياي بحيث سارعتِ المرأة دون سؤال أو استفسار بتكديس عدد من الكعكاتِ الساخنة داخل علبة من القصدير ثم وضعتها أمامي، على الرغم من نقدها اللاذع للحيل الخبيثة التي مارسها ابن بلدي لخداعها، ومحاولاتها الحثيثة لمضايقتي، كاشفة عن حنقها المتوعد لمن يجرؤ على استغبائها، فإنني أومأت برأسي منافياً لما قالته بحيويّة أثناء تلقمِ الطعام وحشره داخل فمي.

«يا سيدتي؛ أنا لا أحمل أي نوعٍ من جوزاتِ الطيب في صناديقي»، خاطبتها متابعاً التوضيح بالقول: «بل الكثير من الأشياء المفيدة والمليحة لتجميل الجسم وتغذية العقل».

«أحقاً ما تقول؟» قالت بينما انقلب فمها الواسع لأسفل في محاولة

1- كعكة المجرفة hoe cake وفقًا للقصة الشائعة فقد أطلق اسم المجرفة على هذه الكعكة نظراً لاستخدام العبيد مجرفة الحقل بدلاً من المقلاة أثناء تحضيرها.

لإظهار تقطيبٍ ونفور مبالغ فيهما، «أيها اليانكي» عقبت الفتاة مخاطبة إياي: «من الأفضل أن تعرض لأني ما لديك بخفةٍ وسرعة، فلا وقت لدينا كي نضيعه سدى».

حينما انطلقتُ من نورفولك لأول مرة، راودني شعور بالغٌ من الاعتزاز بما تضمّه صناديقي اليابانية الجميلة، بأركانها الداخلية وأرففها وأقفالها المحكمة لتثبيت السلع المنظمة في أماكنها، لطالما حسبتُ أنّ بضائعي، التي اخترتها بنفسي بعد تأمل مديدٍ وعناية ودقة، ذات جودة وقيمة عالية لا تُضاهى، خاصة أنني استثمرت مالي بشراء مقتنياتٍ لا بدّ ستروق للنساء والفتيات اللواتي ما برحتُ أحسنُ التعامل معهن أكثر من الرجال أبناء جنسي، خبأتُ في جعابي أنواعاً فاخرة من الأمشاط المبتكرة المنحوتة من أصداف السلاحف (أحدث صيحات الموضة على حد تعبير تاجر السلع الفاخرة) إلى جانب التمائم والمجوهراتِ المتمايزة بين عقيق ولآلئ إضافة إلى حقائب اليد المطرزة[1]، كما جلبتُ أوراق أحمر الشفاه[2]؛ العطور والزيوت وقطع الصابون المُنعِّمة والمراهم العطرية، في الجيوبِ وضعتُ الكشتبانات المفضضة اللامعة، النظارات الذهبية والفضية الأنيقة مع محافظها الجلدية غير المدبوغة،، ولم أغفل في الوقت ذاته عن حيازة خيوط الحياكة الحريرية والقطنية، الأزرار والإبر ذات الرؤوسِ الفضية والذهبية،، حقائب أقلام الرصاص، سكاكين الجيب والمقصات (من صناعة روجرز على نحو خاص، استجابة لتوصية التاجر)، أوراق اللعب والرقائق، المراوح وأوتار الكمان، ثم أضفت إلى مجموعاتي العديد من اللوحاتِ الآجرية وألعاب الألغاز المسلية للأطفال، أما في أرضية الصندوقين كليهما فكنتُ أحتفظ بكتبٍ ومخطوطاتٍ قيّمة، لم أبتعها من تاجر نورفولك بكل تأكيد، بل قمت بالمتاجرة بها ومقايضتها أثناء رحلتي، ساعياً بشغفٍ لاقتنائها من

1- مع بدايات القرن التاسع عشر، بدأت الجيوب تأخذ منحىً مختلفًا، إذ لم تعد توضع في طبقات الثياب الداخلية كما كان متعارفاً عليه، ولم تعد الفتيات يرغبن بوجود عدد هائل منها بين طيّات ملابسهن، استعيض عنها بحقائب اليد الصغيرة المطرّزة.

2- كان أحمر الشفاه والخدين يحفظ في أوانٍ صغيرة، أو قوارير زجاجية، أو على ورق أو رقائق مرتبة على شكل كتيبات صغيرة أو مشربة بالقماش أو مشبعة بقطع قطنية.

أي مكان وطأته قدماي، لطالما ساقني التوق لالتهام محتوياتها، ومن ثمّ حفظها في أرفف ذاكرتي قبل الإقدام على استبدالها بأهمّ منها بعد تسليمها لأيادٍ جديدة.

كما قلت آنفاً، قبل أشهرٍ طويلة كنت شديد الزهو ببضائعي التي اخترتها بنفسي، لكن الوقت لم يمض طويلاً حتى عرفت أن أحجاري الثمينة ليست سوى حُلىً رخيصة تافهة، أمرٌ أدركته رويداً رويداً مع فيض ترحالي بين القصور عبر الزمن، إذ على الرغم من إبداء زوجات مالكي المزارع اهتمامهن بالمجوهرات والمصوغات الفضية والذهبية، وما نطقنه من عباراتٍ دمثةٍ لطيفةٍ لما قلبنَه بين أياديهن، فإنهن في النهاية لا يبتعن إلاّ القليل من احتياجاتهن الضرورية كالخيوط الحريرية أو ألعاب الأطفال، لم تكن كلماتهن ما صرحت ببخسِ المعروضات، بل عيناي اللتان أبصرتا أوجه الغضاضة والوضاعة التي وسمت بضاعتي، فالعديد من المنازل التي زرتها أهلت محافل بديعة للأناقة الفاخرة، حيث تتألق علبة الملح الصغيرة كقطعة من الفضة الخالصة فنية نفيسة عائدةٍ لعصر الكواتروسنتو[1] أبدعها صائغ ماهرٌ من حرفيي فلورنسا أو بروجز، أما المجوهرات! يا للعجب! ماذا أقول عن اللآلئ الحرة التي طافت براقة حول الأعناق الطويلة الرهيفة! أو عن الأحجار الكريمة النيّرة الموروثة جيلاً بعد جيل المعقودة بمعاصمهن وجيودهن! زمنٌ ضحلٌ سبق دحر افتخاري بما حملتُه في صناديقي، فيما عدا الكتب! الكتب التي باتت مسألة متمايزة على الدوام، فليس هناك ما يستدعي التململ بحياءٍ أثناء عرضها.

تفاصيل ذلك النهار المميز حفرت أحداثها عميقاً في ذاكرتي، خاصة أن مقتنياتي الفكرية القيّمة أفضت إلى حدثين متناقضين على حد سواء، أولهما حظوتي بتكريمٍ ومكانةٍ في ذلك المنزل الجميل، وثانيهما التسبب لي برحيلٍ

1- لطالما كانت مراحل تاريخ الفن في إيطاليا -مسقط رأس عصر النهضة- بمنزلة النقطة المرجعية الرئيسة، التي تتميز على وجه التحديد بـ: الفترة التمهيدية، عصر النهضة بروتو، «عصر دانتي وجيوتو»، حوالي 1260-1320، تتزامن جزئيًا مع فترة دوتشينتو (القرن الثالث عشر)، وكذلك تريسينتو (القرن الرابع عشر)، كواتروسنتو (القرن الخامس عشر) وسينكويسينتو (القرن السادس عشر).

صادمٍ مفاجئ، أفرجتُ عن ثروتي أمام ناظريها، مستهلاً التحدث عن كتاب رحلة الحاج[1] الذي يعد من أهم المخطوطات القديمة النادرة، ثمّ شرحتُ عن المطبوعاتِ الأكثر حداثة كقصائد ومقدمات وردزورث[2]، أتبعها بعرضِ إصدارات مارش لكل من الكتب الفريدة: (السبل نحو التأمل[3] لكولريدج[4] -حياة ورسائل كوبر[5] - الفراسة للافتير[6]- راسيلاس لجونسون[7]- قس ويكفيلد لغولدسميث[8]- وانتهيتُ بالمقال الخاص بالفهم البشري[9] لجون

1- تُعد رواية رحلة الحاج (A Pilgrim's Progress) للكاتب جون بنيان عام 1678 قصة رمزية مسيحية، واحدة من أهم الأعمال الدينية والخيال اللاهوتي في الأدب الإنجليزي، تُرجمت إلى أكثر من 200 لغة، ولم تتم طباعتها قط، كذلك أُشير إليها على أنها أول رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية.

2- وليام وردزورث William Wordsworth (1770-1797) شاعر إنجليزي رومانسي، ساعد مع صمويل تيلر كولريدج على إطلاق العصر الرومانسي في الأدب الإنكليزي بمنشوراتهما المشتركة في عام 1798 ؛ الأناشيد الغنائية (Lyrical Ballads).

3- السبل نحو التأمل (Aids to Reflection) أطروحة دينية وفلسفية كتبها س ت كولريدج، نُشرت عام 1825.

4- يُعد كولريدج من أهم الشخصيات في مجال الشعر الإنجليزي، أثرت قصائده بشكل مباشر وعميق على كل الشعراء الكبار في ذلك العصر، كان تأثيره على وردزورث مهمّا بشكل خاص لأن العديد من النقاد أرجعوا الفضل إلى كولريدج بفكرة «الشعر المحكي».

5- وليام كوبر: شاعر إنكليزي وأحد أعمدة الترنيمة، يعد من أكثر الشعراء شعبية في عصره، قام كوبر بتغيير اتجاه شعر الطبيعة في القرن الثامن عشر عن طريق كتابة الحياة اليومية ومشاهد الريف الإنجليزي، من نواح عديدة، كان أحد رواد الشعر الرومانسي.

6- يوهان كاسبار لافيتر: شاعر وكاتب وفيلسوف وعالم بالفراسة وعلم اللاهوت.

7- تاريخ راسيلاس أمير الحبشة: غالباً ما تختصر باسم راسيلاس، خرافة أخلاقية حول السعادة بقلم صمويل جونسون، أما عنوان العمل الأصلي فكان «خيار الحياة»، كتبه في أسبوع واحد للمساعدة في دفع تكاليف جنازة والدته، نشر الكتاب لأول مرة في أبريل 1759 في إنجلترا.

8- قس ويكفيلد: هي رواية للكاتب الإيرلندي أوليفر غولدسميث. كتبها عامي 1761-1762 ونشرها في عام 1766، إحدى أشهر روايات القرن الثامن عشر وأكثرها قراءة بين أهل العصر الفيكتوري.

9- مقال خاص بالفهم البشري لجون لوك: يتحدث عن فهم الإنسان الذي يتعلق

لوك)، أما بالنسبة للأطفال فأوردتُ كتاب التهجئة الأمريكي لمؤلفه نوح ويبستر، مع كتب ملونة صغيرة من الحكايات الخرافية الأخلاقية كالثعلب والعنب إضافة إلى قصة الحلاّبة التي سكبت الحليب.

بعدما رأت مجموعة المجلدات، استقامت الفتاة المُستَرقة الرشيقة فارعة الطول والمدعوة بغريس، ثم سألتني عن رغبتي بالحصول على إبريقٍ من الماء الدافئ لغسل وجهي قبل اصطحابي إلى غرفة السيد لعرض كتبي الثمينة، صحيح أنني في ذلك الصباح قمتُ بحلقِ ذقني على ضفة النهر قبل البدء برحلة تجوالي، لكنني سررتُ بالعرض السخي مومئاً بالموافقة بامتنان لأحظى سريعاً بحمّامٍ دافئ، عادت غريس بعد حين لتخبرني أن السيد يطلب إحضار الكتب من دون سواها، قادتني بعد ذلك، عبر الدرب الخارج من القاعة الضيقة المتاخم للمطبخ وغرفة التدفئة وحجرة المؤونة، تبعتها بعد ذلك، صوب الفسحة السماوية للمنزل الذي لم يكن ضخماً على نحو استثنائي، وليس بأفخم من المنازل التي مررتُ بها بأيّ حال من الأحوال - فقد زرت بيوتاً لملاك أراضٍ على طول نهر جيمس[1] بدت بمجملها باهرة مهيبة أشبه بالقصور - ما زال المنزل مع ذلك أخاذاً مثالي التناسق متقن التأثيث، ارتفعت جدرانه ثلجية اللون مصافحة الأسقف العالية المترعة بالزخرفات والحلى المعمارية ذات الأطياف الوردية، في حين افترش الأرضياتِ الخشبية الداكنة سجادٌ تركيٌّ ياقوتي فخم، وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع درجٍ متعرجٍ مختالٍ وسط المنزل مكللٍ بأوراق الأكانثوس[2] البنية المنحوتة، صاعدٍ علواً بدءاً من قاعة الدخول البيضوية الأركان، بيدها طويلة الأصابع -اليدُ التي لم تشِ بأي اعتيادٍ على الأعمال المنزلية الصعبة كما لاحظتُ- أشارت غريس بوجوب الجلوس على مقعد رخامي منسجمٍ

بتأسيس المعرفة والفهم الإنساني، ظهر لأول مرة عام 1689، يصف المقال العقل عند الولادة على شكل لوحة فارغة تم ملؤها لاحقًا خلال التجربة.

1- نهر جيمس (James River) أحد أنهار الولايات المتحدة الأمريكية في ولاية فرجينيا، طوله 560 كم.

2- أوراق نبات الأكانثوس التي تمثل عنصر الزخرفة الرئيسي في التاج الكورنثي.

بأناقةٍ مع منحوتات الجدار الجنوبي المقابل لبابٍ مزخرفٍ معرّقٍ محاطٍ بتمثالي أبولو ودافني[1] بينما وقف بروميثيوس[2] جانبه مصفداً بأغلاله.

«هذه المكتبة الخاصة بصاحب المنزل، سيلقاك السيّد في الحال»، قالت غريس ثمّ انصرفت لإتمام واجباتها المنزلية.

لمحتُ مدخل الدارة الضخم وقد امتد يميناً لينتهي ببوابة واسعة محاطة بهالة من الضياء الساطع المنعكس عبر الزجاج المضلع، فزلفتُ نحوها أرنو لبريق شمس الصباح وقد اصطبغت خيوطها الوالجة بألوان الطيف الزاهية البهية، النور الساطع العالق بمقلتيّ حال دون القدرة على معاينته جيداً حين عبر باب المكتبة، ثمّ وقف متسمراً في الظل.

كلُّ ما توسمته لحظتها مظهر رجل صاحب جسدٍ معتدل الطول ممشوق منتصب القامة واثق الخطوة، ذي صوت رخيم.

«يوم طيب لك يا سيد، هلا تفضلت بالدخول؟».

دنوتُ، توقفتُ ثم برمتُ كما لو أنني أطوف حول محور، كانت قاعة مزدوجة الارتفاع، يُنصّفها رواقٌ ضيقٌ محاط بأرفف الكتب التي اصطفت

1- دافني (تعني «شجرة الغار» باليونانية) إحدى حوريات المياه العذبة، بحسب الميثولوجيا الإغريقية القديمة، عشق أبولو دافني لكنها عزفت عنه، أما السبب فيعود للسهام التي أطلقها إيروس تجاه أبولو ودافني انتقامًا من أبولو الذي سخر من قدراته على الرماية، الأولى ذهبية، لتجعل أبولو يعشق دافني بجنون، والثانية رصاصية، لتكرهه دافني، في النهاية، توسلت دافني للآلهة للخلاص، فحولتها غايا إلى شجرة غار فقدسها أبولو للأبد.

2- بروميثيوس: عملاق حارب في صف الآلهة ضد العمالقة في الحرب العظمى، ذو حنكة ودهاء، تقول الميثولوجيا القديمة إن زيوس عهد إلى بروميثيوس بتشكيل البشر، رأى زيوس أن المعرفة والمهارات والمواهب لن تجلب الا الشقاء للبشر الفانين، ولكن بروميثيوس كان له رأي آخر، فأعطى البشر العديد من العطايا والهبات التي سرقها من آلهة الأوليمب هيفاستوس وأثينا، كما وهبهم قبساً من النار بما أغضب ملكه زيوس فعاقبه وصفده، ليأتيه نسر عملاق يدعى أثون بدأ بنهش كبده للأبد، ثم قرر زيوس أخيراً منحه حريته لكن بشرط صنع خاتم حديدي من السلاسل التي قيد بها، من ذلك اليوم والبشر يصنعون الخواتم احتفالاً ببروميثيوس وتقديراً لصنيعه.

برخاء في كل شبر بأركانها، مكتب كبير من خشب الورد[1] بسيط الصنع مريح أنيق قابعٌ في مركز المكان.

«أغسطس كليمنت» قال السيّد معرّفاً عن نفسه ماداً يده، نقلتُ الكتب الثقيلة إلى ثنية ذراعي اليسرى مسارعاً لمصافحة يده، مغيَّباً بالذهول الذي أغشاني من عظمة مجموعة كتبه الرائعة.

«لطالما تخيلتُ الجنة مكاناً مشابهاً للمكتبة، الآن عرفت كيف تبدو الفردوس حقاً!» بالكاد أدركت رنينَ عبارتي التي صدح صداها عالياً بالمكان، فضحك السيد كليمنت رابتاً على كتفي.

«ما انفكّ البائعون أمثالك قليلين هنا، وقد اعتدنا قبل زواج ابنتي،،، دعني أفكر بانتقاء أيّ كلمة صحيحة تسم ما كانت تقوم به؟ لنقل: شيّة؟ طابَع؟ بكل الأحوال، ما برحت الفتاة تبتاع مجموعة من البضائع العديمة النفع من الجوالين على مر السنين، أعتقد في الواقع؛ أنها أحبت التحدث إلى الشبان أكثر من شراء معروضاتهم، لكنني لم أصادف أيًا منهم مهتماً بالكتب من قبل، ضعها هناك من فضلك».

وضعتُ الكتب على مكتب خشب الورد فسارع بمطالعتها بخفة، الآن بعدما رأيت حجم مكتبته، بتُّ مرتاباً من عثوره على ما يثير اهتمامه بينها، لكن بدا أنّ كتاب الفراسة للافيتر لفت نظره.

«النسخة هذه أحدث من التي أمتلكها؛ يراودني الفضول للإطلاع على آخر تنقيحات الكاتب، أعلِم غريس بمقدار ثمنه وسنتولى أمر السداد».

«سيدي، أنا لا أبيع الكتب نقدًا».

«ما الذي تقصده؟»

«أنا أبادلها -أقايض بها- كتابٌ مقابل كتاب، لعلك تعلم أنني بهذه الطريقة أقدم لنفسي كتاباً جديداً لقراءته طوال رحلة تجوالي».

1- يعتبر خشب الورد من الأخشاب الجميلة الشكل وراقية الاستخدام، من الأخشاب الغالية الثمن وأليافه مموجة تزداد جمالاً بعد طلائها، يستعمل هذا الخشب في الأعمال الفنية المنحوتة وفي صناعة الأثاث الفاخر.

«هل تفعل حقاً!» سألني، «إنها وسيلة لا تعود عليك بأي نفعٍ مادي! ماذا عن المكاسب لحماية رأس مالك؟».

«بالطبع المال مهم يا سيدي؛ خاصة لشاب في مثل ظروفي، لكنني على ثقة أنك لن تحسبني مستهتراً إن أسرّيتُ لك بأنني مهتم بإتراف العقل وإثرائه أكثر من ملء جعبة نقودي».

«قولك عين الصواب أيها السيد الشاب - مارش على ما أذكر! حسنًا، أنا ملتزمٌ هذا اليوم بالذهاب لتأديةِ عملٍ في مكان آخر، اسمح لي بدعوتك لإطلاق نفسك داخل المكتبة، عسانا نحظى بشرف تناول العشاء معك آخر النهار، فتقوم حول المائدة، بإعلامي بالمجلد الذي ترغب مقايضته بكتاب لافيتر عن الفراسة».

«سيدي لا أريد مضايقتكم بتواجدي المتطفل-».

«لعلك لا تدري يا سيد مارش، أيّ لطفٍ وفضلٍ سيسديهما حضورك معنا، خاصة في ظلّ خواء المنزل بعد رحيل ولدي بصحبة مدير أعمالي لتسيير أمر شؤوننا خارج المقاطعة، لا أخال العزلة صديقة للمعرفة على الإطلاق، خاصة هنا في الجنوب حيث نعاني من سوء تغذية العقل وغيابِ فنون المحادثة إلى جانب المساعي والمبادرات الأدبية، إن اجتمعنا فأحاديثنا في معظم الأحيان، تدور حول النساء والحفلات المبهجة، وقد يثار الكثير عن يوميات حياتنا الزراعية، في الحقيقة أحسد الأمسيات التي تعقدونها في مدنكم الشمالية الصاخبة كخلايا نحلٍ تجمع رجالاً مثقفين عباقرة ينضحون بالعسل الفكري الثمين، أود الخوض معك في عالم الكتب؛ أرجو أن تجد لنا وقتاً للنقاش، فلا تحرمنا مثل هذه الأمسية النادرة».

«سيكون من دواعي سروري البالغ يا سيد كليمنت».

«جيد جدًا، أتطلع بتوقٍ لذلك»، همّ الرجل بالمغادرة ثم سرعان ما توقفَ عند الباب معقباً بالقول: «ذكرتْ غريس أن لديك بعض البضائع الخاصة بالأطفال، أياً كان ما لديك من صور الألغاز أو ألعاب الأميين، فسأشتريها كلها لنقدمها هدايا لأطفال العبيد، كما أخبرتُك آنفاً دع غريس تدفع الثمن الذي تراه مناسباً».

أدرك أن الشهوة تتربع على رأس الخطايا المُهلكة، مع ذلك، فإن الشهوة -*بحنجرتها المنقبضة، احمرار خديها ورغبتها المستعرة*- لعل مفردة الشبق! الأكثر دقة لوصف الإحساس الذي انتابني ذلك الصباح بعد إغلاق الباب خلفي، لأمكث بمفردي داخل المكتبة بطوافٍ حرّ بين مجموعات الكتب المذهلة، بحلولِ فترة ما بعد الظهر، يمكنني القول إنني بدأتُ أكنّ احتراماً هائلاً للسيد كليمنت، إجلالاً وتقديراً عظيماً، فالمعرفة بمكتبةِ أحد الرجال ليست سوى تماهٍ مع دهاليز عقله وخبايا فكره،، مع لبّه النبيل الذي أشرق جلياً رحيبَ الاهتمامات، بصير الذائقة.

في وقتٍ لاحقٍ طرقت غريس الباب وبيدها صينية تعلوها وجبة طعامٍ خفيفة، حتى لو أنّ ما حملته الفتاة ليس بلحمٍ دسمٍ، لما رغبت بالتوقف لتناوله أو هدر لحظة واحدة من الزمن المتاح لقراءة ما استطعتُ من الكتب، عادت ثانية قبل حوالي ساعة من موعد العشاء، فرقرت بلسانها احتجاجاً على اعتكافي عن تناول الطعام، ثم عرضت اصطحابي لمسكنٍ أنال فيه قسطاً من الراحة - إلى كوخٍ ملحقٍ بالعزبة خاصٍّ بالمدير الغائب، هناك حيث حاولت الاهتمام بترتيب مظهري قدر الإمكان مستعيناً بما وفرته جعبتي من ملابس، ليست المرة الأولى منذ ترحالي، لأصاب بإحراجٍ شديد من جراء اضطراري للجلوس حول طاولة متحضرة، مرتدياً بذلة متواضعة مصنوعة من الكتان المحصود من حقولنا، بعدما عكفت والدتي على غزله ونسجه لحياكة ثيابنا، في تلك اللحظة؛ اتخذتُ قراراً بادخار جزء من أرباحي ريثما أرجع للشمال؛ لابتياع بذلةٍ فاخرة لائقةٍ يخيّطها خياط محترف في نيويورك.

كان السيد كليمنت جالساً في غرفة المعيشة يترقب حضوري، وجدته وحده رغم توقي لمقابلة سيدة المنزل، بما ألقى بملامحَ جليّة من الاستغراب فوق محياي.

«إن السيدة كليمنت ترحب بك وتتقدم باعتذارها عن عدم قدرتها على المجيء لمقابلتك، إنها يا سيد مارش، ليست على ما يرام كي تشاركنا طعام العشاء هنا، تود مع ذلك التعرف عليك إذا ما تفضلت بزيارتها غداً، لقد أعربت عن رغبتها بسماع رأيك الخاص بمدينة فرجينيا، وما شكّله تجوالك من انطباعات عنها».

لم أكن معتادًا على احتساء الكحول، لكن بدافع الدماثة قبلِتُ كأساً من الشمبانيا ناولني إياه السيد كليمنت، كان مزاجي رائقاً لأقصى حد بفعل المباهج التي وهبني إياها ذاك النهار، حتى إنني مع مرور الساعات داخل غرفة الطعام الأنيقة، أخذت الفقاعات الصغيرة اللاذعة تسمو بروحي عالياً أكثر فأكثر، انزلق زنجيّ إلى الداخل حاملاً طبقاً من الفضة تعلوه قطعة لحم بقريّ محمرة مدثرة بالدسم اللامع، قطرات من الدهن لوثت البطاطا مفسدة رغبتي بتناولها، قام الرجل بتقديم وجبةٍ من الخضار بعد ذلك، فقبلت الطبق السخي بامتنان، حين رفعت الشوكة إلى فمي، تأجج أنفي برائحة شحم الخنزير، ما اضطرني لإعادتها بما حملته إلى الصحن.

إلا أنني ما أحسستُ بالجوع لشدة انغماسي بتبادل الأحاديث الثرية، ليس بمقدوري الآن إحصاء كل الموضوعات التي أتينا على ذكرها، لكن لن يفوتني استحضار المغامرات التي خضتها مع نديمي برحلةٍ عبر الزمن، منذ عالمنا القديم وصولاً إلى وقتنا المعاصر، من كاتو[1] الروماني حتى ثوار عصرنا الحالي، من كانتْ[2] وفلسفته السامية[3] إلى كولريدج المتأثر بكانت، والمدين بفضلٍ غير معترف به لشيلينغ[4]، قاد كليمنت الحديث واتبعتُ

1- ماركوس بورسيوس كاتو أوتيسنسيس (95-46 ق م) أو كما يُعرَف عادةً كاتو الأصغر (تفريقاً له عن جده كاتو الأكبر) كان سياسياً بارزاً عاش في الفترة المتأخرة من عهد الجمهورية الرومانية، ورائداً للفلسفة الرواقية. اشتهر كاتو الأصغر بخطابته، كما يُعرَف على نطاقٍ واسع بعدائه الشديد الطويل مع يوليوس قيصر الذي قادَه إلى حتفه من جراء تمسكه بمبادئه ورفضه التام للرشاوى ومحاربته للفساد الذي كان سائداً في عصره.

2- إيمانويل كانت أو إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر، عاش حياته في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا، كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة، وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية.

3- الفلسفة السامية: التعالي والسمو على التجربة الحسّية والتفوق المتعالي عليها يقول كانط: (أسمّي المعرفة سامية متعالية، متى ما كانت لا تُعنى كثيرًا بالاشياء قدر عنايتها بأفكارنا الفطرية البديهية عن الأشياء).

4- فريدريك فيلهيلم يوزف شيلينغ: (1775-1854) فيلسوف ألماني أهمِل فكره بشكل عام، خاصة في دول العالم الناطقة باللغة الإنجليزية، السبب كامنٌ في تفوق هيجل

تحليقه، في حين أضفى النبيذ على معدة فارغة لجناحيّ قدرة هائلة على الطيران، بالكاد لاحظتُ انتقالنا من قاعة الطعام إلى غرفة المعيشة، غير واعٍ بالتوقيت المتأخر حتى أغشى وميض الخاتم الضخم بصري مع رفع كليمنت يده إلى جبينه الذي لمحته مثقلاً بالتعب على نحو مفاجئ.

«ألتمسُ عفوك سيد مارش، لكنني لست معتادًا على تسيير شؤون المقاطعة بمثل ما توجب عليّ فعله اليوم، عادةً ما يتولى ولدي ومدير الأعمال تقاسم إدارة المزرعة ومن يعمل بها، ليلقيا بالقضايا الأكثر أهمية على عاتقي، أما هذه الأيام، ونظرًا لغيابهما فالمسؤولية واقعة برمتها عليّ لأجد نفسي مرهقًا بالكامل بنهاية كل نهار، دعني أخبرك بأنني لا أعلم بالضبط منذ متى استمتعت بمجالسة شابٍ ذي عقلٍ واعٍ مرنٍ وجدير بالتقدير مثلك يا سيد مارش، من الواضح أنك حرصت على تثقيف نفسك على نطاقٍ واسع، بما يفوق مقدرة شاب بمثل ظروفك -سامحني- قادرٍ على انتشال المعرفة الوقادة من براثن الضنك والكدح، إن سمح لك وقتك، فأنت مرحبٌ بإقامتك هنا، طالما رغبتَ بالمكوث في ضيافتنا».

في تلك الأثناء، لاحت في خاطري نصيحة شائعة بين الباعة الجوالين متداولة في ولاية كونيتيكت تحذر من قبول عرض الضيافة من قبل مُلّاك المزارع، فقد وقع الكثير من الشبان بفخاخ عروضٍ كهذه تقصيهم عن دروب تجارتهم وأرباحها، لتُختتم رحلاتهم بأجسادٍ خاملةٍ متبلدة القوى، مع ذلك ما برحتُ في تلك الأيام، متعطشًا للمعرفة تواقاً للاكتشاف، طمّاعاً بفرصة إنفاق المزيد من الوقت لاغتنام أسرار ومعارف المكتبة العظيمة تلك، لا بد أن الرغبة بسبر أغوار عقل السيد كليمنت كانت أعتى بكثير من مقاومتي.

في اليوم التالي وقفتُ بين يديّ السيدة كليمنت في غرفة المعيشة الساطعة بأنوار الشمس، حيث كانت جالسة مسندة ظهرها إلى أريكة طويلة، التفتت السيدة ذات العينين الواسعتين الفاتنتين، فهفهف ثوبها الأبيض الفضفاض

الذي صورت أعماله الناضجة شيلنينغ كمجرد هامش في تطور المثالية. إضافة إلى هجوم العلماء لفلسفة الطبيعة الخاصة بشيلينغ لميلها إلى التشابه وقلة التوجه التجريبي، مع ذلك، أبدى بعض الفلاسفة فيما بعد اهتماماً بإعادة تفحص أعماله.

المُحاك من الدانتيل البروديري الإنجليزي[1]، في حين جلست غريس جوارها على كرسي مرتفع، تقرأ الشعر بأسلوبٍ مرهفٍ لا مثيل له، «شكرًا لك يا عزيزتي غريس، كان إلقاؤك جميلاً كما العادة! لم لا تأخذين قسطاً من الراحة الآن، كي يتسنى لي الإصغاء لما في جعبة هذا الشاب الوسيم!» مع سماعي لعبارة السيدة كليمنت، أدركتُ أن نبرة غريس الرقيقة الخفيضة طبيعياً، ليست سوى تقليدٍ مدرّب لنبرةِ صوتِ سيدتها، رغم أنني شعرتُ شخصياً أن صوت الفتاة فاض بعذوبةٍ أكثر ورنينٍ أغنى.

حين مدت السيدة كليمنت يدها لمصافحتي، صعقتني حرارة بشرتها العالية وملمسها الجفيف كالورق - فحاولتُ بذل قصارى جهدي لإخفاء ما انتابني من إحساس بالقشعريرة، «أخبرني زوجي أنك شابٌّ واسع الاطلاع ذو أسلوب جيّد في التحدث، لكنه لم يذكر لي شيئاً عن جاذبيتك ووسامتك المفرطة، لا بد أنك «الفتى الأشقر»[2] عينه الذي تغنت به قصائد الشعراء، لا ريب أنّ فتيات فرجينيا لا يتوانين عن الإلقاء بأنفسهن عند قدميك!» قالت ما قالته محررة ضحكة أنثوية شبه مكبوتة، سعلتُ بفعلِ إصابتي بالحرج، لألمح غريس إبان ذلك ترمقني بنظرةٍ باردة أثناء وضعها فاصلة الكتاب[3] في حضن المجلد القليل الأوراق، لتسارع بعدها بالمغادرة خارج الغرفة، بدا أنّ السيدة كليمنت لاحظت تعلق عينيّ بغريس مذيلة خطواتها الهادئة الرشيقة، فتنهدت قائلة: «أشعر في بعض الأحيان أنني متعلقة بحب تلك

1- شكل من أشكال التطريز نشأ في أوروبا في القرن السادس عشر ولم يقتصر على إنجلترا كما يوحي اسمه.

2- (The Golden Lad) الفتى الأشقر عنوان رواية تسرد حكاية مؤلمة لثيودور روزفلت مع ابنه كوينتن المريض، يذكر أن روزفلت سياسي ومؤلف ومستكشف وعالم طبيعة ومصلح أمريكي. شغل منصب الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية.

3- فاصلة الكتاب أو ما يسمى علّام الكتاب: ظهرت منذ القرون الوسطى، وكانت عبارة عن شريط رقيق صغير يرفق إلى حافة الورقة التي توقفت القراءة عندها، مع ظهور الكتب المطبوعة كان علّام الكتاب باهظ الثمن ونادراً، استخدم بدلًا من طي الصفحة للحفاظ على الكتاب، لعل أول من استخدم علّامات الكتب في القرن السادس عشر كانت إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا.

الفتاة أكثر من تعلقي بابنتي، هل من شرٍّ تتلمسه في إحساسي الغريب يا سيد مارش؟» لعلها سألت دون توقع لأي إجابة، لم أنطق بدوري تعقيباً على سؤالها، «ما انفكّ الولد في هذي البلاد كثير الترحال حول العالم، أما الابنة فمصيرها الزواج ومغادرة منزل ذويها، تزوجتْ ابنتي العام الفائت بسنّ لمّا يناهز الخمسة عشر ربيعاً، هل يمكنك تخيل الأمر؟ فتاة مراهقة غضّة تمسي بين ليلة وضحاها سيدة لمقاطعةٍ عظيمةٍ بكل ما يترتب عليها من التزاماتٍ وواجبات، لو تعلم كم حذرتها! أوه نعم؛ حاولت جهدي لاقناعها بالعدول عن قرارها، لكن دون جدوى، كل نصائح والديها بالتريث لبعض الوقت باءت بالفشل، ما كان من الفتاة إلا ركل الأرض بقدمها الرقيقة، مبدية تحدياً وإصراراً على قبول عرض الزواج من العريس الشاب، الشباب عنيدون جداً يا سيد مارش، لابد أنك على بينة بالسمة هذه خاصة أنك فتيٌّ جدًا، لم لا! فأنت بالنهاية لست أكثر من صبي،،،؟».

«سأبلغ التاسعة عشرة من عمري في نوفمبر القادم، يا سيدتي».

«أرأيت؟ لا تزال ولداً،، لكنك صبيٌّ عاقلٌ ناضج». جالت بعينيها السوداوين الواسعتين تسبر قامتي محاولة تخمين طولها ثم سألت: «كم طولك؟ ستة أقدام؟»

«أكثر قليلاً، سيدتي».

«جذّابٌ، قسيم الوجه، وذو أكتاف عريضة أيضًا، أحبُّ الرجل الطويل القامة العريض المنكبين، يبلغ طول زوجي ستة أقدام، لكنه يقضي جُلّ نهاره قابعاً داخل مكتبته،، كم أخشى فقدانه لمرونته البدنية إن لم يمنح نفسه وقتاً إضافياً لركوب،،!» أفرجت عن ضحكة رنانة مهذبة، ثم قطبت جبينها حينما نضحت أفكارها بما فعلته ابنتها الغائبة، «لطالما حذرتها: انتبهي يا مريان، لا شكّ سيهرعون لمناداتك بـ «سيدتي»، لكن عليكِ أن تعي أمراً جوهرياً يسم المعيشة في معظم المزارع الشاسعة؛ فالسيدة هناك ليست سوى الأمَة الأكثر اكتمالاً في المكان»، أطلقت ضحكة خفيفة مرة ثانية ثم تابعت بالقول: «أتعلم يا سيد مارش، إن غريس تتمتع بحريةٍ أعظم بكثير مما تحوزه ابنتي في مملكتها، لعلها اعتقدت أنها ستطلق جناحيها إن رحلتْ، لا؛ فأنا

أعلم أنها لن تحظى بأيّ استقلالٍ على الإطلاق»، ثم أضافت بحنانِ الأمّ الرؤوم: «غريس ملكي وستقيم معي إلى الأبد، فقد ولدت وترعرعت في هذا المنزل منذ طفولتها، مذ قدمها السيد كليمنت هدية زفافنا، مفترضاً أن العناية بالرضيعة المليحة فرصة ملائمة لتدربي على مهاراتِ الأمومة ريثما يُولد أطفالنا، من يتوقع يا سيد مارش! أن أول مقالٍ يخطه المرء سيمسي الأكثر بلاغة؟ علمتها القراءة والكتابة دون بذل الكثير من الجهد، فقد التقط دماغها المتوقد الأحرف الهجائية بسلاسةٍ، بإتقانٍ وحرفية فاقا قدرتي وتمكن مريان حين تلقفناها صغاراً، لا أدري ما وَقعُ المرض على روحي، لولا غريس وقراءتها للكتب؟ الكتبُ التي لم تحظ باهتمام ابنتي على الإطلاق، والشعر الذي لم تقرضه يوماً أو تستسيغ سماع أبياته، كم حاولتُ الإلمام بالسبب؟ هل يمكنك تخمين دواعي إعراضها يا سيد مارش؟ بالطبع لا، فأنت لم تقابلها بعد، أليس كذلك؟ ذهني مضطرب بأفكاره، سامحني، لعله المرض! أو الحنين لابني المشغول بأعماله، العاكف عن زيارتي، إنه غائب منذ أيام،،،».

«أعتقد أنه يتولى إدارة الأعمال الزراعية الخاصة بالمقاطعة يا سيدتي».

«إذاً فقد أخبرك السيد كليمنت بالأمر، الذاكرة تخونني، كما ترى؟ إن نزلت للطابق السفلي هلاّ أرسلت بطلبِ ولدي؟ من واجب الابن تفقد أمه وزيارتها! ألا توافقني الرأي بأنه ما من فضلٍ جمّ إن فعل؟ لا بد أنّ فتاتي ستفعل، لكن لا، أعتقد أنها تزوجت، لستُ متأكدة بأي مكان استقرتْ رحالها؟ لا يمكنني تذكر اسم المقاطعة،،!

كان حفل زفافها رائعاً، أتذكر أن الجميع أشاد بأنه أحد أفخم أعراس هذا الموسم، لكن لا يمكن لدماغي استدعاء اسم زوجها،، من عساه يكون! لا بد أن غريس تعرف»، أدارت رأسها منادية: «غريس، من كان ذلك السيد؟» جالت بعينيها في المكان باحثة عن الأمَة الآفلة، ثم! توهجت ملامحها بالاهتياج والذعر: «أين غريس؟» صدح صوتها مخدوشاً كما لو أن سكيناً تجزّ قصديراً في حلقها.

«لقد صرفتِها إلى الخارج، يا سيدتي».

«استدعها إلى هنا! أحضرها على الفور! لا يجوز لسيدة المكوث بمفردها مع زائرٍ غريب! ماذا سيقول السيد كليمنت؟ غريس!» تسبب المجهود الذي بذلته أثناء الصراخ بتعرضها لنوبةِ سعالٍ وتشنجات مروعة انتهت بلفظ الدماء فوق منديل الدانتيل الرقيق، هرعت غريس، الحائمة حول المكان، بالدخول وبيدها إبريق من ماء الليمون الممزوج بالنعناع، سكبت في كأسٍ وقدمته لسيدتها التي أمسكته بيدٍ مرتعشة، متجرعة الشراب حتى الارتواء.

بلطفٍ رفعت غريس خصلة من شعرها الباهت المتحرر أسفل وشاح الدانتيل، دسته داخلها، ثم مسدت حاجبها الرقيق.

«أعتقد أن السيدة كليمنت متعبة الآن، لا شكّ عندي أنها تود قدومك لزيارتها مرة أخرى».

أومأت برأسي مودّعاً وانسحبتُ بارتياح، في وقتٍ لاحقٍ عصراً ومع اعتدال درجاتِ الحرارة غادرتُ المنزل قاصداً الحقول التي انسابت خيوط الضوء فوق السواعد الكادحة بأراضيها الغنية بالألوان الزاهية، فيما ترنم النسيم العليل بالأغنيات المرافقة لشتل سيقان التبغ الخضراء الفتية، المشهد المذهل أثار حفيظتي حول حقولنا الشحيحة في سبيندل هيل، لم أكن معتادًا على إطلاق الأغنيات أثناء عملي، بل على العكس ما برحتُ أشتُم تحجر التربة العالقة بشفرة المحراث لاعناً تمرد الثيران المتعنتة دونما حراك، صادفتُ غريس في درب عودتي، تقطف براعم الورود المبكرة من حديقة الدارة المشذبة.

سألتها حمل السلة عنها حينما حاولتِ الوصول إلى أزهار القوس المضفور الذي تربعت عليه أغصان شجرة الجراد[1] العالية، مدّت يدها، فمادَ قدها المياس الأهيف بمرونة وفتنة.

«هل أعلمك السيد كليمنت بمخاوفه المتعلقة بتطورات الحالة الصحية

1- شجرة الجراد، اسمها العلمي روبيتا بسيدواكاسيا أو الأكاسيا الكذّابة، موطنها الولايات المتحدة والمكسيك، سمّيت بشجرة الجراد لأنها تصاب بالحفار الذي يفتك بها، الشجرة تخرج عناقيد زهرية ذات أزهار صفر عطرة أشبه بأزهار البسلة الحلوة.

للسيدة كليمنت، هل أخبرك؟ لا أخاله فعل،، فما زال يجد صعوبة في تقبل الحال الذي أضواها، لطالما ساءت صحتها في سنواتٍ خلتْ، لكنها قبل عامين تعرضت لحادثٍ أليم لما تنجُ من تبعاته، أثناء عبور جوادها لآخر أشجار الغابة أغشى الضوء المفاجئ عينيه، جفل، وثبَ ثمّ طرحها عن صهوته، منذ ذلك الحين؛ فقدت السيدة كليمنت قدرة جسدها على التوازن، لتمضي الوقت كله ماكثة فوق أريكتها، أما السعال والحمى فازدادا سوءًا من قلة حركتها أو استنشاقها للهواء الخارجي، باتت السيدة تهاب العالم يا سيد مارش، كلما وقفت أصابها دوار يشعرها أنها تسقط عن ظهر الحصان مرة أخرى، إنها تنام كثيراً في هذه الأيام، وهذه نعمة من الرب».

«لا بد أنها نعمة؛ أعني، أن ذلك يمنحك بعض الراحة».

«نعمة لها يا سيد مارش، إنها من تحتاج الراحة ولست أنا - راحة من مخاوفها ومن ارتباكها».

شعرتُ بقسوة تعنيفها فأفشيتُ من غير تفكير معقباً بالقول: «إنها تحبك كما لو أنها والدتك».

استدارت، رتبت الورود بعناية داخل السلة، ثم حملقت بنظرةٍ ثابتة في وجهي، لم أستطع قراءة ما عنته ملامحها آنذاك، لكنها عندما تحدثت، أتى صوتها منخفضًا متقطع العبارات.

«هل هذا صحيح؟ لا أدري حقاً، لقد قام السيد كليمنت ببيع والدتي جنوباً قبل إتمامي السنة الأولى من العمر!»، التقطتِ السلة من يدي، ثم مضت منتصبة القامة، متمايلة على طول الدرب الصاعد إلى المنزل.

أُترِع ذاك المساء بشرحٍ غني عن كتاب لافيتر أفاضه السيد كليمنت، انتقلنا بعد ذلك للتمعن بكتاب صموئيل مورتون[1] (العِرق وحجم الجمجمة

1- يُشار إلى صامويل جورج مورتون الفيلادلفي؛ بأنه مؤسس «المدرسة الأمريكية» لوصف الأعراق البشرية (الإثنوغرافيا الوصفية) المدرسة التي ادعت أن الفروقات بين البشر ناتجة عن اختلاف الأنواع وليس عن تعددية هذه الأنواع، ينظر البعض إلى هذه المدرسة على أنها منبع العنصرية العلمية.

البشرية[1]) الأقل مواءمة لأفكاره كما أوضح لي -إلا أن المجلد الجديد البهيّ الحلة ذا الصفحاتِ الأنيقة الجذابة فتنني للغاية، فعرضه السيد كليمنت كمقايضةٍ سخيةٍ مع كتابي- بدا من المحتّم بعد ذلك مناقشة «علم الزنوج» كما أسماه السيد كليمنت، من ثم وصلنا عبر مراحل متتالية إلى مناقشة مسألة العبودية، سارعتُ إبّانها للإشادة بالإدارة السلسة للسيد والسيدة كليمنت المتبعة داخل المقاطعة، متغنياً بأواصر المودة والثقة التي لحظتها في العلاقة بين السادة والخدم.

«ثقة!!» ضحك رابتاً على ذقنه بمنديلٍ من البروكار الدمشقي الفاخر، «عن أيّ ثقةٍ تتحدث، فالطريقة الوحيدة للظفر بنزاهة العبيد هي تحاشي الوثوق بهم!» لا بد أنه أبصر جفلتي من عبارته الأخيرة فأردف بالقول: «هل تراها وجهة نظرٍ قاسية يا سيد مارش؟ أعترفُ أنها كذلك لكنه للأسف التقييمُ الأنسب لهم، لماذا؟ دعني أشرح لك! في الجهة الغربية لدارتنا جاورتُ يوماً صديقاً عطوفاً طيب القلب، لم يُعرف عنه معاقبة عبيده أو تعنيفهم قط، حتى قام أحد الفتيان بوقاحةٍ بالتقليل من احترام سيده، فما كان من الرجل إلا رفع سوطه على مضضٍ في وجهه، لكن الصبي سبقه بالتقاط غصنٍ ثخين من خشب البلوط الأبيض، مسارعاً بضرب رأس سيده حتى هرسه بالكامل».

تجهم وجهه ملقياً بشوكة الطعام من يده، مومئاً بنظرةِ أمرٍ للعبد الحائم حولنا لأخذ الأطباق خارج الغرفة، كان الرجل موشكاً على عبور الباب، بالكاد قصيّ المسمع حين واصل السيد كليمنت سرد ما يود قوله، «سمِّ إحدى النقائص التي تعرفها يا سيد مارش: الكسل، الخداع، الفسوق، السرقة،،! ضع ثقتك في عبدٍ ما،، أيّاً كان ذاك العبد،،! وقريبًا، قريبًا جدًا، سترى مدى براعته في تجسيد أحد تلك الشرور أو جميعها معاً».

«لكن، يا سيدي، من المؤكد أن فعل العبودية ذاته لا طبيعة العبيد

1- اعتقد مورتون أن حجم الجمجمة يحدد القدرة الفكرية للإنسان، واستخدم مقاس الجمجمة كدليل بالإضافة لتحليله للكتابات الأنثروبولوجية ليدعم الفكرة القائلة بالتراتبية العرقية حيث وضع القوقازيين في قمة الدرجات والأفارقة في الأسفل. قياساته للجمجمة (بالحجم) استُخدمت «كدليل» للأفكار النمطية العرقية.

المتأصلة، ما يفسر مثل هذه الزلات الأخلاقية، ما انفك القلب عضواً قرمزياً، سواء أكان داخل صدر رجل أبيض اللونِ أو أسود، من المؤكد أن الشر كامنٌ في لبِّ كلّ منهما،،،»

«لكني في هذا الموضع بالذات، لا أتكلم عن الشر!» عقّب السيد كليمنت بحركةٍ تشي بالابتهاج أثناء وضع يده على الطاولة، «لقد لامستَ صُلبَ المسألة! فلا يسع المرء العثور على الشر داخل ولد في الرابعة أو الخامسة من عمره، في قلبٍ بريء لمّا يبلغ سن النضج بعد! في عقلٍ غريرٍ لا يفرق بين الحق والباطل، لا يخطط للمستقبل أو ينظر بالعواقب، الطفلُ يا سيد مارش مخلوقٌ لا يفكر إلّا برغبته الآنية المتعلقة باللحظة نفسها ساعياً لإشباعها، هكذا هو حال الأفارقة، فهم لا يزالون سذّجاً من الناحية العقلية والأخلاقية، لذا يتوجب اتخاذ الحذر والحيطة أثناء التعامل معهم، علينا إرشادهم حتى تمام اختمار عِرْقهم البدائي، إنهم نسلٌ لا بد سينضج يوماً ما، أنا موقن بذلك، أوه حسناً يا سيد مارش،، صحيح أني لستُ أحد أتباع نظرية مورتون عن تقييم حجم الجماجم، كما أعارض بشدة الفكرة المفضية لثباتِ النظام الحالي وعدم قابليته للتغيير، لكن اسمح لي بإسداء نصيحة ثمينة؛ لا تحكم على الكتاب من غلافه أو فتنة صفحاته، على الرغم من أنّ المجلد الذي ضممته إلى مجموعتك أخاذ الهيئة رائع المظهر، لكنك ستدرك قريبًا أن أساليب مورتون معابة ومنقوصة للغاية، أتدري لمَ لم يُصِب أرسطو العظيم لبَّ الحقيقة بدوره؟ لأنه جزمَ بأن أيّ عرقٍ آخر غير عرقِ الهيلينيين عاجزٌ عن الارتقاء وبلوغ ذروة الحضارة»، وضع كأسه فوق قماش البروكار الضارب للحمرة مشيراً إلى أركانِ غرفته المنظمة بدقة، مومئاً للكريستال البرّاق والأواني الخزفية الأنيقة.

«مع ذلك، ها نحن أولاء، أنت وأنا، المنحدرْين من أصولٍ بدائية همجية وأجساد مطلية باللون الأزرق[1]، وأفواهٍ قضمتِ العظام إبان ازدهار مدينة

1- أطلق اليونانيون القدماء على قبائل وشعوب الكلت والجرمان لقب الشعوب المتوحشة والبربرية من جراء تخلفها وغزوها الدائم لمدنهم، ومما أثار حنقهم على هذه القبائل، قيام الكلتيين بطلاء أجسادهم باللون الأزرق قبل الدخول في أي معركة، بينما تلطخ نساؤهم نصف العاريات، الأجزاء العارية من أجسادهن

أرسطو»، رفع منديله ثم ربت بهوادةٍ على شفتيه، فاندلع ضوء الشموع ساطعاً بالختم المنقوش أعلى الحجر الكريم المرصّع لخاتمه.

«العبودية،، لا ريب ستذوي حين يؤون الأوان، في زمنٍ غير زمني، مع تنشئة جيلٍ لاحقٍ لولدي، لكنها ستندثر في النهاية، حين يتطور الأفارقة أخلاقياً جيلاً بعد جيل، إن دوام إقامة العبيد بيننا يحدث فيهم تغييراً عظيماً مبهجاً، لقد أخرجناهم من الظلمات إلى النور يا سيد مارش، أما اكتمال تهذيبهم فيتطلب المزيد من الجهد والمثابرة عبر مزاولة دور الوالد الصارم الحكيم المتروي القادر على انتزاعهم من طفولتهم الساذجة، فإن اقتضت الحاجة في بعض الأحيان، لا ضير من اتخاذ سبلِ المحاسبة، إذ يحق للأب معاقبة طفله الضال، لكن بحكمة ورزانة»، استرخى إلى الخلف داخل كرسيه مرتشفاً ما تبقى من نبيذ كأسه، ثم تصاعدت نبرة صوته تأملية كمن يتحدث إلى نفسه، بدلاً من مخاطبة نديم قبالته.

«إن التحدي الحقيقي للدين المسيحي يكمن في حُسنِ تدبر شؤون الزنجي من غير الإسراف بالانفعال. فلا يخلط السيد بين تعمُّد الأذى وما يتطلبه حسن التربية من تأديب».

«عذراً يا سيدي» قاطعته؛ «لكنك لا تتحدث عن ممارسة عقوبة الجَلْد بكل تأكيد؟».

«لا أتحدث عن الضرب بالسياط كما يشتعل داخل الأخيلة المحمومة لبعض المصلحين الشماليين» أجاب بينما ينحني بجذعه للأمام، «ليس من الضرورة الإكثار من الجَلْد، لكنّ بعض السياط قد تجلب المنفعة لهم ولنا».

وضع منديله على الطاولة بعد طيه بعناية على هيئة مثلثٍ أنيق، ثم قام عن كرسيه، فتبعته صعوداً حتى غرفة المعيشة، توقفنا عن متابعة الحديث مع عودة العبد النشط الذي هرع لتقديم البراندي في إناء من البلور، صبّ السيد كليمنت كأسين بسخاء، ثمّ تابع ما يود قوله: «لا ريب أنك تظن يا سيد مارش

باللون الأزرق، لذلك ربط الرومان اللون الأزرق بالانحطاط والبربرية والعبودية، نظرة ورثوها من أسلافهم اليونان، الذين انعكس كرههم للون الأزرق في لغاتهم وكتاباتهم أيضاً.

أن العبودية تغذي منفعة السيد وتصب في مصلحته الشخصية، على الرغم من تأييدي لضرورة هذا النظام الذي يعتق السادة من الأعمال الروتينية الآسرة لحريتهم العقلية، لكن الأمر ليس بهذه البساطة»، حرك السيد كليمنت كوبه، فدار المشروب الكهرماني داخله، قربه من أنفه وبعمقٍ تنسم العبق المنعش، قمت بتقليد ما فعل، فألهب الرذاذ جيوبي الأنفية، ساكباً الدمع من عيني.

«بما أن العبد يستقي المثل الأخلاقية من سيده، معايشاً الحالة الإنسانية الحضارية المتفوقة، كذلك يترتب على السيد واجبات عدة أهمها تقديم القدوة الحسنة، أعتقد أن امتلاك العبيد يُخضع صلابة الرجل لاختبارٍ حقيقيّ؛ قد تهدمه الضوابط المطلوبة أو تقوم بتهذيبه».

سرى الدفء بأوصالي، فابتسمتُ مومئاً برأسي مؤيداً لما قاله، متفكراً بما يحمله ضميره الحي من خُلقٍ سامٍ، متأملاً بعبيده المحظوظين، بالفرصة العظيمة التي نلتها بالتقرب منه، باهتمامه وإطرائه، بغلبة حكمته، كم أسعدتني مشاركتي الوجيزة لنمط الحياة الراقية تلك!

أيامٌ ممتعة نقّلتني بين نُهُر المطالعة الثرية وليالي السمر الهانئة، على الرغم من المشاركة اليومية لطعام العشاء مع السيد كليمنت والتمتع بحرية التجوال داخل مكتبته الخلّابة، لكنني مع ذلك، آثرتُ الخلود للنوم في كوخٍ صغيرٍ خاص بالموظفين بدلاً من الإقامة بحجرةٍ فاخرةٍ داخل الدارة، مفضلاً تناول إفطاري في المطبخ كما فعلتُ في يوم وصولي الأول، في الواقع كثيراً ما استمتعت بهذه الوجبة الصباحية قدر تنعمي بأمسياتِ الحديث الثرية مع السيد كليمنت، خاصة بعد أنْ قشرتِ الطباخة الجلافة عن وجهها، فأشرقتْ لينة القلب دافئة الروح، ناثرة في الأرجاء دفء أمومتها الرؤوم جنباً إلى جنب مع مرحها الفطري، طفلان في المطبخ حرصتِ الطاهية على إبقائهما قربها قدر المستطاع؛ برودنس، ابنتها ذات السبع سنوات المفعمة بالحيوية والبهجة، المشغولة على الدوام بتلميع الأحذية أو تقشير البازلاء أو إنجاز أعمال منزلية بقصد التسلية، وابنها جاستس الفتى حسن المظهر الذي بدا في العاشرة من عمره، في حين توزعت مهامه بين نقل أعواد الخشب ودلاء

المياه، وفرك أواني الطهي المسخّمة لتنظيفها، إضافة إلى تقديم بعض المساعدة أثناء ترتيب أطباق المائدة داخل المنزل، أخبرتني آني بنبرةٍ مترعة بالافتخار أنه تمّ اختيار ابنها للعمل في الخدمة المنزلية بعكس جاستس الأب، لقي الوالد ذو اليدين الريفيتين الثقيلتين مصرعه إثر حادث أليمٍ أثناء تقطيعه لأخشاب الغابة، «لا أعني أنه لم يكُ رجلاً صالحاً،لا يا سيّدي، فلطالما اتسم لويس بالطيبة واللطف»، علقت آني بينما تخفق الزبدة بملعقة تباطأت حركتها داخل الخليط أثناء استحضارها لذكرياتِ ماضيها، ليبرق وجهها العريض بابتسامة خجلى مع استغراقها بالسرد: «منذ اليوم الأول لولادته، عملتُ مربية لابن السيد كليمنت، بينما كانت والدتي آنذاك من تهتم بشؤون الطهو، في نهار صيفيّ مشرق انبلجت براعم وروده ندية آسرة، بينما عبق نسيمه بأريجِ زهرات العسل الفواحة، رافقتُ السيد الصغير إلى الحديقة ثم،، حضر لويس وأخذ يلاعب الطفل راسماً ملامحَ مضحكةً على وجهه لتسليته، سألته بخفر: «أليس طفلاً جميلاً!» فأجابني: «بكل تأكيد،، لكنه ليس بأجمل منكِ يا آني»، حماقاتٌ كهذه توالت يوماً إثر يوم، لحظات عشقٍ عبرتْ مسرعة، حتى وجدنا نفسينا عاقديْن العزم على الزواج، سُمح لنا بعد ذلك بعقد الزفاف هنا، نعم، إذعاناً لرغبة السيد وزوجته التي حرصت على الاحتفاء بطقوس نقل متاع العروس على أكمل وجه، ومن ثمّ عزلي في غرفة الأطفال ليومٍ كاملٍ فلا يلمحني لويس قبل العرس، مطلقة الأوامر بوجوبِ: «ذبح عجلٍ لتحضير وليمةٍ لائقةٍ بهذه المناسبة»، حفل زفافٍ رائع أقيم في هذا المنزل يا سيدي، رزقني الرب الكريم بعد ذلك بهذين الطفلين الجميلين» ثمّ أردفت بنظرة افتخار بابنها الوسيم الصامت: «ما زال ولدي جاستس الذكرى الأحب من أبيه»، جاستس الطفل الهادئ بعكس أخته التي تثرثر على الدوام، انتابني حينها شعور بالفضول لسبر أغوار الولد الأبكم إلا عن نطق القليل من الكلمات، أو شدو الأغنيات العذبة نقيةِ السوبرانو بين حين وآخر.

أضمر الأطفال إعجاباً بي، هذا ما وصلني من ملامح وجوههم التواقة لما أحمله من دمى وألعاب اشتراها السيد كليمنت لهم، أبهجني الأمر فحاولتُ تعزيز مشاعرهم بعرض طرقٍ لحل الألغاز وتعليمهم بعض الألعاب البسيطة،

قرأتُ لهم فقرات من كتب الأطفال التي بحوزتي، رغم توضيحات غريس الحثيثة أن أياً من هذه الكتب لن يتم ابتياعها.

لاحظتُ أن برودنس آثرت الوقوف خلف كتفي طوال فترة قراءتي للقصص، لأدرك ذات صباح أنها ليس سوى محاولة منها لتتبع أحرف الكلمات المكتوبة، بدأتُ بعد ذلك بوضع إصبعي تحت كل كلمة أتفوه بها، لأجدها في المرات التالية تتلفظ بأصوات الأحرف القصيرة من أمثال إلى وفي، رأيتها في اليوم التالي تجرب تشكيل الحروف فوق رماد الموقد بقطعةٍ من ساق الصوفان، تناولت غصينًا وقمت بتصحيح بعض ما رسمته، موضحاً كيفية انكسار الخط قبل انحنائه عند كتابة أحرف من قبيل D أو B، وقفت آني بظهرٍ أدارته لنا، بيدين غارقتين في وعاء العجين، حين قدِمت غريس لجلب شيء للسيدة كليمنت.

حين رأت غريس ما كنا بصدده، شهقت بحدة، ثم هرعت لالتقاط فرشاة الموقد ماسحة الأحرف برعونةٍ ونزق، استدارت آني نحوها وقالت موبخة: «ماذا تريدين الآن يا غريس، هل كان عليكِ تلويث يديكِ،،!» لكن مع ملاحظتها لآثار بعض الحروف عبر الرماد، أوقفت تعنيفها على نحو مفاجئ، وانحنت بوجه حانقٍ مسودّ نحو برودنس منتزعة الغصين من يدها، كما لو أنّ الطفلة تحمل جذوة مشتعلة، استدارت نحوي وصرخت بصوتٍ مدوٍّ كالرعد.

«ما الذي تفكر بفعله مع طفلتي؟».

نظرتُ إليها مذهولاً، باسطاً يديّ في إيماءة تشرح جهلي بما عنته.

«منذ متى وأنت تتجول في فرجينيا؟».

«ما يقارب العام حتى الآن،،،».

«ما يقارب العام! ألا تعرف أن تعليم الأحرف للرقيق جريمة لا تُغتفر؟».

«لكن غريس تجيد القراءة»، التفتُّ إلى غريس طلبًا للدعم والمساندة، «لقد سمعتك تقرئين الشعر للسيدة كليمنت، حتى إنها أظهرت مسرّة عظيمة من المتعة التي تقدمينها لها،،،».

أغمضت غريس عينيها كأنها تستجدي الصبر وقالت: «نعم! إنني أتقن

القراءة، بعض العبيد والإماء في مثل سني تعلموا القراءة في صغرهم، القليل منا المحظوظون فقط، لكن منذ حوالي العشر سنوات بات تعليمنا إثماً عظيماً».

لمحت آني في تلك الأثناء وقد عادت إلى إنائها تضرب العجين بعنف.

«لا تنفك تطالع الكتب الضخمة من شروق الشمس حتى غروبها وتحشو رأسك بما يصرع ثوراً، مع ذلك لمّا تفقه شيئًا،، أي حُمق يعرّض صغيرتي لخطر الجَلد بالسياط؟».

«جَلد؟ بالسياط؟ لـ، برودنس؟ عقاباً على رغبتها في تعلم أبجدية لغتها؟!»

«لماذا لم تستفسر من السيد كليمنت عن كل ذلك؟» سألت آني، تقلب العجين بضربات غاضبة، «لكن إياك إعلامه بما كنت تفعله مع طفلتي».

أومأت غريس برأسها صوب الباب مخاطبة إياي: «السيد مارش،، من فضلك، هلا ساعدتني بجمع بعض حبّات التوت لإعداد كعكة الشاي الخاصة بالسيدة كليمنت؟».

ربتُّ على رأس برودنس مغموماً برؤية الدموع الطافحةِ من عينيها، ثمّ اتجهت نحو الحديقة متتبعاً خطوات غريس التي لم تتوقف عن المشي حتى ابتعادنا التام عن المطبخ، وقفنا مُختبئين عن الأنظار في فيء صفٍّ كثّ من أشجار التفاح، استدارت بشفتين منقبضتين وناشدتني قائلة:

«سيد مارش، هلا ساعدتني بتعليم الطفلة؟ إنها تتوق للتعلم بشدة، لعلّ آني تريد الأفضل لبرودنس، لكنها لا ترى مصلحة ابنتها،،، ما المستقبل بالنسبة لطاهية؟ إنه يوم الغد فحسب، لن تنظر أبعد من ذلك،، قد تحتاج الفتاة لـ،،، أعني،،، من الأفضل لو امتلكتِ الوسائل،،،»، غريس، البليغة على نحو مدهش، بدت معقودة اللسان عاجزة عن التلفظ بما تريده، أخذتْ نفساً عميقًا ثم تابعت بالقول: «لا أحد منا يدرك هوية المستقبل يا سيد مارش، لكن برودنس نبيهة لماحة على نحو غير مألوف، لا بد ستتلقف الحروف الهجائية بغضون أسابيع قليلة، تعادل ما يعاني الآخرون في تعلمه لعام أو أكثر،،،».

«لماذا لا تعلمينها بنفسك يا غريس؟».

«لا يُسمح لي بإخراج أي كتب، أو خطّ أيّ عبارة داخل المنزل، كما أفتقد الركن الملائم في حجراتِ العبيد، أما الأماكن الأخرى فقد تُعرضنا لخطورة

افتضاح أمرنا، لكن ما رأيك لو أحضرتُ برودنس إليك - لساعة كل مساء، بعد أن تغفو آني؟».

لم تكن غريس لتدرك الأثر العميق الذي تركه طلبها في قلبي، خاصة أنّ الطموح الجوهري الذي غادرتُ بصحبته ولاية كونيتيكت، لم يكن متعلقاً بالبيع الجوّال على نحو أساسي، لطالما تقتُ للعمل بالتدريس، خاصة أنّني وجدتُ معظم المدارس قاصرة متخلفة بما يخص أساليبها التعليمية، صفة سحقت حب الاستطلاع الغريزي لدى الأطفال، وصمّ آذانهم عن حصافة صوتهم الداخلي، إلا أنني لا أمتلك المؤهلات الكافية لامتهان التدريس في مدارس الشمال، حيث المستوطنات البعيدة قبل القريبة لا تختار لكوادرها سوى الخريجين الجدد من الجامعات المعروفة والمعاهد المختصة، لذلك قصدتُ الجنوب متأملاً أن يُبدي السكان هنا تساهلاً أكبر بشأن اختيار أعضاء كوادرهم التدريسية، إلا أنني سرعان ما عرفت أن المجتمعات الثرية مؤهلة بما يكفي لفتح مدارس تشترط توافر الشهادات العلمية الكفوءة، أو سنواتٍ كثيرةٍ من الخبرة، وهو ما أفتقر إليه، في حين لم يبد فقراء الأماكن النائية اهتماماً بتعليم أطفالهم على الإطلاق.

«لماذا لا أتّبع ما اقترحته آني وأستشير السيد كليمنت؟ إنه رجلٌ مثقفٌ شغوفٌ بالعلم، لا بد أنه سيرى في التعليم منفعة للأطفال جميعهم، ليس لبرودنس وحدها،،،»

بغضبٍ جذبت غريس غصن تفاحٍ نحوها، ثمّ جردته من ثماره الغضة.

«أنت لا تعرفه! أعتقد أنّ آني محقة فيما نعتتك به، فما تقرأه بعد كل شيء،،،» لم تكمل عبارتها، أياً كانت المذمة التي أوشكت على النطق بها، من الواضح أنها تمعنت بها أكثر من آني، تفحصتني بنظرةٍ مخيفة من رأسي حتى أصابع قدميّ لتعاود النظر من أسفلهما إلى أعلى الهامة، لعلها لم تعثر على أي شيء يستحق التحديق، فاستدارت قاصدة درب العودة، حدقتُ في رجوعها المفاجئ بعينين مشدوهتين لكسولٍ أحمقَ، كما نعتني والدي على الدوام.

ما حدث أنّ السيد كليمنت نفسه من باشر بافتتاحية الحديث الخاص

بتلك المسألة المثيرة للجدل، مستهلاً إياه باعتذارٍ عن تناول العشاء بصحبتي جراء الصداع الذي أعياه تلك الليلة.

«على الرغم من أن ابني يثير استيائي بوقعِ هواجسه التجارية، لكن الحقيقة يا سيد مارش أنني عاجز عن الاستغناء عنه، فأنا مجبر أثناء غيابه على هدر الجزء الأكبر من نهاري بممارسة مهامّ فاقدةٍ للروح متمثلة في احتساب الأرصدة الخاصة بالطواحين المائية[1]، لا أدري ما العواقب المحتملة حقاً إن كان وزن الحبوب الخاصة بالسيدة كارتر ستة أو ستين بوشلاً[2]؟».

اعتقدتُ أنه من الأفضل التمنع عن إبداء رأيي بأن العاقبة سترجح لمصلحة السيدة كارتر بدلاً منه، فاستبدلته بسؤالٍ مراوغ:

«ألا يمكن تدريب أحد من عبيدك كي يتسنى له القيام بمثل هذه العوملة الروتينية يا سيدي؟».

رمقني السيد كليمنت بنظرةٍ ساخطةٍ ثم صدح بنبرة تأنيبية عالية: «لماذا؟ كي يقوم أثناء تأدية مهامه بتزييفِ المنشورات وتوزيعها على العبيد الفارين؟» دعك جبينه متابعاً الشرح: «ألستَ على دراية بتمرد[3] تايد واتر[4]

1- الطواحين المائية: تعمل بواسطة العجلات المائية، شهد حوض البحر المتوسط استخدام الطاحونة المائية في القرن الأول قبل الميلاد، أما في الولايات المتحدة، فكانت شائعة بحلول أربعينيات القرن التاسع عشر.

2- البوشل (بالإنجليزية: Bushel) مكيال بريطاني وأمريكي للأحجام الجافة، يساوي 04 بك أو 08 غالون.

3- تمرد للعبيد وقع في مقاطعة ساوثهامبتون بولاية فرجينيا في أغسطس 1831، قاد التمرد رجل يدعى نات تيرنر، وهو عبد يجيد القراءة والكتابة، وكان متديناً تراوده الرؤى التي جعلت من رفاقه يعتبرونه نبياً، قرر تيرنر دعوة زملائه العبيد للتمرد بعد اقتناعه أن الرب يدعوه للتمرد في تلك الرؤى، قتل العبيد المتمردون ما بين 55 إلى 65 شخصًا، 51 منهم على الأقل من البيض. تم إخماد التمرد في غضون بضعة أيام من قبل ميليشيا ولاية فرجينيا بشكل كامل في عزبة بلمونت عام 1831. ثم أقرت الهيئات التشريعية للولاية قوانين جديدة تحظر تعليم العبيد والسود الأحرار،، قيدت حقوق التجمع والحريات المدنية الأخرى لهم، كما أمرت أن يؤم القساوسة البيض جميع الأحداث الدينية.

4- تايد واتر: أو مياه المد؛ منطقة جغرافية تقع في جنوب شرق ولاية فيرجينيا وشمال شرق ولاية كارولينا الشمالية.

يا سيد مارش؟ الذي أباح ذبح النساء مع أطفالهن داخل أسرتهم؟ لقد كُوفئ مُلّاك المزارع البسطاء المتساهلون مع عبيدهم بتسليط الفؤوس فوق رؤوس عائلاتهم بقيادة الجزار تيرنر، ذاك الرجل المتعلم! ينبغي عليكَ الاطلاع على أحداث المأساة التي قاد مسيرتها المتمرد السفاح، على الرغم من مرور عقد من الزمان، ما زلنا في هذه الأنحاء نتخذ الحيطة والحذر متعظين مما حدث، ما المنطق الأخلاقي العظيم الذي يملي عليّ المخاطرة بذبحِ زوجتي بعد السماح لعبدي بالتعلم لقراءة المواضيع التحريضية؟ أحمل الكثير من التحفظات حول المنشورات اليانكية الخاصة بكم، عليك أن تعي أنني لن أجيز لأي شخص هنا قراءة تلك القصاصات الافترائية المتطرفة!».

لم أتصور أن أسمع له صوتاً مرتفع النبرة لهذه الدرجة، جفل على نحو مفاجئ، ضغط بأطراف أصابعه على جبهته وأردف معتذراً: «اغفر غضبي الذي لا يمثلني، فأنا لا أقصد الإساءة إليك شخصياً»، انحنى بعد ذلك متمنياً أمسية سعيدة، مسارعاً بالانسحاب، هرعتُ إلى المطبخ قاصداً سلة التفاح، ثم انزويت لتناول عشائي وحيداً بصحبة حيرتي وارتباكي.

بحلول الصباح اتخذت قراري باستقبال تلميذتي ومرافقتها تلك الليلة، انتظرتْ غريس حتى رأت فانوسي يعبر المرج الفاصل بين المنزل وكوخ مدير الأعمال، بالكاد كنتُ أرشُّ مياه الكوز على وجهي، حين سمعت وقع خربشة على الباب، فإذا بها مسمرة في الظلام مع برودنس جوارها، بدت الطفلة يقظة كما لو أنها لم تنهض لتوها من النوم، إذ تنقلت بحمل جسدها بين قدم وأخرى في محاولة لضبط شعورها بالإثارة.

«تدبرتِ الأمر إذن؟ كيف لم تلاحظ آني تسلل الطفلة من مرقدها؟».

أطلقت برودنس قهقهة عالية وأجابت بابتهاج: «تشخر أمي بصوت عالٍ لدرجة أنها لا تلاحظ شيئًا!».

«تستيقظ أمك قبل الطيور»، علقت غريس بلطف؛ «توقد نيران الموقد لتسخين مياه الاستحمام وتحضير طعام السادة، لذلك ترينها تستغرق بالنوم بمجرد وضع رأسها فوق الوسادة يا صغيرتي».

قبل مجيئهما قمتُ بتشذيب ريشة أوزة وأعددت ورقة فولسكاب[1] لنستخدمها في الكتابة، فتحنا قاموس الويبستر[2] ثمّ باشرنا العمل، كما تنبأت غريس؛ فقد برهنت الفتاة أنها تلميذة نجيبة لمّاحة، إذ لم احتج سوى لنطقِ المعلومة مرة واحدة لتلتصق بذهنها كما يفعل الطين بوجه الحذاء، بدت نشيطة مستغرقة بالتعلم، مستعدة لقضاء الليل كله في تعلم الأحرف، لولا محاولتي لكتم تثاؤبي بما دعا غريس إلى طلب التوقف عن الدرس، استدارت برودنس بخيبة أمل: «أوه!».

«علينا ألا نستغل حُسن معاملة السيد مارش، أما أنتِ يا طفلتي فتحتاجين لبعض النوم بعد كل شيء».

«يمكنكِ المجيء مرة أخرى يا عزيزتي» خاطبتُ الطفلة، ثم أردفتُ مثنياً على تجاوبها قائلاً: «أنت فتاة جيدة وقد أبليت بلاء حسناً»، اتفقنا بعد ذلك على اللقاء لمدة تصل لساعة كل مساء إن سمحت الظروف طوال فترة إقامتي في دارة السيد كليمنت، استدارت غريس عند الباب بابتسامة لم أتمكن من معاينتها بشكل كامل حتى اقتربتُ بقدرٍ كافٍ، «شكراً لك!» قالتها بصوتٍ دافئ حنون لدرجة تمنيت لجسدي التدثر بين حناياه الرقيقة.

خلال الأسبوعين التاليين؛ أضحت حياتي مكتملة على نحوٍ لم أعهده من قبل، بتُّ أطالع الكتب بنهمٍ نهاراً، أتداول المحادثات الثريّة مساء، لأمارس شغفي بالتدريس ليلاً، لم تخلُ ساعات غيابهما من اليقظة والتأمل على أيّ حال، لأمضي الليالي أخطّطُ لأفكارٍ تعليمية أنجع وسبلٍ أجود لتوجيه الفتاة خلال درسنا القادم، في بداية الأمر تطلعتُ إلى كل جزء من يومي بسرورٍ موازٍ، لكنني بعد ذلك، ومع تقدم برودنس ببراعةٍ فاقت توقعاتي، وجدتُ في حجرة المدرسة السرية ملهمة روحي الأسمى.

1- فولسكاب (foolscap): ورق كتابة غير مكلف، ذو لون أصفر مسطر في معظم الأحيان.

2- يُشيرُ اسم قاموسُ ويبستر (Webster's Dictionary) إلى خَطِّ القواميسِ المطوّرَة أولاً مِن قِبل نوح ويبستر في أوائِل القرن التاسع عشرِ، أنشأ هذا الاسم علامة تجارية في الولايات المتّحدةِ للقواميسِ الشاملةِ للغةِ الإنجليزيةِ.

رغم تنعم أوصالي بالتوهج الذي يُذكيه خمر الكلاريت[1] الغني، لكن موعدي مع برودنس بات يثنيني عن احتسائه خلال العشاء، لعلني أحافظ على تركيزٍ كافٍ يتطلبه شرح الدرس، في إحدى الليالي لاحظ السيد كليمنت تقشفي المقصود، فعلق مستفسراً عن السبب؛ ضحكتُ وتركته يسكب النبيذ بسخاء طوال فترة العشاء، إسرافٌ ذهب بحسن تقديري للمدة الموائمة للجلسة التعليمية، التي طال زمنها أكثر من المعتاد، حتى إنني استغرقتُ بتوضيح أمرٍ ذي أهمية معرفية، لدرجة أغرق تلميذتي بالنوم للمرة الأولى، يا للصغيرة! غاصت ذقنها بباطن كفّ يدها المتكئة على الطاولة، ألقيتُ نظرة خاطفة على غريس التي ابتسمت محدقة بالرأس المائل لبرودنس الغافية.

«سأحملها» همستْ محاولة النهوض.

«لا بد أنها ثقيلة جدًا عليكِ،،،»

«لا لا،، على الإطلاق؛ فقد تعودتُ رفع السيدة كليمنت، ذات الجسد الواهن في معظم الأحيان، العاجز عن القيام والقعود من دون مساعدة،،،» ثم أشاحت ببصرها بعيدًا.

حرارةٌ اشتعلت في خدَّيّ، حيرة راودتني تلاها غضبٌ من فكرةٍ جالت بخاطري! كيف لغريس، أو أيّ امرأة لطيفة مثلها، أن تُطالب بإسناد عجيزة السيدة كليمنت المختلة العقل، لتقوم بعد ذلك بتنظيف الوعاء النتن لغائطها!

«لا يجوز ذلك! لا يتوجب عليهم تكليفك بمثل هذه الأعمال!»، قلتُ بنبرة صادحة عالية.

أفرجتْ غريس عن ابتسامةٍ حزينةٍ مهزومةٍ لا تشبه بأي حال من الأحوال ابتسامتها المشرقة الفريدة، «إن كان رأسك داخل فم الأسد، فمن الأفضل أن تعمد لملاطفته على الدوام»

لا أدري إن كانت فتنة شفتيها المغمومتين! شفقتي على أسلوب معيشتها! إعجابيَ بكبريائها أو تقديري لصبرها،، أو لعله تأثير أكواب الكلاريت الإضافية!

1- نبيذٌ فرنسي فاخر.

وقفتُ؛ وصلتُ ليدها، لمستُ خدها،، ثم قبلتها.

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري في ذلك الوقت، ولم يسبق لي أنْ قبلتُ امرأة من قبل، يا لطعمِ شفتيها المنعش كمياه الينبوع! يا للحلاوةِ والعذوبةِ اللتين أصابتاني بالدوار حتى إنني خشيتُ من فقدان توازن قدمي، حين شعرتُ للحظةٍ برقة لسانها داخل فمي، سارعتْ برفع أصابعها، داعبتْ وجهي بنعومة، ثمّ دفعتني برفقٍ بعيدًا.

«ليس من الصواب،،» همستْ؛ «لأي منا»

سيولٌ من المشاعر المرتبكة اجتاحتني: ابتهاجٌ بإحساسٍ قبلتي الأولى،، حرجٌ من افتقار الأهلية على ضبط النفس،، رغبةٌ عارمةٌ في تقبيلها مرة أخرى، توقٌ للمس جسدها كله والذوبان بين يديها،، جزعٌ إزاء جبروت شبقي، إدراكٌ لقدرةٍ فاحشة، لشهوةٍ داعرة إن سيطرتا علي، فلن تملك هذه المرأة أيّ فرصة لمقاومة رغبتي باختراق جسدها.

«اغفري لي!» قلتُ بنبرةٍ بالكاد سُمعت كصريرِ الخفافيش.

ابتسمتْ من جديد، حملتِ الطفلة كأنها لا تزنِ شيئًا، ثمّ تمتمتْ بالقول: «لا تكن أحمق»، فتحت الباب وعبرت مخترقة ظلال العتمة.

استلقيتُ مستيقظاً لفترة طويلة بعد رحيلها، متفكراً في طبيعة الشهوة! بالمشاعر الجامحة التي يؤججها الربُّ في جسد الإنسان؟ لو كنا بالفعل مخلوقين على صورته، فأي جزء من سماتِ الألوهية ينعكس في مشاعر الهيام تلك؟ لم تسعفني أيُّ أجوبة أو احتمالاتٍ تومئ للراحة، بدأتِ الطيور جوقة فجرها الصاخبة، فأفسحتُ الدرب لإغواء التخيل، رعشة دافئة، تبعها إحساس مرير بالعار، ليصيبني الإرهاق أخيراً بإغفاءةٍ مباغتة.

شعاعٌ ساطعٌ تدفق عبر الباب المفتوح انتشلني من سباتٍ عميق، لا بد أنني نمت طويلاً، خمنت ذلك من حرارة الشمس الواشية بوقتٍ متأخرٍ من الصباح، تدافعتُ على قدمي حين أطلّ رجل ضئيل الجسد يشبه عصفور الدوري داخل حجرتي، محدقاً بي عبر عدستي نظارته.

«مارش، أليس كذلك؟» سأل الرجل رافعاً قبعة ملطخة بأغبرة السفر عن رأسه شبه الأصلع، «أنا هاريس، مدير أعمال السيد أغسطس كليمنت،

أخبرني أنك مقيم هنا، لكنني لم أتوقع بقاءك بالسرير حتى هذا الوقت، سأكون ممتنًا لو سمحت لي، أوه،، أعني،، باستخدام غرفتي، فقد استغرق طريق العودة أكثر من أسبوع حتى الآن، أنا متعب كما تعلم،،، قذر الجسد والمتاع، ولدي الكثير لأتم إنجازه هذا اليوم»

تمتمتُ بالاعتذارات ثم هرعتُ للملمة أغراضي، لمحتُ الريشة والحبر مع قاموس ويبستر جوار الصفحات المكتوبة بخربشاتٍ طفولية مصححة بخط يدي، سارعتُ بالتحرك على نحو فظّ أخرق، محاولاً حجب الطاولة عن ناظري هاريس بقامتي الضخمة مُطلقاً أحاديث ذات نبرةٍ سريعة بغية تشتيت انتباهه.

«آمل أنّ مشروعك تكلل بالنجاح؟ أنّ طريق عودتك لم تتخلله الصعاب؟» هاريس، الذي بدا منهكًا تمامًا، مرر يده عبر خصلات شعره المغبر وأجاب باختصار:

«نعم،، نعم، جيدٌ كما كنا نتوقع،،،»

«ما هو المسار الذي سلكته؟ فأنا لو تعلم، لدي اهتمام خاص بفرجينيا، على الأرجح،،،» قلت جامعاً ملابسي بكومةٍ أمامي، ثم حاولت بحركة بلهاء من معصمي، أن أقذف بأحد القمصان فوق الصفحات، «أحب مرافقتك حيثما تدلك الخريطة،،،» لكنني أخطأت فسقط القميص جوار الطاولة، انحنى هاريس، نافذ الصبر والقوة لرفعه عن الأرض، فاغتنمت تلك الثانية، استدرت باتجاه الباب ودسست صفحات الطفلة تحت سترتي، حين نهض مناولاً إياي القميص التفتُّ لالتقاطه، فانزلقت إحدى الصفحات مني مرفرفة بوجهها المحجوب صوب الأرض، سارعتُ لاستعادتها لكن هاريس الذي أثار انتباهه سلوكي الغريب انحنى برشاقة لالتقاطها بدوره، التقت جمجمتانا بامتعاضٍ ليمسك كل منا طرف الورقة التي تمزقت حينما حاولتُ سحبها من يده، قلّب هاريس مزقته، فتجعد جبينه بالسؤال: «ما هذا بحق الشيطان،،،؟»

استقام بينما تغضن وجهه الضيق بشبكة من التجاعيد العميقة، بدا جلياً استيعابه للأمر، «يا له من مشهد رائع ينتظرني في أرضِ الوطن! يا لها من مكافأة مجزية لآل كليمنت على كرمِ استضافتهم لك! اللعنة على

الشماليين الرعديدين! قل لي من تكون؟ أمؤيِّد لِإبطالِ الاسْتِرْقاق[1]؟ أم من الكويكرز[2]؟»

هززت رأسي بالنفي، بينما فاض فمي بمرارةِ خمر الأمس، عيناي بقلة النوم، حرقة في البلعوم سببتها الصفراء الصاعدة من معدة حامضة.

«لمن هذه الحروف؟»

لم أرد.

«سوف تضطر للرد حالما يُسلّط الضوء على فعلتك الأثيمة أمام السيد كليمنت، أعتقد أن استضافتنا لك قد انتهت اللحظة»

سارع هاريس بالخروج قبل تبديل حلّة سفره الموحلة، صافقاً الباب خلفه، شاهدته عبر النافذة قاصداً المنزل، متبختراً عبر المرج مثل ديك البنطم القزم، جلست على كرسي غير متأكد مما ينبغي عليّ فعله، كنت راغباً بتحذير غريس، لكن لا سبيل للقيام بذلك نظرًا لكونها برفقة السيدة كليمنت، لا أعتقد أنني شعرت بالوهن يومًا مثلما شعرت في ذلك الصباح حين شققتُ طريقي بقلبٍ مثقلٍ إلى المنزل، بدا جلياً أن الوشاية سبقتني، إذ وجدت آني منهارة جوار طاولة المطبخ، برأسٍ مدفون في ثنية إحدى ذراعيها بينما احتضنت برودنس بالأخرى، الصغيرة التي غاصت ملامحها بين الدموع، دخلتُ فرمقتني آني بمقلتين مغرورقتين بالملامة والألم والذعر.

«آسف جداً!» اعتذرتُ بأسى، حدقتْ في وجهي، لاح عتابها الصامت أكثر بلاغة من الشجب والتعنيف، تابعت المسير صوب قاعة المكتبة حيث لمحت مزقة الفولسكاب بيد السيد كليمنت، ألقاها حين رآني فوق مكتب خشب الورد، شاب مكتمل الرجولة وقف جواره، بوجهٍ اكتسب ملامح

1- إبطال الاسترقاق أو التحرير من العبودية (Abolitionism) حركة سياسية تسعى إلى وضع حد لممارسة الرق وتجارة الرقيق في جميع أنحاء العالم، أضحت حركة التحرير من العبودية في أوروبا الغربية والأمريكتين حركة تاريخية سعت إلى إنهاء تجارة الرقيق في المحيط الأطلسي وتحرير العبيد.

2- الكويكرز: الصاحبيون أو جمعية الأصدقاء الدينية أو الكويكرز؛ التسمية الأكثر شيوعًا: مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس. وفي عام 1988 باتت الولايات المتحدة مركز ثقلهم.

والده وسحنة ملفوحة بلمساتٍ برونزية، جلس المدير بينهما لتنبلج مكانته الضئيلة بين القامتين ذواتي الطول الفارع.

حينما تحدث كليمنت، شعرت كما لو أنه يُفرغ كوبًا من ماء البئر البارد أسفل ياقتي.

«حين تجرأت على خيانة ضيافتي وتجاهلت على نحو سافرٍ رغباتي الصريحة، لعلك لم تعتقد بوجوب مساءلتي إياك عن ممتلكاتي الملوثة بتعاليمك»

كاد الشعور بالذنب يقتلني حتى نهاية عبارته الأولى، لكنه فجأة؛ حين استخدم لفظة الملكية لكائن حي كبرودنس ومسّ كرامة وكبرياء غريس، تلاشى الشعور بالإثم تماماً.

«آسف إنْ ظننت أني استهنت برغباتك، لكنك من قلت إن إرشاد الأفريقي جزء من الواجب والعبء المنوط بنظامك المتبع هنا، بالتأكيد،،،»

«كيف تجرؤ يا سيد!» صاح ولد كليمنت مندفعاً بخطوةٍ صوبي، بوجهه المحمر، كجرو يقلد نباح كلبٍ بالغٍ أمامه، رفع والده يده زاجراً.

دقة خفيفة على الباب سُمعت في تلك اللحظة، «ادخلي!» أمر السيد كليمنت فاندفعت غريس إلى الغرفة بعينين مطرقتين في محاولة للاحتجاب بهما عن عيني.

«ماذا هناك يا فتاة؟» صرخ السيد كليمنت بصبرٍ نافد.

رفعت رأسها وحدقت مباشرة في وجهه قائلة: «سيدي، أنا مسؤولة بالكامل عما جرى، فقد طلبت من السيد مارش تعليم برودنس، ألححت بذلك خلافًا لنيته وهواه، حتى آني لا تعرف شيئًا عن الأمر، إذ تصرفتُ بمعزلٍ عن رغباتها»

«شكراً لك يا غريس، ممتن لصراحتك، يمكنك الآن العودة لمجالسة السيدة كليمنت»، أومأت برأسها وخرجت، لم أتمكن من لفت انتباهها ولو للحظة، لكن ارتياحي من الرقة التي أبداها السيد كليمنت بردة فعله كان هائلاً.

«أتوقع ألا يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن، لجمع كل ما يتعلق بك والخروج من ممتلكاتي، اعذرني إن لم أقم بتوديعك خارجاً»

أعطاني ظهره، فتسللت نحو الباب بصمتٍ، كطفلٍ معاقبٍ.

لم يمضِ أكثر من ربع ساعة لعبوري الدرب المؤدية للبوابة، الطويل حيث تصطف أشجار القرانيا على ضفتيه، أوشك شهر مايو، حينما حللتُ ضيفًا على السيد كليمنت، على تسليم الدفة ليونيو الذي بدأ بالانحسار بدوره، لقد امتدت أغصان القرانيا وتفتحت بتلاتها وأوراقها، ما وفر بعض الحماية من شمس منتصف النهار الصيفية الحارقة، بدت بوابة الخروج جلية أمام ناظري حين سمعت السيد كليمنت يناديني.

«سيد مارش، لحظة لو سمحت، هناك شيء تحتاج لرؤيته قبل مغادرة دارتنا، إن تقدمت بلطفٍ وسماحةٍ أخيرة»

شعرتُ بالارتياح لكلماته، مخمناً أنه يود الإشارة لضرورة الاختلاف في بعض الأحيان، وضعت صندوقيّ أرضاً وتبعته، استدار نحو الدرب الشمالي المؤدي إلى مخزن التبغ ذي الأسقف العالية حيث عُلقت الأوراق المجففة المقطوفة العام الماضي، وإذا بجميع العبيد وخدم المنازل والأيدي العاملة محتشدين داخلاً، ثم لمحت غريس.

لقد قاموا بتثبيت جسدها بوجهٍ أداروه إلى الأسفل وذراعاها فوق رأسها، بعد عقد إبهاميها معاً بحبلٍ ثخينٍ مرّ بطول كاملٍ أسفل الطاولة ليصفد كاحليها معاً، حزام جلدي عريض حُزم فوق جزء من ظهرها النحيل وبطحه فوق الطاولة، أسفل الطوق كُشف بالكامل الجزء السفلي من جسمها.

صرختُ بصوتٍ متصدع: «لا حاجة لهذا الانتهاك كله؟»، بالكاد رفع كليمنت ذقنه مومئاً للسيد هاريس حتى سارع الرجل إلى كيسٍ خيشٍ جواره ليخرج سوطاً من الجلد المجدول موازياً طول قامته، انتقل بعد ذلك إلى بقعة تبعد حوالي ستة أقدام عن غريس، ارتفع بوثبة سريعة رشيقة ملوحاً بالسوط الذي شق الهواء ليرتطم بجسدها بوقعٍ مريع، قشرت الضربة الجلد فعلقت مزقة من لحمها فوق الكرباج، تدلت للحظة ثم انهالت فوق الأرض المفروشة بالأوراق، طفق الدم من الجرح العميق الذي ارتعش بجسدها كله.

«الرحمة يا رجل!» صرختُ، لا أرى هذا التشبيه منصفاً على الإطلاق،

لكن وجه كليمنت بدا جامداً ساكناً كأحد تماثيله المنحوتة، أبيض السحنة مثلها.

هوى السوط بدقة مرة أخرى، منخفضاً باللسعة الثانية بوصة واحدة فوق الأرداف بموازاةٍ مثاليةٍ مع الصفعة الأولى، تناهى صراخ برودنس المذعور لمسامعي بينما دفنت وجهها في قماش تنورة آني، رفع كليمنت يده بعد ذلك، شعرت بجسدي يكاد يتهاوى مع إعلان إيقاف هذه العقوبة الرهيبة.

«أديري وجه الطفلة، لتبصر بعينيها مشهد العقوبة»، قال كليمنت بنبرةٍ حادة، فقامت الطاهية بفك أصابع ابنتها من مئزرها، مسحت خدها المبلل بالدموع، واستدارت بوجه ابنتها نحو غريس.

«تابع»، عاد السوط يتهاوى ويفرقع بشعابه الخرقاء شارخاً اللحم بغير رحمة من الجسد المرتعد لغريس المسكينة، لم تكف دموعي عن التساقط، قطرات ثقيلة امتزجت بغبار الأوراق المتصاعد والدم المتقطر عن الطاولة، شعرت بأوصالي منهكة لدرجة لم أقوَ على رفع يدي لمسح المخاط السائل من أنفي.

أخيراً؛ رفع كليمنت يده مرة ثانية، عمود من ضوء الشمس تسلل عبر فتحة منسية في سقف المخزن، ليبرق فوق خاتمه المرصع.

«شكراً لك سيد هاريس، هذا يكفي»، جال الرجل بقطعة قماشية رمادية على طول السوط لإزالة آثار الدماء عنه، ثم أعاده إلى الكيس.

هرعتِ النساء للأمام، فكّت إحداهن يديّ غريس ودلكتهما، بينما جلبت أخريات أباريق الماء لغسلِ الجراح التي أدمت جسدها، غريس الراقدة فوق المنضدة، البعيدة بناظريها عني، رفعت رأسها على نحو مفاجئ والتفتت به حتى التقت مقلتانا، لو أن سنداناً من السماء هوى فوقي تلك اللحظة؛ لما شعرت بمثل هذا التحطم.

الفصل الثالث

نُـــــدوب

1 نوفمبر 1861

عزيزتي.

لو تعلمين كم احتفيتُ بالخطاب الرائع الذي وصلني مرفقاً مع الهدية البديعة المغزولة من الصوف والحبّ، جزيلُ الامتنان للدفء المضاعف الذي منحتنّني إياه.

كم أبهجتني المعرفة بأنك والفتيات أحسنتن صنعاً بما يخصّ التحضيرات اللازمة لمواجهة زحف موسم البرد لهذا العام، أرجو منك يا عزيزتي إعلام جو ألا تستخف بالجودة المدهشة لحياكتها، وأن تنظر لسنارتيها كما لو أنهما رمحان متبارزان فازا بأهم المعارك، ها هما الجوربان الزرقاوان الجميلان اللذان غزلتهما لأجلي، ستخطوان بقدميّ نحو نصريَ المبين، استميحك عذراً أيتها الغالية لأنني أخطّ هذه السطور على عجل، فالقرار العسكريّ الأخير يحثّني على المسارعة بإنهاء التحضيرات اللازمة لانتقالنا الوشيك من هنا بغية إنهاء المهمات المنوطة بنا بالتتابع، لا تحسبي أني مستاء شخصياً من المجازفة الخطيرة بالرحيل إلى مكان آخر، فالتجارب المتتالية تباعاً ما انفكّت تكرّمنا بمزيدٍ من الارتقاء الأخلاقي.

عزيزاتي، لو راود الشك أيّ شخصٍ تعرفنه بقدرة الزنجي على انتزاعِ حريته، فدعوه يأتي ليقف جواري في المستشفى الميداني المُقام في هذا

المنزل الذي اعتاد مالكه المسن الزهوَّ افتخاراً بانحدار نسبه من سلالة الفرسان[1]، «انحدار»! يا لها من كلمةٍ ملائمةٍ جداً لوصف ما ألمّ به عبر السنوات، وصولاً إلى الحالة المزرية التي مسّته من ضعفٍ وشيخوخةٍ وعوز! خاصة بعد فرار معظم عبيده قبيل معركة الجزيرة، وقبلها بأسبوعين من القرار المشؤوم لهجومنا على شاطئ فيرجينيا، فتاةٌ مسترقةٌ ظلّت بين جميع من بقي، الوحيدة التي آثرتِ الكد بلا كللٍ للاهتمام بسيدها الواهنِ من جهة، وتطبيب جراح جنودنا بتفانٍ من جهة ثانية، بخبرةٍ وبراعةٍ وضعتا الطبيب الجراح أمامها على المحك، لا أنكر أنني حرصتُ خلال أيامٍ عديدةٍ على مراقبة رجالٍ تعهدتِ الفتاة بمعالجتهم، حتى لاحظتُ تحسن صحة معظمهم على نحو أفضل وأسرع مما كانوا عليه تحت رعاية الطبيب الجراح، الكولونيل بنفسه اعترف بمهارتها بدوره، مطلقاً عليها لقب «مهرَّبة[2] الحرب» مقترحاً تعيينها ممرضة للعمل في مستشفى العاصمة بأجرٍ سخيّ، عرضٌ سمحٌ لامرأةٍ أمضت حياتها كأمَةٍ مملوكةٍ منذ يوم ولادتها، لكن خيوط الطيبة المذهبة التي نسجتْ فؤادها، حالت دون موافقتها على التخلي عن سيدها الضعيف، خشية ألّا يقوى على الاستمرار بالحياة من دونها، إنه السيد ذاته؛ الذي شهدتُ ذات يومٍ على ظلمه لها ومعاقبتها جلداً بالسوط، متعذراً بانتهاكها لأبسط قواعد سلطته، يا له من مثال حيّ عن الغفران المسيحي! على الرغم من أن البعض ينتقصون قيمتها لمرتبةٍ أقل من البشر بكثير، لكنني أجلّها كقديسة – وأعتبرها أنموذجاً يُحتذى لنسائنا الصغيرات،، اللواتي لا

1- ارتبط مصطلح الفارس (Cavalier) بسلاح الفرسان الثقيل، كان الفرسان جنود مهرة دربوا على القتال على ظهور الخيل ليصبحوا جنود القمة تدريبًا وتسليحًا وفعالية داخل أرض المعركة، لكنهم إضافة إلى دورهم العسكري، كانت لهم أملاك ومكانة اجتماعية مرموقة نسبياً في النظام الإقطاعي، حين كانت الفروسية رمزاً للبسالة والشجاعة والشرف.

2- مهربات الحرب أو ما يسمى «محظورات الحرب» بالإنجليزية «contrebande» مصطلح أطلق خلال الحرب الأهلية الأمريكية على الإماء والعبيد اللاجئين إلى معسكرات الاتحاد أو المقيمين في المناطق الواقعة تحت سيطرته، عُبر عن هذه السياسة لأول مرة من قبل الجنرال بنجامين إف، بتلر عام 1861، عرف هذا لاحقًا باسم «مبدأ فورت مونرو».

يحتجن بالطبع لمَثلٍ أعلى من والدتهن العزيزة، القدوة المشعّة بالاكتمال، التي أعلنُ لها إخلاصي الذي لا ينضب،،،»

توجب عليّ إطفاء لهيب شمعتي كي لا يزعج بصيصها أولئك الرجال الجرحى الذين أشاركهم افتراش أرضية الحجرة، أو لنقل ما كانتْ غرفة المعيشة الخاصة بالسيدة كليمنت فيما مضى من الأيام، توقفتُ للحظة، قبل الشروع بإخماد النور، بنيّة الوصول إلى مظروف خصلات الشعر الحريرية الذي أحتفظُ به داخل جيب قميصي، أخرجته بحذر، ثمّ كشفتُ عن محتوياته في بقعةِ الضوء الخافت.

ضفيرةٌ مجعدةٌ شقراء لامعة معقودة بشريطةٍ من الساتان الوردي تعلن عن شموخ صغيرتي الحلوة إيمي، خصلةٌ بنيّةٌ لبيث؛ فأرة بيتنا الوديعة الهادئة، جديلة كستنائية! لا بد أنها لميغ، خصلتان غزيرتان، داكنتان براقتان، اللون والملمس ذاتهما لشعر الأم وابنتها، إلا أنني بكل تأكيد لن أجد صعوبة في انتشال قصاصة الشعر الخاصة بجو وضمها إلى شعيرات أخواتها بالقرب من المظروف، يا لفتاتي الشعثة البرية! التي آثرت اقتطاع شعرها بنفسها، بحيث تركتِ الأطراف خشنة محزومة على نحو بربري يشبه شخصيتها الجلفة، حدقتُ في خصلات الفتيات لزمنٍ قارب الدقيقة، تخيلت هاماتهن المحبوبة الأربع بينما ترقدن بسلام فوق وسائد أسرتهنّ في كونكورد، أعدتُها إلى المغلف ثم أطفأتُ الشمعة مسدلاً القصاصة الداكنة الناعمة الأخيرة فوق خدي مناشداً النوم، لكن الاستلقاء على البلاطات الحجرية الصلبة برفقة الآهات الحارقة للجرحى والأصداء المتعالية للشخير، جعل من الإغفاءة أمنية بعيدة المنال، لذلك قررتُ حصاد الوقت الكافي للتفكير ملياً! لمَ أخفيتُ سري عنها؟ لماذا؟ من بين جميع الذكريات والأحداث التي ما توانيتُ عن مشاركتها معها، لم أخبر زوجتي مطلقًا عن تفاصيل الأحداث الكئيبة التي صاغها ربيع فيرجينيا؟

مما لا شك فيه أن تلك الذكرياتِ الآفلة سبقت لقائي بزوجتي بعدة سنوات، أما الإثم الذي اقترفتُه وما لحقه من إحساسٍ هائلٍ بالندم من جراء

انجرافي خلف إغواء الثروة الفكرية للسيد كليمنت وخداع نبله الزائف، فقد انحسر تأثيرهما بمرور الزمن متحولاً من ألمٍ حادٍّ مضنٍ إلى وجعٍ طفيفٍ لم يعد يؤرقني، حتى إنني بحلول ذلك الوقت، كانت الرغبة باستدعاء الذاكرة الخاصة بذاك البائع المتجول الشاب، القليل الخبرة، الشغوف بتحريك كل حجرٍ صمٍّ يصادفه أثناء سعيه للمعرفة، قد تلاشت بالكامل، بكل تأكيد، ما برحتُ مترددًا بمصارحة زوجتي بما جرى دوناً عن كلّ الناس، خاصة أنني عاينتُ ردة فعلها العنيفة وغضبها الحاد أمام مواقفَ مشابهة -لا ريب أنّ المكاسب الجزيلة أغوتني ولو بشكل عابر، حين تعاميتُ أخلاقياً عن النظر بمسألة العبودية؛ غاضاً بصري الشاب عن مظالمها، طامعاً بالمشاركة بحصّةٍ ضئيلةٍ من ثمار ذلك النظام المغري.

بعد طردي ذليلاً من مقاطعة السيد كليمنت واصلتُ التجوال مكروباً مغموماً مودِعاً عينيّ الدامعتين وفؤادي المكروب بأركان الأمكنة، مبكراً منذ أيام شبابي الأولى، آثرتُ رفض اعتناق اليقين التقليدي الذي يتبعه أبناء جيلي، معارضاً لفكر الكالفينيين[1] مخالفاً لقوانينهم الصارمة وعظاتهم المتطرفة المفضية إلى أحمال الخطيئة التي أشبعنا بآثامها منذ الولادة، ولا تبرحنا جميعنا بمن فينا من أطفالٍ أبرياءٍ نيّري العقول، لم أستطع في الوقت ذاته إجبار فؤادي على الإيمان بإله معبودٍ لا يتوانى عن دسِّ أصابعه بأدنى عملٍ يؤديه الإنسان، كيف يفعل؟ أليس الربّ الحكيم! الذاتُ القدسيةُ العظيمةُ الحاضرةُ في بهاء الطبيعة السَنيّة،،! المرحمةُ! الرأفةُ الوادعةُ في فؤاد الإنسان!

مع ذلك وللحظات قليلة أثناء زيارتي لإحدى الكنائس في ضاحية من ضواحي بطرسبورغ، راودني شعور غريبٌ رفيعُ التجلي، كما لو أن قدرة عظيمة تجسدت أمامي، مرشدة إياي بحكمةٍ إلى دربٍ سيقودني إلى يقيني المنشود.

1- يمكننا تلخيص النقاط الخمس التي تقوم عليها الكالفينية في التالي: الفساد الكامل، والاختيار غير المشروط، والفداء المحدود، والنعمة التي لا تقاوم، ومثابرة أو جهاد القديسين.

لاحظت أن دراسة الكتاب المقدس عادة جارية في ذلك الوقت، ودأبٌ لا يتطلب جهداً مُلحاً، وهكذا عقدتُ العزم على الانضمام لجحافلِ الشبان المريدين الدارسين، حين أسترجعُ خياري المتسرع آنذاك، أعجز تماماً عن تحديد الدواعي الحقيقية التي دفعتني للإقدام عليه، خاصة أنني تخليتُ منذ فترة طويلة عن طلبِ أيّ دعمٍ روحيّ تجود به الأماكن المقدسة حيثما أقيمت! فالكنائس الشمالية لم أعثر داخلها إلا على طقوسٍ احتفاليةٍ عتيقة مترعة بالترف، في حين اكتظت الجنوبية منها بخرافاتٍ بدائيةٍ وشعائر سمجة لا تُحتَمل، دخلتُ مبنى الكنيسة الصغير المغطى بالألواح الخشبية، المألوف بكل ما فيه، عدا الجلبة الدائرة في ركنٍ مجاورٍ للفناء، حيث كان العبيد يعُرضون للبيع من حينٍ لآخر ضمن مزادٍ علني محتشد بالشارين، بأصواتٍ صدّاحةٍ مدويةٍ جرت صفقاتُ البيعِ والشراء، متسربة بفظاظةٍ إلى داخل الحصة المخصصة لدراسة الكتاب المقدس.

(يا لبشرى الفرح العظيم المقسوم لجميع الناس!)،، عبارة قدسية سرعان ما تصدعت كلماتها مكدّرة مشوَّشة بالصراخِ الرنان لعبارات الرجل صاحب المزاد: «أحضروا الزنوج،، أحضروا الزنوج!»، أيُّ سخرية ظلّلتِ السكون في المكان! كنا غارقين في تأملِ التعاليم المستقاة من الحياة القدسية الأجلّ رفعة وطهارة، حين اخترق خشوعنا صياحٌ ومناوشات افترشت قاعة الدراسة؛ بدا جلياً أنهما طفلان مختطفان من أمهما يُروّج لبيعهما، لم يخطر ببالي آنذاك سوى آية الإنجيل التي تقول: (لكن يسوع قال؛ «دع الأطفال يأتون إلي، لا توقفهم!»[1])، لو كان في يدي حيلة لاندفعتُ إليهما، مُعتِقاً الصغيرين البائسين دونما تردد! لكن ماذا يجري هنا؟ أيّ لامبالاةٍ مثيرةٍ للحفيظة والحنق أبداها الحاضرون في الكنيسة، المتجاهلون للخَطب الدائر في الخارج! ثمّ! إبان كل ذاك القهر والاضطهاد! شرع القس بمطالبتنا بواجبِ دفع اشتراكاتٍ ماليةٍ بغية المساعدة في إرسال الكتب المقدسة إلى إفريقيا! لمَ؟ لتبشير الأفارقة بالدين المسيحي! مسّ من الجنون صعق رأسي وصبر نافد دفع جسدي واقفاً على قدميه، لأشرع مهتاجاً باستفسارٍ يخصّ أسباب

1- إنجيل متى 19:14 «لكن يسوع قال، «دع الأطفال يأتون إلي،لا توقفهم! لمملكة السماء ينتمي إلى أولئك الذين هم مثل هؤلاء الأطفال».

عجز الكنيسة عن تبشير الكائنات الموجودة خلف بوابتها، تلك المعروضة للبيع بالمزاد العلني وبتكلفةٍ أقلّ بكثير! هسهسةُ استهجانٍ صفعتْ مسامعي، تلاها مطلب بارد أمرني بمغادرة المكان، من دون ندامة سارعت بالتنفيذ على عجلٍ، مع وصولي رمقت الطفلين وقد بيعا بالفعل، مزايدةٌ عنيفة أطلقت عنانها لابتياعِ رجلٍ ثلاثينيّ لائقِ المظهر، صاح صاحب المزاد أن الرجل الأسود ليس سوى معتوقٍ حر، إلا أنه معروض للبيع لتخلفه عن دفع الضرائب المتوجبة عليه، لم أتعجب من انسكاب دموع غزيرة من المقلتين اليائستين، فمن يذق طعم الحرية لن يتحمل مرارة استلابها من جديد.

أما السلعة التالية فكان فتىً مراهقاً توقعتُ بلوغه الرابعة عشرة من العمر، اكتسح رأسه شعر بني أملس انسدل فوق وجهٍ أبيضَ أفتح بدرجاتٍ من جلودِ المتزاحمين على المراقبة والشراء، شتائمُ غير لائقة أطلقها بعضُ الرجال، أجزلتْ بقدحِ نسب الشاب الذي احمرّ وجهه المنمش حياء وبؤساً، على غير مايرام جرت المزايدة متقطعة فوضوية، ما اضطر البائع للتعظيم مشيداً بمزايا سلعته بغية تحفيز الحشد الصارخ الهازئ وتشجيعه على تقديم عروضٍ أفضل لشراء الفتى، لكن من دون جدوى، صيحة دوتْ بسخطٍ عارمٍ: «لن أمتلك هذه السلعة حتى لو وهبتها هدية لي»، آسفاً هزّ رجل جواري برأسه، وما إن التقت مقلتانا حتى ظننتُ أنني وجدت لكربي قريناً خاصة مع جملته الجزعة: «ياله من خطأ!»، فرددتُ مؤكداً: «بالطبع! خطأ شنيع!»

لكن الرجل أضمر ما قصده الآخرون مقللاً من شأن الفتى مردفاً بالقول: «ما انفكّ الرقيق الأبيض يثيرون مشاكل تفوقُ ما يُدفع من أثمانٍ لامتلاكهم»

انخفض ثمن الولد تباعاً، حتى بيع أخيراً بمئتين وخمسين دولارًا قبل أن يتم تسليمه لمشتريه، لمحتُ في تلك الأثناء ذراعين ممدودتين تناشدان الصبي الغادي مع مالكه، أطلقتهما امرأة شابة راكعة على ركبتيها بين السلع غير المباعة، ناشجة ناحبة مفرجة عن عويلٍ حادٍّ وأنّات موجعة لفراقِ ابنها الأبديّ، لم يسعني الاحتمال أكثر من ذلك، هرعتُ منفطر الفؤاد لمغادرةِ المكان، متفكراً بذاك القس المبشر! ماذا لو قاد أتباعه الكُثر من المؤمنين لشقّ جدران كنيستهم المقدسة والخروج جماعاتٍ بغية الوقوف في ساحة المزاد معارضين معتصمين رافعين الأناجيل احتجاجًا على ما يمارسُ من

أفعالٍ مُشينة! فكرةٌ أشعلت قناعتي منذ ذلك الحين، أنْ لا مكان أمثل من المنبر لشجب الأنظمة الهمجيّة السائدة والتشهير بها، لكن كيف أعثر على ضالتي فيما يتوشح بالضباب دربي؟

واصلت رحلتي الجوالة الطويلة مثقل الخطوات عابراً الطرقات المغبرة متلظياً بشمسِ الصيف الحارقة، صيفاً ودعتُ، خريفاً شيّعت، شتاء قارصاً خضتُ بين ركام الثلوج بساقينِ غاصتا في جريش الثلج حتى الركبتين، كثيراً ما كنتُ أتتبع مساراتٍ مجهولة غير مأهولة بالبشر، بغية الوصول إلى أسواقٍ جديدة وزبائن أسخياء، ذات ليلةٍ حين مضيتُ على ضفاف مستنقع ديسمال العظيم[1]، أضعت طريقي في خضم عاصفةٍ هوجاء تقاذفت جسدي يمنة ويسرة، هرولتُ متعثراً هلِعاً من وميض البرق المرعب، محاولاً تفادي الأغصان المتهاوية والسيول الجارفة، حتى حسبتُ أني هالك لا محالة، لكن حياتي أبتْ إلا أن تستمر في مُعترك المغامرات يوماً تلو اليوم، مزدهرة بعوائد متراكمةٍ تباعاً، وأرباح متنامية تدريجياً بلغت ثلاثاً وثلاثين في المئة من كل عملية بيعٍ صغيرة، حصّلتُ بعدها رصيداً كافياً لشراء حصانٍ وعربة، أما بحلول نهاية العام الثاني، فجنيتُ مخزوناً جيداً من المال، جامعاً الكثير من المقتنيات الثمينة، مع ازدياد مواردي وحجم أعمالي، قمتُ بالاستعانة بفتيانٍ من ولاية كونيتيكت، ممن تخلّوا عن الإبحار على متن المراكب الشراعية في سبيل العمل لمصلحتي مقابل عمولة محددة، لم يفت الوقت طويلاً حتى قررتُ الاستقرار في الديار، فقمتُ ببيع بضاعتي المحمولة كلها لأكثر مساعديّ نجابة وألمعية مقابل عائدٍ ماديّ مناسبٍ لكلينا.

حين قصدتُ مدينتي عائداً عابراً مدينة نيويورك، توقفتُ في شارع برودواي لطلب البذلة التي وعدت نفسي بها، ثم عدت إلى سبيندل هيل مبتهجاً بسترةٍ اشتريتها من مارسيليا[2]. منزلًا جديداً ابتعتُه لوالديّ، ثم جازفت بمبلغٍ يعادله كاحتياط نقديّ عبر ادخار قطع الفضة[3] التي زودتني

1- مستنقع ديسمال العظيم (Dismal Swamp) مستنقع كبير في منطقة السهل الساحلي بجنوب شرق ولاية فرجينيا وشمال شرق ولاية كارولينا الشمالية.

2- مارسيليا (Marseilles) مدينة تقع في الولايات المتحدة في إلينوي.

3- لم تكن أواني الشاي الفضية دالة على الوضع الاجتماعي والرخاء الاقتصادي

أرباح بيعها فيما بعد، بمبلغٍ جيدٍ قمتُ باستثماره مع مصانع ستة في بلدة ناوغاتوك[1] مقابل عوائد ماديّة وفيرة، يقولون إن الفقر مفخرة الفيلسوف وطاعون العالِم، مع ذلك، وعلى الرغم من رغبتي باعتبار نفسي فيلسوفاً، فإن هذا لم يردعني عن الإحساس بالامتنان والتفاخر بنزاهةِ ما جمعَتْه يداي من أموال وثروات، باختصار، وجدت نفسي شاباً ثرياً في أوائل العشرينات من عمره، غنياً بما يكفي لتحمل نفقات الإقامة بأجنحةِ الفنادق الراقية الرفيعة المستوى الواقعة على مسافة قريبة من مكتبات بوسطن العظيمة، هناك حيث كرّمت نفسي مكرساً جُلّ وقتي في الدراسة والتأمل، بعدها بفترة حزمت أمري للتفرغ للكتابة وإلقاء المحاضرات بما سلط عليّ قدرًا ليس بالضئيل من انتباه أصحاب الحكمة والدراية ممن أقدرهم، سرعان ما حظيتُ باستحسانٍ ودعمٍ من القس الموحِّد[2] دانيال داي، لأحظى بفضله على فرصةِ إلقاء الخطب والمواعظ من غير منبرٍ ثابت، لا أنكر في الحقيقة أنني مدينٌ للكاهن داي لتعريفي بأخته، الفتاة التي باتت زوجتي الآن.

رقدتُ في الظلام مستعيداً ما كتبته للتو لزوجتي بما يخصّ غبطتي لمغادرة المكان، لكن لا! أيُّ مشاعر مضادة خالجت خافقي رافقتِ اللحظة! يا للجزع! ها أنذا موشك على مغادرة غريس لعبوديتها من جديد، لرقّ ستربض تحت نيره ثانية، لكن بملء إرادتها هذه المرة.

في الليلة اللاحقة لمعركة الجرف، تسمرتُ طويلاً أمام البوابة الموصدة، محاولًا تجميع قواي لدخول الدارة بعد تلك السنين الطوال، لا يمكنني تحديد المدة التي أمضيتها واقفاً ضاغطاً برأسي على جذع العمود الأبيض

لملاكها فحسب، بل كانت قيمة مالية أيضًا، حيث كانت نموذجاً للاحتياطي النقدي الذي يمكن صهره واستخدامه كعملات نقدية.

1- ناوغاتوك: بالإنجليزية (Naugatuck) بلدة أمريكية تقع في الولايات المتحدة في كونيتيكت.

2- التوحيدية: حركة لاهوتية مسيحية دينية سميّت كذلك استنادًا إلى مفهومها بوحدانيّة الله حيث ترفض عقيدة التثليث، بالمقابل تعتبر عقيدة التثليث معتقداً دينياً يعني بأن الله الواحد ثلاثة أقانيم أو ثلاث حالات في نفس الجوهر المتساوي.

المتصدع، أما البرد الشديد فقد أخفق في لَجمِ العرق عن الانسكاب غزيراً منساباً على طول ظهري، تناهت لمسامعي أنّات الجرحى المتسللة من الداخل مستجدية مناشدة العون، فكرتُ بوجوب المسارعة للدخول لمساندة أرواحهم، ما برح ألمهم حقيقيّاً حيّاً أكثر بكثير من أوجاعِ ذاكرةٍ قديمة آفلةٍ لا يمكن لأحد إبراؤها.

استقمتُ أخيراً ثم أخذتُ نفسًا عميقًا، دفعتُ البوابة العظيمة بيدي، فلاحت بقايا الألواح الخشبية الفاقدة لقناديلها الزجاجية المضلعة، لا ريب أنّ رصاصاً أصابها أو أن معركة الاستحواذ على الجزيرة تسببت بتهشيمها، أبصرتُ أجساد الرجال المترعة بالجراح الطرية وقد احتشدوا مبللين متجاورين في أرجاء ما كانت تُسمى قاعة الاستقبال البيضاوية الأنيقة، استلقى جنود فوق الأرض، بينما استند آخرون بظهورهم إلى الجدران، توسد رجل قاعدة تمثال بروميثيوس المقيد، بملامح طفحت مكفهرة منهارة، كقسماتِ الوجه الكالح المنحوت فوقه.

بدا جلياً أن ما من عسكريٍّ على الأطلاق عبرَ النهر محمّلاً بأمتعته، أو حتى مكتسياً بكامل ثيابه، جنودٌ رقدوا بسراويل من دون قمصان؛ آخرون مكتسون بمعاطف من غير سراويل، البعض ارتموا عراة بالكامل، منهم من انتشل بُسطاً تركية[1] شاركها مع غيره لتغطية جسده، في حين أوشك ارتعاش العراة غير المدثرين، على زلزلة الدارة من أساساتها، ألقيتُ بعباءتي السوداء على كتف أحد أولئك التعساء.

داخل ما كانت مكتبة السيد كليمنت، أعلنتِ الصرخاتُ المستغيثة عن إصابات الجرحى الأشد حرجاً، سارعتُ للمكان سعياً لمقابلة الطبيب الجراح ماكيلوب؛ الرجل القصير القامة الممتلئ الجسد ذي الساعدين القويين المشعرين كساعدي قرد المكاك البربري[2]، فلمحته مديراً ظهره،

1- السجاد التركي: مصطلح يطلق على البسط والسجاد المنسوج على يد أعراق مختلفة سكنت الأناضول والمناطق القريبة منها التي كانت تحت سلطة الدولة العثمانية، نسج السجاد التركي لتغطية الجدران والأرضيات، رغم أنه يعرف اليوم بالسجاد التركي، فإنه في الواقع من إنتاج أعراق متعددة.

2- قرد «الماغو» أو «المكاك البربري» اسمه العلمي «ماكاكا سيلفانوس»: أطلقت عليه

يعالج ذراعـاً مهشمة لجنديّ يدعى سيث ميلبريك؛ الفتى كان صانعاً للعجلات في مدينة كامبريدج، لقد أفشى معطف الطبيب ماكيلوب الملطخُ بالدماء عن جهده الدؤوب وكده الطويل أثناء تنقله بين المصابين، قصدته متلكئ الخطوات مستسلماً لإرهاقي ويأسي، مصغياً لصوتٍ دفينٍ عميقٍ يدعوني لتحسين وجهة نظري التي اتخذتها تجاهه، رفع ماكيلوب حذاءه عن الأرضية الغارقة بالدماء، أطراف مقطوعة -ساعدٌ وقدمٌ وساقٌ- ارتمت بإهمالٍ قرب قدميه، ليشرع بشحذ مشرطه بجلد الحذاء الملطخ، توسل المسكين سيث للجراح كي يحاول إنقاذ طرفه، حاله كحال الجنود الموشكة أعضاؤهم التالفة على البتر، إلا أن مقذوفاً نارياً حطم عظام كوع الشاب محيلاً إياها إلى شظايا بيضاء حادة كالإبر اخترقت أنحاء العضلة الممزقة طولياً.

كان دماغي ما زال متفكراً بتغيير رأيه تجاه السيد ماكيلوب، حين استدار الطبيب لمسح مشرطه بقطعة من القماش فرآني: «مارش! لقد جئتَ في الوقت المناسب! تعال إلى هنا!» صرخ كمنْ عثر على كلبه الضال، «أمسكْ كتفيه»، سارعتُ بتنفيذ ما طلب، محاولاً التحديق بوجه ميلبريك كي لا أضطر لمشاهدة عملية البتر، توسعت حدقتا ميلبريك ثمّ اتشحت بالسواد مترعة بالألم والذعر، بينما هزَّ ارتعاش أوصاله الطاولة التي رقد فوقها، اقتربت برأسي من أذنه هامساً بكلمات المزمور: «فَصَرَخُوا إِلَى الرَّبِّ فِي ضِيقِهِمْ، فَأَنْقَذَهُمْ مِنْ شَدَائِدِهِمْ،،[1]» هوى مشرط ماكيلوب ضارباً شرياناً دموياً فدفقت قطراتٌ دافئة حطّ بعضها فوق جفنيّ، لم يسعني فك قبضتي عن الجسد المتلوي لمسحها، فتابعت ترتيل الآيات: «*أَرْسَلَ كَلِمَتَهُ فَشَفَاهُمْ،*[2]»، تسلل لفمي طعم الحديد حينما سال الدم من جفني متسللاً جانب أنفي وصولاً إلى شفتي، ارتخى جسد ميلبريك من قبضتي بعد ذلك، فاعتقدت أنه وقع في فقدانٍ رحيمٍ للوعي، لكن حين رفع الطبيب ماكيلوب يده الضاغطة على الشريان النازف، لاحظت انسياب الدماء بلا نبض معلناً نهاية حياة الرجل.

هذه التسمية لأنه قرد من غير ذيل ويعيش في مناطق البربر أي الأمازيغ من سكان شمال إفريقيا في حين يلقبه الأهالي بالزعطوط.

1- (سفر المزامير 107: 6)

2- (سفر المزامير 107: 20)

نخر ماكيلوب، ثم التفت قاصداً مريضه التالي المصاب برصاصةٍ اخترقت بطنه، قام بغرز إصبعه للحظاتٍ داخل الجرح المفتوح متحسساً إياه بجلافة وعشوائيةٍ، ثمّ سحبه مستهجناً بالقول: «حين تتوه الرصاصات بين الأحشاء لا ضرورة لإضاعة الوقت في البحث عنها»، لحسن حظ الرجل الجريح فقدانه التام للوعي بما فوّت عليه سماع الجملة الكالحة التي نطقها الطبيب الجراح، حين انتقل ماكيلوب للاهتمام بجمجمةِ جندي مهشمة، تبدّت حالتها مثل كوبٍ من الصفيح المتصدع، رفعتُ ذراع ميلبريك نصف المقطوعة، الملتوية بهيئة غير طبيعية، وضعتها فوق صدره، ثم عقدتُ الذراع الأخرى فوقه، قال ماكيلوب دون رفع عينيه عما يقوم به: «انظر في الزاوية؛ هناك رجل يدعى فيلبرايد، مصاب بشظية اخترقت صدره ولا أظن أن بوسعي إنقاذه، لقد طلبَ قسيساً،، من الأفضل أن تنهي الأمر معه بسرعة».

لا ريب أنّ فتى المزرعة لن يخطئ في التفريق بين أكوام القش والخيام المنصوبة، لكن ماذا لو تولى الغلام ابن المدينة مهمة القيام باستطلاعٍ عسكريّ لشاطئ فيرجينيا! اعتاد فيلبرايد المترعرع في بلدة صناعية، على المشاركة بأعمال شقّ الطرق وبناء جدران الطوب، لم يظفر يوماً بالنظر إلى أفقٍ أكثر اتساعًا من شوارع بلدته، في إحدى الليالي وفي خضم غزوٍ كثيفٍ لأبخرةِ الضباب، تسبب خوف الفتى وقلة خبرته مع الخفر من مرافقيه بالسماح لسريّة معادية بالتسلل إلى الحقلِ المحصود المكلف بحراسته، التزم الجندي الغرّ بموقعه إذعاناً لرغبة جنرالاتنا بتحقيق نصرٍ هيّن، لكن! يا لفيلبرايد البائس! سرعان ما أدرك أنّ تقريره الخاطئ كان الأرضية المتداعية التي انهارت بصرحِ يومِ الفصيلةِ بأكمله، خطأ ليس بالوحيد، وذنبٌ لم يكن بالأعظم، هذا ما كنتُ أهمسه للشاب اللافظ لأنفاسه الأخيرة، المتقطر جسده بالعرق المتلألئ فوق جلده الشاحب رغم صقيع الليل الطويل.

كم تمنيتُ أثناء إصغائه لعظتي، لو فاضت عيناه بيأسٍ أقلّ، أو شهق صدره بأنفاس أشدّ سكينة! لكن بدا جلياً أنها رغبة لن أحظى بحيازتها منه، لعلّ الفتى أراد سماع شيء عن الخلاص والحياة الأبدية، عباراتٍ من أمثال «لنتمسك بمشيئة الله»، أو «سنرتمي بأحضان مخلّصنا» أو ربما التمس الإصغاء لمواعظ كنسية تضيء فؤاده بأملٍ أو غفران، لكني آثرتُ الإحجام

عن النطق بأفكارٍ مماثلةٍ مؤثراً النطق بالحقيقة البينة هامساً بأذنه: «أحداث اليوم ليست من مشيئة الرّب بشيء، ولا الإله من صنع مجرياتها، بل إنها مجرد أفعال بشرية تخريبة مشينة»، قلتُ ما قلته قاصداً تخفيف وطأة روعِ ما جرى على نفسه، مشيراً إلى أن خسارة معركةٍ لا تعني خسارة الحرب برمتها، موضحاً أن القضية التي نخدمها تستحق ما بُذل وما يبذل في سبيلها من أثمان غاليةٍ، هنا وفي عشرات الأمكنة، اليوم وطوال الأيام القادمة،،!

إن كان كلّ ما فعلتُه في ذلك اليوم قد ذهب هباءً منثورًا، فكيف لخدمةٍ كهنوتيةٍ قدمتها لصبي محتضرٍ أن تأتيَ بحالٍ أفضل! لا جدوى! نهض الغلام فجأة في محاولةٍ يائسة لالتقاط أنفاسه بعد إخفاق رئتيه المثقوبتين بالقبض على مزيدٍ من الهواء والحياة، فلم أجد وسيلة لمساعدته إلا باحتضانه بحنان أبٍ قانط، فغر الفتى فاه كسمكة نافقةٍ انتشلت من محيطها، ليتشح جلده تدريجياً بشحوبِ الشوفان.

طفقتُ بعد ذلك، باحثاً عن عربةٍ لتحميل وإخراج الأطراف المبتورة التي أثارت بمشهد ركامها المتعالي ذعر الجرحى، بعد إتمامي للمهمة تطلعتُ لإحضار الماء بغية شطفِ الدماء المتخثرة عن الأرضيات، فقمتُ بجمع ما استطعتُ حمله من الأباريق الفارغة، ثمّ شققتُ طريقي عبر الرجال المنهارين، قاصداً بئر المنزل.

على الرغم من البريق الشحيح للشموع ومضي ما يقارب العشرين عامًا، فإنني تمكنتُ من التعرف إليها، شيء ما في تقوّس الظهر دلني على هوية تلك الفتاة المنحنية بجسدها الأهيف لملء الجرار من دلو البئر، لعله ترنح خصرها أو حركتها المتأنية أثناء الاستقامة، أول وصولي للمكان مسمّراً على الدرج محاولاً استجماع شجاعتي لدخول الدار، جزمت بصوابِ الإحساس الذي انتابني حول الأمَة التي ذكرها الجندي متأملاً بيقينٍ أنها ليست سوى غريس، رغبة عارمة بالتصديق راودتني، وأمنية مغزولة بالإثارة والارتياع، لحظة تأكدي من هويتها، استعر الشوقُ بقلبي فيما ارتعشت الرهبةُ بأوصالي ما أحالني أخرق بالكامل، فزُلق إبريق من يدي، ثم تعثرتُ ببلاهة أثناء محاولتي لالتقاطه، بالنسبة لغريس؛ كان مارش ذاك الفتى الساذج، آخر من تتوقع رؤيته على الإطلاق، لذلك حينما استدارت، لم تر مني إلا مصاباً

نازفاً لاحقاً بسلسلة الجرحى، جنديّاً بائساً بلا معطف، بغير رتبة، يشي وجهه الملطخ بالدماء بأذيةٍ شديدة.

«دعني أحملها عنك، أيها الجندي» قالت بينما تمد يدها إلى الأباريق، يا للصوت الفضيّ! الرنان العذب!

«من اللطف محاولتكَ تقديم المساعدة، لكن لا ينبغي أن تتنقل مهملاً تضميد جرحك»

«لست جريحاً يا آنسة غريس، كنتُ أساعد الجراح في عملية بتر ذراعِ أحدِ الجرحى»

الوشاحُ الرقيق المخرمُ المعقود حول رأسها، العالق بذاكرتي أبداً، خفق بخفةٍ حين التفتتْ بفضولٍ كمن يقتفي أثر طريدة، رفعت الفانوس الحامل لشعلتها ثمّ حدقت بتمعن في وجهي مُستفهمة بالسؤال: «هل أعرفك يا سيدي؟»

«لن تتذكريني على الأرجح–» تفوهتُ بعبارتي مدركاً مدى حماقةِ الجهر بما نطقت، إذ كيف يتسنى لها نسيان الشاب الغرير المتسبب في تعذيبها؟

«أنا مارش،،، أبلغ الآن الواحد والأربعين عاماً،،،»

«السيد مارش! المعلم!»

لم يسعني في الظلمة الحالكة التميز بين خفايا ما قصدته حين خاطبتني على هذا النحو، أكانت نبرة سخرية، أم دفئاً حقيقاً سنا بصوتها؟

«اغفر لي، لم أتوقع أن أراك جندياً في صفوف الجيش»

«إنني أخدم بصفتي قسيساً»

رفعتْ ذقنها بإيماءة خفيفة بدتْ موائمة لذاكرةٍ احتفظتْ بها عني، ثم مدّت بالتحية يدها، خشونة وتشققات نالت من ظاهر كفها وباطنه.

لا بد أن ملامحي وشتْ بما جال في خاطري، حسمه تحديقها الواعي بيدها بعد سحبها من يدي فبادرت بالقول: «أمورٌ كثيرة غيرتها الأحوال هنا يا سيد مارش، رأيت بنفسك شيئاً منها، وما زال أكثرها أقلّ جلاءً، لعلّ الوقت يسعفنا للحديث عنها إن رغبت في ذلك، لكن أعتقد أنّ الجرحى الآن عِطَاشٌ،،،»

«بكل تأكيد»، أردفتُ بنبرةٍ سريعة؛ «ما زال لدينا الكثير من المهام العالقة»، أفسحتُ لها الدرب لتمضي، ثم توجهتُ لتأدية واجبي الخاص المتمثل بتأمين سبلِ الراحة لمن يحتاجها حتى نال الإرهاق من جسدي المنهك، فغفوت بظهرٍ مسندٍ إلى بيت الدرج وأصابع قابضةٍ على كفّ رجلٍ أردته جروحه النازفة مكلوماً، هناك في الردهة الإهليجية وقبيل بزوغ الفجر، أفقت على برودةٍ متسللةٍ من يده المتصلبة.

فتحتُ عينيّ على قامة غريس الواقفة قبالتي، بين يديها إناء مترعٌ بالقهوة حضّرتها لأجلي، أغمضتُ عينَي الجندي الميت، حاولت القيام بعد ذلك بجسدٍ متيبسٍ، غير قادرٍ على الوقوف فوق قدميّ دونما الاستناد إلى درابزين الدرج، خشونة في الخشب تحسستها بباطن كفي، جالت غريس بإصبعها فوق البقعة المشوهة للعمود مبررة بالقول: «أخشى أنني السبب، إذ قمتُ أثناء احتدامِ المعارك بإدخال حصان السيد كليمنت إلى الردهة، فلم يتوانَ عن قضم هيكل الدرابزين كما ترى، بعد فترة من الزمن حين عثر عناصر من الجيش عليه، قاموا بمصادرته باعتباره من وجهة نظرهم، بضاعة مهربة خلال الحرب،،،»، أشاحت ببصرها بعيدًا مطلقة العنان لتساؤلٍ اتقد في فكري؛ لعل غريس لا تدرك حالتها التي لا تتمايز كثيراً عن وضع الحصان المُصادر، فما أحسبُها سوى مُهرّبة حربٍ هي الأخرى، أخذتُ كوب الصفيح الذي ناولتني إياه، غرفتُ قهوته الساخنة اللذيذة، ثم أعدته إليها لتتابع مهمتها في خدمة ومعالجة بقية الجرحى، لا ريب أنّ السماء الماطرة بغزارة طوال الليل، فاضت ببؤس الجنود المشردين القابعين في البراري، مكدّرة صفو قاطني هذا المنزل الكئيب - حاولتُ التمعن بملامح غريس عبر الضوء الضنينِ للقنديل، سنواتٌ عشرون قدّت نضارتها بكل تأكيد؛ حفرتِ الأيام خطوطاً دقيقة حول عينيها وفمها، فيما سلبت الظروف القاسية النعومة من بشرتها، لكن غريس ما لبثت امرأة فاتنة جذّابة آسرة لحدقاتِ الرجال المُطاردة، المشيّعة لقامتها الممشوقة المتنقلة برشاقة من ركنٍ إلى آخر.

مهماتٌ جمّة رافقتْ ساعات ذلك الصباح؛ إذ قمنا بإحصاء القتلى الذين أُستردت جثامينهم إثر المعركة الأخيرة، مسجلين أسماءهم ووحداتهم على قصاصاتٍ ورقيةٍ أودعناها داخل زجاجاتٍ مغلقة، ثم قمنا بدسّها تحت

ستراتهم إن وجدت، تعاونّا بعد ذلك على دفنهم بعد إرقادهم جنبًا إلى جنبٍ في قاعِ قبرٍ جماعيّ ضحل، لاحقاً وقبل انتصاف النهار وصلت عربات الإسعاف إلى أطرافِ بلدة ماريلاند بغية نقل الجرحى إلى مستشفيات واشنطن، لا وجود لنقالاتٍ تحمل الرجال إلى القوارب سوى زنود القادرين أمثالي على أداء مهماتٍ مضنيةٍ استغرقت جهداً وساعاتٍ طوالاً، أما الأمطار الدؤوبة بالتآمر مع الأرض الموحلة، فزادت من أوجاع أوصالي غارزة بفؤادي الأسى، لم يكفّ الطمي اللزج عن الالتصاق بقدمي العاريتين، متراكماً محرضاً على سلخ جلدهما مُدمياً مقرّحاً، مع انتصاف شمس الظهيرة في سمائها مسحتِ البغال الجائعة آثار حوافرها الغادية والآفلة، جارفة العربات الصدّاحة بأنين الراقدين داخلها وعويلهم اليائس، لينطلق القطار بعد ذلك، مبارحاً الجرحى القادرين على المشي جنباً إلى جنب مع المصابين بجروحٍ خطرةٍ حرجة، ممن اعتقد ماكيلوب بعدم جلادتهم على تحمل مشاقّ الرحلة العسيرة الشاقة إلى واشنطن.

أفشى ضوء النهار عمّا تكتّمتِ العتمة عنه، إذ بدا جلياً أن المنزل المدمّر لم تستهدفه نيرانُ حربٍ استعرت لأسابيع قلة، فالتخريب طويلُ الأمد قد داهم الأرجاء برمتها، رمقتُ الحقول فإذا بالأشواك والأعشاب قد اجتاحتها بجموحٍ وقح، فيما حرق الصقيع شتلاتِ التبغ بأوراقها العريضة قبل تسني الفرصةِ لحصادها أو تجفيفها، خرابٌ لم تنجُ منه أشجار الفاكهة المظلّلة لحديقة المطبخ، إذ لاحت مقطوعة من الجذوع مفرجة عن أغصان خجولة شاردة، في حين نالت الفوضى من الصفوف المرتبة المنتظمة لعروق الفاصولياء التي انطلقت شعثة طويلة السيقان، مهملةً كالعديد من أسرّة الزهور العارية القاحلة، سرعان ما أدركت أن حجارة الجدران المتهاوية التي مررت جوارها عبر الظلام، ما كانت سوى بقايا هيكل الطاحونة وما رافقها من شؤونٍ غاربة، لطالما كدّرت بتدبيرها صفو السيد كليمنت، من الجليّ للعيان أن كارثة مروّعة اكْتَسَحتِ المكان، محنٌ وبلايا تقتُ للظفر بتفاصيل دواعيها، إلا أنّ الضغوط والأعباء المرافقة لذلك اليوم، بددت المناسبة لتساؤلٍ أو شرحٍ أو توضيح، حتى غريس الغارقة بواجباتٍ لا تعدُّ ولا تحصى فقدتُ المناسبة للاجتماع بها، أو تبادل لأيّ حديثٍ معها.

تقييماً للوضع الذي بات عليه الجميع؛ حضر الكولونيل في اليوم التالي، مشرفاً معلناً عن تناقصٍ حادٍّ في أعداد الجنود المتبقين دنوّاً إلى الثلاثمئة والخمسين عنصرًا فاعلًا في وحدةٍ عسكرية كاد يفوق تعداد أفرادها الستمئة جندي، في حين أثبت السيد ماكيلوب جدارة بتقييمه الطبي للحالات الخطرةِ الحرجة، فمعظم من أعلن الطبيب الجراح مشارفتهم على الموت قضوا بالفعل خلال يوم أو يومين، أما عني فقد سعيتُ جاهداً خلال فترة ما بعد الظهيرة، لتقديم العون بما يخصُّ تحضيرات الموتى ما قبل الدفن وفق ما سمحت به الطقوس، ومن ثمّ مواراةِ الجثامين الثرى في ركنٍ من الحقل خصصناه كمقبرةٍ متواضعة، حين طفقتُ عائداً للدار، لمحتُ غريس من بعيدٍ تتمشى على طول الشرفة بصحبةِ عجوزٍ ضعيفٍ متكئٍ على ذراعها،، أشرتُ إلى أنها تتمشى، لكن في الحقيقة بدتْ خطواتها المتبعة لقدمي الكهل متلكئة بما يكفي لتفقدها سمة المشي، لا بد أنه السيد أغسطس كليمنت - توقعتُ ذلك غير متيقنٍ من صواب تخميني، فالرجلُ لم يعد يتمتع باستقامة قامات الرجال على الإطلاق، فقد تقوّس عموده الفقري بشدة، فانحنى بهامته للأمام من جانبٍ واحدٍ كوضعية رأسِ الديك، حتى إنّ ميلان عنقه المشوه أوشك على لصقِ أذنه بعظمةِ الترقوة، كانت كفُّ غريس تقبضُ بقوةٍ على ذراعه اليسرى، بينما أسندت خصره بساعد يدها الأخرى، لمحت يمناه وقد انسدلت من كتفه بثباتٍ حتى المرفق لتخفق بعدها بعنفٍ، فيما لاطمت الهواء بأصابعها المختلجة، كلما أراد الرجل التقدم بخطوة إلى الأمام اضطر لرفع ركبته إلى الأعلى بالتوازي مع خاصرته، فتتأرجح ساقه لفترة طويلة في الفراغ، قبل إرساء أصابع قدمه مؤقتًا على الأرض، ومن ثمّ السماح لكعبه بالحركة بتروٍّ متعمَّدٍ كراقص.

لم يتمكنا من إحراز العديد من الخطوات حين سارعتُ للانضمام إليهما ملقياً التحية، لم يستطع السيد كليمنت رفع رأسه، فاستدار بكامل جسده جانبًا محدقاً بعينين غائمتين تنشدان التعرف إلى هوية الضيف المتحدث، لم ألحظ سوى غفلةٍ وشمت ملامحه بفعل الشلل الذي طال عضلات وجهه شأنها شأن بقية أعضاء جسمه، انحنت غريس نحوه ثم همست بهدوء في أذنه.

صوتٌ عجيبٌ أشبه بنهيقِ الحمار صدح من حنجرته، رافقته فقاعة من

اللعاب اللزج انزلقت من شفتيه المتهدلتين ثمّ انبجست على هيئة خيطٍ تقطّر أسفل ذقنه، ليتعاظم الخفقان في يده ببلبلةٍ أشد عنفاً، أخرجت غريس منديلاً ومسحت وجهه.

«كما ترى يا سيّد مارش، إنّ السيد كليمنت مصاب باضطرابٍ شديد بفعل الأحداث التي تمخضت عن الفوضى المحيطة، استأذنك بالمغادرة، أعتقد أنه من الأفضل إعادته إلى غرفته»

«هلا سمحتِ لي بمساعدتك؟ إذ يبدو عليه الضعف والإعياء الشديد»

«بالطبع، من دواعي امتناني وعرفاني»

أخذتُ مكاناً لي على الجانب الآخر من الجسد المرتعش، ثم تعاونا على إدخاله معًا، رتبت غريس سريرًا وُضع في غرفة الطعام، لاستحالة تمكنه من صعود الدرج، بعد خطوات مختلة عدة تمكنتُ بمساعدتها من إرقاده على فراشه الذي أتاه بتنهيدة قانطة طويلة، رفعتُ الحوض أثناء قيام غريس بشطف وجهه، وبحلول وقت انتهائها من تغيير ملابسه كان قد استغرق بنومٍ عميق.

أخذت غريس الملابس والحوض وانسحبت إلى ما كان يوماً الحجرة الخاصة برئيس الخدم، لمحتُ على الأرض فراشاً ضيقاً محشواً بأعواد التبن، لا بد أنه المكان الذي تمضي فيه لياليها، بعد انتهائها من ترتيب الأغراض الخاصة بالسيد كليمنت، انتصبت بقامتها محدقة عبر نافذة الغرفة الصغيرة، كان الضوء ينحدر عن الحقول المهجورة، ملقياً بالظلال الطويلة حول الشجيرات الشوكية.

«أدعى أوزيماندياس، مَلِك المُلوك كنت:
انظرْ إلى مُنجزاتي، أيها الجبار، وابتئِسْ!»
كل شيءٍ آفل.
تمتدُّ عارية وبلا حدود.
بوحشةٍ!
حَوْلَ الخَراب والحُطام الهائل.
رمالٌ منبسطة على مَدِّ البَصَر»[1]

1- قصيدة أوزيماندياس لبيرسي بيسشي شيلي (1792–1822) أما (أوزيماندياس)

حررتْ تنهيدة عميقة ثم قالتْ بأسى: «لطالما طلبت مني السيدة كليمنت يا سيد مارش إلقاء هذه القصيدة حتى حفظتُها عن ظهر قلب، لا أخفيك الرضا الذي يراودني لمغادرتها قبل أن تشهد كمّ الحطام الذي أتلف أرواحنا»

استدارت غريس عن النافذة، ثم طفقت عائدة إلى غرفة الطعام، «لقد ماتت كما تعلم، أسلمتِ الروح في يومٍ خريفيّ من العام نفسه لزيارتك الأولى، لتُقام لأجلها طقوس حداد لائقة، دعني أُسرُّ لك يا سيّد مارش، بأنني الوحيدة التي أفضى رحيل السيدة إلى تغييرها»، اتجهتْ نحو كرسي خشبي، تخيلتُها غالباً ما تجثم عليه يقظة ساهدة على راحة الرجل العجوز، ثمّ جلست بظهرٍ مستقيم ورأسٍ منحنٍ، بعجبٍ حدقت عيناها بكفيها المطويتين في حجرها، قلّبتهما مراراً كما لو أن حالتهما المزرية فاجأتها، رغبتها الجليّة بالتحدث، أجلستني بدوري على كرسي ذي ذراعين، مفترضاً أنه المكان المعتاد لجلوس السيد كليمنت، لابد أن شهوراً مضت منذ آخر مرة استفاضت غريس بحرية التحدث مع أحدهم، إذ سرعان ما انخرطت بابتهالاتٍ وتضرعات بمجرد بدئها بسرد القصة المترعة بالفقدان والخسارات التي لحقت بتلك العائلة العريقة.

«جرى الحال على المنوال ذاته، حتى مجيء ابنة السيد كليمنت متوسلة إلى والدها أن يهبني للعمل في مزرعتها في مدينة جيمس، زاعمة بحقٍّ، ضآلة المهام المترتبة عليّ في هذا المنزل، لكن السيد كليمنت ردها من حيث أتت خائبة غاضبة، توقعتُ بعدها أن يتم تكليف أحد خُدّام المنزل بمهام شاقة في الحقول، فأتوكل بهمامه التدبيرية داخل المنزل، لكن لا شيء حدث من هذا القبيل، الاقتراح ذاته طرحه السيد هاريس على السيد كليمنت ليبوء بالاستنكار بدوره، لقد تُركتُ وشأني لشغل ساعات يومي وفق رغبتي الخاصة، فقمتُ بما كنت أفعله على الدوام، واصلتُ القراءة والمطالعة يا سيد مارش، مع اختلافٍ متعلقٍ باختيار عناوين المجلدات والكتب وفقًا لميولي الخاصة بدل الانصياع لأهواء السيدة كليمنت، وضعٌ سلسٌ دام

فاسم آخر لـ (رمسيس العظيم – رمسيس الثاني)، الفرعون من السلالة التاسعة عشرة في مصر القديمة، يقال إن تمثال (ممنون الأصغر) لرمسيس الثاني المعروض في المتحف البريطاني هو الملهم للشاعر شيلي لكتابة قصيدته تلك.

لأكثر من عام حتى حلول الخريف التالي، ذهب يومها السيد كليمنت بزيارةٍ إلى مزرعة ابنته، حيث كان من المقرر إقامة احتفال عائلي، أما ولده فكان من المفترض انضمامه للعائلة عشية الموعد محملاً بغنائم صيده من الديكة الرومية البرية احتفاء بهذه المناسبة، لكن الشاب خرج ولم يعد، بدا أن قدمه علقت بأجمةٍ من زهر العسل لتخطئ بندقيته وجهة رصاصتها إلى وجهه بدلاً من طريدته، حين عثر السيد هاريس عليه، قام بحمل جثته إلى المنزل، حاولت إقناعه بضرورة وضع الجثمان في التابوت قبل عودة والده، لكنه رفض القيام بأي فعلٍ دون الاستماع لأوامر السيد كليمنت، حسنًا بالطبع، وصل السيد كليمنت منفطر الفؤاد، مصراً على رؤية ولده، لقد بذلتُ ما بوسعي لردعه تفادياً لرؤية المشهد الرهيب لكن دون جدوى»، رمقتني بنظرةٍ مديدةٍ، فلمحتُ الحالة الفظيعة لهيئة الجثة العالقة بذاكرةِ عينيها، لتكمل ما تود قوله بجزع: «ظلّ الوالد جاثماً طوال الليل جوار الجثمان حتى بزوغ شمسِ اليوم التالي، حين لاحظتُ ارتعاشاً بيده ظننته في بادئ الأمر تعباً وإنهاكاً، إلا أنه في الحقيقة لم يكن سوى بداية مؤسفة لتدهورٍ سريع لصحته واستهلالٍ لمرضه العصيب، بعد حادثة وفاة السيد الشاب لم يمكث السيد هاريس بالمنزل، فغادر المكان بعد ظفره بعرضِ عملٍ أفضل، الرجل الذي أضمر ولاءً وحباً رافقا العشرة الطويلة لابن السيد كليمنت، لم يتوان طوال الوقت عن تزكية الفقيد والثناء على حسن إدارته لأعمال المقاطعة، على نقيضٍ من السيد كليمنت الذي أبدى تذمره من ولده مراراً وتكراراً، معبراً بقسوة عن سأمه من قلة حنكته وضآلة قدراته الإدارية، أعتقد أنك بتّ على دراية بالسيد كليمنت، واعياً بحرصه على إشهار ازدرائه بشؤون المقاطعة والاستهانة بمن يشغّلون عقولهم بحل تشابكاتها»، صمتت غريس لبرهة ثم أردفت بالقول: «لا يمكنك تخيل دهشة السيد هاريس وغضبه المستعر صباح يوم عودته من السفر، حين جاء إلى المطبخ في طلب المرطبات، فأخبرته آني عن حسن استضافتك ومشاركتك اليومية لطعام العشاء مع السيد كليمنت، في حين لم يحظ الرجل يوماً بدعوة عشاء واحدة إلى مائدة العائلة طيلة خدمته الطويلة التي قاربت التسع سنوات، أعتقد أن السيد كليمنت، لا يملك الحق بتوقع أيّ ولاء أو دعم من السيد هاريس على الإطلاق.

«على أيّ حال، لم تدر شؤون المزرعة بمهارة منذ يوم مغادرته للمكان، فالمشرف البديل الذي وظفه السيد كليمنت أضمر خبثاً واحتيالاً، مترصداً الفرصة الملائمة لاختلاس الأرباح العائدة لسنة كاملة، ليأتِي من بعده وكيلٌ أرعن همجيٌّ وحشيّ،،» توقفتْ للحظة محاولة دحر ذكرياتٍ مريرةٍ ابتعلتْ صوتها، قام السيد كليمنت بطرده بعد تسببه بفرار موس وآسا؛ أكفأ أيادي الحقل براعة ومهارة، حتى ذلك الوقت لم يسبق لعائلة كليمنت تجرؤ أحد من عبيدها على الهرب، لكن إدارة المكان الفاشلة أكسبته سمعة سيئة، ليمسي الشخص الوحيد الذي أمكن للسيد كليمنت الاعتماد عليه، رجلاً ثملاً غافلاً في سريره نهاراً، متجرعاً كؤوس نبيذ التفاح ليلاً، ليُعلن بعدها عن عام الشروع ببيع الخدم مع فقدان السيد كليمنت لأي خيارٍ آخر لتدبر شؤون معيشته وسد احتياجاته، حين رآني السمسار عرض ابتياعي مؤكداً أنني كـ«فتاة بنيّة البشرة» أستحق ثمناً يفوق سعر ثلاث أياد عاملة في نيو أورلينز، لكن السيد كليمنت لم يعر أهمية لاقتراحه، مسارعاً لبيع جاستس وبرودينس بدلاً مني، أما والدتهما المكلومة آني، يوم ساقهما السمسار بعيداً، فغدت قاصدة النهر بغير رجعة، لطالما ادعى السيد كليمنت أنها انزلقت عن الصخور فأغرقتها المياه الجارية، لكن الحقيقة المخالفة التي ندركها جميعاً، أنّ المرأة خاضت في القناة بكامل إرادتها حتى غمرها النهر مغرقاً شجونها وحسراتها»، شعرتُ بكتلة صلبة هوت داخل حلقي فأغلقتْه، على نحو مفاجئ توقفت غريس عن الحديث، متشاغلة بإشعال المصباح بوجه العتمة المتكاثفة، لأسارع مناوراً توهج الفتيل بمسح دموعي المنهمرة بباطن كفي، «حالما وصلت الأخبار بأن جيش الاتحاد يخيم على ضفاف النهر في بولسفيل، هرعت نصف الأيادي العاملة المتبقية للهروب، عدا ثلاثة منا، اثنان غادرا منذ أسبوعين إبان معركة الجزيرة».

«غريس» خاطبتها متقدماً بخطوة نحوها، «لماذا لم ترحلي بدورك أيضاً؟ أخبرني الكولونيل أنه عرض عليك فرصة للعملِ في مستشفى في مدينة جورج تاون[1]،، لمَ لمْ توافقي؟ إذ يمكنك البدء بحياةٍ جديدةٍ هناك،،،»

1- جورج تاون (بالإنجليزية: Georgetown) مدينة تقع في مقاطعة كويتمان، بولاية جورجيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ردت على سؤالي بنظرة تلتها التفاتة إلى السيد كليمنت الغارق بالنوم، حدقت بوجهه ثمّ انحنت فوقه لتعديل غطائه، بدا الرجل لي مع ارتعاد جسده وشخيره كما لو أنّه وحشٌ غاف، «إن امتناعه عن بيعك لبيت الدعارة لا يعني أنك مدينة له بكل هذا الإخلاص، لا تنسي أنّ لديه ابنة من واجبها رعايته بعد كل شيء»، ثم تابعتُ القول متسائلاً:

«لماذا لم تبادر تلك الابنة إلى الاعتناء بوالدها؟»

استقامتْ محدقة بي بنظرة مباشرة اخترقت قلبي:

«لديه ابنتان يا سيد مارش!»

لم أستوعب ما عنته للحظة، لكنني سرعان ما أدركتُ مقصدها الذي أصابني بدوار مفاجئ فمددتُ يدي محاولاً التوازن بالاستناد إلى ذراع الكرسي، كيف فاتتني مسألة جليّة كهذه؟ مكانتها في المنزل! المسحة الفاتحة لبشرتها! الشبه الذي تحمله للسيد كليمنت في طول قامتها وسلوكها، لو لم أكن ساذجاً أثناء زيارتي الأولى، لأدركت الأمر في الحال، خاصة حينما أخبرتني غريس أن والدتها بيعت فور زواج سيدها، من المؤكد أن ما حدث كان خطة مدبرة غاية في الخبث.

«لكن لا تظن أنني خُدعت بما جرى، فليس هذا السبب الحقيقي في إبعاده لي عن متناول يد السمسار مثلي مثل بقية الخدم»، استدارتْ في ضوء المصباح الخافت، ثمّ لحظتُ أنها تفك حزام تنورتها.

«غريس»، خاطبتها مطرقاً بخجلٍ عينيّ؛ فما كان منها إلا أنْ رفعت أصبعها إلى شفتيها مومئة بالصمت، وفجأة إلى صوتٍ أجشّ انقلبت نبرتها الفضية العذبة:

«ليس من سببٍ يدعو لاحتشاميَ عنك»

«ألم تبصرني على هذه الحال من قبل؟» بدتْ ثابتةً نظرةُ مقلتيها المترعتين بالدموع، زلقتِ القماش لأسفل فخذها الأيمن قاصدة إظهار الندوب المتغضنة الشاحبة التي اكتسحت جلدها الناعم اللامع، عشرون عامًا مضت، ولا يزال الدليل حاضراً كاشفاً عن أشنعِ جريمة شهدتُها بنفسي،، جريمةٍ تسببتُ أنا بوقوعها!

«انظر! لا يدفع تجار فتيات الهوى ثمناً لبضائعَ معابة، يا سيد مارش»

خطوتُ تجاهها بغية رفع القماش إلى أعلى لتغطية الندوب الفظيعة التي ما إن لامستْها أطراف أصابعي، حتى أصيبتْ بقشعريرةٍ من شدة صلادة قشرتها المجعدة، جثوتُ على ركبتي مُجتاحاً بشعورٍ طاغٍ من الحزن والإشفاق معاً: «آسف جدًا يا غريس!»، نطقتُ هامساً، لكن أثناء محاولتي النهوض وضعتْ يديها على كتفي ورفعتني إليها برفقٍ، احتضنتني للحظات، ثمّ وجهت وجهي نحو وجهها.

أفكارٌ كثيرة قلتها لنفسي كي أبرأ من الشعور الذي اعتراني منذ ذلك الحين، حاولتُ التبرير مدعياً بأن الإعياء طمس بصيرتي تماماً، أن جسدي المتنقل بين الجثث مُكرهٌ على التشبث ببصيصٍ من الحياة، مُجبرٌ على ممارسة فعل التكاثر نفسه، منقادٌ لغريزة التناسل البدائي، أقنعت عقلي في تلك اللحظة؛ أن القيام بما يوحدنا معاً يعدّ من أسمى الأعمال الأخلاقية في الملكوت، نبلٌ يدحض كل ما يدعو للتفرقة بين البشر فيما عدا ما ذكره الرب في سفر التكوين عن التمايز بين الرجل والمرأة: «وَلكِنْ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا اللهُ»، لكن الحقيقة البينة الجليّة التي لا يمكنني إنكارها: الرغبة الشبقة التي راودتني آنذاك، بذاك الجسد المقنطر المحني، المرتعش، المهمل - الذي أثارني حتى النخاع!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

القليل من الجحيم

خارج هاربرز فيري[1]، 15 يناير 1862

عزيزتي.

مع تنسم الصبح بسكينته على طول خطوطنا القتالية، دعيني أغتنم الفرصة لبث الدفء داخل أصابعي المتجمدة عبر كتابة بضعة سطور، لا بد أنّ احتفالات عيد الميلاد ستمسي فيضاً من ذكرياتٍ بحلول أوانِ تلقيكنّ رسالتي هذه، كم آمل يا عزيزتي! أن تتمكن فتياتي من اقتناص ساعاتِ المرح من لبّ أوقاتهن العصيبة، بصحبة باقةٍ من المعاني الروحية التي لا أشك في ظفرهن بها، أتصور أن ميغ وجو اتشحتا منذ فترة طويلة بـ«فراء» الهانا[2] الدافئ، بينما تشقان صباحاً طريقهما المسجى بالثلوج قاصدتين أعمالهما المشرِّفة، أما فيما يخصّ مهماتك الصالحة فأتخيل تبعاتها الإنسانية تحوم حولك أينما حللتِ، مرتقباً تفاصيل أحداثها برسالةٍ بخطّ يدك كي تبرهن ما تراه بصيرتي عبر هذه المسافة؛ أسأل الله أن تصلني أنباء سارة عن طقوسك الطيبة المحببة.

ها هي غيوم هذه البلدة تطوي عباءتها البيضاء لأول مرة الليلة، مقتادة الشمس لحضن الثريا الصافي، سافرة عن المشاهد الطبيعية الخلابة المتربعة فوق التلال، بوضوحٍ مماثلٍ لما تلتقطه عينا إيمي، لاحت معالم الأمكنة

1- هاربرز فيري: بلدة تقع بولاية فيرجينيا الغربية في الولايات المتحدة الأمريكية.

2- هانا: مدينة في ولاية داكوتا الشمالية في الولايات المتحدة الأمريكية.

باللونين الأبيض والأسود، كأنما صغيرتي المبدعة رسمت آفاقاً مذهلة برأس قلمها الرصاص، على الرغم من فتنتها الآسرة؛ إلا أنّ التلال الباهرة رُصدت لمسيرٍ متعثرٍ لا يملك الجنود حياله سوى التعجيل بخطىً شديدة حثيثة، قبل انطلاق الرحلةِ انضم لنا المجندون الجدد بوجوه مفعمة بالرّجاء والحيوية ذاتهما الواشميْن لأبناء نيو إنجلاند الشباب الجلديْن رابطي الجأش، ممنْ لم يصب معظمهم بالإرهاق أثناء حملهم للحقائب والمعداتِ الثقيلة التي فاق وزنها الخمسين رطلاً، المعاناة ووعورة الدروب لم تثنيا عزيمة الوافدين الأغرار أو تثبطا معنوياتهم العالية أو توهنا توقهم للقتال (ببساطة؛ يعود تفسير الأمر إلى جهلهم بتداعيات خوض المعارك)، إقدامٌ مبكرٌ شجّع المحاربين القدامى إلى حد كبير.

كم تناسبني المهمة المنوطة بي كقسيسٍ في الجيش! إنني بالفعل «رجل كنيسة» ذو روحٍ تقلُّ ما تحتاجه العبادة من طقوس دينية ضرورية، خاصة بعد أن وجدتُ سبل اليقين دون منبرٍ كنسي منحوتٍ أو قوسٍ قوطيٍّ الطراز، قدمتُ ما بجعبتي بلا أقمشةٍ محاكةٍ من الدانتيل المنهمر فوق المذبح، وبغيرِ أثوابٍ فاخرةٍ وقلائدَ نفيسةٍ، باستثناء الرداء الأسود غير المزخرف المنسدل عن كتفي.

في الحقيقة ما فتئتُ أربكُ بعض الرجال المنتمين لطوائفَ أكثر تشدداً، ممن يحيرونني بأفكارهم الغريبة، اسمحي لي بمشاركتكِ حكاية مسلية أنهي بها خطابي:

عسكريٌّ من الدرجة الثانية داوم على زيارة خيمتي طوال أيام الأسبوع الماضي، أتاني جاثياً على ركبتيه نادماً مستغيثاً صارخاً للسماء معترفاً بخطاياه وفساد أخلاقه، متوسلًا لنيلِ شفاعة القديسين جميعهم، سائلاً الغفران كي لا يُنفق عمره ملطخاً بذنوبه فيُلقى في النار الأبدية قبيل التوبة، لا يحق لي التدخل بسؤال أحدهم عن مُعتقداته الخاصة، هذه قاعدة عامة أتبعها على الدوام، لكن الفتى بدا بحالة من الاضطراب الشديد بما اضطرني لاقتياد تفكيره محاولاً تنحيته عما يجول بداخله، شاطرته قناعتي المفضية إلى عدم وجود قديسين مكتملين أو جحيمٍ حقيقي، فلا حاجة لتعذيب النفس عقاباً على إخفاقاتٍ وخطايا سالفةٍ، موضحاً له ببساطة إمكانية

إصلاح أفعالنا المستقبلية اللاحقة، مع نهاية عبارتي، نهض الرجل عن ركبتيه منتشلاً قبعته العسكرية بملامح علاها الرفض والاشمئزاز، شاتماً إياي مؤنباً لائماً لدرجةٍ خشيت معها أنني أهنته بالتشكيك في عقيدته، «ليس الأمر كذلك!» ثمّ أوضح معترفاً بالقول: «لقد شعرت أنني هدرتُ وقتي سدى في هذا المكان، فالحصول على إجازةٍ رسمية كل ما أردته، معتقداً أنك ستساعدني في الحصول على إذنٍ إن تمكنت من إقناعك بحاجتي الماسّة لمناشدة الخلاص!».

وشت تنظيمات المدفعية بضرورة تأهبنا لاقتحام المدينة النهرية الصغيرة، كمهمة اعتبرت الأكثر قدسية في تاريخنا النضالي، في الليلة الماضية، بعد إنهاء المقدم الميثوديّ[1] الإنشاد بملء رئتيه وبصوت جهوري ترنيمة (لنجتمع معاً[2])، توليتُ إنجاز طقوسي الكنهوتية على عجالة مرشداً الحشد للصلاة في العتمة نظراً لاستحالة إشعال أيّ لهبٍ يجعلنا داخل مرمى نيران العدو، تقدمتُ بعظةٍ استهللتُها بذكر السيد جون براون العجوز الأشيب القائد لمجموعة الفتية السود والبيض، الذين قصدوا المكان هذا بالذات أثناء محاولتهم العسيرة لتحرير العبيد، شارحاً كيف يمكن لجهودنا تأمين نهاياتٍ سعيدةٍ عاجلةٍ استعصت عليهم، لم أستطع سبر ملامح الرجال التي ابتلعها الدجى، لكن شعرتُ بأنّ الجميع أصغوا بصمتٍ جليل حتى أسدل الثلج ستاره الأبيض فوق قُداسنا.

في الصباح، حين خطوتُ خارج مأواي القماشي صوب الكون الغارق بالضياء، حلقتْ أفكاري صوب الشمال، لا بد أنك تتذكرين أنني في مثل هذا اليوم النضر المشرق، قابلتك للمرة الأولى،،،!

1- الميثودية أو المنهاجية (Methodist) طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا، لاحقاً من خلال الأنشطة التبشيرية طالت المستعمرات البريطانية وصولاً حتى الولايات المتحدة الأمريكية.

2- لنجتمع معًا: ترنيمة مسيحية من أصل هولندي كتبها أدريانوس فاليريوس عام 1597 باسم «ويلت هيدن نو تريدين» للاحتفال بالنصر الهولندي على القوات الإسبانية في معركة تورنهاوت، في الولايات المتحدة، ترتبط هذه الترنيمة بعيد الشكر.

في ولاية كونيتيكت؛ أثناء خطبتي في الكنيسة حيث يعظُ أخوها عادة، رفعتُ رأسي فأبصرتها جالسة أمام ناظريّ في صف المقاعد الثاني، في ذلك اليوم، طلب مني القس داي دعم عظته؛ إقراراً منه بكبرٍ نال من صحته إلى حد ما، خذلانٍ أثبط عزيمته بعد كدّ دؤوبٍ وصل إلى ست من أفضل سنوات عمره، داخل مكانٍ لم يأتِ إلاّ بالقليل من الثمار المرجوة، في قريةٍ بل لنقل بغابةٍ مكتظة بالسبابات الملوحة الرافضة الشاجبة، لمواطنين كليلين غير مستعدين لفعل أي شيء ضد النظام الحاكم الذي يمدُّ مصانعهم بالقطن، دعاني للتحدث بعدما انتهى من خطبته، فاستغرقتُ في رحلةٍ زاخرةٍ بالاستنكار الشديد لما تعرض له العبدُ المقتول للوزير من إقصاءٍ مهينٍ خارج الجنازة الرسمية التي أقيمت في وقت سابق من ذلك الأسبوع، بعد أن لقي ستة رجال حتفهم أثناء تجربةٍ فاشلةٍ لإطلاق سلاح جديد، بمن فيهم وزيرنا، خمسة منهم كرّموا بطقوس حداد وطني، باستثناء السادس، الرجل الأسود الذي لم يحظَ بحدادٍ عام مثله مثلهم.

«ما انفك الرجل الذي مزقت الشظايا جسده في النهاية كائناً بشرياً قتلته النيران ذاتها التي فتكت بالآخرين، لكنه لم يُعامل كإنسان بما يكفي لظفره بحدادٍ يليق به كغيره، ألا يقود الكاهن ديننا القويم، كيف لهذا النجمِ الهادي أن يسوق المؤمنين إلى منارةٍ من التعصب!».

ارتد بصري إلى الفتاة من جديد، فرأيتها ما زالتْ مطرقة رأسها، في حين حُجب وجهها تحت حافة قلنسوتها، كانت مرتدية لثوبٍ بسيطٍ أصفر ليمونيّ اللون ساطعٍ تحت ضوء الشمس البراق، المنكسر عن الثلج والمتدفقِ بغزارةٍ من نافذة الكنيسة العالية، نظرت الفتاة إلى الأعلى بمقلتين شخصتا على غفلة بي، فانسدلت خصلات شعرها حالكة لامعة أمام عينيها -الذكيتين الفطنتين- اللتين أهلتا قاتمتين مشرقتين كما لو أنهما لوجهِ امرأة إسبانية، عينان عصفتا بكلماتي بعيدًا، بعثرتا أفكاري خارج ألواح النوافذ الزجاجية، حلقتا بالمفردات عالياً مع موجات النسمات الباردة، تلعثمتُ، اعْتُقِل لِسَاني وشاع الدم في وجهي، صحيحٌ أنّ محاولة إماتة الجسد[1] ناجعةٌ في عرقلة

1- إماتة الجسد أو إهانة الجسد: ممارسة يسعى من خلالها فرد أو جماعة إلى إماتة

اضطراب خفقان الدم في الأوردة والعروق، لكن الشاب ذا الاثني والعشرين ربيعاً لم يتمكن يومها من مقاومة خجله وارتباكه كحالِ تلميذ مذنبٍ واقفٍ بين يدي معلمه، تسمرتُ على المنبر المصنوع من خشب الماهوجني، كرجلٍ مغلوبٍ على أمره؛ بوجهٍ متوهجٍ بحمرةٍ فاقت حباتِ الشوندرِ نضوجاً، فما كان من خلاصٍ إلا بدعوة الحضور لتأدية صلاة صامتة، لعلني إبانها أستعيد السيطرة على ما ألمّ بي، أخيراً نلتُ مرادي من الراحة ما مكنني من متابعة الخطاب، حرصت بعد ذلك على حسر النظر عن ذاك الاتجاه الخطر وصولاً إلى نهاية عظتي، تجرأت بعدها بالسماح لعينيّ بالبحث عنها، لمحتها ما زالت منحنية برأسها إلى الأسفل مرة أخرى، بما أخمد إشراق ملامحها بأمان تحت درع حواف قبعتها المائلة.

بعد انتهاء الطقس الديني، قدم الشقيق أخته لي؛ الآنسة مارغريت ماري داي، أو «مارمي» اسم طفولتها المحبب كما يدعوها أفراد عائلتها، تمت دعوتي بعد ذلك لمشاركتهم طعام العشاء، بالطبع وافقت ممتناً مضطراً لاستدعاء جميع قواعد التهذيب والكياسة لمنع نفسي من التحديق بثباتٍ في وجهها، بأي حال من الأحوال؛ لم يكن وجهًا يهرع العالم التقليدي لوصفه بالجمال، وليس فاتناً على الإطلاق من وجهة نظره؛ فقد اتخذت بشرتها سحنة زيتونية[1] ذهبية بدلًا من البياض الذي يفضله المجتمع هنا، في حين برزت عظمتا خديها واسعتين عريضتين على جانبي أنفها الطويل إلى حد ما، أما ذقنها فبدت حادة أكثر منها دقيقة، لكن الأثر الجوهري لأي سمة تصفها نبع من مفردة واحدة اخترقت أفكاري: «نبيلة» - نعم! كانت تشبه امرأة أرستقراطية رسمتها فرشاة أهمّ رسامي البلاط الأيبيري.

قامت مارمي بدور المضيفة الكريمة خلال وجبة العشاء، إذ ما زالت السيدة داي تتعافى من مخاضٍ عسيرٍ لولادة طفلها الثاني، لم يكن للآنسة

أو قتل طبيعتهم الخاطئة كجزء من عملية التقديس، في المسيحية، تشمل الأشكال الشائعة للإماتة التي تُمارس حتى يومنا هذا: الصيام، والامتناع عن ممارسة الجنس، وكذلك عبر الركوع الورع.

1- البشرة الزيتونية أو الجلد الزيتوني: أحد ألوان بشرة الإنسان. يشير هذا المصطلح بشكل عام إلى الجلد البني الفاتح أو المعتدل أو الأصفر أو المدبوغ.

داي نصيب كبير في الحديث، لكن لم يغلبها في الوقت ذاته أيّ خجل أو لامبالاة، بالأحرى؛ بدتْ مفعمة بالحيوية، مصغية باهتمام، غارقة بنهمٍ لكلمات شقيقها وضيوفه الآخرين باهتمامٍ آسرٍ أطربني، يا لها من عائلةٍ مترعة بمشاعر الطيبة والإقدامِ الهادفِ للإصلاح الموازي لحماس أفرادها للتنعم بالحياة!

مناقشاتٌ يقظة جرت لمواضيع ملتزمة جادة تخللها الكثير من الضحك والمرح، لحظاتٌ شاركتها الآنسة داي ببساطة على نحو فطريّ غير متكلف غمرني بالدفء تجاهها، قامت بتقديم وجبة متواضعة شهية - تناولتُ منها الخبز والجبن والتفاح المتوافر بكرمٍ داخل سلة قشيّة مغطاة بالقماش.

استجبتُ لدعوةِ القسيس بقضاء ليلتي في دارته، لأستفيق في صباح اليوم التالي على أنقى صوتٍ سمعته في حياتي، نغماتٌ تسللت إلى أحلامي قبيل يقظتي بثوانٍ، لألمح في لحظة تماوجت بين النوم والصحو قبرة صادحة ملء حنجرتها بالغناء الجميل، لم أتعجب في حلمي من طائرٍ ظفر بإجادة النطق باللغة، لكن الإطلاع على مسرحيات بيل كانتو[1] كان كلّ ما ينقصه! مع وصولي للوعي اليقظ الكامل، أدركت أن السوبرانو العذب ليس سوى شدو أطلقته الآنسة داي أثناء قيامها بواجبات المنزل الصباحية، مستلقياً على سريري حاسداً زميلي على صباحه الساحر، تراءت لي تلك الشفاه السخية أثناء تشكيلها لكلمات الأغاني، تخيلتُ الحنجرة المترعة بالموسيقى، رأيتُ أصابعي هناك تمس حبالها الصوتية، منتشية بالموجات الرائعة، لمحتُ صعود وهبوط ثدييها كلما نفثتْ نغمات أغنيتها الجذابة.

عواقب أفكاري العابثة تسببت بعض التأخر قبل تمكني من الحضور لمشاركتهم الإفطار، حين تمكنت أخيراً من النزول إلى الطابق السفلي،

1- بيل كانتو (بالإيطالية: الغناء الجميل) مصطلح موسيقي إيطالي، يعني «فن وعلم التقنيات الصوتية» أو أسلوب الغناء الجميل، بزغ في إيطاليا أواخر القرن السابع عشر ووصل إلى ذروته في مطلع القرن التاسع عشر خلال حقبة البيل كانتو، أحسن من مثل هذا في مسرحياتهم: روسيني (1792-1868)، بيلليني (1801-1835) ودونيزيتي (1797-1848).
ليتم صقل هذا الأسلوب في الفترة ما بين العامين 1810 و1830.

علمت أن السيد داي تم استدعاؤه على نحو مفاجئ في مهمةٍ كهنوتيةٍ طارئة.

«المرأة، ليست فرداً من رعاياه بالمعنى الدقيق للكلمة،،»، بهذه العبارة أسرّت الآنسة داي ضاغطة على سلة من الفطائر العابقة ببخارها حولي؛ «بل عجوز كالفينية مضطربة بغيضة!»، ابتسمتُ لتعبيرها الصريح.

«لكن بالنسبة لأخي الطيّب، الإصغاء لأذية أحدهم ليس سوى سعي للمساهمة في شفائه، هذا ما وسم شخصيته منذ الأزل، في طفولته المبكرة، لم يكن يتوان عن استضافة كلّ ضالٍ ومتشردٍ يصادفه في طريقه، ذات مرة أحضر إلى المنزل كلبًا جريحاً لمعالجته، فما كان من الكلب إلا ردّ الفضل بعضاتٍ وحشية متعاقبة»، حين ارتدتْ ملامحها تعبيراً رقيقاً أثناء حديثها عن الأخ الأكبر المحبوب، طعنة من الحسد اخترقت قلبي للمرة الثانية في ذلك اليوم.

لم تنسحب الآنسة داي بعد الانتهاء من تناول الطعام متعذرة بحجة ما، كما يفترض بالسيدات الشابات فعله حين يجدن أنفسهن بمفردهن مع شخصٍ عازبٍ غريبٍ، بدلاً من ذلك قادتني إلى الردهة، ثم بدأت التحدث بطلاقة وصراحة مترعتين بالروعة والتجدد، استرجعنا الآراء التي طرحها أخوها في الليلة السابقة بما يخصّ التعليم، أفكارٌ لم تأتِ على ذكرها بالأمس، خاصة حين بدأ بتعداد ما رآه من أوجه القصور في مدارس كونيتيكت العامة، لتمضي بإبداء وجهة نظرها معربة عن نفسها بحريةٍ تامة بما يخصّ التقصير بتعليم الإناث.

«كم من المؤسف المعرفة بأن قلة قليلة جدًا من النساء، قليلة مثيرة *للشفقة* ممن غنمن بقسطٍ كافٍ من التعليم بمغزاه الحقيقي الثمين! لا أسوأ من حظنا نحن المتعلمات، اللواتي بحثت عائلاتنا عن الأفضل لتثقيفنا، كي ننهل بفضلهم من مناهج دراسية لم تؤدّ إلا لتسفيهنا وقمعنا، وعرقلة مسيرتنا بدلاً من تعزيز نزاهتنا الأخلاقية ونمونا الفكري!»

سألتها أن تعدد مواطن العيوب فيما ذكرته، قاصداً فتح مجرى واسع لمنبع أفكارها الذي سرعان ما تدفق بغزارةٍ وسخاء، إذ قفزتْ مارمي من كرسيها فانسدل ثوبها غير المزخرف، المصطبغ بلون الكراميل الغني

الملائم للون بشرتها، هامساً بحفيفٍ جذابٍ مع خطواتها الواسعة كخطواتِ رجل فوضوي.

«ماذا يعلموننا؟» مدت يداً رشيقة وبدأت في تعداد مواضيع الدراسة التي تلقفتها: «الموسيقى، نعم! لكن أكثر أجناس الموسيقى ابتذالاً-» ألقت برأسها للخلف:

«فا-دي-دا-ترا-لا لا»، بسخريةٍ رددت النغمات، «القليل من الألحان والرقصات الضرورية لحضور حفلات الترفيه العائلية، حيث لا مجهود يستدعي المرأة للقلق بشأنه!»، لمست الإصبع الثانية ليدها ثم صدحت بالقول: «الرسم-تصوير مناظر طبيعية زخرفية بألوان الباستيل الهادئة، ولكن هل يمكّننا ما تعلمناه من بث الروح في الحجر كما فعل مايكل أنجلو[1]؟ أو الطواف بالطلاء الزيتي فوق اللوحات القماشية لتصوير معاناة الإنسان، كما تجسد في إبداعات ريشة غويا[2]؟ (أوه أيتها الفتاة الصغيرة؛ ارسمي بالطريقة التي تفضلينها، لكن من فضلك لا تطمحي بأن تمسي فنانة أبداًا!) ماذا تعلمنا أيضًا؟ ماذا؟ اللغات؟ جيد جدًا؛ من يكتسب لغة جديدة كمن يحظى بروحٍ جديدة، ألا تعتقد ذلك؟» مكتبة سُر مَن قرأ

رفعت ذقني مؤيداً بإيماءةٍ متواضعة، لم أشأ المجازفة بالاعتراف بعدم إتقاني لأي لغة أخرى إن قمت بدحض رأيها، لكنها تابعت بجرأةٍ وسرعة لا تفتقر إلى رياحيَ كي تبحر بأشرعتها.

«لذلك، أغرقونا في غياهب قواعد اللغات الأجنبية ومفرداتها، لكنها ما فتئت معرفة عاقراً، خاضعاً تطبيقها لرقابةٍ وحظر، أرني فصلاً فرنسياً يسمح

1- مايكل أنجلو: (1564-1475) رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي، لإنجازاته الفنية الأثر الأكبر في محور الفنون ضمن عصره وخلال المراحل الفنية الأوروبية اللاحقة، اعتبر مايكل أنجلو أن جسد الإنسان العاري الموضوع الأساسي بالفن مما دفعه لدراسة أوضاع الجسد وتحركاته ضمن البيئات المختلفة.

2- رانثيسكو دي غويا إي لوثيينتيس (1746 1828) رسام ونقاش إسباني، عكس فنه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في أوقاته، تتضمن أعماله صوراً لطبقة النبلاء الإسبانية وأحداثاً تاريخية مثل: «الثالث من مايو 1808».

للفتيات بقراءة القصائد العاطفية التي كتبها رونسارد[1] أوه لا! ليس ملائماً! علينا ألا نفسد عقول فتياتنا المرهفات بأشعارٍ جريئةٍ عن العشق، لا يجوز لنا في الوقت ذاته الإطلاع على مقالات الثوار الفرنسيين، فنحن في النهاية لسنا بناتهن! لا،،! لا نقاش جديّ متاح ولا عاطفة جياشة مباحة، لعلهم سمحوا ببعض الرومانسية المضجرة، لكنهم حظروا الحب، حرّموا الشغف، كبحوا هياماً ينبض بفؤادِ امرأة أو يجود بكينونتها!» تسمر جسدها كأنه مشدود بسلك معدني، ثم انتصبت فوق أصابع قدميها كراقصة محترفة، انسلّت بذراعيها إلى الأعلى، ثم شبكتهما معًا أسفل ذقنها.

«لم لا تقومين بتعليم الفتياتِ بنفسك؟» أقحمت نفسي مطلقاً وجهة نظري بالقول: «متأكدٌ من أن حماستك للموضوع تجعلك الأكثر مواءمة لهذه المهمة الباسلة».

ضحكتْ، فتلاشى التوتر وحدة النبرة في صوتها حين هزت رأسها بالقول: «من ذا الذي سيوظفني لإفساد عقول بناته؟ حتى ولو فعل، فأنا لا أتقن تماماً ما أود تدريسه، إذ إنني لم أحترف تسلق منحدرات المعرفة، بل اكتفيتُ بالتعرج بين ربوع تلالها، فإن وصلتُ لأي قمة يوماً، فهذا لأنني حلقتُ كباشقٍ تنعم مصادفة بنسيمٍ مناسبٍ حمله عالياً لفترة وجيزة»، ارتمت فجأة فوق الكرسي بما رفرف بأطراف تنورتها، غير واعية بنفسها كفتاة صغيرة، «لقد كشفتَ النقاب عن وجهي! صحيح أنني من المناصرين لتغيير العالم، لكنني أفتقر إلى القدرة لتتبع القواعد اللازمة لتشكيله كما ينبغي»

«أنت تقسين على نفسك»

«لا! بل على العكس تمامًا، أؤكد لك، فلو كنتُ أكثر حزماً، لوضعتُ العديد من الأفكار قيد التنفيذ، لعلني أتعهد بتعليم بناتي في يوم من الأيام، فإن حصل، أقسم أنني لن أسمح لعقولهن بالانسكاب داخل القوالب الجاهزة للنظرة الاجتماعية النموذجية المتكلفة عن الأنوثة، أوه! كم أودُّ

1- بيير دو رونسار (1524-1585)، شاعر فرنسي يُلقب بأمير الشعراء، كان زعيمًا لجماعة مؤثرة من الشعراء الفرنسيين تُسمى الكوكبة، كشفت سوناتا لهيلين (1578م) -أشهر أعماله- عن مباهج الحب وآلامه في شعر تصويري رائع.

إنشاء جيلٍ من الكاتبات والفنانات القادرات على تلقين العالم بأسره ما يمكن للمرأة أن تخلقه!»، ثمّ همست مع ضحكة خفيفة: «بالطبع، سيتعين علي، قبل كل شيء العثور على شريكٍ متفانٍ مستعدٍ لمشاركة حياته مع امرأة عنيدة سليطة اللسان مثلي!»

ساد صمتٌ محرج، حتى خيل إليّ أن حبل الحديث انقطع إلى الأبد، لولا عودة القس في تلك اللحظة بالضبط، برهةٌ قطعت عرضَ الزواج الذي دار بخاطري آنذاك، ما أجبرني لاحقاً على خوض معاناةٍ غير مجدية من الانتظار والوجد الحارق، عودة الرجل بددتِ السكون، مغادرة بالآنسة داي لتدبر شؤون زوجة أخيها والاهتمام بالطفل الوليد.

ما زلت استمتع بأي فرصة للتحدث مع القس دانيال داي: القارئ النهم، اللمّاح الحصيف، ذو القلب الشفاف والنفس النبيلة، اقترح الرجل في ذلك الصباح، مناقشة أعمال الدكتور تشانينغ التي كانت تروق لكلينا، شرح دانيال بإسهاب التصنيف المتقن لمفهوم العظمة تبعاً لمراتب تنازلية رآها تشانينغ، مرتكزاً على الجذور الجوهرية الأخلاقية والفكرية والعملية، أتذكر مداخلتي عن العظمة الأخلاقية يومها، عن معناها العقيم دون فعلٍ حقيقي متمخضٍ عن أثرٍ أخلاقيّ، رأيٌ لم يكن سوى مقدمة لحجةٍ عظيمةٍ صاغت شكل حياتي اللاحق؛ ومنطقٍ أوصلني إلى هذه التلال الشتوية في زمنٍ مضطربٍ كالح، بأقدامٍ تكسر الجليد تحتها وأعناقٍ لفتها الأوشحة حتى الذقون، تجولنا في حديقة دانيال داي، لا أدري أين تاهت مفردات حواري ومعانيها؟ أتراها حلقت صوب النافذة العلوية الناتئة حيث تعلقتْ عيناي؟ أم إنها استرقتْ السمع لخطفاتٍ عذبة من تهويدة ساحرة رُنّمت للرضيع المحظوظ؟

كم من فكرةٍ تبزغُ مشرقة متألقة طيّعة أثناء طرحها في الكنيسة، أو مباحثتها مع صديقٍ في حديقة قارصة؛ لكنها تحتجب غائمة ملطخة بالضباب عند جرها صوب المسعى العملي.

لو أمكن وصف أيّ حرب بالمنصفة، فلا بدّ أن الحرب التي نخوض غمارها الآن عادلة بالكامل؛ إنها كفاح في سبيل قضية إنسانية أخلاقية ذات

دعائم فكرية عظيمة، إلا أن الظلم لا ينفك ظافراً في المعارك حيثما التفتُّ حولي، رغم محاولاتي اليومية الحثيثة بغية الإيفاء بالتزامِ الكتابة المبهجة لعينَي زوجتي، إلا أنني أجاهد في تلمس الكلمات التي لا تنقل جزءًا مما شاهدته، ما شعرت به أو ما يخالج روحي، هذا بالطبع؛ بعيداً عما ارتكبتُه من خطايا مشينة وعواقب مخجلةٍ أحاول طمس مفرداتها على الدوام.

الكثير من الأحداث السيئة جرتْ في أسابيع الانتظار الطويلة أثناء تخييمنا على مشارف ضواحي هاربر فيري، حيث قام أفراد من خاصرة الجيش ببعض المضايقات والتحرش بالأعداء كي يتسنى لسكان البلدة الموالين للشمال عبور النهر والانضمام إلينا، في حين غامر الجواسيس والكشافة من جانبنا بمحاولةٍ للدخول إلى المدينة، عندما قتل أحد جنودنا في تبادلٍ لإطلاق النار، وكان رجلاً محبوباً على نطاق واسع، أمر القائد بالانتقام عبر شنّ هجومٍ ساحقٍ مبالغٍ فيه وفق اعتقادي، موجِّهاً الأوامر لفريقٍ من الجنود بإحراق جميع مباني المدينة الممتدة بين ترسانة الأسلحة وجسر السكة الحديدية، أغلب المنازل والمحال التجارية المحروقة عائدة لمدنيين أبرياء، سرعان ما أمست أطلالها المتفحمة غطاءً ممتازًا للقناصين التابعين للكونفدرالية، دمارٌ مرعبٌ لم أجد له خدمة لأيّ غرضٍ عسكريّ، فسارعتُ للقائد معرباً عن وجهة نظري الجاشبة، فما كان منه إلاّ ردّ غاضب تبعه بالتوقف عن حضور عظاتي الدينية والامتناع عن مبادلتي التحية، علمتُ في وقت لاحق، أن القائد المدعو هيكتور تيندال، قد كُلف قبل عامين بمرافقة السيدة براون، أثناء إحضارها لجثة زوجها بعد إعدامه من فرجينيا إلى نيويورك، براون[1] الذي تنبأ في وقتٍ سالفٍ بتدمير هاربر فيري بالكامل،

1- جون براون (بالإنجليزية: John Brown)، مناضل أمريكي في سبيل حرية العبيد ولد في ولاية كونيتيكت في الولايات المتحدة الأمريكية، استحوذت فكرة العبودية على تفكيره، فراح يعمل علانية على مكافحة التميز العنصري وعلى ضمان العدالة للسكان السود.

في عام 1855 انتقل مع بعض أولاده إلى ولاية كانساس حيث كانت الحرب الأهلية قائمة بين مؤيدي العبودية ومعارضيها، أصبح منذ ذلك الوقت قائداً لمجموعة حرب عصابات، جرح وأسر في إحدى المعارك وأعدم عام 1859.

تحقق جزء من نبوءته في ذلك اليوم، تساءلتُ في ركنٍ دفينٍ من عقلي؛ هل هيمنت روح الرجل العجوز على هيكتور تيندال، فساقته لتنفيذ ذلك الهجوم الشرس، من أعرف مني بقدرة براون الرهيبة على الاستحواذ؟ إن كنتُ أنا نفسي، مجرد أداة استخدمها براون بلا تردد، وملقطٍ طيّع بين يدي حداد ألقى بحمله إلى النار، بكل تأكيد قام براون باستخدامي التام، فهل كان ما حدث مبعث فخرٍ أو إهانة؟ كليهما معاً، خاصة أنّ براون استعمل كل رجل وصل إليه، في سبيل تخليص أرضنا من رجسها اللعين!

مع نهاية شهر فبراير تمكّن جيشنا أخيراً من احتلال أركان المدينة المقفرة، يا له من مشهدِ خرابٍ مزرٍ مثير للأسف! العديد من السكان هربوا مغادرين بعض جيرانهم الساعين للحفاظ على ممتلكاتهم من النهب، آمالٌ أثبتت في كثير من الحالات أنها بلا جدوى.

حالما استولينا على المدينة، وجدت لنفسي متسعاً من الوقت للتجوال برحلة قصيرة إلى المنشأة المخصصة كمستودعٍ عسكري للأسلحة، هناك حيث انتهت جميع محاولات الكابتن براون للاستيلاء على المستودع الفيدرالي بهزيمة دموية نكراء، جنباً إلى جنبٍ مع فشله الذريع بتحريضِ العبيد على التمرد، شققت طريقي إلى المبنى الصغير المأهول بالسكان، لأقف أمامه بمشاعر تماوجت بين نفورٍ وإعجاب، هل من أفعال أكثر تهورًا ووحشية؟ أهناك مبرر لكل هذه التضحيات؟ وقع ذهني بالحيرة ذاتها يوم سمعت الأخبار العاجلة أثناء مرافقتي لبيث وآمي لجمع الكستناء من الغابة بعد ظهر أحد الأيام الخريفية، توم هيغينسون، أحد الذين رحبوا ببراون ضيفاً في كونكورد، جاء إلينا محملاً بخبرِ محاولة براون خوض غمار عصيانٍ مسلح أعقبه إصابته بجروحٍ وتعرضه للأسر، كان يفرك يديه أثناء وصفه للضربات التي وشمتها السيوف في جسد الرجل، معلناً عن مقتل العديد من الشبان التابعين له بعياراتٍ نارية، أخبرت هيغينسون حينئذٍ أن مقتله ليس سوى حافزٍ سيعمل على إحياء نبض الحرية بالأفئدة، بغض النظر عن موقف المحرضين أو المعارضين الذين تصدح أصواتهم من الولايات ضد أفكاره، هرعتُ بعدها بالصغيرتين إلى المنزل باضطرابٍ ونبضٍ متسارعٍ، مُحرقاً جميع المستندات التي وثقت تعاملاتي الورقية مع

براون، على الرغم أن معظمها متعلق بمخططات وخرائط مسحٍ لبعض الأراضي فقط.

بعد بضعة أسابيع وفي أحد أيام الشتاء المعتدلة الدافئة، بدا أن جميع سكان كونكورد قد تجمهروا لحضور حفل تأبين براون، لكن لا أجراس قُرعت ولا خطب ألقيت، مقالات فقط كتبها إيمرسون[1]، كذلك فعل ثورو[2]، في حين ألف سانبورن[3]، ترنيمة جنائزية أنشدها المجتمعون، أما عني فرتلتُ سفر نشيد الأنشاد[4] إضافة إلى مقطعٍ من كتاب أفلاطون، ماذا الآن؟ تساءلت؛ ماذا سيقول براون عن هذه الأرض الآثمة والتطهير الدموي الذي تنبأ به؟!

تأملٌ ذهنيٌ عميقٌ شوشه سلوك بعض المجندين غير المهذب حول المبنى الصغير، المستخدم كزنزانة على ما يبدو، إنه لمن المقيت التقليل من احترام المكان وتحويله إلى سجنٍ بدلاً من تقديسه كضريح، اتضح أن هناك ثلاثة أو أربعة نزلاء من المتمردين محتجزين داخلاً، بينما تناوب رجالنا على تسلق البراميل لاستراق النظر إليهم عبر النوافذ العالية، متهكمين بفظاظةٍ من تلك الأرواح التعسة، حاولت التحدث مع الرجال عن سلوكهم الفظّ، فقابلوني بنفور وفتور وتجهم في الوجوه.

عبر الدروب المنحدرة خطوتُ في طريق العودة، مسترجعاً بذاكرتي

1- رالف والدو إمرسون (1803–1882) اشتهر باسمه الأوسط: والدو، كاتب مقالات ومحاضر وفيلسوف وشاعر أمريكي، قاد الحركة المتعالية في منتصف القرن التاسع عشر، نشر أفكاره عبر عشرات المقالات والمحاضرات.

2- هنري ديفد ثورو (1817–1862) كاتب مقالات وشاعر وفيلسوف أميركي، نادى بالتحرر من العبودية طوال حياته، وألقى محاضرات تهاجم القوانين المتعلقة بالعبيد الهاربين بينما بجّل دراسات ويندل فيليبس ودافع عن جون براون المناهض للعبودية.

3- فرانكلين بنجامين سانبورن (1831–1917) صحفي أمريكي ومؤلف، كان عضوًا في ما يسمى بـ «الجنة الستة»، التي ساعدت في الحصول على تمويل ودعم جون براون للإغارة على هاربرز فيري.

4- سفر نشيد الأنشاد (بالعبرية שִׁיר הַשִּׁירִים): أحد أسفار التناخ والعهد القديم ويعرف بنشيد أنشاد سليمان.

التاريخ المؤلم لمعرفتي ببراون، ثم جفلت أفكاري السوداوية من جديد بصرخةٍ مدويّة لامرأة مذعورة، عويلٌ صادحٌ من منزلٍ فاخرٍ فوق التل الصاعد خلفي، سارعتُ بالطبع سعياً لتقديم ما أمكنني من المساعدة، وجدتُ باب الدارة مواربا، فدخلت في الوقت المناسب تمامًا لسحقي بلوحِ الصوت الخاص بآلة البيانو المتدحرج رأساً على عقب نحو أسفل الدرج، لكن لحسن حظ جمجمتي علق الجزء الأضخم يسار الدرج، بما أنهك الدرابزين مقتلعاً إياه هاوياً به، محدثاً تحطماً مدوياً فوق ما كان حتى تلك اللحظة طاولة غرفة الطعام، زجاجٌ محطم جلجل في الأعلى، هرعتُ إلى الشارع فرأيت بقايا النوافذ العلوية تتهاطل كما لو أنها غيثٌ متلألئ، صاتت المرأة من جديد، سارعتُ لصعود السلم متعثراً لمرتين أو ثلاث بأرجل البيانو المتكسرة المتناثرة بفوضوية فوق الدرجات، لأقف وجهاً لوجه مع مشهدٍ شنيعٍ فاق الوصف كله! ثلاثة جنود، تعرفت على اثنين منهم كانوا من أفراد وحدتي، أما الآخر فمجند جديد أو مُنقول حديث إلينا، جميعهم من دورية حفظ السلام ذاتها التي يفترض بها الحيلولة دون حدوث اضطراباتٍ إبان فترات الهدنة أو السلم، أبصرتهم يهزأون مقهقهين من امرأة وفتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، لا بد أنها ابنتها، كلتاهما كانتا ترتعدان خوفاً بعينين أغشتهما الدموع، كان الرجال يلعبون لعبة الالتقاط تنقلاً بين أنقاض الغرفة، يرمون فيما بينهم زهرية صينية أثرية نفيسة تعود لعصورٍ قديمة، بينما يتلوى صراخ المرأة شارحاً أنها تركة جدتها الأخيرة، متوسلاً إليهم بالتوقف وإعادتها، أما الفتاة فأبصرتها تهرول ببراءة من أحدهم إلى الآخر، محاولة التقاط الزهرية من الجو، بسرعة مفاجئة أحاط أحد الجنود بخصرها جاذباً إياها نحوه، حين لمحته يدس يده على نحو داعرٍ بين فخذيها، تجلت فتياتي أمام ناظري، فصرخت بغضبٍ شرسٍ صاخبٍ لم أعِ حدته إلا حين لمحتُ الجميع متسمّرين بذهولٍ في الغرفة:

«من القائد هنا؟»

التفتت الوجوه الثلاثة للجنود متوهجة متراخية بتأثير الذهول؛ بينما استدار وجه المرأة فجأة نحوي شاحباً تشوبه ملامح الذعر مناشداً النجدة.

أخفضت صوتي مكرراً السؤال: «من منكم القائد؟»

«أنا يا سيدي»، أجاب العريف ماسحاً قطراتٍ من العرق عن جبينه.

«هلا تفضلت بشرحِ هذا الاعتداء الخسيس!»

«أيّ اعتداء يا سيدي! كنا نلهب القليل من الجحيم كي يتلظى به مؤيدو الكونفدرالية، ألا يقول الكتاب المقدس أن سدوم وعمورة أُبيدتا عقاباً على الشرور التي اقترفتاها؟ فما الذي يمنعنا من تدمير هذا العش المتمرد؟»

«أيها العريف، أتتكم الأوامر بمصادرة ما يحتاجه جنودنا بالفعل، لكن من غير المسموح لكم ممارسة العنف أو أعمال السرقة أو التخريب المتعمد، من العار والوضاعة ما فعلتموه هنا!»

حدق العريف بوجه مكفهر، تنخّم ثم بصق على السجاد التركي، «نوبة عار مثلها مثل إطلاق النار بدمٍ باردٍ على أولئك الرجال الطيبين أسفل الجرف، فما قولك أيها القس المحترمٍ؟»، شعرت بالدم يتدفق من وجهي من الوقاحة التي أبداها تحديق مقلتيه، «واقعة لم ينسها الرجال، إن كنتَ قد نسيْت»

«من الإنصاف للرجل النبيل،،» أجبته ببرود، «لا، بل لنقل لأي رجل أن يحمل حنقه إلى ميدان المعركة، لكن ليس من الأخلاق بشيء، أن يصبّ جامّ غضبه فوق رؤوس المدنيين، خاصة إن كنّ نساء لا ذنب لهن، أرجو تنظيف أكبر قدر ممكن من الفوضى التي أحدثتموها ومرافقتي لمقابلة الكولونيل»، التفتُّ إلى المرأة التي اقتربت من ابنتها تمسد شعرها بانحناءة حنان استحضرتْ لذاكرتي صغيرتي بيث بين ذراعي أمها، فخاطبتها برفق: «سيدتي؛ أتقدم بعميقِ اعتذاري، فهؤلاء الرجال لا يمثلون جيش الاتحاد وليسوا محسوبين على قضيتنا»

انتصبت بقامتها بعد توقفها عن الارتعاد، فيما اشتعل السخط بعينيها الرماديتين: «إنّ رجالك حثالة يا سيدي، حالهم كحال (قضيتكم)»

وصل نخير العريف إلى مسامعي، لا بد أنه قصد شامتاً القول: «أرأيت، قلتُ لك!»، استدرتُ ورمقته بنظرةِ شزر، فواصل ترتيب المكان بلا مبالاة، راكلاً بعض قطع الأثاث المكسورة نحو موقد النار، لم أجد أيّ داعٍ لحثه على بذلِ مجهودٍ أكبر. فأنفقت الوقت متلهفاً لمغادرة المنزل، لنجد أنفسنا سريعاً سائرين بصمتٍ باردٍ إلى المبنى حيث أقام الكولونيل مقر قيادته.

كان المكان مشغولاً بعقد مؤتمرٍ بشأن الجسر العائم، فاضطررنا للانتظار أكثر من ساعة لمقابلته، حين دخلنا رأيناه مستغرقاً برسومات المهندس، بما جعله يصغي لشكواي بأذنٍ واحدة.

«جيد جداً»، قال مع نهاية عبارتي الأخيرة، ثم التفت إلى الجنود مخاطباً: «القس محق تمامًا، لن أسمح بإهانة النساء المدنيات أو تعرضهن للتحرش، حتى لو كن زوجات وقريبات للمتمردين، أتفهم أسبابكم ودوافعكم للقيام بذلك، لكن لا تفعلوا ذلك مرة أخرى،، انصراف».

الإعفاء من العقوبة دفع بالجنود لمغادرة المكان بسرعة، عدا العريف الذي توقف هنيهة ملقياً عليّ ابتسامة من التشفي والازدراء، التقط الكولونيل البوصلة وبدأ بقياس المسافات على رسومات المهندس.

«سيدي،،!»، قلت؛ لكنه سارع بمقاطعتي قائلاً:

«مارش، أعتقد بوجوب إعادة النظر في تواجدك معنا في هذا الفوج»

«سيدي،،؟»

«يبدو أنك تفتقد القدرة على التواصل مع أي شخص هنا، فقد قمتَ بمضايقة الضباط الآخرين تباعاً،،، حتى تينذال لقي صعوبة بالالتزام معك - رغم أنه مناصر لإلغاء الرق مثلك تمامًا، أما الطبيب الجراح ماكيلوب فقد أتاني في كثير من الأحيان مفسداً تناولي للطعام، صاخبًا متذمراً من انتهاكاتك الأخيرة، فقد صعقه في الليلة ما قبل الماضية ما قلته في موعظتك عن أنّ «المسيحي لا يحتاج لعبادة المسيح كإله!»، وعلى الرغم من أنني تشاغلت عن شكواه المفضية إلى أنك تبشر بتحصين الخطيئة، مع ذلك أراك الآن تبذرُ الفتنة في صفوف الجيش مصراً على اتهام الجنود بخطيئةٍ عظيمةٍ ليست سوى أفعال طائشة غير مؤذية لأحد،،،»

«سيدي، ذاك التدمير الوحشي بالكاد يسمى-»

«هلّا حافظت على سلامك يا مارش، لو لمرة واحدة في حياتك!» قام بطعن البوصلة بقوة حتى اخترقت ورقة الرسم البياني مستقرة بلبّ خشب المكتب الماهوجني الرائع، طاف حول المكتب ثم وضع يده فوق ذراعي:

« يا مارش؛ لا أكنّ لك إلا الود؛ فأنا على دراية بنواياك الطيبة، لكن

الآخرين يرون أنك تأخذ الأمور بمنحى متطرفٍ للغاية، لقد اطلعت على مفاهيمك وآرائك منذ دعمك وترشيحك من قبل صديقي القديم داي لتأدية هذه الخدمة الدينية، وأنا شخصياً أحمل مواقف متشددة تجاه قضية العبودية مثلك تماماً، لكن معظم هؤلاء الفتية ليسوا هنا للقتال في سبيل تحرير الزنوج أو العبيد على الإطلاق، اكشف الستار عن الحقيقة أمام ناظريك يا رجل، صارح نفسك بالواقع ولو لمرة واحدة، قد يحارب في جيش لينكولن العديد من دعاةٍ حقيقيين لإلغاء الرق، كما هو الحال في جيش جيف ديفيس[1]، لكن فتية هذه الوحدة العسكرية حين يصغون لعظاتك بالعتق؛ فإن كل ما يسمعونه يتعلق بمجموعة من قرود البابون الأفريقية الشعثة الموشكة على الاتجاه شمالًا للاستيلاء على أعمالهم،،،»

«سيدي! بالكاد أعتقد،،،»

قاطعني بنظرة حادة، فأمسكت لساني بصعوبة بالغة عن الكلام، متسائلاً كيف يمكن لرجل مثله أن يُعد صديقًا للطيب دانيال داي، تابع بعد ذلك كأنه يتحدث إلى نفسه: «لا أدري فعلاً لماذا يرافقنا القساوسة إلى الحرب؟ لقوانين الجيش القليل كي تقوله في هذا الشأن، غريبٌ أليس كذلك؟ لكل ضابط وجندي مكانة وواجب في المؤسسة العسكرية حيث النظام يقود الجميع، عدا القسيس وحده؛ لا دور محدد له ولا واجب ليقوم به أثناء المعارك، حسنًا، من وجهة نظري، أعتقد أنّ واجبك يقتصر على توفير السَكِينة والمواساة للرجال فقط»، ثم حدق في وجهي رافعاً نبرة صوته، «هذا دورك حقاً يا مارش، اللعنة عليك! لأنّ كل ما تفعله التسبب بالضنك للجميع»، انتزع البوصلة عن المكتب ثم ضرب بها ظهر الكرسي بصبرٍ نافد، استأنف حديثه بعد ذلك بلهجةٍ أكثر تهذيباً: «ألا تعتقد أنه من الأفضل لك التعامل مع كبار المفكرين في وحدة هارفارد؟»

«سيدي، في وحدة هارفارد قساوسة مشهورون، حتى من حيث الرتب والتصنيفات – الرجال جميعهم من خريجي كليات اللاهوت هناك، إنهم بالكاد يحتاجون،،،»

1- جيفرسون ديفيس، رئيس الكونفدرالية.

رفع يده اللحيمة الضخمة، كما لو أنه اعترف بوجهة نظري، ثم استدار ملوحاً على نحو مبهم مشيراً إلى الجنوب.

«حسنًا، بما أنك تحبّ الزنوج كثيرًا، هل فكرت بمساعدة الجيش فيما يعانيه مع مهربات الحرب؟ هناك حيث الحاجة للعون جلية منذ فتح بتلر[1] لبوابات حصن مونرو لإيواء هؤلاء الناس، المئات يتدفقون إلى حدودنا يومياً، كثيرون ما زالوا تحت رعايتنا في المزارع المحررة، نحن بحاجة لشخص كفوء يجيد تنظيمهم واتخاذ الترتيبات اللازمة الخاصة بهم، لا ريب أنّ قدرات أولئك الرجال مفيدة بما فيه الكفاية - لذلك من الأفضل توظيفها في بناء متاريسنا المؤقتة، بدل إنشائهم لمتاريس العدو وزحفهم المهتاج خلف شريكات فراشهم واقتفاء آثار أطفالهم الحمقى، علينا يا مارش تحمل مسؤولية إدارة شؤونهم التابعة للمصير الذي تمليه الحرب، مع ذلك، لا يمكن لضابطٍ مقاتلٍ في ساحة المعركة النوء بدور الظئر لرعايتهم، إن لم نفعل شيئاً حيال ذلك سيغرق الجيش في المد الأسود،،،»

«لكن، أيها الكولونيل»، قاطعتُه، متخذاً خطوة للأمام كي أعيد نفسي لخط نظره، «أعرف رجال هذا الفوج جيداً. كنت معهم في معسكر التعليمات، تدربنا معًا، صليتُ معهم حين وصلتنا أخبار الهزيمة في بول رن[2]، معاً سافرنا جنوبًا، اندفعنا إلى الخطوط الأمامية بعد ذلك،،،»

«يا إلهي، كفاك يا رجـل، لست بحاجة لسماع تفاصيل خدمتك الكهنوتية،،،»

تابعت روايتي فوق رأسه، شعرتُ بأمسّ الحاجة للدفاع عن قضيتي، غير آبه بالتسبب بإزعاجه على نحو غير محتمل: «تجرعتُ الهزيمة مع أولئك الرجال، أغرقتني دماؤهم،، لا قسيس آخر،،»

1- بنجامين فرانكلين باتلر (1818-1893)، جنرال سياسي رئيسي في جيش الاتحاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية، كان له دور قيادي مهم في قرار عزل الرئيس الأمريكي أندرو جونسون.

2- معركة بول رن (Bull Run): دارت أثناء الحروب الأهلية في أمريكا بين الشمال والجنوب عام 1861.

«اصمت!» صرخ قاصداً النافذة المطلة على آفاق مذهلة لتلال انحدرت أوجهها بحدةٍ ساكبة جداولها على ضفاف أنهار الوديان، بينما خبا ضوء النهار عاكساً وهجه القرمزي فوق صفحات المياه، أكمل حديثه ملتفتاً إلى المشهد كي لا يضطر للنظر إلى وجهي:

«مارش، حاولت التعبير عما أسره بلطف لك، لكن إصرارك على نيل الحقيقة المكنونة يدفعني للجهر صراحة بها،، علي إعلامك أن ماكيلوب تقدم بشكوى ضدك، بالأحرى بما يضمره نحوك،،، شكوى غير لائقة وتهمة بذيئة للغاية، لا أود التطفل على شؤونك الشخصية، قد تكون قسيسًا، لكنك جنديٌّ يخوض غمار الحرب ورجل في نهاية المطاف، أشياء كهذه تحدث،،،»

«سيادة الكولونيل، إذا كان الكابتن ماكيلوب يلمح لـ،،،»

«مارش، دعني أقدم لك معروفاً، أو حاول صنيعته نفسك لنفسك، أقترح عليك المسارعة بطلبِ إعادة ندبك بمهمة مشرفٍ على مهرَّبين، من يعرف؟ لعلك تجود بنفعٍ أكثر وتنوب بتلبية خيّرة للواجبات المتراكمة هناك!»

غادرتُ مقر القيادة بحالةٍ رهيبة من الحنق والشعور بالخزي والعار، فلم تكن شكوى الطبيب الجراح تهمة بلا أساسٍ على الإطلاق، فالحدث الظاهريّ بدأ حين دلف الرجل باحثاً عن غريس لمساعدته ببعض الشؤون الطبية، ليعثرعلينا متعانقين داخل غرفة السيد كليمنت! أذكر يومها أنني خلعتُ الوشاح عن رأس غريس الجميل، دافناً وجهي بشعرها، متذوقاً حلاوة فمها العذب لمرة ثانية، لكن سرعان ما أحرقتني الدموع المنسكبة بغزارةٍ من خديها، لا أدري لم نقلتني الذاكرة على نحو مفاجئ إلى زمان آخر تماماً، لخدٍ مبللٍ بالدموع، لمارمي والعشق الذي أكنّه لها، فهطل الوفاء على عاتقي ثقيلاً بارداً، احتضنتُ وجه غريس بيدي محدقاً بعينيها المترعتين، فابتعدت بخطوة عني.

«ما الخطب؟» همستُ، «لقد فات الأوان»، أجابت بنبرةٍ مرتعشة: «فأنت لم تعد بأيّ حالٍ من الأحوال ذاك المتجول البريء الوسيم، الذي خطا نحوي يوماً تحت الأغصان المزهرة لأشجار القرانيا، مالئاً حقيبته ورأسه بمفاهيم

مثاليّة لا قيمة لها، كما أنني بدوري، لم أعد الحبيبة المرغوبة ذاتها المدللة مرافقة السيدة،،،»

تقدمت نحوها واحتضنتها مع وصول الطبيب ماكيلوب، فأبصر ما أبصر من عناقٍ لا يفوق عناق سلوانٍ لصديقةٍ مكروبةٍ محزونة: غريس بشعرها المفرود، ووجهها المدفون في كتفي، وذراعيّ المحيطتين بها؛ مشهد بدا كافياً بالنسبة لرجلٍ متحفظٍ مثل ماكيلوب، ممن يلمحون الخطيئة ملطِّخة الأفئدة والأمكنة، كي لا يحكم ببراءة على الموقف من وجهة نظر تفكيره البذيء.

أدركُ أن استسلامي لأشواقي الجياشة خطيئة جسيمة، فماذا عن تزكيتها ولو على نحو ضئيل كما فعلتُ لاحقاً؟ أستحقُ العقاب الذي نالني إلى حد ما، لكن أي جزاء أعظم فيما لو تسللت الوشايات عن ضعفي اللحظي لآذان زوجتي العزيزة، أو إن خدشت الفضيحة حياء بناتي وبراءتهن الفتية؟ سلكتُ درب العودة عبر المنحدرات الزلقة إلى مشارف المدينة حيث المخيمات المنتصبة داخل معسكر الجنود، أخرجت مكتبي المحمول، لأكتب طلباً بنقلي من الخدمة الحالية، من ثم التفتُّ إلى آخر خطابٍ كتبته لزوجتي - لعينيها الحصيفتين اللتين لم يخمد بريقهما في خافقي منذ ذلك اليوم العائد لسنواتٍ طوال حين أربكا كياني فوق منبر كنيسة أخيها، تخيلتُ كمّ المراسلات المتبادلة بيننا حتى اليوم، متفكراً بإصراري على الاحتفاظ بأي وثيقة وشت بفحواها الأسطر الفارغة قبل الكلمات، فضلتُ عدم التخلص من أيّ ورقة، حتى التي تدّخر أحداثاً لا يمكن التحدث عنها بسهولة، كم وددتُ صونها حتى نهاية خدمتي كمدونات عاطفية تخلد النزاهة الواشمة لذكريات حياتنا، لكن رسالة اليوم مسجّاة بكلماتٍ زائفةٍ مواربةٍ أكثر من العادة، فقد قررتُ بعد الكثير من التفكير ضرورة تسليط الضوء الإيجابي على قرار النقل الذي اتخذته مكرهاً، موارياً بحزمٍ ما لا يمكنني الاعتراف به، منكفئاً عن خطّ أي كلمة عن إخفاقاتي المشينة بأقلّ الأمور شأناً، كان لا بد من حجبِ خيبتي وعجزي عن كسب عقول الضباط أو قلوب الجنود العاديين، وإلا بم أسوّغ التضحية الجسيمة التي قدمتها مارمي حين وافقت على قراري بالقدوم لدعم أرواح هؤلاء الرجال؟ ماذا لو علمت برفض

الجميع لوجودي بينهم، وتذمرهم مني جنباً إلى جنب مع ازدرائهم لي وللخدمة التي أقدّمها؟!

حسمتُ الأمر متخذاً القرار بإعلامها أن قراري بالسعي لتقديم الخدمة لمصلحة المُهرَبين، ليس سوى إلهام أشرق في قلبي تلبية لأفكار الكابتن براون وتتبعاً لخطواتِ مسيرته، سأتلو عليها خطابي كترنيمةٍ إنسانيةٍ محببة، كقسّ نقيّ مدعوّ للحاق بخطواتِ الحقيقة الجليلة! الحقيقة المحتجبة، بل المتلاشية برمتها مع آخرِ كلمة مضللة خططتها في تلك الرسالة.

الفصل الخامس

قلم رصاصٍ أفضل

أفلت شمسُ نهار السبت في كنيسة دانيال داي في ولاية كونيتيكت، فغادرتُ منزل مضيفي قاصداً مسكني في بوسطن حاملاً بريق شعرها الداكن بجعبتي مع توهج عينيها السوداوين، حدث ما حدث قبل سنواتٍ خلت، حين وجدت نفسي ممسوساً بذكراها، عاجزاً عن الكتابة إلا قصائد تمجد صوتها، منكفئاً عن التأمل إلا بفطنة وتوقد عقلها، يا للمرأة التي طاردت مخيلتي! النبيلة المتواضعة، الجادة والحيوية، لم يستغرقني الوقت طويلاً حتى أدركت أنني واقعٌ بحبها!

لم يكن من الصعب، كوني صديقاً لشقيقها، العثور على ذريعةٍ لتكرار زيارةِ منزلهما المرة تلو المرة، كنا نمضي الوقت بحواراتٍ مديدة عن مواضيع متنوعة، لم يتطرّق أيّ منها لأكثر فكرةٍ شغلتْ خافقي وقيدتْ لساني عن النطق بها، بعد لقائنا الثاني، عدتُ إلى بوسطن محبطاً من ترددي وشدة تحفظي، ساكباً الأشواق الغزيرة فوق صفحات مذكراتي اليومية، حتى الجليد الذي ذاب فائضاً بنهر تشارلز، مُزهراً بأغصان الأشجار على ضفافه، أخفق بإطلاق عنادي من قفصه، حال دامت طويلاً لولا تبددها برسالة من القس داي معلماً إياي أن أخته ستمضي لعيادة والدها السيد داي الأكبر لبعض الوقت، فالرجل الأرمل لنحو ست سنوات، ضعيفٌ معوزٌ لرعاية ابنته، كنت على دراية بموطن إقامة الوالد في قرية تبعد حوالي عشرين ميلاً عن موقع سكني، أخيراً! ها هي الأمور باتت في متناول يدي، فإن لم أجد طريقة للبوح بما خالج جوارحي

واقتناص الفرصة الملائمة للتقدم بطلب يدها، فلا أحسبني مستحقاً للظفر بأي سعادة لاحقة.

منذ عدة أعوام، اختار عمي العطوف طيب القلب الاستقرار في القرية عينها، مختاراً الإقامة في دارة فخمة بعد جمعه لثروة عظيمة من أرباح التجارة بصفيح الرصاص، لعلني لم أكن لأتأخر عن تلبية دعواته المتكررة للزيارة لو أن علاقة جيدة تجمعني بزوجته التي اقترن بها بعمرٍ متأخر، المرأة، المنحدرة لعائلةٍ عريقةٍ من بوسطن -أعرق بكثير من النسب الأصيل المزعوم لعائلات سبيندل هيل- كانت شديدة الرعونة ذات طبيعة صعبة الإرضاء، ما أدى لإبقائها عازبة حتى سنيّ عمرها المتقدمة، عنوسة ضيّعت عليها أي احتمال بارتباطٍ متسمٍ بالمساواة مع رجل ما، لا أدري كيف انجذب عمي الهادئ لطباعها الحادة -في الواقع لم ترق لأحدٍ من أفراد أسرتنا بمن فيهم أنا شخصياً- مشاعر متبادلة جعلت الصلة بيننا باردة قصيّة للغاية عن مسمى العلاقات العائلية الودودة، زواجهما المُستهجن أثمر ابنة وحيدة، رضيعةٌ سرعان ما اختطفتها الأقدار مبكراً، متسببة بأوجاعِ فقدانٍ مريرٍ زاد من توتر زوجة عمي محيلاً إياها لأنثى دبورٍ متأهبةٍ على الدوام، لغرز سمها بأي شخص أحمق يعري نقاط ضعفه أمامها، لذلك لم أحسب من الحكمة مطلقاً مبادرتي لترتيب أيّ موعد مغازلةٍ تحت سقف بيتها، كتبتُ لعمي أنبئه عن زيارة وشيكةٍ للقرية في حالِ توافر فرصةٍ للخوض باستثماراتٍ محليةٍ محتملةٍ ذات رأسِ مال مقبول، فلم يمضِ الوقت طويلاً حتى ردّ العمّ بمعلوماتٍ عن ميكانيكي مجتهدٍ في القرية، طور ابنه خطة لصناعة قلم رصاصٍ بجودةٍ أفضل، وجدتني ميالاً لاعتبار اقتراحه العادي ذا أهمية فورية إلى حد ما، فراسلتُ الرجل صاحب العلاقة لأحظى بخطابٍ بريديّ مرفقٍ بدعوةٍ حماسية لافتة إلى ورشته.

مضيت برحلةٍ مضجرةٍ بين محطتين، ووجدتني أعذل نفسي طول الطريق لعدم اجتيازي المسافة مشياً على الأقدام، أما انطباعي عن المكان الذي جئته شغِفاً، فكان متحيراً إلى حد ما، مستغرباً من التباين بين ما لمحته من البقع الشحيحة بالأشجار المكتظة بالحانات، والتجمع الأخاذ للبحيرات المُسوَّرة بالغابات الممتدة جنوب القرية، تأملتُ متفكراً بعظمة التجوال

في فيء الأشجار المحاذية للمياه العذبة، وكم من شأنه توفير حيوية مبهجة للروح وانتعاش لطالما حفظته السنوات بالأنفس عبر الزمن!

القرية ومحيطها ضمّا ما يقارب الألفي كادحٍ أغلبهم يشتغلون بالزراعة، فيما التفت الباقون للأعمال المتعلقة بالصناعة والتجارة، تناثرت في الأرجاء نزلٌ عديدة تنفّعت من استضافتها لسائقي الشاحنات، خططتُ للإقامة في أحدها لولا دعوة صانع القلم، الذي أطلّ في المحطة مستقبلاً بعربةٍ يجرها حصانه، مُعلِماً إياي بأن زوجته خصصت حجرة في منزلها لاستضافتي بترحيبٍ كبير، بدا المنزل أكثر أناقة مما توقعت، ذو هيكلٍ جميلٍ مبنيٍّ من الألواح المصفرة مربعة الشكل، تم تشييده داخل أراضٍ مزروعة بالعديد من شجيرات الشوكران[1] والبلسم، أدركتُ في تلك اللحظة أن شخصًا غيري قد لاحظ افتقار لبّ القرية للأشجار.

خمنتُ أن الوسيلة الألطف والأرقى التماساً لنجاعة حيلتي كامنة بتحمّل الإصغاء المضني للخطبِ المملّة حول طرائقَ أفضل لسحق الغرافيت، أو الإلمام بأنواع الراتنج الرديئة المستخدمة كغراء لاصق! تقبلتُ على مضضٍ الثمن الباهظ المتوجب عليّ دفعه لتأمين قربٍ عاجلٍ من الآنسة داي، لكنني على ما يبدو كنت مخطئاً، إذ بالكاد وطئتُ عتبة الباب حتى استهلت زوجة الحرفي، الامرأة المتحدثة اللبقة، حواراً يخصّ موعظة ألقيتُها مؤخرًا عن الأذى اللاحق بالبحارة الزنوج المعتقلين في ماساتشوستس داخل الموانئ الجنوبية، بان جلياً أنها إحدى القائدات لنساء كونكورد المناهضات لعبودية النساء وتجارة الرقيق والإماء، حين علمتُ بمقامها الرفيع، سارعتُ بالاستفسار عن أي معرفة قد تربطها بالآنسة داي، أطلقت المرأة نظرة ثاقبة سابرة حصيفة ولطيفة في آنٍ معاً، لتجيب مؤمئة بـ «بالطبع أعرفها» غامزة باستفسار: «لماذا؟»، لأعرف بعد ذلك أنّ الشابة صديقة مقربة لابنتيها صوفيا وسينثيا، وأنّ السيدة في ذلك الصباح، تحدثت مع صوفيا عن حضور الآنسة داي للقرية، وعن التزامهما بواجب دعوتها لتناول العشاء على مائدة منزلهم،

1- أشجار عطرة دائمة الخضرة من عائلة الصنوبريات تزرع في غابات شرق أمريكا الشمالية.

تورد وجهي خجلاً مع عبارتها الأخيرة بما أكّد صدق حدسها! صعدتُ بعد ذلك برفقة زوجها مبتهجًا، مستعداً لسماع مفاهيمه كلها الخاصة بتحسين صناعة قلم الرصاص.

سرعان ما اتضح لي أن ولده صاحب تلك الأفكار المبدعة المبتكرة، كان الشابُّ في مثل عمري، أو لعله أكبر بقليل، وجدناه في الطابق الثالث غارقاً بالعمل، يحزم أقلام الرصاص بغية تحضيرها للشحن، أما الورشة فتنسمت بعبقٍ زيتيّ، ونفحاتٍ قويّة من أريجِ خشب الأرزِ المقطوع، داخل شرائط الضوء المتهاطلة من نوافذ العلية، تمايلتْ أقذاء نشارة الخشب معانقة الغبار الرمادي الراقص، مشرقة حول الجسد الذي لم يحمل أيّ تناسقٍ يذكر بين ساقيه القصيرتين وذراعيه الطويلتين بما أفقده جاذبية القامة، لكن الرّب لم يحرم هنري ثورو وجهاً وسيماً ساحر القسمات، على الرغم من الغابة الفوضوية من الشَّعر التي اكتسحت ذقنه، ملامح ضخمة توسطها أنف معقوف وفم ممتلئ الشفاه، أما العينان فهائلتان - شاحبتا الأطراف لكنهما عميقتان لماحتان على نحو مذهل، هز رأسه باقتضاب حين استهل والده الحديث عن المشروع، متابعاً عمله بتدبيرٍ رائع وخفةٍ لافتة، ممسكًا بقبضتي يديه المشعرتين ما يقارب اثني عشر قلماً بمجموعة متساوية الطول متوازية، موثقاً الأحزمة الخضراء حولها بدرايةٍ ودقةٍ لا تنجزها سوى الآلة.

استهل جون ثورو حديثه فصيحاً على نقيضٍ من ابنه المقتصد بالكلام: «بدأتُ بصناعة أقلام الرصاص يا سيد مارش، منذ بدء نسيبي بالتماس الكربون النقي -الغرافيت، كما يفضل البعض تسميته نسبة للكلمة اليونانية (جرافين) التي تعني التدوين- بالعودة لما بدأته،، آه!! أعتقد،، حدث ذلك في العام 1824»، حاولتُ جاهداً خنق التثاؤب أثناء استفاضته بالحديث: «لم تكن أقلام الرصاص التي صنعناها مميزة في ذلك الوقت، ولم تتمكن من مضاهاة الجودة الأوروبية بأيّ شكل من الأشكال، لكن هذا الشاب الذي تراه أمامك، أجرى دراساتٍ وأبحاثاً عن الأمر أثناء تواجده في هارفارد، متقصياً سر الأوروبيين المُضمِر خلط الطين مع الكربون النقي كمادة مثبتة لاحمةٍ، لكن ذلك لم يرضِه على الإطلاق، أليس كذلك يا بني؟»

التفت العجوز إلى ابنه الذي هز برأسه صعب المراس دون أن يلقي نظرة

لأعلى أو يتوقف عن انشغاله بحزم الأقلام، «إن هنري لديه فكرة محسنة تجعل من مسحوق الغرافيت أقل خشونة بكثير، كما تبنى خطة -رائعة جدًا وفق اعتقادي- تهدف لحفر أخاديد غائرة على طول الشرائح الخشبية بما يعادل حجم أعواد الرصاص، فلا نضطر لنشر ومن ثمّ لصق أخشاب الأرز بعضها ببعض بعد الآن»، انجرف ذهني بعيداً، بينما انهمك السيد ثورو بالشرح عن مخطط ابنه لتصنيع قلم رصاصٍ رائدٍ وفق درجاتٍ مختلفة من المتانة والصلابة، فكرة مبتكرة اعتقدَ الوالدُ بنيلها الحظوة والتقدير لدى الفنانين والفنيين على حد سواء، استطعتُ بسهولة تصور مزايا التحسينات المقترحة التي لا تتطلب لتنفيذها سوى القليل من رأس المال، مع ذلك، متفكراً بمساوئ التوصل لأي اتفاق سريعٍ من شأنه إحباط غاياتي الخاصة بالآنسة داي، فقد تظاهرتُ بعدم الاقتناع، متردداً مستفسراً عبر أسئلة كليلة إلى حد ما، إلى أن قام الشاب الذي سئم من بلادتي المتعمدة، بإلقاء الحزمة الأخيرة من أقلام الرصاص في الصندوق الكبير، مسح يديه بقطعة من القماش ثم رماها بصبرٍ نافد بدورها، مسارعاً لمغادرة ورشة العمل، خطا بخفةٍ أمامي محدقاً بوجهي مطلقاً نظرة ثاقبة من تلك العينين الرماديتين المذهلتين: نظرة عاصفة باردة بما يكفي لخلعِ أوراق شجرة بلوط، تنهد الوالد جون ثورو، بينما ضربت خطوات ابنه الفجة درجات السلم.

«سيغادر هنري إلى الغابة لفترة غير معلومة، لا أدري حقاً متى سأراه عائداً للدار يا سيد مارش، لذا أرجو ألا تزعجك سلوكيات ولدي المخالفة للأعراف والتقاليد، فقد تسبب موت أخيه المقرب بتصدّع فؤاده وقاده للعزلة التامة»

«لا يضايقني بكل تأكيد،، تؤسفني خسارتك الأليمة يا سيد ثورو»

مرر يده على رأسه الصلعاء ثم فرك جفنيه اللذين حجبا الدموع داخل عينين طيبتين حاذقتين متوهجتين بأزرق سماويّ، ثم شرح موضحاً بالقول: «يفضّل هنري التسكع وحيداً في الغابة بدل المشاركة بالأمسيات العائلية أو الاجتماعية، على نقيضٍ تامٍّ من أخيه الراحل جون، الصغير المرح المحب للناس، الحريص على خرط أخيه في المجتمع على الرغم من طبيعة الثاني المتحفظة، إن هنري الآن يكابدُ وحدة مضاعفة جعلت منه غير مؤهل في

معظم الأحيان لحسن التعامل مع الآخرين»، حاولت جاهداً طمأنة الرجل العجوز بعدم شعوريَ بتلقي أي إهانة، مبيناً مدى تفهمي لما يقاسيه ابنه من آلامِ الفقدان، شارحاً جنوحي لتفكيرٍ إيجابي من ناحية الموافقة على الاستثمار معهما، ثمّ استهللت رغبتي بالذهاب بالقول: «في الواقع، أعتقد انّ التجوال في الغابة فكرة جيدة داعمةٌ منعشةٌ للتفكير، خاصة بعد الضغط الذي تعرضتُ له بين المحطات المزدحمة طوال الصباح، حتى أمسيتُ كسمكة رنجةٍ مملحة، لقد قمتُ بجلب بعض الملابس القديمة المناسبة للطواف حول الأغصان الشائكة»، أرشدني السيد ثورو إلى غرفتي، حيث غيرت ملابسي، ثم رافقني بدماثةٍ حتى البوابة.

حين تشتاق تتمنى أن تنقلب وجوه الناس كلها لتمسي الوجه ذاته! في درب القرية المتجه صوب الغابة سمعتُ وقع خطواتها في أرجاء الأمكنة، خيالٌ سارحٌ انغمست فيه لحد السماح لتفكيري بالتوهم أن الهواء الذي أتنسمه حمل بعضاً من أنفاسها، يا لحماقة الشباب! إذ كلما لمحت امرأة بعيدة شرعتُ بتعجيل الخطا، محاولاً مقارنة الطول والشكل مقابل القامة الرهيفة التي أودعتها في ذهني، مع ذلك، لم تكن أي منهن الآنسة داي، تابعتُ طريقي إلى الغابة، موبخاً نفسي لشدة غبائي.

أهلّت الأشجار غير مورقةٍ ولا نضرةٍ كحالِ الغابات الجنوبية التي اعتدتُ التجوال بين منعطفاتها منذ أزمنةٍ خلتْ، فروعٌ ذلول لا تماثل بأي حال من الأحوال الأغصان البرية الجامحة المحتشدة حول منزل طفولتي في سبيندل هيل، لنقل إنها غاباتٌ تم ترويضها، قطعتِ الأشجار مرارًا وتكرارًا، كما اقتلع المزيد منها بغية مدّ أركانٍ واسعةٍ للمزارع المحيطة بالأكواخ التعسة التي يقطنها الأيرلنديون، أشجارٌ تعاقب على زيارتها الصيادون وصيادو الأسماك والمتسكعون في الهواء الطلق بلا هدف مثلي، إلا أنّ توغلي بمسيرٍ أعمق، كشف الستار عن أشجار الأرز الحلزونيّ الهارب من نصلِ الفؤوس، أبصرتها منتصبة بأوراقها العريضة المتلوية مع النسائم العابرة، فيما تعالت أمامي أشجار التنوب العتيقة فارعة الطول مزيّنة بتشابكاتٍ خلابة من الأشنات النضرة، إنها الطبيعة حين تختار وشم نفسها بالنفع والجاذبية والأمان، مشيتُ مستمتعاً مصغياً بسرورٍ لهفهفة الأوراق

المتساقطة حتى وصولي ظمِئاً إلى حافة البحيرة، شعرت بالمياه التي غرفتها من باطن كفي صافية عذبة بعيدة المنال عن جرار القاطنين في المستوطنات البشرية البعيدة.

لحظاتٌ تعرفتُ إبانها إلى باكورة المشاهد والنفحات التي باتت مألوفة وعزيزة على قلبي منذ ذلك اليوم، بعد أن نجحتُ في التخلص من القلق الذي تحرك بخطواتي الفجة على طول الدرب، بدأتُ أشق طريقي بتروٍّ وتمعن، توقفتُ بعدها لتفحص هيكلِ فطر حيويّ متربعٍ على جذع شجرة الزان، تأملتُ السيقان الرقيقة للسراخس، انحنيتُ منكبّاً منعماً النظر باحثاً بين ركام الأوراق عن الجحور المحجوبة المهجورة، متلمساً الأزهار النجمية الصغيرة الناعمة المتفتحة فوق وساداتٍ من الطحلب الزمردي.

متنسماً كنتُ لعبير الأعشاب البرية المبعثرة في الأنحاء، غارفاً الأريج الغنيّ للخشب المعطوب، غافلاً عن هنري ثورو الذي تسلل خلفي هادئاً صامتًا كهنديّ أحمر، لا بد أنه راقبني لبعض الوقت، لأنني حين رفعت رأسي، رأيته يرمقني بوجهٍ متبسمٍ، متكئاً على جذع شجرة بالقرب من ضفاف المياه، بينما عقد ذراعيه حول صدره، لمحتُ آلة الفلوت سامقة من جيب معطفه.

«لم أكن أعرف أنك ميّال لتفحص الطبيعة»، قال.

«يتوق فتى الريف القاطن في المدينة إلى العبق النقي للبراري أحياناً»، قلتُ ناهضاً مبادلاً إياه الابتسامة، نافضاً غبار الأغصان عن معطفي الأنيق القديم، نظر هنري إلى ملابسي نظرة استحسان، ثم دعاني لمرافقته بالقول: «تعال لنصطد الأسماك معاً!»

أخبرني الرجل أنه أرسى زورقه الصغير على شاطئ بحيرةٍ تبعد ما يقارب نصف الميل عن المكان، مضى الشابّ بمسيرٍ حثيثٍ رشيق، بينما حاولتُ مواكبة خطواته التي اجتازت دروب الغابة كغزالٍ يعدو بين الأدغال، وصلنا في نهاية المطاف إلى صفيحة شاسعةٍ أشبه ما تكون ببحيرة منها ببركة، فيما أفسحت الضفة المنحدرة المجال لانزلاق الزورق بيسر وسرعة حتى بلوغه سطح المياه متمايلاً برقةٍ مع الأمواج.

كنا لا نزال واقفين على أطراف البحيرة الوعرة، بينما لاحت الضفة

الأبعد كاشفة عن أرضٍ زراعيةٍ ممهدة، نزلنا إلى قاربه، ثم قام بدفعه بمهارة اليدين صانعتي أقلام الرصاص، ببراعةٍ وقوة تتناقضان مع هيئة بنيته النحيلة.

«ليست أجمل البحيرات»، قال؛ «فأنا أرشّح البركة البيضاء كجوهرةٍ للغابة، بينما أعتبر والدِن البحيرة الأنقى، أما هذه البحيرة فأجدها الأكثر وفرة بالأسماك»

«ماذا تدعى؟»

اكفهرار وعبوسٌ اكتسحا ملامح وجهه المليحة مع نطقه بالإجابة: «بركة فلينت - بكل تأكيد؛ لست من أطلق عليها هذا الاسم!» بدأت مجاديفه تضرب الماء بقوة ثم أردف متذمراً: «بركة فلينت! حتى ولو جاورت مزرعته المياه السماوية المضيئة هذه، لكن لا حقّ يتيح لذاك المزارع الغبي بإعطاء اسمه لها»، دعمتُ رأيه بالقول: «في كثير من الأحيان، لا تزال تسمياتنا مقفرة حاسرة الرؤية»

ألقى هنري رأسه للخلف في بادرة موافقة؛ ثم ردّ باضطراب تلاه الحماس: «فليكن اسمها عائداً لإحدى الأسماك السابحة هنا، أو لأيّ زهرةٍ بريّةٍ تقطن ضفافها، لا لمن منحها لقباً بحكم الجيرة أو بقرارٍ من مجلس تشريعي - يا لأنانية أولئك الباحثين عن مصالحهم النفعية بينما يبقونها عارية الشواطئ!»

جدف وصولاً إلى مركز البحيرة، ثم استلقى مرة أخرى في مقدم القارب، مسلماً إياه مهمة رسم أقواسٍ مائيةٍ كسولة، «بركة فلينت!» رتّل الاسم من جديد، «السيد فلينت، الذي لم تعجبه البركة يوماً، لم يحمِها ولم يمتدحها بكلمةٍ طيبة واحدة، حتى إنه لم يشكر الخالق الذي أبدعها، لم لا يقوم هذا الرجل بتجفيفها وبيع الطين الراقد في قاعها، إنه على استعداد لبيع الطبيعة برمتها، لا ريب أنه لن يتردد بحمل إلهه إلى السوق إن استطاع، طمعاً في تعبئة جيوبه!»، عمل اهتياجه على الانتصاب بقامته ناحية اليمين، فارتج القارب مقلقلاً، فسارعتُ بالقبض على مسند المجداف.

«أعلم أنني أبالغ!»

«لا على الإطلاق»، ثم هرعت لدعم رأيه: «لقد بُحتَ بالكلام البليغ،

إنّ إفساد كل ما تقع أيادينا عليه من أسوأ عادات جنسنا البشري، مع ذلك، القليلون يلاحظون ذلك»

«القلائل بالفعل؛ لكنني سعيد بالتعرف لشخصٍ مهتم مثلي»

الشمس المنحدرة صبغتِ المياه بمسحةٍ قرمزية خلابة، فقام هنري بموازنة كتفيه مبعداً كفيه عن صنارته، استلّ نايه ليبدأ عزفاً عذباً لا مثيل له، أنغاماً شجيّة سحرت الأرجاء حتى شرعت أسماك الفرخ بدورها، خفاقة إلى الأعلى، ضاربة بمرحٍ وجه البركة، طائفة حول هالة الوميض المحيطة بنا.

في صباح اليوم التالي، أفشت السيدة ثورو خلال اجتماعنا حول مائدة الإفطار، عن دعوتها بعضاً من أصدقاء هنري لتناول عشاء ذلك اليوم، «إنهم أفراد عائلة إميرسون الودودون اللطفاء - الذين استضافوا هنري لبعض الوقت العام الماضي»

تظاهرتُ بحماسة مهذبة، مشيراً إلى أنني استمعتُ يوماً لمحاضرةٍ ثريّة ألقاها السيد إيمرسون في جامعة كامبريدج، لكن وجهي لا بد أنه وشى ببعضٍ من خيبة الأمل، خاصة أنني كنت آمل دعوة صديقة الابنة بدلاً من أصدقاء الابن، نهضت السيدة ثورو من مقعدها مغادرة الغرفة، لتلتفت بابتسامة بالكاد تمكنت المرأة من كبتِها، مستدركة بالقول: «الآنسة داي ستنضم إلينا أيضًا، ألم تقل إنك تعرفها يا سيد مارش؟»

اصطنعتُ السعال مستخدماً منديلي على أمل إخفاء الارتباك الذي خفق فاضحاً في شريان عنقي، بالكاد استطعت احتواء نفسي خلال الساعات التالية، متمنياً رحيل النهار على عجلٍ تواقاً لحلول موعد العشاء، سعيتُ للاطلاع على بعض المقالات المنشورة للسيد إيمرسون عساي أظهر نباهة أثناء محادثته في مواضيع تهمه، لكن أفكاري عن الآنسة داي حلقت محمومة حولي، عاجزة عن الاستقرار داخل رأسي كما لو أنها طيور طنانة، ترتب العشاء حول مائدة العائلة الزاخرة بالطيبات، المستديرة المصنوعة من خشب الجوز الأسود، ذات القوائم الملفوفة على نحو استثنائي، تساءلتُ إن كان هنري من أبدعها، موشكاً على الاستفسار منه مع وصول السيد

والسيدة والدو وليديان إيمرسون، ليقطع هنري محادثتنا فجأة كما يقطع الصياد خيط صنارته، مسارعاً لاستقبال العائلة، لاحظتُ ترحيبه الفج بالزوج، راسماً ابتسامة عريضة للزوجة التي هرع لجذبها نحو ركنٍ قصيّ في الغرفة، حيث بدأ الاثنان التحدث بحيوية استبعدتهما تمامًا عن مشاركتنا الحفلة، هكذا، بأسلوبٍ محرج نوعًا ما تم تقديمي إلى السيد إيمرسون، على الرغم من التحفظ الذي أبداه الرجل تجاهي، لكنه تألق بتوازنٍ وهدوء مثيرين للإعجاب، من الجلي أنّ عقله كان مشغولاً للغاية، ما جعل انتشاله من أفكاره الخاصة ومحادثته غاية صعبة المنال، إلاّ أنّ وصول الآنسة داي بدد تيه الرجل، معيداً إياه إلى أجواء الحوار على نحو مثير للدهشة.

كآخر من انضم إلى مائدة العشاء، بدا واضحاً قدومها المتعجل من منزل والدها، إذ اصطبغ وجهها بصبغةٍ ورديّة طبيعيّة تكاثفت عند الخدين على نحو لافت عكسته نصاعة فستانها الأبيض البسيط، هيئتُها الآسرة التي اشتقتُ لمرآها، ألجمتني عن الكلام وعن مقابلة عينيها رغم التوق المضني لإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ عليهما، بدا جلياً أنها لم تكن على الإطلاق تعاني مما أصابني، فحيّتني برباطة جأش واتزان مستهجنة تواجدي بينهم: «السيد مارش! يا لها من فرصة غير متوقعة أن أقابلك هنا في كونكورد»، ثم التفتت إلى مضيفتها للاعتذار عن تأخرها، موضحة بشكل غير مباشر أنها احتُجزت بسبب وصول طردٍ مفاجئ، رمقتها صوفيا ثورو بنظرة مليئة بالدفء والمحبة ثم سألتها: «هل والدك قادر تمامًا على التصرف حياله؟ كان بإمكانك جلبه معك إلى هنا، دون أي تحفظ كما تعلمين»، أظهرت الآنسة داي ابتسامة مشرقة من الامتنان ثم احتضنت صديقتها: «شكراً لك، يا عزيزتي، أعلم أنه على الدوام، يمكنني الاعتماد عليك وعلى عائلتك في تدبير أمور كهذه»

حوارٌ سكب وجوماً على قسماتِ وجه السيد إيمرسون فأطلق تحفظه بالقول: «آمل ألا تمانعي تدخلي يا آنسة داي! اسمحي لي بالتعبير عن خشيتي من إقحام والدك بأمرٍ يفوق إرادته أو قدرته أو رأيه المتأثر بك التابع لرغبتك كما تعرفين، خاصة مع حالته الصحية المتردية حالياً، أما ثقل العواقب الوخيمة فلن يتهاوى إلا على عاتقه شخصياً لا عليك أنتِ»

اشتعَل وجهها حنقاً فدلق مزيداً من الجمراتِ فوق الخدين، رمضاء

ظننتها فيضاً من الشعور بالإهانة، حتى شروعها بالكلام: «سيد إيمرسون»، نطقت بالاسم هسهسة، «لو تحمّل البعض منكم مسؤوليات القيادة المنوطة بمناصبهم في هذه المدينة، لما تُركت هذه الالتزامات الملحّة بعهدةِ شابات ورجال مسنين ضعفاء!»

«عزيزتي الآنسة داي، لا يمكن للرجل توجيه انتباهٍ يقظٍ إلا لقدرٍ معين من الاستحقاقات المتوجبة عليه، مع ذلك، أينما سمعت شتائم نالت رجلاً أسود، أو حيثما صادفتُ زنجيًا يتعرض لسوء المعاملة، أشعر بأنني مضطر للدفاع أو التحدث نيابة عنه، أكثر من ذلك في الوقت الحاضر، فلا يقع ضمن صلاحياتي»

«ليس من صلاحياتك!»، لا شعورياً صرخت الفتاة بصوتٍ هادرٍ لفت أنظار هنري وليديان، مقاطعاً محادثتهما الثنائية، مسارعاً بصوفيا وسينثيا لتمسك إحداهما بها بينما ربتت الأخرى على كتفها، كما يفعل المرء حين ينوي تهدئة كلبٍ شرس أو كبح جماحه.

«ليستْ من صلاحياتك! أنتَ يا من يقود حشودًا كبيرة في ليسيوم! أيها الكاتب بأهم المجلات المرموقة في البلاد،،،! ها أنت تعلن عجزك عن فعل المزيد! يا للدجل! يا للخزي والعار! يا للنفاقِ العظيم!»

الرجال عموماً، لا يجدون النساء الغاضبات جذابات، لقد حبس الإفراط في هجومها أنفاسي، أما رؤية وجهها الفتان مشوهًا بملامح العنف فقد صدمني تماماً، من يمكنه تخيل الشابة الرقيقة ذات النشأة المهذبة الراقية، فاقدة السيطرة تماماً، ثكلى بقوى التحكم الذاتي إلى هذا الحد!

لم يسبق لي مقابلة امرأة محتدة على هذا النحو من قبل، ولا حتى بائعة جاهلة حانقة في السوق، أما السيد إيمرسون فقد بدا مصعوقاً لدرجة تلاشى معها لون وجهه لشحوبٍ فاق لون غطاء المائدة، حاول الرجل الرد على صراخها غير اللائق بنبرة خفيضة كأنها الهمس: «تؤسفني بشدة الصورة الوضيعة التي تبدّت لك عني يا آنسة داي، استميحكِ عذراً لتجرُّئي على مناقشة مسألة تمس حُكمك المغاير على قضايا مماثلة، سآخذ بعين الاعتبار ما قلتِه مستقبلاً»

ما زال جسدها مرتعداً بغضبٍ جامح، خشيتُ من جرائه أن تواصل هجومها المستعر بمواجهة الرجل، لكنها بدلاً من ذلك أشاحت برأسها ملقية بنظرها إلى وجهي المذهول، وقعت عيناي على مقلتيها السوداويين لأول مرة تلك الليلة، وقد أترعتا بالدموع المتوعدة.

«تعالي معي يا عزيزتي»، سألتها صوفيا برفق: «الحديقة قريبة، أريد أن أعرفك على أنواع أزهاري قبل الشروع بتناول العشاء»، لم تنتظر صوفيا من الآنسة داي أيّ إجابة، بل جذبت ذراع صديقتها المرتعش وأخرجتها من الغرفة ليسارع الحاضرون إلى التقاط بعضٍ من أنفاسهم المختنقة، كم أشفقتُ على السيد ثورو المسكين اللطيف والودود! الذي أهلّ متمايلاً متألماً كما لو أن مثقب النجار اخترق أصابع قدمه، عجّلت السيدة ثورو بطريقة ما، لمحادثة السيدة إيمرسون بشأن بعض الأمور الظريفة، لكن أحداً لم يهدأ حتى عادت صوفيا بمفردها من الحديقة، لتخبرنا أن الآنسة داي اعتذرت عن مشاركتنا العشاء لإصابتها بصداعٍ مفاجئ أجبرها على المسارعة بالعودة إلى منزلها، وجّهتُ صوفيا جانبًا مستفسراً: «هل صحيح ما فهمته، أن الآنسة داي قد ورطت نفسها في نشاطاتِ شبكة «السكك الحديدية تحت الأرض[1]؟» تفحصتْ عينا صوفيا اللماحتان وجهي، أخفضت نبرة صوتها وتمتمت بالإجابة: «الآنسة داي وشقيقها أخذا زمام إدارة أمورٍ مماثلة لوقتٍ طويل»، ثم أعلمتني أن حمولة الليلة ستتوقف لفترةٍ وجيزةٍ لا تتعدى بضع ساعات، لكن الأسرة في أحايين أُخر آوتْ هاربين لأيام عدة، «إنها امرأة حازمة، يا سيد مارش، على الرغم من أن البعض» - أطلقت نظرة سريعة صوب السيد إيمرسون ثم أكملت حديثها قائلة: «ينعتونها بالفتاة المتهورة،،»، اضطررنا لقطع الحديث والانفصال حين دعينا لأخذ أماكننا حول سفرة الطعام، لم يكن بإمكاني الاستمتاع بالعشاء اللذيذ رغم ما تضمنه من وجبةٍ نباتيةٍ صحية أعدتها السيدة ثورو احتراماً لرغبتي، لم أتعافَ أنا والحاضرون من

1- السكك الحديدية تحت الأرض: القرن 19، تشتمل على شبكة من الطرق السرية والمنازل الآمنة التي ساعدت الأميركيين الأفارقة المستعبَدين على الهرب، كان يديرها نشطاء أشاروا إلى أنفسهم على أنهم عملاء ومحصلون ومديرو المحطة، في حين اعتبروا الهاربين «ركاباً».

الاضطراب طوال فترة المساء، حتى قررت عائلة إميرسون المغادرة باكراً بما جلب الراحة للجميع.

كان الجو حارًا في تلك الليلة، أما الهواء فعاندَ التنسم بالمكان، حاولت الخلود للنوم متقلباً في فراشي مراراً وتكراراً لكن دون جدوى، فقررتُ النهوض، ارتديت ثيابي جامعاً أفكاري المشوشة على أمل بعثرتها خارج الدار، مضيت عابراً مساكن القرية في دربٍ مُضاء بالقمر الذي أرشد خطواتي لسلوك المنعطفات المشجّرة المألوفة المؤدية إلى البحيرات الصغيرة، نفحَ النسيم عليلاً بين أغصان الأشجار، ثم بدأ السديم المتكاثف في رأسي بالتبدد شيئاً فشيئاً، قبل وصولي ببرهةٍ إلى شاطئ المياه المتألقة بضياء فضيّ، سرعان ما أدركتُ أن ثمة أحداً غيري في الأنحاء، فقد أفرج الليل عن شجنِ ناي عذبٍ وشى بهنري الذي أبحر بزورقه إلى مركز البركة عازفاً لأسماك الفرخ، تجولتُ حول ضفاف البركة المحاطة بالحجارة الملساء الناصعة الوضّاءة بما يكفي للدلالة على وجهة الطريق، ثمّ جال تفكيري حول الآنسة داي، تخيلتها ساهدة قلقة محرجة من ثورة غضبها، رغم أنني لم أكن مقتنعاً قط بغفلتها عن الخطأ الذي ارتكبته أو التنبه لحاجة السيطرة على نفسها، إن جهلي بشخصية السيد إيمرسون لا يمنحني حق الحكم على نزاهة الزجر الذي ناله من عدمها، فإن كان هناك ما يستحق الجدال الحاد، فالأمر عائد للمسبب، أما السلوك الهجومي التابع لمزاجٍ نزقٍ لاذع،،،! استغرقتُ بالتأمل بطبعها الحاد، هل يمكن لزوجٍ متفهمٍ كبح جماح زوجةٍ مثلها إبان فقدانها لأعصابها، أو أثناء تورطها بمعركةٍ مع إحدى الضحايا؟ لعلها خصلة متأصلة في شخصيتها؟ ماذا لو أنّ لسانها سليطٌ لا يُلجم، أو أنّ اندفاعها جارحٌ لا يرحم؟ أي نوع من الزوجات ستمسي، أيّ أم لأطفالها،،،!

لفت انتباهي بصيصٌ أبيضُ يتنقل بين الجذوع الداكنة أقصى الشاطئ، بزغتِ الآنسة داي أمام ناظري على نحو مفاجئ كما لو أنني استحضرتها في تلك اللحظة، أبصرتُها تطوف حول الأشجار كجنيّة الغابة، بمجرد رؤيتي لها دحرت اختلاجتي الجسدية تحفظاتي العقلية جميعها، ناديتها فالتفتتْ، حين تعرفت علي، ردت تحيتي بضحكة تشوبها السخرية: «هل سكان كونكورد كلهم الليلة هنا؟»، قالت بينما تشقّ طريقها عبر الحجارة المتناثرة قاصدة

الانضمام إلي، ممررة قدميها برفق إلى الأمام والخلف فوق القطع المسطحة الملساء مثيرة جلبة خفيفة.

«كنت وأخي أطفالاً، نتسلل إلى هنا في ليالٍ صيفية مماثلة، نشعل النار ونصطاد الأسماك بصنارتين يمتد في آخرهما خطافان مترعان بالديدان، كبرتُ فأجبروني على التخلي عن هذه العادة، ليأسروني في صالوناتهم الخانقة، ويلقون على عاتقي طقوس تبادل مجاملاتهم المهذبة--»

توقفتْ لثوانٍ عن متابعة حديثها، فتساءلتُ إن كانت تفكر بما جال في خاطري عن حفلة استقبالٍ لم تشهد منها أيّ تهذيب أو حكمة تذكر، «حسنٌ»، واصلتْ ما تودّ قوله بنفس النبرة الخفيضة: «بما أنني كبرت الآن ويمكنني انتقاء أماكن راحتي، اخترت المجيء خلسة دون علمِ الأب الذي سيرفض بكل تأكيد قدومي بمفردي إلى مثل هذه الأماكن النائية»

جلستْ وبدأتْ بفك رباط حذائها، لتقف منتصبة فوق الحصى البيضاء، ثم شرعت بخلع جوربيها بينما تحدق بي: «هل تعتقد أن ما فعلته اليوم مثيراً للدهشة يا سيد مارش؟»، سألت وقد أشرق القمر ببياضِ عينيها متألقاً بحدقتيها القاتمتين، قفزتْ رافعة حاشية فستانها حتى انكشف الانحناء الشاحب لربلة إحدى ساقيها، ثم وثبت إلى الضفة مغطسة أصابع قدمها بين الموجات المتلاطمة، أفلتت شهقة مني، لعلها فهمتها نفحة من الاستهجان إذ هتفت بالقول: «لا بد أنك صُدمت!»، «حسناً فأنا في أمسية واحدة فقط، كشفتُ النقاب عن نفسي لأبدو امرأة سيئة الطباع ومتهورة في الوقت ذاته!»، ألقت برأسها للخلف وأبانت عما اعتقدتُه ضحكة ناعمة في البداية، لكن مع ارتجاف كتفيها أدركتُ أنها تبكي، خصلاتٌ طويلة تحررت من دبابيس شعرها وأخذت بالتهاوي داكنة فوق بياض القماش، «إنّ الرجل الذي ساعدتُه الليلة وسموه بالنار يا سيد مارش، أحرقوا بحديدٍ ملتهب وجه إنسان حي،،، في حين ترانا مجتمعين في الصالات نثرثر دون مبالاة أو رغبة بالإتيان بفعلٍ يذكر، قانعين أنفسنا بكفاية تأثير الكلمات الفارغة،،،»، ابتلعتْ ريقها، ثم أذهب النحيبُ قدرتها على متابعة ما تود قوله، كنت جوارها أنقّلُ قدميّ فوق الحصى لأهرع بتعاطفٍ صوبها، أزحتُ شعرها المنسدل الكثيف الناعم للخلف، لمستُ ذقنها ورفعتها سامحاً لضوء القمر بالتسلل إلى وجهها المندى بالدموع.

من حسن حظ كلينا دراية مارمي بالمفارق والدروب السريّة لنزهاتها المسائية المحرمة، إذ بعد بضع ساعات، حين شققنا طريق العودة الخفي للقرية، لم يكن أي منا بحالة يمكن شرح أسبابها بسهولة، لم يكن لدي أي فكرة عما ستفعله بثوبها الأبيض، فستانها الملطخ بالطين وبالدم،، نعم،، بالدم،،! فقد زوجنا نفسينا في تلك الليلة فوق فراشٍ من إبر الصنوبر المتساقطة - في ليلة مذهلة لا يزال عبقها الصنوبري يثيرني حتى اليوم، كان زفافاً هائلاً رافقته أنغام شجية أطلقها ناي هنري البعيد وكللته أغصان البتولا الناصعة المقوسة لكنيستنا الخاصة، في البداية، كانت ترتعد كأوراق الصفصاف، بينما غلبني الحياء لشدة عجزي عن كبح شهوتي المتأججة، مع ذلك لم أستطع التنحي بعيداً عنها، فقد شعرت كأنني بيليوس[1] محاولًا التشبث بثتيس عند الشاطئ، لكنها على نحو مفاجئ، من بادرت بمعانقتي بحرارة أتونِ نارٍ مستعر، التنور نفسه الذي اشتعل غضباً منذ ساعات، تفجر بحممٍ من الوجدِ والرغبةِ بين أحضاني.

الليلة الأخاذة التي لم أعرف لها إغفاءة جفن، انتهتْ بدعوةٍ صباحيةٍ مبكرةٍ إلى منزل والدها، يبدو أن مدبرة المنزل الفظة المدعوة السيدة موليت وشت بشيء عن الفستان المتهتك المثير للريبة - الذي سيق سريعاً إلى مكتب والدها، لألحقه فيما بعد مجيباً عن استفسارات متعلقة بما عليّ اتخاذه من إجراءات شكلية خاضعة لما حدث، أبدى الرجل العجوز امتعاضاً حين أخبرته عن نيتي بإقامة حفلٍ بسيط بأسرع وقتٍ ممكن في قاعة الاستقبال بدلاً من التحضيرات المديدة والدعوات الكثيرة لحفل زفافٍ كنسي رسمي فخمٍ لطالما أراده لابنته، لكنني لم أستطع تحمل أي تأخير من شأنه أن

1- بيليوس:أحد أبطال الميثولوجيا الإغريقية، الحدث الأكثر شهرة في حياة بيليوس زواجه بإلهة البحر ثتيس، ومنها أصبح والد أخيل. تقول الأسطورة أن كلاً من زيوس وبوسيدون طلب يدها، لكن الإلهة تيميس حذرت الأول بأن ابن ثيتيس من زيوس كان أقوى من أبيه، فقررت الآلهة تزويجها إلى بيليوس، أرادت ثيتيس الهرب من هذا الزواج المقيت، فغيرت نفسها إلى أشكال مختلفة، لكن بيليوس في النهاية قبض عليها بإرشاد من خيرون وأبقاها حتى عادت إلى شكلها الأصلي، حيث لم تكن قادرة على المقاومة أكثر، أُقيم الزفاف في كهف خيرون على جبل بيليون.

يجعلنا منفصليْن بلا داعٍ ولو لليلةٍ واحدة، وهكذا في غضون أسبوعين تمّ عقد قراننا رسمياً ضمن حفلٍ متواضعٍ ضم أخاها ووالدها، وبحضور عمي وزوجته ودعوة لعائلة ثوريوس كشهود على عقد القران.

مع اكتمال القمر بعد تمام تسعة أشهر، حملتُ بين ذراعي طفلتنا الأولى التي بزغت للعالم بملامح والدها ولون بشرته، لو أنّ المولود ذكر -تمازحنا ذات مرة- فإن ظروف قدومه ستجبرنا على تسميته أخيل، لكنها بنت، ما وهبني مطلق الحرية بمناداتها باسم أغلى نساء العالم على قلبي: والدتها،، (مارغريت) سميتُ طفلتنا البكر.

الفصل السادس

خميرة من الشمال

على متن هيتي جي، 10 مارس 1862

زوجتي الحبيبة:

طوال هذا الشهر؛ يراودني شعور المجوسيّ[1] الذي خاض غمار البرد القارص، مقدِّساً بأعماقه الغاية التي أذكتْ سلوانه على الرغم من مشقة الطريق، أستلقي الليلة على ظهر سفينة لاطمتها الأمواج، آملاً بغدٍ محمّلٍ بمأوى آمنٍ داخل أحد القصور البيضاء العظيمة التي أخلاها فرسان التمرد المهزومون، لا بد أنكِ، يا من انشغلتِ على الدوام بنسلِ الخيوط ولفّ الضمادات وحياكة الجراميق[2]، تدركين أكثر من غيركِ الحاجة الماسة إلى محصول القطن في هذي الحقول، ذهبٌ أبيضُ خنقته الأعشاب بفعلِ الإهمال، أو عفّنه زمن تأخر القطاف، أو دمرته الأيادي تعسفياً بقصد حرماننا منه، كنتُ شاهداً على تصاعد ضفائر الدخان من الأراضي التي أشعلها المتمردون المتقهقرون قبل انسحابهم، كثيراً ما كنا نبخر عباب مياه تغصّ بكتل القطن التائهة عن رزمٍ ضخمةٍ تمت دحرجتها بغير رحمةٍ لإغراقها في النهر.

ها أنا أخيراً في الغد، سأصل إلى وجهتي المحدّدة، إلى موطئ الأرض المحررة التي آوت الزنوج في ظلّ حمايتنا داخل مساحة وصلت إلى ألف

1- المقصود هنا أحد المجوس الثلاثة (الملوك الحكماء الثلاثة) الذين جاؤوا من الشرق ليشهدوا ميلاد يسوع المسيح في بيت لحم، وقد ورد ذكرهم في الإنجيل.

2- جراميق: مفردها جُرموق وهو ما يلبس فوق الخف وقاية له من الماء أو من غيره.

فدان، هناك حيث ينعمون بطيبِ ثمار كدحهم المأجور، يا لفؤاديَ الذي يخفق كفراشةِ الليلة! أتمعن بتوقٍ للمهامِ الجوهرية التي تنتظرني إبان النضال الرائد العظيم في سبيل تحقيق العدل والمساواة!

قطعتُ مسافة طويلة جنوبًا حتى وجدت نفسي في هذا المكان، حيث انحسر المعنى المألوف لتعبيرنا المتداول شمالاً «أبيض كالثلج» لتحلّ محله عبارة أكثر مواءمة للمشهد: «أبيض كالقطن!»، لن أقول إنني أجد المناظر خلابة هنا، إذ ما انفكت عيناي الشماليتان تفتقدان عظمة الطبيعة السندسية المبهرة المرشدة لطريق الرب، كم أتوقُ للجبال! للتلال الوادعة في ماساتشوستس؛ للمنعطفات الفاتنة المقلّة لمشاهد خلابة مع كل وادٍ وأخدود، لطياتٍ تجود بنسائم عليلة مع بلوغ قمة عالية أو منحدر غائر، هنا كل ركن جليّ المعالم مكشوف، كحالِ أغنية تدندن النغمة ذاتها، يستيقظ المرء وينام على الرتابة ذاتها، أما الشمس فتحدق بك كصفار بيضة شاحب عبر السماء المزرقة، الموازاة بين البيئتين مثلها كمثل المقارنة بين طائر الطنان النشط مع دجاجة سمينة، حتى النهر الكليل هنا لا يماثل أنهارنا النقية السريعة التدفق، إذ تنساب بنيّةً كعسلٍ سوداء مياهُه، رحبة كميناء بلا بريق، فاقدة النبض والوميض، النهر ذاته تماوج حاراً في أحد المنعطفات، كما لو أنه عابر فوق فرنٍ سرّي دفين! قد يسحل عميقاً خيوطاً من الضوء لمجراه، مطلقاً لمعاناً ماكراً لا يبيح بأيّ حال من الأحوال الكشف عن خبايا عمقه المبهم أو ضحالته المخفية، يا له من نهرٍ دجّال! يتهادى بكسلٍ دمثٍ، مضمراً خبثَ التيارات الثائرة في جوفه، الخطرة الجارفة لجذوع الأشجار العظيمة، المبتلعة للرجال، الساحلة قاماتهم حتى القاع،،،!

رفعت بصري أعلى ورقة الرسالة متخطياً درابزين السفينة، ليتجسد المشهد أمامي من جديد: كبشٌ بحري[1] بخاري فيدرالي هاجم سفينة العدو، ليتغضّن جانبه كورقة مجعدة ما أفقده توازنه، فغرق بأقل من ثلاث دقائق مودياً بحياة جميع راكبيه من الجنود، لم أكتب ما رأيتُ برسالتي، ولم أقصّ

1- الكبش البحري: زورق استخدم كسلاح لمهاجمة السفن، يعود تاريخه للعصور القديمة، يتكون السلاح من إطالة تحت الماء لتشكيل منقار مدرع، يتراوح طوله عادة بين ستة و12 قدمًا، يتم دفعه لبدن سفينة العدو لثقبها أو إغراقها أو تعطيلها.

لزوجتي عن التوجّس الصامت الذي اجتاح هيتي جي في ليلةٍ سابقةٍ لنشوبِ معركة رهيبة، حين قام الطبيب الجراح بنثر نشارة الخشب لامتصاص الدم المتوقع سفكه، تاركاً الرجال على متن السفينة أسرى لهواجسهم؛ متسائلين بفجعٍ أيّ دماء ستُراق لاحقاً، أهي دماؤهم أم دماء الرفاق!

بنهاية اشتباك ذاك اليوم، تنقلتُ مسعفاً من جريحٍ لجريح حاملاً أكواز الكلوروفورم، قمتُ بفك الضمادات الملوثة عن الأطراف المتورّمة، غسلت الجراح وعقمت الجلود المسلوخة من جراء احتراقها بالبخار الحار بعد تهشم أنبوب السفينة البخاري بفعل إحدى القذائف، اقتربتُ من جنديّ محتضر، فهمس معرّفاً عن اعتناقه للكاثوليكية مُستعلماً إن كنتُ قساً فيتقدم بتوبة قبل الرحيل، دارياً باستحالة استدعاء كاهنٍ كاثوليكي إليه، نظرت حولي لأرى إن كان ثمة من يسمعنا، ثم همست له بأنني كذلك، تركته يُدلي اعترافاً بخطاياه، ثم منحته الغفران كما شهدتُ القساوسة الكاثوليك يفعلون، منذ ذلك الحين وهاجس ارتكابِ الخطيئة يراودني، أتراني فعلتُ الصواب أم لا؟ أتصور أن حاكم آلهة روما الصارم بحد ذاته لن يجدني مذنباً فيما اقترفت لأجل ذلك البائس!

هطلَ الدجى فوق سطح السفينة غير آفلٍ منذ ذلك الصباح الكئيب، ولم يُجدِ أسبوع من التنظيف نفعاً في التخلص من بقع الدماء الداكنة، مع ذلك، ما زلتُ أتكئ على الألواح الملطّخة موقناً أن الرسالة المضللة الأخيرة التي كتبتها، ستغدو خاتمة لإكراهي على الكتمان والتزييف في ظلّ الشروع بواجباتٍ جديدةٍ لا تتضمن أخباراً مؤذية أو غير صالحة لأخفيها عنها، خاصة أنّ مهمتي المرتقبة تعكفُ على تحسين الحياة وتطويرها بدل العمل على إنهائها.

منذ اللحظات الأولى لشروق شمسه، قضيتُ طوال اليوم التالي مسمراً عند مقدم السفينة، نافد الصبر مترقباً أمر القبطان بالرسو على ضفةٍ ستمهد خطواتي لموطن جديد جديد، كان الجو معتدلاً على نحوٍ لا يمكن تصوره متوافقاً مع الموسم ذاك، فأهلّ محملاً بالنسائم العليلة، تعجبتُ من الضفاف المكللة بسيقان الأعشاب الخضراء المرتفعة، غير الآبهة بالتخريب الذي يتوعده الصقيع القادم.

تم تكليفي بإدارة شؤون ممتلكات مزرعة أوك لانديغ، التي انتقلت لرعاية إيثان كانينغ، وكيل ولاية إلينوي، بعد توقيعه لعقد إيجار مدته سنة لمنزلٍ تملكه أرملة كولونيل كونفدرالي يدعى السيد كروفت، السيدة الشمالية المولد، انتقلت إلى المدينة إثر وقوع أراضيها بيد قوات الاتحاد، وبعد ضمانِ إدلائها بقسم الولاء للجيش، أمست ممتلكاتها تحت حماية قواتِ الاتحاد، بما يمنحها الحرية في تأجيرها كما فعلتْ مقابل مبالغ مالية ضئيلة مضافاً إليها نصف حصة الأرباح التي ينتزعها السيد كانينغ من منافعِ استثمار أراضيها.

لا بد أن هدفها بتأجير أشخاص كالسيد كانينغ يخفي نوايا ثلاثاً وفق اعتقادي: الحفاظ على حصتها من القطن الذي لا يمكنها الاستغناء عنه، إضافة نوعٍ من الخميرة اليانكية للرغيفِ الجنوبي! إضافة إلى تأهيل العبيد الذين باتوا الآن تحت حمايتنا، أولئك الذين سيقومون بإنجاز ما يترتب عليهم من أعمال مأجورة بطيب خاطر بدل الانسياق لذعرهم من لسعات السياط، يتعين على السيد كانينغ دفع أجرٍ يصل إلى عشرة دولارات شهريًا للعاملين من الذكور البالغين، مطروحًا منها بعض المبالغ الصغيرة المدخرة لتوفير الملابس واللوازم الأساسية الأخرى.

أما الدور المنوط بي، فكامن في المساعدة بإنشاء مدارس للأطفال من ذوي البشرة السوداء مع آبائهم الراغبين بالتعلم، أمضيتُ على متن الباخرة ساعاتٍ طويلةً أتأمل بطرائق التدريس الأولية وكيفية تشكيل الحروف الهجائية لتعليقها في حجرات الحلج، والطهي، والحدادة، بغية تعليم الكبار أثناء فترات كدحهم، الانشغال بالتفكير بهذا العمل الجليل، جاء ببلسمٍ لقلبي المتصدع من جراء القرار المتعسف للكولونيل بإرسالي مُعاقباً إلى هنا، في الواقع تصاعد حماسي أكثر فأكثر كلما أدركت قدرة مشاعري الحقيقية على تبني الصورة الواقعية الآسرة التي سأخطها في رسائلي التالية للوطن، كنت أتطلع بصدقٍ لهذه المهام الجديدة.

توقعتُ أن أجد السيد كانينغ حاضراً بنفسه لاستقبالي في الميناء، كما يُفترض بعد تلقيه نبأ وصولي الوشيك من قبل الخفر، لكنني فوجئت برؤية فتى زنجيّ أشعث الهيئة هزيلاً في الثانية عشرة من عمره، واقفاً في الضوء

المنحدر لشمس العصر بالقرب من بغلٍ مصابٍ بورمٍ عرقوبي يمضغ أعشاب النهر، اقتربتُ موبخاً نفسي لزهوها المتوقّع لاستقبالٍ أفضل شأناً، ثم مسّدتُ تغضن ملامحي، مبدياً البهجة بوجه الفتى الذي افترضتُ أنه أحد تلاميذي المستقبليين، مبادراً بتحية حماسية لم يبادلها الصبي بمثلها، لا بابتسامة أو رفع لعينيه المُطرقتين، قدمت نفسي مستفسراً عن اسمه بالمقابل، فأجاب بنبرةٍ خفيضةٍ اضطرتني لتكرار السؤال والانحناء لالتقاط ما حمله صوته.

«يوشيا يا سيدي»، قالها غارزاً ذقنه بصدره محدقاً بالحصاة المكورة تحت إصبع قدمه الخشن العاري، وصل إلى مربط البغل بغية إحضاره متوقعاً مني الركوب، فأخبرته عن رغبتي بالسير جواره كي تُتاح لي الفرصة للتحدث إليه عن أخبار المكان، فأطلق نظرة خاطفة مذعورة، ليجيب بعدها بكلمة أو كلمتين مغمغمتين ردّا على أي من استفساراتي رغم أسلوبي اللطيف معه، لمحتُ بعض الإفرازات القيحية وقد كستْ جفنيه، ثم سرعان ما بدأ بالتقاط أنفاسه لاهثاً منهكاً قبل أن نقطع أي مسافة تذكر، مشينا صامتيْن طويلاً على طول درب الطمي الأصفر، مجتازيْن الأشجار المرقطة بالأشنات المُكتَسحة بالطحلب الإسباني، اضطررتُ لإبطاء مسيري لمجاراة خطوات الصبي المتباطئة جهداً وعناءً، لم أعد أطيق صبراً حين لمحتُ جبينه مغروروقاً بالعرق، فتوقفتُ عن المتابعة منتظراً وصوله إليّ.

«تعال، امتطِ البغل يا يوشيا»، قلت بحنان، فهز رأسه المُطرقِ بالرفض، بينما تغضّنت ملامحه المكفهرة.

«هيا» قلت بإلحاح: «تبدو مريضاً جدّا عاجزاً عن متابعة المشي»

«لا يا سيدي، غير مسموح»

«يوشيا»، قلت «انظر إلي»

ثم ببطء بدأ الصبي برفع مقلتيه المتقرّحتين نحوي، «أعلم أنه من الصعب عليك الاعتياد على مثل هذا التغيير الجذري، لكنك ستنال حريتك في القريب العاجل، انهض وامتط البغل، لن يضربك أحد بعد الآن»

«الرمي بتلك الحفرة أشدُّ من الضرب!»

«أي حفرة؟»

«هاوية الزنوج الأشرار!»

لم ينطق بأكثر مما قاله، حاولتُ برفقٍ الضغط عليه، لكنه أشاح بوجهه بعيداً متحاشياً النظر إلى عيني، لا بد أن ما قصده كان متعلقاً بوحشية بعض برابرة النظام السابق وأفعالهم المثيرة للذعر، لذلك أوقفت استفساراتي مواصلاً المسير ببطء قدر المستطاع، كنت آمل أن يكون خمول الصبي ناجماً عن اعتلال في صحته، لا نذيراً عن سمات كسلٍ مشتركةٍ بين تلاميذي جميعهم، بما يحملني عبء المعالجة المضنية.

بدأتِ الدربُ تعلو بخطواتنا تدريجياً مفشية عن احتمال اقترابنا من المنزل الذي أطلّت أبراجه مبكراً من أعلى سفينة هيتي جي، مجاوراً لمباني النبلاء الشامخة المتربعة فوق التلال المشرفة على الوهاد والبحيرات، التفَّ الدرب بمنعطفٍ حادٍ مع حلول الغسق، ليتوسع فجأة إلى شارع عريضٍ مظلل بأغصان البلوط المنحنية، بلمحةٍ خاطفة، خفق المنزل بوميضٍ ناصعٍ اكتنفته الظلال التي سرعان ما أفسحت الطريق لشجيراتِ التمر حنة والأزالية المزهرة، ليُكشف الحجاب عن قصر ذي طابقين ونصف معمّر من الطوب مع ثمانية أعمدة توسكانية[1] بسيطة تشكل رواقه وتدعم شرفته على طراز المعبد، مصاريع خضراء طحلبية على طرفي الرواق، وعدت باستراحاتٍ نهاريّة ظليلة، لمحتُ المداخل المؤدية إلى الشرفة الخاصة بغرفِ الطابقين الأولين، جالت مخيلتي بحفيفِ التنورات الحريرية لسيداتٍ فاتنات خرجن لتنسم عبق النهر العذب في وقت مبكر من المساء.

تلاشت الرؤية مع اجتيازي للفناء ببلاطاته القرميدية المتشابكة، شاب هزيل فتح البوابة الخشبية، فأهلّ المنزل من الداخل مجرداً من فرشه المترف بالكامل، ليقودني صوب القاعة العارية من السجاد، المترعة ألواحها ببساطٍ من الغبار المُعلِنِ عن إهمالٍ عظيمٍ بشؤون تدبير المنزل، انتصب إيثان كانينغ وصافح بقوة يدي، رغم أنّني تلمستُ كفّاً ناعمةً لرجلٍ غير كادح، فإن قبضته

1- يمثل العمود التوسكاني -العادي، بدون المنحوتات والزخارف- واحدًا من خمسة طرز من العمارة الكلاسيكية في إيطاليا القديمة، أما في أمريكا؛ فيعد من أشهر أنواع الأعمدة التي تحمل الشرفات الأمامية.

المحكمة أوجعتني، أظنه أراد فرض سيطرة ما عبر مصافحةٍ حماسية لفتى يريد لعب دور الرجل، في الواقع، اندهشت من حيويته المفعمة بالشباب وملامحه الحادة الذكاء، كان ذا بشرة رقيقة غضنها الإنهاك، مع ذلك أشك في بلوغه منتصف العشرينات من عمره، أثناء استدارته ليقود طريقنا للداخل، ترنحت قامته يمنة ويسرة، لقد شرحت قدمه الكسيحة السبب لعدم ارتداء رجل في مثل سنه الزيّ العسكري، لم يكن طويل القامة بما يكفي للوصول إلى كتفي، أما عيناه فحدقتا بي عبر النظارة الذهبية الإطار التي أرخاها فوق حافة أنفه.

«لا بد أنّك جائع بعد رحلتك الطويلة يا سيد مارش، فإن كنتَ لا تمانع يتوجب علينا تناول العشاء مباشرة والذهاب بعدها للنوم، إذ إننا نستيقظ باكراً هنا»

قادني إلى ما كان فيما مضى قاعة طعام كبيرة، ألواحٌ خشبية أحاطت بجدرانها مزينةٌ بمشاهد فارهة لنبلاء فرنسيين متأنقين يتجولون بمرحٍ فوق المروج المزهرة، لعلّ الفرسان الجنوبيين الذين انتقوا هذه اللوحات يوماً، تمتعوا بحياة مماثلة من الرفاه والكسل اللذيذ، أبصرتُ السيدات المُزيّنات في اللوحة، وقد أشحن أبصارهن عن اللهو ليحدقن بأفقٍ أجوف يردده الصدى، وُضعت طاولة صغيرة في الخدمة بدل تلك المائدة الراقية الفاخرة التي احتلت المكان يوماً، بضعة أطباق صينية متصدعة وغير متطابقة تناثرت فوقها، جلستُ بحذر شديد فوق كرسي متهالك، ليأتي خادم مسن أسود بقطعة دسمة من لحم الخنزير، رفضت تناولها، مكتفياً بقليل من البطاطس الحلوة غير المطهوة جيداً، عشاءٌ فقيرٌ لم يشبه ما وعدت نفسي على الإطلاق، مع هبوط الغسق، طلب كانينغ من الخادم إنارة المكان، فقام الرجل العجوز بجر قدميه خارجاً والعودة بزوج من الشموع المثبتة داخل حبة بطاطس مجوفة، «شكرًا لك يا بطليموس» قال، ثم نمّ عن ابتسامة فاترة بينما أضاءت شعلة اللهب الملامح المستهجنة لوجهي.

«إيه مارش! ليس الأمر كما تخيلتَه، صحيح؟ ليس بالضبط كما دار في خلدي أيضًا»، ثم تابع ماضغاً بتمهلٍ قضمة من اللحم الطري: «أول ما احتل الفدراليون المكان كان المالك الراحل لا يزال على قيد الحياة، أخذت

القوات ما أخذت، ليقوم المتمردون غير النظاميين بنهب ما تبقى بعد وفاة الرجل، بمجرد معرفتهم بأداء سيدة الدارة ليمين الولاء للاتحاد، عثرتُ على بعض المتاعِ مخبأة في حي العبيد، لكن كن على يقين أن الكثير من المقتنيات الثمينة سلبها العبيد الهاربون الذين فاقت أعدادهم النصف وفق اعتقادي، على الرغم ممن عادوا فالعدد لا يتجاوز الأربعين شخصًا هنا، بمن فيهم خادم المنزل العاجز ذاك القادم من معسكر التهريب، الذي توجب على جيش الاتحاد إقامته في داروين بيند بغية استيعاب جميع العبيد الهاربين العائدين داخل صفوفه، من جانب إيجابي، أعتبر أن تعرضنا للسرقة الشاملة بمنزلة طوق نجاة من المداهمات المباغتة التي يدعمها الخبر الواشي بخلو المكان مما يستحق النهب، لكن ما انفك ورود أنباء تفيد بوصول يانكيّ جديد، ينذر بدس أنوف البعض بغية التحقق،،،»

«لكن كما فهمت؛ هناك حامية في ووتربانك لحماية المستأجرين الشماليين في هذه المنطقة؟»

أطلق كانينغ ضحكة جافة ساخرة: «هناك مخفر في ووتربانك، نعم بالطبع، لكن ما يسمونه بسلاح الفرسان مثير للضحك، لا يعدو كونه مجموعة متواضعة لا تنفع للتجوال بين بلدة وأخرى، أو حتى لمطاردة العناصر غير النظامية، لم أر في حياتي قوات خيالة تتسم بالإهمال واللامبالاة مثلهم! أتعرف لماذا؟ لأن معظم أفرادها ما زالوا يعتمدون البغال والخيول غير المدربة المصادرة من المواطنين، فهل يمكنك تخيل فعاليتها بخضم أي مطاردة حامية الوطيس! لا، يا سيد مارش، فالحماية التي تقدمها الحامية لا تمتد إلى أبعد من نقطة تمركزها، لا أخفيك سراً، لا أتوقع أبداً أن يغامروا ببذلِ جهدٍ ملحميّ للذودِ عنا»

حتى نهاية جلسة العشاء غير المبهجة، لم يتوقف كانينغ عن التذمر معدداً المشاكل الخاصة بالمشروع المعروف باسم أوك لانديغ، أخبرني أن موعد البدء بالقطاف يحين عادة مع قدوم شهر نوفمبر، خلال مدة لا تتجاوز الشهرين، بحيث يُختتم كل شيء بحلول عيد الميلاد، إلا أن كانينغ وجد المكان وقد استحال إلى فوضى كارثية، فالعبيد الباقون كما فهمت، آثروا زراعة خضروات من شأنها إسكات جوع عائلاتهم بدل الكدّ في قطاف

القطن، حدث ذلك قبل تمكن كانينغ من إحضار عمال تم طلبهم من داروين بيند، حيث قام المشرف المسؤول عن معسكر السلع المحظورة بإعادة تنظيم العبيد الهاربين ضمن جماعات محددة المهام، إلا أنّ الحظ العاثر جعل من الأوان المثالي للقطاف مُداهَماً بالأمطار الشتوية التي جرفت نصف ثمار القطن عن أغصانها، أما الحصاد المتأخر الحالي فحمل الكثير من الخيبات.

«لقد أوضحت السيدة كروفت الأمر، شارحة العمليات الحسابية الجارية»، أردف كانينغ مواصلاً حديثه: «إن إنتاجية العامل الواحد تعادل أكثر من مئة رطل من القطن يوميًا، سنمسي محظوظين لحصولنا على خمسين رطلاً من أفضل الأيادي العاملة لدينا، أما الأطفال والمسنون فجنيهم يقل عن ذلك بكثير، مع ذلك، علينا استخدام كل يد عاملة في هذا المكان»

أتاني الخبر بإحباطٍ عظيم، ما قاله يعني خواء فصلي الدراسي حتى اكتمال جمع المحصول، تساءلت بصوت عالٍ إن كان بإمكاني في هذه الأثناء تحمل الأعباء عن بعض العبيد، كالفتى يوشيا، الذي بدا مريضًا جدًا عاجزاً عن إنجاز مهماته.

توهج وجه كانينغ الضيق: «الغلام ليس مريضًا لدرجة قعوده عن العمل»، تنفس الصعداء متحسساً حضنه باحثاً عن منديلٍ لمسح فمه، ثم فرك دهن الخنزير عن ذقنه بظهر يده، «أيًا كان يا سيد مارش، ما سمعتَه عن الاستغلال الظالم لنظام المزارع –سمعتُه وصدقتُه بدوري، لا أنكر ذلك– –لكني أعتقد أن مالكي هذا المكان بالتحديد سُذّج بما فيه الكفاية ليسهل خداعهم من قبل عبيدهم! لماذا يعتقد ذوو الأيادي العاملة هنا، أنّ بإمكانهم الاستلقاء طوال اليوم داخل أكواخهم لأدنى حالة ألم أو نوبة برد؟ بالنسبة لي؛ لن أسمح لأي رجل لديه القوة للنهوض للتبول، التقاعس عن التوجه إلى الحقول لإنجاز نصيبه من العمل– وإلا فليتخلَّ عن نصيبه من لقمة عيشه من الذرة!»

لا بد أنّ وجهي توهج بالأحاسيس المختلجة في صدري، لأن كانينغ سارع بإطلاق نظرةٍ ساخطة قائلاً: «إن كنت ترى أيّ قسوة بما قلته أو عنف، فانتظر أسبوعاً من إقامتك بينهم وسترى بأم عينيك ما اختبرتُه قبلك، قضى الكولونيل كروفت وزوجته عمرهما متحمليْن النفقات المتعلقة بمعالجة

أمراض العبيد، الحقيقية منها والمُختلقة، أما عني كمسؤول عن المزرعة لعامٍ واحد، ما برحتُ أقاسي من المخاطر والمشاقّ الكثير كي أحقق ما اعتزمت جنيه حتى نهاية عقد الإيجار الخاص بهذا المنزل، في النهاية لستُ مبشراً إنجيلياً بمهمة إنسانية مثلك يا سيد مارش، بل مجرد رجل أعمال، مع ذلك، نتكبّد كلانا مسؤولية جسيمة في إصلاح أحوال الزنوج والارتقاء بمعيشتهم، حين جئت إلى هنا مُضمراً تحقيق مصالح عدة في مجالات العمل الحر، كنت متأكداً أنّ إنتاج القطن والسكر عبر تشغيل العمالة الحرة لا بد سيعود بالنفع والربح،، عليهم وعلينا في آنٍ معاً، فإن لم نتمكن من تحقيق ما سعينا جاهدين لأجله، فأيّ آتٍ جيدٍ يترقبه هؤلاء الأشخاص؟ ألا توافقني الرأي بأنه مستقبل مظلم للغاية؟»، عبّر كانينغ بابتسامة متكلفة هازئة، ثم نهض مبتعداً عن الطاولة متفحصاً ساعة جيبه، «أما الآن، يا سيد مارش هلاّ سمحت لي باصطحابك إلى محل إقامتك، إذ يتوجب علي المضي في جولة ليلية على كبائن العبيد -للتأكد من أن الجميع خالدون للراحة في أماكنهم الخاصة بدل تبديد قواهم بممارسة المرح أو غيره، كما يتوجب عليّ تفقد سائقي العربات المنوطة بهم مهمة نقل العمال إلى الحقول قبل ربع ساعة من شروق الشمس»، تبعته متعقباً خطواته خارج غرفة الطعام، حاملاً شمعدان البطاطس، كنت متعبًا ومكتئبًا تواقاً للوصول إلى سريري- السرير الحقيقي الأول الذي سأرقد فوقه مذ مغادرتي لكونكورد قبل أشهر عدة، لكن كانينغ لم يرتقِ الدرج الفسيح الصاعد إلى الطوابق العليا، بل توجه قاصداً المطبخ، حيث سلمه العبد العجوز بطليموس رزمة ملفوفة بقطعة قماش ملطخة ببقع الشحوم، ثم أمسك بحزمة مماثلة وقدمها لي، «خبز الذرة لفطور صباح الغد»، ثمّ أشار كانينغ موضحاً: «لا وقت لدينا أو قوى بشرية لتهتم بتحضير الإفطار»، تفكرتُ دون النطق بما يجول بخاطري، إن تم اعتبار بطليموس العجوز العاجز، المكلف بمهام الطهي وتدبير شؤون المنزل، عاملاً ميدانياً لا غنىً عنه، فلا بد أن الوضعَ خطيرٌ بالفعل.

استدار كانينغ بعد ذلك صوب الباب المؤدي إلى الفناء، مرشداً إياي للخروج، «بالطبع أنت حر باختيار قضاء ليلتك داخل المنزل، لكني لستُ مع الفكرة على الإطلاق، أنصحك باتّباع ما سبقتك لفعله، مختاراً المكوث

داخل أحد المباني القديمة الملحقة، فمن المحتمل عودة المتمردين ليلاً، أولئك المشهورين بسمعتهم السيئة وسلوكهم الفظ مع دعاة إبطال العبودية أمثالك!»

لجينٌ من فيضِ البدر انسكب فوق الدروب والساحات التي تناوبت بجلاء لتنتهي عند أطراف كتلٍ مبهمة ارتسمت في الأفق، دنونا فأعلنتْ عن موقعها داخل المدار الصناعي للمزرعة، حيث علت مدخنة محركٍ بخاريٍّ كبيرٍ أعلى الأكواخ وورش العمل المنخفضة، أخبرنا عبق النسغ النافذ عن منشرة خشب، بينما كشف كوخ عن نفسه دكاناً للحدادة، في حين ما افترضته محلجاً للقطن، انتصب في المدى القصي من الفناء، استل كانينغ الشمعة من البطاطس وسلمها لي، «اقتصد باستخدامها - أما عني فأكتفي بنصف شمعة أسبوعياً، سأنام في مطحنة الذرة، بينما أوصيك بتجربة هجودك في المخزن بين أكياس ثمار القطن، لا بد ستهبك فراشاً جيداً، احذر من مجاورة الشمعة لأي مكانٍ قريبٍ من المحلج، فالوبر المتناثر يلتقط اللهب كالفتيل المشتعل»

دفعتُ الباب الخلفي للمبنى الذي أشار كانينغ إليه، كومةٌ ضخمة من ثمار القطن -عدة مئات بوشل، حسب تقديراتي- ارتفعت وصولاً إلى عارضة السقف، الكثير من الثمار حُشيت داخل أكياس الخيش، قمت بترتيب اثنين منها لتهيئة فراشٍ، استلقيتُ متدثراً بمعطفي العسكري.

رنينٌ عظيمٌ ذهب بغفوتي العميقة فوق القطن الذي جاد بسريرٍ مريح، توجب علي الاستلقاء للحظة محدقًا في العوارض الخشبية في محاولةٍ لتذكر المَربع الذي بتُّ فيه ليلتي حتى استوعبت أخيراً أن الصليل ما هو إلا جرس يدقّ لإيقاظ العبيد، نهضت ملقياً المعطف حول كتفي بحماسٍ قاصداً مقابلة تلاميذي المستقبليين، ثم خرجت باحثاً عن الماء لإنجاز طقوس الغسل الصباحي.

هبّ نسيم الفجر بارداً، فالشمسُ ما زالت غافية وفق توقيت الإيقاظ الذي حدده كانينغ، لففتُ المعطف بإحكام حولي متفكراً بألا يُسهيني اعتدال الجو الذي ألفته، عن برودة الصباح في مثل هذا الوقت من العام، تعثرتُ في الظلام عدة مرات قبل أن أتمكن من العثور على موقع البئر، دنوتُ فتسلل

قَرْسٌ مندى لأعلى، لم يجد لمياهه صعوداً مع افتقاد حبل البكرة للدلو، تلمست الجدران المقوسة محاولاً العثور عليه دون جدوى، زلّتْ قدمي فوق الأرضية الحجرية الملساء، فانزلقتُ وهويتُ بقوة على ردفيّ، منهالاً باللعنات لقلة حيلتي.

صوتٌ متهدجٌ تسلل من باطن الأرض أثار ذعري فانتفضتُ واقفاً.

«سيدي؟ هل هذا أنت يا سيدي؟»

«من ذاك؟» صرخت، «أين أنت؟»

«أنا زيك، يا سيدي، ألا تتذكرني؟ أقف في الأسفل منذ يومين، آسف حقًا لما فعلته، من فضلك يا سيدي، أنا جائع وأشعر بالبرد، هلا غفرت وسمحت بخروجي من هنا؟»

انحنيتُ مستنداً ببطني إلى الأحجار الباردة المبللة وأطللت عليه من شفة البئر الغارق في الأرض لعمق يبلغ عشرين قدماً، لم أبصر في البداية سوى السواد، لكن سرعان ما تمكنت عيناي من إبصار اللون الفاتح لثوبه، والتعرف على العينين الفاغرتين المذعورتين، أدركت أن البئر جافة، باستثناء بضع بوصات من المياه الراكدة في القاع، حيث يقف الرجل الفقير البائس.

«يا إلهي! ماهذا يا رجل! إن قمتُ بإنزال الحبل، فهل تقوى على التسلق إلى الأعلى؟»

«نعم، أعتقد أني أستطيع، لكنك لست السيد بعد كل شيء، فإن لم يعطني إذنًا شخصياً بالخروج، لا أعرف حقًا ما ينبغي عليّ فعله؟»

«زيك» خاطبته؛ «أنا أعمل مع السيد كانينغ، سأتحدث معه بشأنك، تعال الآن، التقط الحبل وسأساعد في سحبك إلى الأعلى»، كان زيك رجلاً طويل القامة، لكنه شديد الهزالة، لذا لم يتطلب الأمر جهداً كبيراً لرفعه فوق حافة البئر حيث انثنى لاهثاً مرتعشاً من برودة الجو التي تقل درجتين أو أكثر عن درجة حرارة البئر، لففت معطفي حوله معيناً إياه على الخروج، لكن الرجل لم يقوَ على الوقوف من شدة الانهاك، لمحتُ ازرقاق قدميه العاريتين وتغضنهما من طول جثومهما داخل المياه، جلسنا مسندين ظهرينا إلى جدار البئر، بينما بدأت الشمس تنثر خيوطاً باهتة فوق الأفق الخصب، حررتُ خبز

الذرة من الرزمة ومررته لزيك، التقطه بيدين مرتجفتين محزومتين بشبكة من العروق المنتفخة، ثم التهمها بيأسِ الجياع حتى آخر كسرة، انحنى بعدها للوراء متنهداً بكمدٍ مغمضَ العينين، لا بد أن وسامة اكتست ملامح وجهه قبل شحوب بشرته وضمور الخدين.

«ما السبب بإلقائك في البئر، يا زيك؟»

رمش بجفنيه المغلقين ثم قال: «لعله من الأفضل سؤال السيد كانينغ؟»

«لكنني أسألك أنت» أجبتُ بحزم: «أروم إجابة واضحة من فضلك»

«ذبحت خنزيرًا وأطعمته لأطفالي، فغضب السيد وزاد حنقه حين جادلته منكراً تهمة السرقة، لم أكذب قط، فأنا لم أسلبه شيئاً! يمتلك السيد الذرة والبغل، يفترض بي تقديم الذرة للبغل ليقوى على الخدمة والعناية بممتلكاته وفق الفكرة ذاتها، حسنًا ما زلت وأطفالي من ممتلكات السيد، الخنزير كذلك، فما ضيره لو أكلناه؟ إذ لم يخسر السيد الخنزير الذي أمسى جزءاً منا الآن، لأنه ما فتئ يمتلكنا نحن بدورنا!»

«لكن يا زيك»، قلت معارضاً لرأيه، «لا يمتلكك السيد كانينغ، أنت مهرب من الحرب وبتّ عاملاً لديه اليوم، لستَ عبداً على الإطلاق!»

«حقاً؟ لا ريب أنني ما زلت أحتفظ بإحساسٍ من العبودية». رد مشيراً بإصبعه المرتعش إلى الأفق، حيث بدأ القمر الشاحب بإخماد آخر أنواره.

«لقد استدار القمر وتلاشى، ثمّ عاد بدراً من جديد وما انفك الوعد بأن نتقاضى رواتبنا منذ زمنٍ فاق الشهر دون حصولنا على سنتٍ واحد، لطالما تكرّم السيد كروفت العجوز بتوجيهاته: (أدوا مهماتكم اليومية، ثم اذهبوا لنبش البطاطس لإطعام أطفالكم) على نقيضٍ تامٍّ من السيد الشاب كانينغ الذي أنهكنا بأوامره الملحة: (أنهوا أعمالكم ثم اذهبوا لإنجاز مهام إضافية)،، إن العمل المتواصل من الغيهب حتى الدجى، لن يتيح لنهارنا أيّ فرصة كي نزرع الخضراوات، في حين تجتاح الأعشاب الضارة البطاطس، فيفترس الجوع أحشاء أطفالنا»

لجهلي بما تخفيه حقيقة الأمر، اخترتُ الإصغاء متفكراً بما قاله صامتاً ناوياً المسارعة للعثور على كانينغ لطلب الاستفسار منه، تساءلت بمرارةٍ

كيف طاوعه قلبه لممارسة قسوة كهذه؟ لمَ يجوّع شعبه؟ ثم يلقيهم في الحفرة لجريمة إطعام أنفسهم! قد لا تنتهك العقوبة التوجيهات الخاصة المرسلة من الجيش، التي تحظر الجلد بالسوط على وجه التحديد، لكنها بالتأكيد تُهين روح التجربة الخاصة باستئجار العاملين وتقوض غاياتها.

وبناء عليه قصدتُ حقل القطن بعد اتباع الاتجاهات التي أملاها دليلُ زيك، صادفت في الدربِ طفلة صغيرةً تنقل المياه - لا أعتقد أنّ الفتاة تبلغ من العمر أكثر من سنيّ ابنتي إيمي، بل تماثلها برشاقة الحركة وجمال البنية، باستثناء أن دلو الماء الكبير رُفع فوق زُغبٍ أسود داكن، بدل الخصلات الذهبية المجعدة لطفلتي الصغيرة المدللة الميّالة للزهو بنفسها، حييتُ الفتاة فردت التحية بترحابٍ، جرأة وابتهاج أتيا براحةٍ لفؤادي بعد التحفظ المُقلقِ الذي لمسته من يوشيا أمس، حينما أخبرتها بأني معلمها القادم، صفقت بيديها معاً محافظة بطريقة ما على توازن الدلو فوق رأسها دون استخدام الذراعين، «كم أتوق للتعلم!» صرختْ بمرح، تمنيت في تلك الأثناء، لو أنّ حماس هذه الطفلة يطوف بإيمي المتذمرة على الدوام من اختبارات مدرِّستها، سيلّا كما قدمت نفسها، أبدت سعادة بقيادة دربي إلى الحقل، مثرثرة على طول الطريق عن تقدم العمل اللافت لجامعي ثمار القطن، واحتمالات مطمئِنة إن استمر الطقس الجاف لأطول فترة ممكنة، كما أنها لم تتوان عن استجوابي حول طبيعة الدروس الموعودة وأوانِ البدء بها.

أهلّ الحقل أمامنا كاشفاً عن مشهدٍ خلابٍ لا مثيل له، حسبتُ أنه يمتد إلى مساحة تفوق ميلاً ريفياً، مع ذلك بدا مشغولاً بعنايةٍ خاصة كما لو أنه لبستاني في بوسطن مشرفٍ على رقعة صغيرة من البازلاء، انتصبت شتلات القطن ضمن صفوف متسلسلة، نما بعضها طويلّا فوق الطمي الغني المجاور للنهر، بينما لاح الدمار جلياً في بعض الأماكن بتأثير الطقس الرطب الذي ذكره السيد كانينغ -حيث اقتطعت السيقان أو تم كسرها، أو اصطبغت أوراقها ببنيّ اللون نظراً لإصابتها بصدأ الحبوب- أركانٌ مفعمة بالحياة تفتحتْ بثمارٍ ناصعةٍ كبيرة بين الأوراق، لتتألق مضاءة تحت خيوط الشمس الأولى متلاطمة بنضارة سندسية فاتنة.

لم أكن على معرفةٍ بيّنةٍ بمدى شساعة المساحات المخصصة للزراعة

في المقاطعة، لكنني أبصرتُ جامعي القطن وقد شارفوا على حصاد النصف الأول من الحقل، مع اقترابي من مجموعات العمال، لاحظتُ همّة جامعي الثمار وبراعتهم في القطاف، أفضلهم أداء من أنجز العمل بكلتا اليدين، اللتين تلويان الثمرة بخفة، تنتفان القطن بسرعة لتمسي الثمار داخل القبضتين بسهولة، أما جامعو الثمار الأقل مهارة فكان عليهم القبض على الثمرة بيد وقطفها باليد الأخرى، كما قال كانينغ بالضبط، فقد تم تسخير كل يد عاملة للخدمة، حتى الأطفال الصغار جدًا، ممن كانوا يجمعون الثمار المنخفضة النمو، في حين أبصرتُ الرجال والنساء المسنين المنحنين تحت وطأة العمر وثقل أكياسهم، يكدحون بأيدٍ مرتعشةٍ لإضافة حصادهم الضئيل إلى أكوام القطن المتراكمة.

كان كانينغ يعرّج متعجلاً بين الصفوف ذهاباً وإياباً، حاثاً العمال على بذل جهد أكبر، دافعاً بغيرهم إلى الميزان للتدقيق بوزنِ ما جنوه، حمل مدونة بين يديه كي يسجل حصيلة كل مجموعة، لمقارنتها بما سبقها من الأيام الآنفة، صرخ بوجه رجل أغضبه الوزن الأقل لكيسه، بينما أثنى على آخر فاق ثقل جعبته حصاد أمسه.

خلع كانينغ معطفه متنقلاً بالسروال المجعد الذي كان يرتديه أمس، تعلوه الصدرية ذاتها فوق قميصٍ متسخٍ متشحٍ ببقعِ العرق، بدا شاحباً تحت ضوء الصباح الساطع، وتساءلت إن كان اصفرار وجهه الواضح يشير إلى مرضٍ ما، اعتمر قبعة قش عريضة خاصة بالزنوج، ليرفعها بفارغ الصبر من وقت إلى آخر كي يمسح جبينه المُندّى.

مكثتُ أراقب مجريات العمل لبرهةٍ من الزمن، ثم تمنعتُ خجِلاً عن مقاطعة مشهد المثابرة الجاد، بدا الزنوج عازمين على إنهاء مهامهم بأقصى سرعة، في حين رفع القليل منهم رؤوسهم لملاحظة وجودي الذي بدا مستهجناً إلى حد ما، خمّنتُ أن كانينغ قام بإصدار قرارٍ بحظر تجوال الغرباء داخل الحقول، لأنه على الرغم من رؤيتي لم يبد إيماءة تشير بمعرفتي أو أي مبادرة بالتحية.

مع مرور الوقت بدأ الإرهاق يستحوذ على هامات أكثر العاملين الزنوج

الذين لم يبد أيّ منهم سليم البنية أو معافى من مرض ما، أجسادٌ أضناها الهزال والاعتلال، رزحتْ تحت نوبات السعال الجاف، خاصة الأطفال منهم وكبار السن، أما ثيابهم فكانت مزرية الحال مرقعة، ممزقة أو بالية.

عندما نادى كانينغ الفتاة الساقية حاملة الجرة، انتهزتُ الفرصة لأزرع نفسي أمامه، فكرت باستهلال الحديث بمديحٍ لمشهد الكد الدؤوب، فما كان من كانينغ إلا أن تجرع الماء، تمضمض، ثم بصقه أمامي دون حرج وبلا رد، وقاحةٌ أشعرتني بالإهانة، فتحدثتُ صراحة عن استيائي الشديد من سوء معاملته لزيك.

قبض كانينغ على ذراعي بعنفٍ وانتشلني بعيداً عن الميزان حتى صرنا قصيين عن مسامع العمال، فشرع بإطلاق وابلٍ من التوبيخ الجارح.

«كيف تجرؤ يا سيد! كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا حاملاً أفكارك العارية من أقل درايةٍ بالصعوبات والمشاقّ التي أواجهها، يا للوقاحة! توبخني أنا، تتهمني بسوء المعاملة؟ دعني أؤكد لك، أنني الشخص الوحيد الذي يُساء استخدامه هنا – من قبل المؤجر! من قبل الجيش! من قبل الزنوج! كي تأتي أنت وتثير مثل هذه الأمور أمام العاملين لدي! أليس لديك أدنى إحساس بالمسؤولية يا رجل؟ أي إحساس بالمرحلة؟»، كانت يده محكمة القبض على ذراعي كما المخلب، ثم ارتفعت نبرة صوته لصراخٍ، ألقى بعدها ذراعي بشراسة راغباً بمواصلة التقريع، لكنه على ما يبدو تفكر في الأمر، فاستعاد السيطرة على نفسه، مخفضاً صوته قليلاً: «ليس لدي وقت لهذا الآن، إن كانت لديك استفسارات عن أسلوبي في الإدارة، فأرجو تأجيلها حتى المساء، وأعدك بالإجابة المستفيضة عن استفهاماتك جميعها، اعذرني الآن، فلدي أعمال حثيثة تتطلب إنجازها، من المستحسن لو تحدد بعض المهام العملية لما نويت القيام به، ماذا عن تحضيراتك الأوليّة لافتتاح الشعبة الدراسية؟»

«لا أعرف تماماً–» كنت على وشك إعلامه بجهلي بالمبنى المتاح لاتخاذه صفاً، لكن كانينغ قاطعني بالقول:

«لا، لا تعرف! إنك بالفعل لا تعرف شيئًا على الإطلاق!»، أدار ظهره

مع تلك العبارة، ثم انطلق لمتابعة أعماله المعلقة. ما زلت أعتقد أنه الشاب الأشد غروراً ووقاحة ممن قابلتهم في حياتي.

أمضيتُ بقية النهار متجولاً داخل المقاطعة بغية التعرف على معالمها العمرانية، تخلل ذلك استراحة عند الظهيرة قصدت إبانها حجرة الطهو، حيث لمحتُ جرة عسل مركونة بإهمال، طفت على سطحها عدة ذبابات ميتة، التقطتُ الحشرات ورميتها خارجاً ثم غمست قطعة خبز بالعسل، بعد الانتهاء من وجبة الغداء غير اللائقة غادرت باحثًا عن مرْبَع إقامة العبيد، فأرشدني الدرب إلى حارةٍ ضمّت بين حناياها مجموعة من الأكواخ المنظمة المصممة على الطراز الريفي، المبنية من أعمدة مسيجةٍ بجدرانٍ طينية، تم صفها بتوازٍ على جانبي الطريق.

بدا المكان مقفراً بعد التحاق قاطنيه بتأدية مهام قطافِ القطن، ماعدا بعض رضّعٍ صدح بكاؤهم من أحد الأكواخ، ساقني الفضول للنافذة فرمقتُ عجوزاً داكنة البشرة حدباء واهنة القوى، رابضة في زاوية الغرفة المثقلة عوارضها بثمانية أو تسعة أراجيح شبكية صغيرة تُرقِد الأطفال داخلها، بعضهم حديثو الولادة أو بعمرٍ بضعة أشهر، جميعم بلا ثياب على الإطلاق، لمحتُ أطفالاً أكبر بسنة أو سنتين عارين بدورهم، يتدافعون كالجراء حول كومة من البازلاء المطبوخة المرمية على الأرض الترابية جوار وعاء الطهي، أمسكت السيدة العجوز عصا طويلة تصل إلى مضاجع الأطفال لحثها على التأرجح برفق دون النهوض من مقعدها، ثم تناولت قضيباً من القصب، لتنقر بدقة على يد طفلٍ اختطف حفنة إضافية من البازلاء الرمادية الرهيبة، ليسحب البائس كفه الصغيرة منتحباً.

«كفى يا أماه»، قلتُ محتجاً، «ليس من الضروري ضرب هذا الطفل الصغير؟»، حدقت في وجهي بعينين مكمدتين قائلة: «ومن تكون أنت لتنهرني بهذا الشكل؟»

قرقرت بصوتها بعد معرفتها بهويتي ثم أردفت متسائلة: «حسنًا، أخبرني أيها القس؛ لمَ خلق الرب الطيب العُصي، إن لم يكن لجلدِ الصبية الصغار؟»

نهضتْ بعد ذلك معرجة صوب المدخل صارخة: «الويلُ لمن يتحرك منكم خطوة واحدة! مفهوم!» صدح صوتها عالياً متوعداً تلك الحملان السوداء الوديعة المسكينة، التي انكمشت أطرافها وتوسّعت أحداقها ذعراً من الحيزبون الفظيعة: «يتوجب عليّ العناية بهؤلاء الوافدين الجدد، يقع على عاتقي في الوقت ذاته؛ رعاية الموشكين على الرحيل»، قالت بينما تمد برثناً عظمياً، أمسكته بأصابعي مُكرهاً، اتكأت على ذراعي ممسكة عصاها بنيّة الخروج من كوخ الرضع، ثم شققنا طريقاً ترابياً موضباً قاصدين الكوخ المجاور، مع فتح الباب، فاحت رائحة المرض، لا بد أنها مستشفى، فقد رقدت عشرات النفوس فوق حصائر قذرة تطوف بينها الصراصير عابرة فوق السقماء الأضعف من سحقها أو المعتلين لدرجة تجاهلها، ليس من الضرورة أن تمسي طبيباً لتدرك أن المُضطجعين في المكان يعانون أمراضاً خطرة، دلو من الماء رُكن جوار الباب، استلت المرأة قطعة قماش مبللة منه، نقّلتها من مريضٍ إلى جبينٍ آخر، لترطيب الجبهات المتقدة بالتتالي، مغرفةٌ في دلو ثانٍ سارعتُ لملئها بالماء متتبعاً طواف العجوز، مقدماً الماء لكل قادر على الشرب، مقطراً بضع قطرات على الشفاه الجافة لمن عجز عن بذل جهدٍ بسيط لغرف المياه.

«ما الأمراض التي يعانون منها؟» سألت.

هزت كتفيها المحدبتين بالقول: «حمى، إسهال، البعض يعاني من اليرقان، آخرون مصابون بالسيلان الأبيض، تلك الفتاة هناك، معتلّة بحمى النفاس»

«هل عاين طبيب هؤلاء الناس؟»

أطلقت المرأة نخيراً وقالت ساخرة: «لا أطباء في هذه الأنحاء، لا أطباء يأتون لمعاينة أمثالنا»

استغربتُ مستنكراً اعتكاف كانينغ عن استدعاء طبيب جيش الاتحاد.

«ماذا حدث يا أماه؟ ما الذي تسبب بإصابتهم بهذه الأمراض؟»

«أتتساءل حقاً عن السبب! مع حلول الربيع كان السيد السابق يهبنا العسل الأسود والكبريت وأوراق الساسفراس[1] لتنقيةِ دمائنا، لم يبخل

1- تفيد الدراسات بأن الفوائد الصحية لشاي الساسفراس عديدة فهو له تاريخ طويل من الاستخدامات الطبية، وأفادت التقارير أن الأمريكيين الأصليين يعتقدون أن الساسفراس يعتبر علاجاً ومنشطاً للجسم.

يوماً بتقديم الدواء النجيع لكل بغلٍ وخنزير وعبدٍ في الأرجاء كلها، فوائد جمة تركتها عطاياه في أجسادنا، حتى إن أحداً في عهده، لم يصب بالسقم بعكس حال معظمهم الآن، كلما توعك أحدهم، سرعان ما يناله التعافي بعد معالجته بالأعشاب والجذور التي اختُبرت فوائدها من قبل السيدة كروفت، فإن أصيب شخص ما بالحمى، نصحت بغسله بمنقوع أوراق الصبغة، أو بالخل والملح، لكن هيهات لنا الملح في الوقت الحاضر، الصبغة أو الخل، لطالما أمرت السيدة والسيد كروفت، بخلود المرضى إلى الراحة لحينِ تماثلهم للشفاء التام، في حين يجبر السيد الشاب المرضى على الاستيقاظ والالتحاق بما ينتظرهم من أعمال حتى لفظهم لأنفاسهم الأخيرة!»

غادرتُ العجوز قاصداً المنزل بغضبٍ مستعرٍ في عروقي، متفكراً بما طعن قلبي من وحشيةٍ وتعسفٍ مارسهما كانينغ بحق أولئك البؤساء!، قبعتُ أنتظره محاولاً ترتيب شكواي واتهاماتي، متنقلاً بخطواتٍ مضطربة جيئة وذهاباً في غرفة المعيشة التي غزاها الغبار المتمايل بذراته على طول حبل الضوء المائل، سمعت صوت دعسات متفاوتة الانتظام قادمة نحوي، سارعتُ نحو الردهة متهيئاً لمواجهته، لكن هيئة الرجل كبحت اندفاعي، إذ أهلّ شاحباً كالموتى يتقدم بعرجٍ أكثر وضوحًا، كما لو أنّ ساقه اليسرى حملٌ ثقيلٌ يجره خلفه، حسبتُ أنه ساق العمال لست عشرة ساعة كاملة بما أشعل مزيداً من سخطي لمخالفته توجيهات الجيش التي تحظر استخدام العمالة المهربة لأكثر من عشر ساعات صيفاً وتسع ساعات في الشتاء، لا بد أن النزق بان جلياً فوق ملامح وجهي، لأن كانينغ رفع يداً حين رآني، وقال متمتماً، «لاحقاً وليس الآن أيها القس، أعطني القليل من الوقت قبل أن تشهر سيفك القاطع!»، صعد الدرج بصعوبة محاولاً سحل جسده لأعلى بمساعدة الدرابزين، تبعه بطليموس حاملاً أباريق المياه وقطعة مربعة رديئة من الكتان النظيف.

نصف ساعة مضت قبل قدوم كانينغ مستعيداً شيئاً من حيويته، كنت واقفاً بانتظاره في غرفة المعيشة جوار رف الموقد الرخامي الأسود، أنقر الحجر البارد بيديّ المهتاجتين، متأملاً ما كشفتْ عنه النوافذ العريضة الواسعة من حدائق، لا ريب ستسلب الأبصار لو أعيد تنسيقها على النحو الصحيح! إلّا

أنّ أغصان الشمشاد[1] امتدت شعثة مهملة، بينما اصفرت شتلات القسم المخصص لورود الزُهريات وجفت بتلاته، استدرت مع دخول كانينغ الذي جرّ كرسيّاً ذا ظهر مستدير وجلس بتثاقل عليه.

«الآن» خاطبني: «يمكنك رشقي بأسوأ ما لديك»

بدأت أقصُّ ما ساءني مما رأيته فيما يدعونه «المستشفى» والإهمال الإجرامي للمرضى المصابين بأمراض معدية خطيرة، «يا له من أمر مروّع، أن تنفرد امرأة عجوز –موشكة على الموت– برعاية هؤلاء الأشخاص دون مساعدة إضافية!»

«سيد مارش» نطق كانينغ بلطفٍ مبالغٍ فيه، «أول ما فعلته حين جئت إلى هنا، كان مناشدة جراح الاتحاد في واتربانك للقدوم بغية معالجة أولئك المرضى، لكن الطبيب الماهر ردّ معتذراً متعذراً بانشغاله بتلبية الاحتياجات العلاجية الملحة والأكثر أهمية للجنود المصابين، حين اعترضت حججه موضحًا دواعي مسؤوليتي وتعهدي بمساندة أولئك البشر خلال محنتهم العصيبة، أجابني بامتعاض متململاً: «هذا إن كان الزنوج بشراً حقاً، لكنهم ليسوا سوى حيوانات، حتى الدواب أثمن قيمة من أكثرهم»، ردٌّ كبح كل محاولاتي لإقناعه فأي نفع آمله من رجلٍ يحمل أفكاراً شنيعة كهذه؟»

«حسنًا،» أجبته، «لكن ماذا عن العدوى التي ستحملها المرأة العجوز إلى الكوخ الآخر المُكتظّ بحديثي الولادة والأطفال المهملين من قبلها، المعنفين المُساءة معاملتهم؟ هل يستحق جني بضع أكياس إضافية من القطن تعريض هؤلاء الرضع لمخاطر قاتلة؟ ألا يمكنك الاستغناء عن إحدى الأمهات لتسليمها تلك المهمة؟»

«الأمهات هنا لسن كما يدور في ذهنك يا سيد مارش! غير مثاليات كالسيدة العذراء، هلا أصغيت لأسلوبهن الوضيع في مخاطبة أطفالهن؟»، ابتسم ابتسامة رقيقة ثم تابع بالقول: «مهما فعلتُ، ما زالت مصائر الأطفال غامضة في أوقات كهذه، لكنني أفكر جدياً بإعفاء المرأة العجوز من نصف

1- شجيرة الشمشاد أو الشمشير Buxus شجيرة دائمة الخضرة قابلة للتشكيل بقص أوراقها الكثيرة لتكون بالشكل المرغوب.

مهامها، لأن تعريض الأطفال للضرر الذي تجلبه من دار المرضى يشكل مخاطرة غير محتملة العواقب».

«كيف فاتك التفكير بمثل هذا الأمر؟» سألتُ مندهشاً متذرعاً بتأييده لوجهة نظري الذي أعلنه تواً.

مرر يده عبر شعر رملي اللون وأجاب: «أشياء وأمورٌ لا تعد ولا تحصى تقف بمواجهتي يومياً، تمنيت لو بإمكاني التبصر بفكّ تشابك عقدها، لكنني جئت هنا لجمع محصول القطن وبيعه، لا لممارسة مهمة السياسيّ والطبيب والظئر، أنا محامٍ يا سيد مارش، محامٍ عازب، توجب عليه تعلم أصول الزراعة والعمل مع فئة -على نقيض الهراء الرومانسي الذي تخيلناه عنهم- من الكائنات المقيتة المُحبطةِ غير الواعدة، كيف تتوقع مني إتقان الطب والقبالة ومجالسة الأطفال أيضًا؟ اللعنة يا مارش، ما فتئتُ باذلاً قصارى جهدي طوال الوقت، كي أقدم أفضل ما عندي!»

«أحقاً تقدم خير ما عندك؟» أردفت باستهزاء، «كيف تدعوه الأفضل حين تلقي بإنسانٍ حيّ داخل البئر بتهمة ارتكابه لجريمة إسكات جوعه وجوع عائلته؟»

«آه، ها قد وصلتَ إلى قضية زيك»

«نعم»، رددتُ بعنف، «شهدتُ الرجل الفقير بأشد حالات البؤس-»

«لا بد أنه أخبرك بسرقته للخنزير بغية إطعام أطفاله؟» قاطعني.

«وهل تعتبر فعلته خطيئة؟»

«لا، ليست خطيئة، لكن ما أخفاه عنك أعظم، فـ «أطفاله» المقصودون ليسوا سوى فتية مكتملي النضوج، يترصدوننا بستراتهم الجوزية اللون[1] بغية مهاجمتنا تحت رايات المتمردين»، لا حيرة انطبعت على ملامحي ولا التباس، بما دعاه لرفع نبرة صوته: «لا تكن غبيًا يا مارش، ما زال بعض الزنوج يخدمون تحت لواء الحركة الانفصالية، عليك أن تدرك هذا جيداً»

«نعم بالطبع، لكن بالإكراه...»، هز كانينغ رأسه بإيماءاتٍ تشي بصبره

1- كان الكونفدراليون يرتدون سترات رمادية أو جوزية اللون.

الموشك على النفاد ثم تابع ما ينوي قوله: «كانت زوجة زيك تعمل خادمة في منزل مشرف العمال، لذلك نشأ أولادها خدماً وُصفاء لأبنائه، كانوا يتمتعون بامتيازات هائلة على جميع الأصعدة – فقد تم إعفاؤهم من العمل في الحقل، درّبوا على إتقان الحِرَف كالحدادة والسراجة، كما سُمح لهم بممارسة مهاراتهم عملياً لكسب القليل من المال لحسابهم الخاص، عندما التحق أبناء المشرف بالجيش، انضم أولاد زيك للجيش بدورهم بنية متابعة خدمتهم لدى العائلة، لكنّ أحد الأبناء البيض لقي مصرعه في الاشتباك الذي أسفر عن مقتل السيد كروفت، أما الابن الناجي فانضم للقوات غير النظامية، بما تسبب بعودة أولاد زيك إلى المزرعة، لكنهم سارعوا بالهرب مع معرفتهم بوجوب خدمتهم في الحقول جنبًا إلى جنب مع أي شخص آخر، يبدو أنهم فضلوا معيشة العبيد المقتاتين على السلب والنهب، بدل تقديم الولاء لمعسكرات التهريب التي تعمل لحمايتهم، لا بد أنك ستغفر اعتراضي على نهب الماشية المستنفدة في المزرعة لإطعام رجالٍ يُغيرون علينا ويهددون وجودنا»

«حسنًا»، قلت معترضاً، «لعلّ أسلوب قيادتك الفظ، ما دفعهم للهرب!»

«جئتُ إلى هنا بمهمةٍ محددةٍ تنحصر بجمع القطن دعماً لقضية الاتحاد العزيزة عليكَ يا سيد مارش، أما جني الغلال -بأواخر مواسمها في ظل ظروف مزرية كهذه- فيتطلب تضحيات من الجميع دونما استثناء، العبء ثقيلٌ يرهق كاهلي، محملٌ بالواجبات المحتّم انتزاعها من بأسِ كل رجلٍ وامرأة وطفل في هذا المكان، بمن فيهم أنا شخصياً»، ارتفع عن كرسيه محاولاً النهوض بقامته، في حين علت نبرة صوته بالقول: «لن أعتذر عن قسوتي!»، ترنح قليلاً ثم قام بدعكِ صدره.

اتخذتُ خطوة لا إرادية تجاهه، خشية إصابته بالإغماء، لكنه لوّح مشيراً بابتعادي محاولاً الجلوس مطلقاً تنهداتٍ محزونة، ثم استأنف الحديث بنبرة متوازنة وهادئة: «أحاول اتباع نهج سياسة العقل يا سيد مارش، فما توجب عليّ مواجهته لا يتعلق بالطقس السيئ والمتمردين القتلة فحسب، بل بتغيير طرائق تفكير العقول، أمر لاريب يستغرق زمناً، لذلك حان الوقت لتعليم الزنجي أن التحرر لا يعني الانعتاق من الكدح، أو الخلاص من الدأب أو

السعي الُمقدّر على جميع خلفاء الرب منذ حادثة طرد آدم وحواء من جناتِ عدن، لماذا يعتقد البعض هنا، أن السيد لينكولن يطمح لحملهم جميعًا من الولاية إلى بوسطن، بغية استرقاق رجالٍ بيضٍ للوقوف على خدمتهم؟»

«كيف تتوقع منهم الوعي بالتحرر بينما تقوم باستبدادهم بشتى الطرق باستثناء الجلد بالسوط؟ تجبرهم على العمل بمشقة دون دفع أيّ أجور بالمقابل؟»

«ماذا؟ أنا أدفع أجراً شهريًا يعادل الثمانية دولارات لكل عامل، ونصف المبلغ -للأطفال وكبار السن-»

«لكنهم يدّعون أنهم لم يتلقوا شيئًا منك حتى اللحظة»

«حسنًا، بالطبع لم يظفروا بأيّ مالٍ حتى الآن، لأنني سأدفع لهم من رصيد الأرباح التي سنجنيها بعد الحصاد».

ليس من المفاجئ أن يريب الإيفاء بوعودٍ مماثلةٍ رجالاً مثل زيك، في حين أفِك كل أبيض بعهوده المقطوعة مع الزنوج منذ الأزل متخذين من الكذب ملحاً للسياسة، مافتئتُ أدرك سطوة «مخاتلة البيض» التي شهدها العبيد منذ الأحداث المرتبطة بفرار بعضهم طلباً للنجاة في كندا، حين سارع البريطانيون بالقبض عليهم وزجّهم في غياهب المناجم التي أطفأت نور عيونهم وساقتهم إلى موتهم الزؤام.

فكرتُ بالحالة المزرية للنساء العاملات في الحقول، بقمصانهن السافرة عن أجزاء من أجسادهن في ظلّ غياب ملابسهن الداخلية، تذكرتُ الرضع عراة الأجساد الصارخين في أسرتهم المتأرجحة، المبللة بالبول المترعة بالقذارة.

«ألا يمكنك القيام بأي إجراء، أو إيجاد طريقة ما لتوفير المزيد من الطعام والملبس لهؤلاء التعساء؟».

نظر كانينغ إلى الأعلى ثم رفع يديه في إيماءة يأسٍ عظيم، «أخبرني أنت يا مارش! هل من وسيلةٍ ناجعةٍ غرُبتْ عن عقلٍ أضناه التفكير، فأنا لستُ ذاك الرجل الثريّ المحمّلة جعبته بالكثير من النقود، قد أنفقتُ مُدخراتي كلها، ثم أرهقتُ نفسي بالديون في سبيل استئجار منزل السيدة كروفت ودفع ثمن

البغال القليلة الهزيلة التي تراها كي تحل محل الدواب المنهوبة، أجدني الآن أمام غلالٍ نزِرة لا تعادل قيمة ما كنتُ أتوقعه ولا يمكن لها أن تفي بنصف المستحقات المتوجبة عليّ، كم سأجد نفسي محظوظاً لو غادرت المكان دون تعرضي للإفلاس، هذا إن لم تقتلني الحمى أو نيران بنادق أحد المتمردين، هل لحالٍ يسيرة كحالي إطعام وإكساء مئة وسبعة وستين شخصًا؟ لا أفترض أنك تمتلك ثروة تكرهك على إنفاقها لإيجاد الحلول؟»

خلدتُ لأفكاري متأملاً بما قاله، فقد كنت بالفعل أمتلك ثروة بددتها قبل عقد من الزمان، لكنني لم أنوِ الكشف عن التاريخ المعقد الكامل لرحلتي السريعة من الوفرة إلى الفقر، مع ذلك؛ ألهمتني كلمات الشاب، فما زال هناك رجال أثرياء متعاونون كُثر -في كونكورد وبوسطن ونيويورك- قادرون على تقديم المساعدة.

«أرغفة وأسماك، أهذا ما نحتاجه ياسيد كانينغ؟»

«هل أفهم أن المطلب من استفسارك يفضي إلى الإيمان بالمعجزات؟»

«بالفعل يا سيد كانينغ، إنّ مقصدي منصبّ على تحقيق المستحيل، لا أفترض أنك بحاجة إلى حصانك غدًا؟»

«إن كان بإمكان أستر مساعدتك في صنع معجزة، فأهبه لك بكل سرور، لكن هل لي بسؤالٍ عما تعتزم فعله؟»

ذهبنا بعدها لتناول العشاء، عشاءٌ مستطابٌ فاق توقعاتي (لسببين أولهما العثور على سبب لتحسين الصورة الرهيبة التي علقت بذهني عن السيد كانينغ، وثانيهما تمكن الطباخ أخيراً من طهي بعض الفاصوليا اللذيذة الخاوية من دهن الخنزير) شرحتُ بعد ذلك الخطوط العريضة لمخططي.

مع نهاية كلامي هز كانينغ رأسه، ثمّ علق مبتسماً: «لو تمكنتَ من تحقيق ما تصبو إليه يا سيد مارش ستمسي معجزة بالفعل، أتمنى لك كل التوفيق»، نهضنا بعد ذلك، كانينغ إلى جولاته التفتيشية الليلية، وأنا إلى فراشي، حيث استلقيت مستيقظاً طوال الليل، أتأمل التفاصيل الخاصة بمهام الغد، المتعلقة بمعظمها بكتابة وإرسال خطابات إلى معارف أثرياء من دعاة إبطال العبودية، التماساً لمنح وتبرعات طوعية، كان من المحتم أثناء تصوري لفحوى ما

أودُّ كتابته، أن تمضي ذاكرتي إلى الأيام الخوالي حين كانت تردني رسائل مشابهة، من هناك، تنقلت أفكاري عبر المراحل المباغتة السريعة لتبديد ثروتي، وصولاً إلى مَعيشة عوز وضَنك أجبرتْ فتياتي الصغيرات على الكد للحصول على مال قليلٍ في سبيل تلبية احتياجاتهن، لم تلمني أيّ منهن، وأعلم أنهنّ لن يفعلن لاحقاً، لكن؛ أيّ مكابدات مضنيةٍ تطعن قلبك! حين تتأمل في الأفكار التي أحيتك يوماً وقد أحالتك ركاماً من الحطام، في تلك الليلة؛ حين وجدت نفسي أتقلب عاجزاً عن النوم، لم أعثر على مُدانٍ مُلامٍ أعذله سوى نفسي.

الفصل السابع

الخبز والمأوى

ليس على المفلس من خوفٍ إن نشأ مُعدماً قبل أوانِ جني ثروته، فما انفك الفقر يستلزم الظفر بالكفاءة والأهلية لمواجهته ودحره، من حسن حظي أنني تعلمت كيفية استعمال القدّوم والمعزقة قبل وقتٍ طويلٍ من استخدام دفتر الحسابات أو التفاوض على صفقة تجارية.

لا يمكنني القول إننا كعروسين تنعمنا بمعيشةٍ مترفةٍ في المنزل الذي أسسته في كونكورد، إلا أننا تشاركنا حياة مترعة بالرضا والقناعة، في ظلّ معيشة خاوية من العوز، أسندتُ إلى نفسي مسؤولية تزويد مارمي بحريةٍ ذهنيةٍ كاملةٍ كي تتفرغ للاهتمام بأمرين شغِفاها على الدوام -تعليم نسائنا الصغيرات جنباً إلى جنب مع دعم الشؤون الخاصة بقضية إبطال العبودية- دون اضطرارها للقلق بشأن التفاصيل المتعلقة بتدبير شؤون المنزل، لم يمضِ أكثر من عامٍ حافلٍ بالبهجة التي أشرقت بقدوم ميغ الجميلة، حتى انضمت إليها جوزفين الصغيرة السمراء الشبيهة بوالدتها المفعمة بالحيوية.

لم يلبث والد مارمي طويلاً حتى أتى للانضمام إلى عائلتنا الصغيرة، مصطحباً معه حنا موليت مدبرة منزله لزمنٍ طويل، رغم جديّة تصوراتها عن سبل التنظيم المنزلي، فإن المرأة أبدت أناقة وكفاءة لا مثيل لهما، لتمسي الدار أقرب إلى معهدٍ لاهوتيّ ومرتع للترتيب والسكينة والجمال، الطاهي والخادم وجليسة الأطفال الذين وظفتُهم لمعاونتها، اعتبرتهم حنا في البداية مغتصبين لأركان مملكتها المنظمة، إلا أنّ تذمرها تضاءل مع تراجع صحة السيد داي، بما أرفدها بوقتٍ مزيدٍ كرسته فيما بعد لرعاية الرجل المريض.

من جانبها مارمي، وبختني بشدة حين شعرت بأن طاقم العمل الكبير لم يذر سوى القليل من واجباتٍ منزليةٍ بسيطةٍ لا تتعدى الجهد المبذول في «ترتيب مناديل المائدة»، وهكذا تسنى الوقت غزيراً لزوجتي للجلوس جوار سرير جو، مدندنة أنغاماً من ألحان سيمفونية بيتهوفن التي لم تكن بأي حال من الأحوال، ملائمة كتهويدة مهدئةٍ للطفلة! أو للعب بشقاوة في الحديقة متدحرجة فوق العشب مع صغيرتها ميغ، أستعيد بين الفينة والأخرى ذكرى لقائنا في منزل شقيقها السيد داي، مستذكراً حديثنا الخاص الأول لأسارع إليها ممازحاً، مستفسراً إن تمكنتْ من تحديد أيّ من الفتيات ستمسي الكاتبة الشهيرة وأيهما الرسامة اللامعة.

خلال الأشهر التالية لزواجنا خططتُ بهدوء لبثّ روح التغيير في حياتنا اليومية، فالمنزل الذي اشتريته كبيرٌ، لكنه رتيب الهيئة، مفتقدٌ للسحر والفتنة، لذا أمرتُ بإزالة جدارٍ هنا واقتلاعِ أبواب هناك، مطلقاً العنان لغرفتي الجلوس المربعتين للتعانق ضمن فضاءٍ فسيح دلقَ الضوء بين أركانه في أكثر الأيام الشتوية عتمة، غيرتُ من هيئة الأُتُنُ القديمة وكُوّاتِ الرماد لتحل محلها مواقد راقية ذات قناطر أنيقة، ثم وببعضٍ من اللباقة، قمت تدريجياً باستبدال الفرش التقليدي القديم الطراز، المقدم من السيد داي كهدية زفافنا، بأثاثٍ عصري أكثر وجاهة وثراء، طاولةٌ جديدة من الدردار المصقول وجدت طريقها إلى غرفة السفرة؛ مجموعة من الأرائك الفاخرة المتشحة بالحرير الفرنسي زيّنَت الردهة، أما بالنسبة للحديقة فقد وضعت تصوراً جامحاً لتنسيقٍ طبيعيّ لأرجائها، مصراً على إتمام التصاميم الربانية برعايةٍ متقنةٍ منمقةٍ للأشجار والنباتات بدل العمل على قطعها أو تجريدها بقسوة طلباً للحطب والعلف، وسّعت من مساحة الإسطبلات، جهزتُ ميدان الخيل لعلّ فتياتي العزيزات يحترفن الفروسية بأقرب فرصة، قمتُ بنصب غرسات التفاح على طول السور الحجري، جنباً إلى جنب مع شجيرات البرقوق والكمثرى، دعاني السفح الشديد الانحدار المتاخم للمنزل لتشكيل مدرجات زراعية مترعة بشتى أنواع المزروعات الموسمية، متمنعاً بحرصٍ عن المساس بعذرية بعض القطاعات البريّة، لعلها تبقى ملاذاً للطيور وملجأ للوحوش الصغيرة والحشرات الملقّحة، فيما تبقى من الأراضي المتاخمة

لضفاف النهر ابتكرتُ روضاتٍ كلاسيكية آمنة مفعمة بالزهور الخلابة التي تسلقت بحرّيّة التعريشات الخشبية، باسطة فيئها فوق رؤوس الطفلات اللاهيات بمرحٍ وحبور، تحت غطاء التحسينات المفضية للمتعة والأناقة، لم أغفل عن تهيئة حجرة العلية سرًا وتحويلها لما يشبه «ثقباً كهنوتياً[1]» كما كان يُسمى إبان العصور الوسطى، دعوتُ مارمي على حين غفلة إلى الطابق العلوي، شارحاً كيف أخفي خشب السنديان ببراءة وحنكة «محطة السكك الحديدية» الجديدة الخاصة بنا، حيث يمكن للعبد الهارب الظفر بالراحة والأمان لأيام طوال حسب الحاجة، لا أنسى بريق عينيها الذي فاق ردة فعلها البهيجة تجاه التغييرات مجتمعة زهوّاً وطمأنينة.

سعياً للانعتاق من روتين الحياة ورتابتها، اخترنا لسنواتنا الأولى تنظيم خطط ناجعة حرصنا على الامتثال لها استهلتها زوجتي بإرشادي إلى وجهات الدروب المخفية والطرقات الجانبية المحيطة بكونكورد، وصولاً إلى أماكن سريّة لاذت بذكرياتِ طفولتها، معرِّفة إياي بمعالم إقامتي الجديدة، حاولتُ بدوري تعليمها شيئًا عن مكانتها الاجتماعية الجديدة، مومئاً عبر تلميحاتٍ لطيفةٍ وتوجيهاتٍ محببة، أن ما يمكن اعتباره هفوات عذراء شابة انفعالية مضطربة المزاج، ليس مناسبًا بأي حال من الأحوال لمن أمستْ زوجة راشدة وأماً رؤوماً، ما انفكت الدروبُ بين المنحدراتِ الصخرية الملساء، الغارقة بأشواك العليق تتعثرُ بخطواتنا من حين إلى آخر، كذلك بعض الكبوات المعرقلة لمسيرة حياتنا، التي تخطيناها بمحبةٍ ظللت زواجنا وألفةٍ جمعتنا معاً جنباً إلى جنبٍ مع جيرانٍ مذهلين، لم يكن والدو إيمرسون شخصاً منغلقاً أو منعزلاً على الإطلاق، أو كما تصورته خلال لقائنا الأول، لعلني أخاطر متورطاً بتملّقٍ ذاتيّ، إن أفشيتُ بأنه بدأ يقدر آرائي المتماشية مع الأفكار المعاصرة، وسرعان ما أمسى مرور يوم دون صحبته أو مناظرته أمراً مستهجناً غير مألوف، على الرغم من ميله الصريح لاتخاذ الدور الأقل في خطواتِ التغيير العملي، إلاّ أنّ مارمي بدتْ مرتاحة

1- حفرة الكاهن أو الثقب الكهنوتي: مكان مخفي تم إنشاؤه خصيصًا للكهنة، كي يتمكنوا من الاختباء بأمان خلال فترة اضطهاد الكاثوليك في عهد الملكة إليزابيث الأولى، تم إخفاء ثقوب الكهنة بشكل خاص داخل المنازل لإرباك فرق البحث.

للصراحةِ التي أشاعها السيد إيمرسون فيما يتعلق بقضية عتق العبيد، مسرورة ببلاغةٍ أباحها للدفاع عنهم جنباً إلى جنب مع التعاطفِ الآسر مع قناعاتها في حين تقدم آل ثورو بالفعل الأعظم والأكثر اتزاناً، لم يعتكف هنري علاقته اللطيفة غير العادية مع ليديان إيمرسون زوجة والدو، المرأة التي لم يجد الشاب بالتعامل معها أيّ حرجٍ أو تحفظٍ يذكر، مغدقاً الحنان والعطف على أطفالها برقة أبٍ رؤوف، مرحمةٌ واهتمامٌ نالا فتياتي بدورهن، حين عيّن نفسه مرشدهنّ المحبب للتعرف على عوالم الطبيعة الأخاذة، ليُضحِي هنري بحكم العادة، الزائر اليومي الودود الذي لم يتوان مبتهجاً عن اصطحاب ميغ وجو إلى الغابة لمراقبة تفاصيل الحياة البرية، لم يهبهن المعرفة النيّرة فحسب، بل طاف بخيالهن الطفولي مرتقياً بهنّ سُلّم الفطر البرتقالي بصحبة الجنيات، ناسجاً مناديلهن المخرّمة الناعمة من خيوط العنكبوت، يا له من رجل مثير للعجب! فظ مع الكبار، مطواع صبور دمث مع الأطفال، في أحد الأيام وقف أمام البوابة منادياً الطفلتين، داعياً إياهما لمرافقته في رحلة استكشافية لجمع حبّات التوت البريّ، كنتُ متململاً من الكتابة الصباحية المتواصلة، لذلك قررت دحض الملل بالانضمام إليهم، لا بد أنّ هنري من سيترأس المهمة نظراً لإحساسه الدقيق بمكامن شتلات التوت ومقدرته على منح الفرصة للصغيرتين بالعثور على مبتغاهما من الثمار الناضجة، إلا أنّ الحصاد الخاص بجو، الجدير بالإكبار والتقدير، تناثر خارج سلتها متبعثراً حين تعثرت بجذرِ شجرة، ثم هوت منكبّة بوجهها على الأرض، يا للعويل الصادح، الذي من شأنه طرد وحوش الأرض وإطلاق الطيور في أنحاء المعمورة! حتى ذلك الوقت ما فتئتْ جو وارثة لنزقِ والدتها مارمي، زوجتي الرافضة تماماً لكبح جماحِ ثورات ابنتها، متعذرة بأن العالم موشكٌ بما فيه الكفاية على سحقِ طباعها وتطويع روحها، سجالٌ حادٌ حول الموضوع ما انفك يدور بيننا دون جدوى، حتى حظيتُ بالفرصة التي غمرتني بالسرور، إذ سأتمكن بحرية تامة من تقريع جو مطالباً إياها بالتحكم بنفسها، لكن الفتاة الفاقدة لأعصابها أذهبت توبيخي أدراج الرياح، حاولتْ ميغ التهدئة من روع أختها، مقدمة لها نصيباً من التوت الذي جمعته، لكن جو لم تقبل بحبةٍ واحدة، فما فقدته من التوت لا يمكن لأي توتٍ آخر الحلول محله.

ركع ثورو على ركبتيه، ثمّ لفّ كتفيها الصغيرتين المرتعشتين بذراعه الضخمة هامساً برقة: «صغيرتي العزيزة جو، لا يمكنكِ تقديم العون للغابة إلا بالوقوع هنا، فجنياتُ الطبيعة من قصدن تعثرك لغايةٍ في أنفسهن، إنهنّ يقمن بزلّ أقدام الفتيات الصغيرات بين الحين والآخر كي يساهمن في نثر التوت في التراب لينمو خلال الموسم التالي، كوني على ثقة حين نقبل في العام المقبل، سنجد أدغالاً محملة بالتوت هنا بالذات، ثمار كثيرة سندين بها لكنّ جميعاً!»، مع عبارته الأخيرة توقف الثغر الصغير عن الارتجاف، ثم نمّ عن ابتسامة افتخار وسعادة.

حينما أسرّت مارمي أن طفلًا ثالثًا سينضم للعائلة قريبًا، أفرحني الخبر، خاصة أن والدها المسكين، أخيرًا تم إطلاق سراحه من معاناته مع المرض بغضون شهر من ولادة ابنته الثكلى بفقدانه، لا بد أنّ إليزابيث؛ الروح النقية القادمة من السماء، أتت بالتعزية والسلوان لقلوبنا المترعة بالحزن.

إن كان حماساً ما حملته مارمي تجاه إبطال العبودية قبل ولادة طفلاتها، فإن مجيئهن إلى حياتنا زاد من توقد مواقفها المؤيدة لقضيتها، صادفتها ذات يوم، ترضع بيث الصغيرة داخل مهدها، بينما تفغو جو على حضنها، في حين تقيم ميغ حفلة شاي وهمية بالقرب من قدميها، لعله مشهدٌ مبهجٌ لرأفة الأمهات، إلا بالنسبة لزوجتي المرتجفة بكتفيها ووجهها المبلل بالدموع، سارعتُ صوبها مستفسراً بلطفٍ عن سبب ضيقها، مخمناً أن إرهاق الأم الجديدة وفقدان والدها العزيز، ما تضافرا لإخمادِ روحها.

«لا!»، اختنق صوتها بعبرة: «أفكر في الأم المُستعبدة، كيف يمكنني الجلوس هنا مستمتعة براحةِ أطفالي، في حين انتُزِع أبناؤها عنوة من بين ذراعيها، بيعوا وشُردوا بأحد أركانِ هذي الأرض الطالحة؟»، ما برحت زوجتي رغم نزاقتها، تنوء بقدرةٍ غير مألوفة على الإحساس بما يكابده الآخرون، لا ريب أنها تبدي قسوة في بعض الأحيان، في سبيل إغماد طبيعتها المرهفة بحجاب، كأن تَسِمَ ما يخالجها باستخفاف قائلة: (ليس سوى تعاطف مرضيّ مع معاناة إنسانية!)، فيما حاولتْ تسخير طغيان مشاعرها في أحيان أُخر، عبر تحفيز الأعمال الخيّرة من حولها، لم تر مارمي في أفعالنا المقتصرة على –الخطاباتِ وتأمين ملاذٍ ليليّ مؤقت للاجئين الهاربين– أيّ

منفعة كافية، إذ ما لبثت ضراوة آرائها المهتاجة بالحنقِ المستعرِ، ذاته الذي أطلقته بوجه السيد إيمرسون، السحابة الوحيدة المنغصة لحياتنا، المفسدة لوئام انسجامنا، نزقٌ لم أحبذه على الإطلاق، سواء أكنتُ أنا المستهدف بسخطها أو أحد أقربائنا من ذوي الحظ السيئ.

لم تكن عمتي الزنبارة[1] مفضلة عند مارمي، لكن الثانية تحملتْ من أجلي قدرًا معينًا من عبء العلاقة القسرية في ذلك الشتاء، لزوم عيادة عمي إبان المراحل الأخيرة من مرضه الطويل، إضافة إلى ضرورة القيام بواجب رعايته قبل رحيلٍ -تكهنتُ به مسبقاً- قبيل حلول الربيع، يا للمشهد المؤثر لأبٍ مفجوعٍ يلاعب طفلاتٍ صغيرات! جو، على وجه الخصوص، من ظفرت بدلالِه، كاتبتنا التي انجذبتْ لمكتبة عمي الرائعة قبل تمكنها من التمييز بين الحروف، حين سمح العجوز للطفلة بالتجوال بحرية بين الأرفف المحتشدة، قامت ببناء السكك الحديدية والجسور مستعينة بما شاءت من الكتب حتى بمجلداته النادرة، فإن سئمت، أحضر الحافظة القديمة بما تحتضنه من لوحاتٍ فخمةٍ مثيرةٍ للاهتمام، ثم أومأ للفتاة بالصعود إلى حجره، كان من دواعي سروري مشاهدة جو جالسة بين ذراعيه، بخصلاتِ شعرها الداكن المنسدلة بالقرب من عنقه المنحنية أثناء تقليبه للصفحات.

كان مشهدًا بهيجًا للغاية لولا مارمي التي فقدت أعصابها مفسدة إياه، معكرة الصفو خلال حفلة الشاي لأحد أيام الآحاد الأخيرة من حياة عمي، حدث هذا بعد إفشائي عن خطتنا لحضور محاضرة يلقيها جون براون على هامش زيارته الأولى لكونكورد، فما كان من العمة مارش إلا الرد بصرامةٍ مدلية برأيها الصريح عن أفكار السيد براون التي تجدها متطرفة للغاية، معلنةً بحزمٍ أنها لن تفكر مطلقاً بالإصغاء لأي خطابٍ يتلوه ذاك الرجل، لم تكن زوجة عمي الشخص الوحيد الذي تبنى موقفاً مناهضاً لجون براون في كونكورد؛ فما انفكت الشائعات تلاحق الهمجي العجوز بأنه «لا يعرف الإغفاءة إلا والخنجر بين أسنانه، فيما يتوسد رأسه المسدس الملقم بالرصاص»، بلكنةٍ متغطرسةٍ متكلفةٍ لأهالي بوسطن ترنمتِ العمة

1- أنثى الدبور.

مارش بوجهة نظرها: «لطالما اعتبرتُ العبودية مسألة صلاة أكثر منها مسألة احتجاج!»، ثمّ صوبت نظرة حادة من فوق نظارتها النصفية إلى زوجتي السليطة اللسان مردفة بنبرة خفيضة: «صلاة صامتة»

حرر قيود أسره واستعر بنبرةٍ لاذعة، الغضب الذي نال كلياً من مارمي فردّت: «حقاً! لا بد أنك سترفضين مقابلة يسوع المتطرف السيئ السمعة، لو ظهر بدوره في كونكورد!»

ارتعش فنجان الشاي في يدي بينما ضاقت حدقتا العمة مارش، رفعتُ سبابتي لشفتي محدقاً بزوجتي في إشارة اتفقنا عليها بناء على طلبها بعد الندمِ الشديد الذي أصابها من جراء هيجانٍ آنفٍ مماثل، لعلها تتنبه فتحاول السيطرة على أعصابها، لكنها وعلى الرغم من نظرتها المباشرة إلي فضلتْ تفويت الإيماءة وتجاهلها.

«أنــتِ،،!»، هسهستْ بوجه عمتي، «عاجزة عن استيعاب الجدل الأخلاقي!»، عدائية كلماتها جنباً إلى جنب مع أسلوب نطقها الهجومي أصاباني بالذهول، حتى إنني أقف اللحظة عاجزاً عن تذكر أو حتى سرد ما قالته كله – تدعمني طبيعتي الخاصة المُسارعة لقمع ذكرياتٍ تخص سجالات مشابهة، خاصة حين تُقذف الإهانة تتبعها الشتيمة التي لا تذر للطرف المهاجَم مجالاً لأي رد، لطالما اعتقدتُ أن مواجهة عواصف رعدية صاخبةٍ أفضل حالاً من مناكفة ثوراتِ زوجةٍ ضارية مثلها، أما وجه العمة مارش، التي لا تقل طباعها الحادة نزقاً، فقد اصطبغ أرجوانياً بالكامل.

بحكم خبرته الطويلة في الحد من تأجج مواقف مثيلة، ضغط عمّي بيدٍ مرتعشة على صدره، فانزلقت جو من حجره محدقة بعينيه بقلق: «أشعر بأنني لست على ما يرام»، ثم نهض واقفاً فاقد التوازن، «هلا سمحتم لي بالاستئذان؟»، في الواقع بدا وجهه رماديًا تمامًا بما ثلب لبي واستعر بغيظي من زوجتي وما سبّبه انفجارها من أوجاع أرهقته، وصل العم مارش ليد زوجته المرقطة المرتعشة سخطاً: «عزيزتي، أحتاج لمساعدتك من فضلك»، لم تتردد المرأة القوية الشغوفة بالمناوشات بمنح ذراعها لزوجها، ليتابع الاثنان خطواتٍ مقلقلة صوب الباب، لم أنتظر تلميحاً آخر، بل اكتسحت

خصر زوجتي بذراعي وأخرجتها من الدار، كانت فكرتي منصبّة على التآمر مع نسيم الشتاء المنعش بغية تهدئة أعصابها، لكن لا جدوى، إذ سيتعيّن علينا السير إلى بوسطن والعودة قبل تمكنها من استعادة القدرة على السيطرة على نفسها.

هدأتْ أخيراً، فشققنا طريقنا إلى قاعة المدينة للإصغاء لما يود المتحدث المثير للشقاقِ بين الناس قوله، أكثر من مئة مواطن اجتمعوا في المكان، لا شك أنهم مفتَتنون مثلنا، من حيث الاهتمام والتعرف إلى الرجل الذي قرأنا وسمعنا عنه الكثير، بدت القاعة معتمة، مضاءة بالقليل من فوانيس الزيت التي ألقت بأطيافها الرقيقة على ملامح براون الصارمة أثناء التوجه بخطواتٍ ثابتةٍ نحو المنبر، بدت هيئة الرجل نموذجاً مثالياً لرجل جبلٍ[1] حقيقي، لعله انطباع فرضه ونمّاه عمداً حين تقصّد دخول القاعة معتمراً قبعة من جلد الغزال، لكن لا، فقد علمتُ فيما بعد أنه لا يهتم بمظهره على الإطلاق، لأنّ القلنسوة المثيرة للانتباه، مجرد فراء ظبي اصطاده أبناؤه وحاكته بناته بحكم ظروفه الحرجة المعوزة، خلع معطفه العسكري الصوفي الثقيل، كاشفاً عن كتفين مربعتين عريضتين وذراعين قويتين ابتدعتهما الأيام الشاقة أثناء فلاحة الأرض من جهة، إلى جانب الكدح لتأسيس نفسه مع مجموعته الكبيرة من جهة ثانية، متحدياً الطبيعة القاسية لجبال أديروندالك[2] النائية.

لا ريب أنّ براون يبلغ الخمسين من عمره، لكن الحيوية التي طافت حوله توحي برجلٍ أصغر سناً ذي طاقة هائلة أُحتجزت في حيزٍ ضيق، (المتربص) لا كلمة سواها خطرت ببالي حين أمعنتُ النظر بملامحه: المتأهب للوثوب بخفةٍ فوق العشب، نظيرٌ لطيرٍ جارحٍ هذا الرجل، بأنفه الضخم المستدق

1- رجل الجبل: من رواد جبال روكي ماونتن ويست في أمريكا الشمالية الذين ارتادوا المنطقة كصيادين للفراء. اختلط رجال الجبال على نطاق واسع مع الهنود الحُمر، معتمدين العديد من آداب حياتهم ومعتقداتهم، مع وصول المستوطنين الدائمين خدم العديد من رجال الجبال ككاشفين ومرشدين، إلى أن اندثر أسلوب حياتهم تدريجيًا مع تقدم الحضارة.

2- جبال آديروندالك: سلسلة جبال تقع في الجزء الشمالي الشرقي من ولاية نيويورك على ارتفاع 1629 م.

كالمنقار، وعينيه الثاقبتين لمقلتي نسر مترقب، كان شعره ضارباً للحمرة، أما صدغاه الفضيان فغائران يحاصران جبينه العريض المسجى بتجاعيد حادة عميقة.

بدا براون على دراية حصيفة بجمهوره، إذ استهل خطبته بإشارة إلى تاريخ المدينة المُشرّف، متباهياً بالعدالة العظيمة[1] التي أعلنتها الوثيقة التاريخية عام 1776، في الواقع؛ ليست العدالة وحدها ما قام الرجل بتمجيده بل حتمية نشرها في الأرجاء، خطوة فخطوة، انتقل براون بسلاسة للتأكيد على ضرورة الحرب كخيار لا مفر منه لإبطال العبودية، «سأخبركم التالي!» صدح بصوته الرنّان: «بما أنّ الكتاب المقدس وإعلان الاستقلال؛ الوثيقتان الأكثر قدسية مما عرفه البشر على مدار العصور، فلا ضير من اندثار جيلٍ كاملٍ من الرجال والنساء والأطفال فداء لحفظهما، إنّ موتهم الصارخ خير من انتهاك كلمة منزّهة منهما في هذي البلاد!»، أثار ما قاله تهليلاً مشتتًا وتصفيقاً حاداً بين الحضور، ما عداي! بكل تأكيد؛ لم أكن لأوافق أو أدعم أيّ هدرٍ لحياة النساء والأطفال كما ناشد براون محرضاً، نظرتُ إلى مارمي متوقعاً موقفاً مستنكراً، فلمحت اتقاد عينيها السوداوين بالتأييد والمؤازرة، هذا هو الأمر إذاً، لم لا! فالرجل متطرف مثلها، متوافق بمعاييره مع معاييرها. رفع براون نبرة صوته معلناً عن ثقته المطلقة بأن تحقيق إبطال العبودية لا يتطلب قبول الموت العنيف فحسب، «فلا ريب» على حد قوله؛ «أن عين الصواب راسخة بممارسة القتل لمصلحة القضية»، شعرتُ بوجهي ينكمش ممتعضاً، فالنموذج الوحيد من الأشخاص الذين لا أمنحهم ثقتي هو المدعي لعلمٍ موثوقٍ لا تشوبه ريبة.

التأييد الهائل الذي أفشته عينا زوجتي الجميلتان، لم يهيّج الغيرة من براون بقدر ما أثار حفيظتي واستيائي الشديد بعد مغادرتنا للقاعة، خاصة مع الدعوة التي تقدم بها مدرس بناتي السيد سانبورن للانضمام إلى استقبال مرتجلٍ على شرف السيد براون بحضورٍ كريمٍ من آل إيمرسون وثورو، حين

1- وثيقة إعلان استقلال أميركا: وثيقة تبناها الكونغرس القاري في 4 يوليو 1776، لتعلن أن المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة المتحاربة مع بريطانيا العظمى قد أصبحت ولايات مستقلة، وبالتالي لم تعد جزءًا من الإمبراطورية البريطانية.

أعلنت مارمي موافقتها الفورية حتى بدون تحينٍ لكلمة مني، تكاثف الغمّ في فؤادي أعمق فأعمق، محتشداً كضبابٍ كثيفٍ كئيب.

وصلنا إلى دارة سانبورن قبل وقت قصير من وصول براون الذي بلغ المكان مضطرباً متردداً، كحال قرويّ تريعه الأماكن المغلقة والجلسات اللبقة، قدمه الشاب لمن لا يعرفهم حتى صار إلينا، فبانت بزّة براون المخملية عن قرب بالية مهترئة الأكمام، أما كفّه التي صافحتني، فانتهت بأصابع خشنة وأظافر قذرة محشوّة بالأتربة.

استهلت مارمي حديثها مع الرجل بإجلالٍ وحيوية، مستفسرة عن تفاصيل تخصّ مشروعه في جبال آديرونداك، الذي سيقوم أحد المتبرعين الكويكرز الأثرياء بتعهده بسخاء، بهدف تنمية وتطوير الأوضاع المعيشية للسود المعوزين ومساندتهم لتحقيق اكتفائهم الذاتي كمزارعين *وناخبين*، فأخبرها براون أنه قام بالتعاون مع أولاده بمسح رقعاتِ الأراضي المحررة وتسجيل ملكيتها للأسر الزنجية كي لا يتمكن البيض عديمو الضمير من المطالبة بها، أما الآن فهم يساعدون المستوطنين لإتقان أساسيات وسبل الزراعة في منطقةٍ وعرةٍ قاسيةٍ بخيلةٍ بمواسم الإنبات، أجاب براون بلطفٍ وإيجازٍ عن استفساراتها جميعها، ثم أبدى حماساً حين سألته مارمي عن الهبة التي يقدمها مشروع التوطين للجهود المبذولة بمساعدة المهربين إلى كندا، حيث الحدود متاخمة للجبال، فيما يعتبر المجتمع الأسود خير من يقدم فرصاً فضلى للاختباء.

لا بد أن نظراتِ براون اخترقت عيني زوجتي أثناء سرده للمخاطر التي تعرض لها زوجان قام بمساعدتهما مؤخرًا في النجاة من أحد صائدي الجوائز[1]، بما اضطره في النهاية «لإطلاق النار عليه،،»، فغرت مارمي فاها مشدوهة مع عبارته الأخيرة التي تلفظها بدمٍ باردٍ، بينما اتخذ وجهها ملامح الدهشة والتعطش لسماع المزيد، من الجليّ أنّ براون أجّج أعماق روحها،

1- صائد الجوائز (Bounty Hunter) أي الشخص الذي يقوم بملاحقة المجرمين والقبض عليهم مقابل مكافأة مالية، اندثرت هذه المهنة بشكلٍ كبير في جميع أنحاء العالم إلا أنّها ما زالت في الولايات المتحدة الأمريكية بشكلٍ رئيسي، وفي الفيليبين.

التي لطالما حلمتُ بإخماد السمات الغجرية الخارجة عن القانون بطبيعتها البربرية، هنأتْه على أعماله متمنية مزيداً من التوفيق في المستقبل، «بوسعي يا سيدتي، إنجاز الكثير لو أتيحت لي الوسائل الناجعة، لكنني محاصر على الدوام بالديون والدعاوى القضائية»

كنتُ على بيّنة ببعض الأحداث التاريخية لمسيرة براون: كيف باءت جهوده الحثيثة بالفشل أثناء محاولاته لبيع الصوف الأمريكي بأعلى سعر ممكن للمصانع الإنجليزية، لكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن مشاكله وحجم مديونيته ومخاوفه القانونية حتى بدأ بتعداد ما يُغرقه من نكباتٍ أمامها، التفتت مارمي نحوي فأبرقت مقلتاها بالمسألة برمتها! نظرةٌ حنونٌ تتنافس فتياتنا للظفر بها، لم أعِ كيف أعادتني اللحظة طفلاً يتوق لنيل رضاها، رضاها فحسب! أتراها الغيرة من براون؟ بلا ريب، كنتُ أغبط الشخصية البطولية التي أردتُها لشخصي بعينيها بدلاً منه، لكن أنّى لي قدراته الأسطورية! ما عساي فعله لأمسي مثله؟ هل أجوب البراري فارساً مغواراً على متن حصانٍ جامح، أم أطلق النار من بندقيةٍ على أحد صائدي الجوائز، حتى عظاتي وخطبي الأكثر حماسة خبت جذوتها، اندثرت أمام محراب براون الملطخ بالدماء!

حسناً إذاً؛ إن لم أظفرْ بإعجاب زوجتي، لعلني أحاول على الأقل تدبر الوسائل لابتياع تقديرها، قبل ذلك الحين بفترةٍ من الزمن، أدركتُ حجم الآثار البغيضة للنظامِ الصناعي، خاصة حين كشفت وسائل عائدات استثماراتي عن وجهها بجلاء، وعرفتُ أن منفعتي الشخصية ما هي إلا نتاجٌ لكدحٍ بشريّ شاق ونهبٍ جائرٍ للماء والهواء، الضمير الملتهب بالحسّ الإنساني دفعني شيئاً فشيئاً لتجريد رأس مالي من الاستثمارات الصناعية، مسارعاً مع كل فرصة لبيع حصصي في هذا المصنع وذاك، حتى جمعتُ مخزوناً هائلاً من نقدِ رأس المال بانتظار فرصة الاستثمار المناسب، لم أخبر أي شخصٍ على الإطلاق بما أتوق لتأسيسه بما اكتنزت، لعلّني أتمكن من بناء موطنٍ طُوبائِيّ مثاليّ لطالما تمنيت إحداثه مع الأيام، «بقعة مثالية تمامًا» لمعيشة فتياتي حينما يكبرن، أركانٌ من الطبيعة يمكن للرجال والنساء العيش بين أرجائها غارفين معارفها من غير استغلال أو تعدٍ على عذريتها،

حلمٌ ساقني حفل الاستقبال ذاك لتأجيله متفكراً؛ لا ضير من صرف بعضٍ من رأس المال المحفوظ للحظوة برضا مارمي، فما كان من لساني إلا أن انطلق مخاطباً السيد براون باعتزاز: «أتساءل يا سيد براون إن كان لديك بعض الوقت لزيارتي غداً؟ لعلنا نناقش المسألة بمزيد من التفصيل؟»، أعتقد أن ابتسامة مارمي في تلك اللحظة تستحق التضحية بأي مبلغٍ عظيمٍ قد يطلبه براون.

رجلُ الأعمال السّمِح الذي حضر إلى مكتبي صباح اليوم التالي، بدا شخصًا مختلفًا عن هيئة الخطيبِ النزقِ المتوعد فوق منبر الليلة السابقة، أهلّ السيد براون حاملاً سجل التبرعات النقدية مطواعاً مسالماً، على نقيضٍ تام من ذاك المحارب المُشهر لسيفه العريض، مبدياً الوداعة والدماثة إلى حد بعيد.

جلس بتواضع، خَجِلاً مُحرجاً من مقصد الزيارة، في حين حاولت التهدئة من ارتباكه قدر استطاعتي، من المستهجن لبائعٍ متجول سابق، تبني التصور المفاجئ لرجل مثله عن الاستثمار التجاري بوصفه ركيزة أساسية لدعم حركات الكفاح في سبيل التحرر، الرجل الساعي لجني الثروة أوضح شارحاً أسبابه المتعلقة بإعالة أسرته الكبيرة، جنباً إلى جنب مع الحاجة لخوض صراعٍ مضنٍ ضد العبودية، محمِّلاً حظه العاثر دواعي إخفاقه بجمع تلك الثروة، تاريخٌ حافلٌ من النضال الشاق والمرير باء بالفشل لمرات عديدة، لم أجد في قلبي رغبة بتقييمه أو لوم صاحبه، أخبرني براون أنه لم يأتِ طالبًا للإحسان، بل بنيّة جمع رأس المال لتوظيفه بأرضٍ قد تمسي استثمارًا بالحرية الإنسانية، ثم أطلعني على مخططٍ جديد، إن نجح، فمن شأنه التخفيف من مديونيته وتأمين التمويل اللازم لتطوير وتوسيع مشروع *السكك الحديدية*، لا أنكر أن وجهة نظره استحوذت على عقلي بالكامل: حُماةٌ شجعان، مسلحون أكفّاء وداعمون مُسهبون، يجوبون المخاطر يداً بيد، ليس من أجل قيادة الأفراد لنيل حرّياتهم فحسب، بل في سبيل منحِ الأرض لمن يعمل بها، أهداف سامية ستعمل على عتق العشرات والعشرات، جنباً إلى جنب مع احتضان مئات الفارين، لم تراودني ريبة حول خطر المجازفة بتمويل هذا المشروع، فلا بد أنها مغامرة تجارية آمنة بما فيه الكفاية مع معرفة

براون الجيدة بالأراضي والثروات الحيوانية، حين أخرج خرائطه مشيراً إلى مساحاتٍ في أوهايو قفزت قيمتها من أحد عشر دولارًا إلى سبعمائة دولار للفدان الواحد، أعلمني أن الأرض المقترحة للشراء سترتفع بالمثل إبان حفر قناة مائية غربًا، واضعاً أمامي خططاً مبهرةً آسرة، تأملتُ بكلامه؛ حتى لو كان الرجل مخطئًا بتقدير الربح المحتمل، فإنّ صون رأس مالي ستحفظه ملكية الأرض نفسها، في اللحظة التي أعلنت تأييدي لخططه وموافقتي على الاستثمار، أخذني على حين غرّة بسلوكه الانفعالي الأرعن، واثباً بحماسٍ لمصافحتي، طلبتُ الشاي، فسارعتْ مارمي لتقديمه بالتوازي مع اللحظة الموفّقة الموائمة لسماعها الإطراء الصادح بالأرجاء: «هل أخبرك يا سيد مارش، كم يعادل رجلٌ طيبٌ مؤمنٌ قوي الإرادة مثلك، أتعلم كم؟ مئة،، بل عشرين ألف رجلٍ ضعيف الشخصية»، لم أستطع الجنوح بالتباهي أكثر مما قلته مردفاً: «لا فضل لي يا سيد براون، يستحضرني ما قاله الشاعر هاينه[1]؛ (لا أفكار نسودها، الأفكار من تفعل،،، إنها تسوقنا إلى ساحة القتال لنصرتها كما المحاربين، نبارز ونقاتل سواء أردنا ذلك أم لم نُرد)»، عبارة شعرية طنانة رنانة استعيدها الآن مستذكراً وجه براون الذي انقلب خاوياً من التعبير، بان جلياً بما فيه الكفاية أن وقته ضئيل للاطلاع على قصائد الشعراء الألمان، بغض النظر عن وصف الباحثين الدقيق لشخصية براون، إلا أنه في الواقع، يفتقد الوقت لمطالعة أي جنس أدبي مهما كان، باستثناء قراءة صفحات من العهد القديم كما لحظت طوال فترة معرفتنا، حفظها عن ظهر قلب حيث اعتمد على سطورها كمرشدٍ عسكري بقدر ما اتخذها دليلاً روحياً.

لعامٍ كاملٍ سمحتُ لنفسي التنعم بأصداء الاتفاق البهيج، الذي أثمر طارحاً استحسان زوجتي المُبتغى، طلب براون مبلغاً أولياً ضخماً؛ ثم خلال الأشهر التي أعقبت دفعه، كتب مستزيداً بغية تغطية مصاريف إضافيةٍ لازمةٍ لسدّ احتياجات المشروع، فالبلدة التي ستُبنى فوق أرضنا بحاجةٍ

1- هاينرش هاينه (1856-1797) شاعر وناقد وصحفي من أهم الشعراء الرومانسيين الألمان، ألّف الكثير من القصائد المغناة التي لحنها لاحقاً ملحنون عظماء أمثال روبرت شومان، وُصِفت قصائد هاينه بأنها الحلو المر لأنها تدمج البساطة والجمال مع التهكم، القصيدة الأكثر شهرة لهاينرش هاينه هي لوريلي.

لفندق ومخازن، سرعان ما ارتقت هياكلها الكبيرة تعلو البراري العارية عبر الأفق، في حين ظلت القناة المزعومة الموعود حفرها في الجوار مجرد أحلام واهية، إلا أن الثقة ببراون المهيمنة علي، عملتْ بطريقة ما على دحر شكوكي، محفزة إياي على متابعة دعمه وإمداده، لم يتوان الرجل بدوره عن التأكيد بأن أيّ استثمار إضافي ولو كان ضئيلاً سيضمن عائداتنا الهائلة، أخذتُ كل طلبٍ بعين الاعتبار موافقاً عليه، خاصة أنه لم يعد بوسعي التراجع بعد انجرافي عميقاً حتى بات التجديف للشاطئ أكثر مشقّةً من المضي قدماً، ما جهلته -مكمن الذنب الذي اقترفه براون مستحقاً العذل- أنني لستُ الممول الوحيد لمشروعه كما حسبت، إذ علمتُ بعد زمنٍ فات أوانه؛ أنه اقترض مقابل قطعة الأرض عينها مرارًا وتكرارًا، في سبيل إنفاق المال لابتياع الأسلحة السريّة المخبوءة، التي لم تكن مخصصة لتسهيل هروب العبيد، بل لتصعيد العصيان المسلح.

الآن حين أنظر إلى براون منحّياً استيائي جانباً، أعي أنه ليس بمخادعٍ قصد تضليلنا، بل مؤمن صرف بهدفه، أقنع نفسه بضرورة كسبِ أرباحٍ كافيةٍ لتغطية ما أنفقه برمته، حين شُقّت القناة بمكانٍ آخر وبيعتْ الأرض بثمنٍ بخس، كان استحقاقي واحداً من استحقاقاتٍ موازيةٍ عدة لا يمكنه التعويض عن أي منها، قمتُ في النهاية؛ بدفع ما تبقى من ثروتي لسداد الديون المترتبة عليه بغية إنقاذه من السجن بتهمة الاحتيال، ومنحه فرصة جديدة لمتابعة كفاحه في سبيل إبطال العبودية.

«ولكن هل هذا يعني ضياع رأسمالنا بأكمله! لمَاذا؟» استفسرت مارمي بقنوطٍ حينما كشفتُ النقاب عن الخسارة الفادحة لثروتنا، كانت واقفة في الردهة بوجهٍ أدارتْ نصفه ناحية النافذة وأصابعَ مسّدت بيأسٍ بطنها المنتفخ، إذ تزامن خبر إفلاسي مع انتظارنا لولادةِ طفلنا الرابع، خطوتُ صوبها، احتضنتها ممسكاً بيدها متفكراً! بم عساي أواسيها؟ من القسوة تبرير ما فعلته لجهةِ الرغبة بنيل استحسانها ورضاها، على أي حال هذا نصف الحقيقة بالفعل، فبراون الذي أغواها بأفكاره، أتقن تضليلي على نحو ما، اقتربتُ بوجهي لأهمس بأذنها: «وهب الرجل نفسه حين خاطر بحياته بالكامل، في حين لم أبذل سوى المال، فهل ترضين أن أقدم أقلَّ من الجميع؟»، وقفنا

صامتين لبعض الوقت، ثم شعرتُ بجسدها يرتعش وسرعان ما عرفت بأنها تبكي، «أوليست الغربانُ تطعم الأنبياء؟[1]»، قلت مردفاً، فأدارت وجهها نحوي مفرجة شفتاها عن ابتسامة شاحبة: «هل تفعل الغربان حقاً؟ حسنًا، أتمنى أن يرشدهم شخص ما إلى كونكورد!»، مسحتُ دموعها بقبلاتي ولم نتحدث بالأمر مرة ثانية.

ما الذي يحتاجه الإنسان فعلياً بعد كل شيء؟ المأوى؟ الخبز؟ الملابس؟! الأخيرة متوفرة بكثرة تسعفنا إن قمنا ببيعِ الثياب القطنية والحريرية والصوفية الزائدة، بأي حالٍ من الأحوال؛ لا يمكن لأحدنا ارتداء معطفين معاً، كنت سعيدًا بالتخلي عن الملابس المعلقة على المشجب الذي أخبرني تراكمها على الدوام بكدحِ العبيد، ذبح الماشية، ونهب الغنم - أليس صوف الخراف ملكية شرعية لهم؟ لماذا يُحكم على دودة القز الوديعة بالموت لنسج أزيائنا الفاخرة؟ لم أبقِ على ملبسٍ في الخزانة سوى البذلة الكتانية الوضيعة التي أرتدي.

بفضل معرفتي بطقوس الزراعة استطعنا تأمين كفاف يومنا من الخبز، أما بالنسبة للمأوى فلدينا منزل دافئ، لكن حياتنا داخل الدارة الكبيرة أُخضعت لبعض التحولات الجوهرية، إذ اضطررنا لإقالة الخدم جميعهم باستثناء حنّا المخلصة، التي أصرت على البقاء راضية بأي أجرٍ زهيدٍ يمكننا دفعه، قمنا ببيع الخيول والعربة متنقلين سيرًا على الأقدام أو عبر وسائل النقل العام، رحلتْ طاولة خشب الدردار الأنيقة إلى غرفة طعام أخرى، ليحل محلها منضدة بسيطة صنعتها بنفسي، انتقلتِ الأرائك الفرنسية بدورها إلى منازل جديدة، بالمثل فعلتْ أدوات المائدة الفضية والأطباق الخزفية، خسائر تم تعويضها بأسلوب مارمي العبقري وحرفيتها، فإن تخلينا عن لوحةٍ بديعةٍ محببة، أسدلت مكانها أغصاناً صفراء من خشب القيقب، أو ضفائر متشابكة من أزهار العسل القرمزية، لم تُحجم إبرتها وخيوطها الزاهية عن تطريز

1- تقول التوراة إن الله أصدر أمره إلى إيليا: «ٱنْطَلِقْ مِنْ هُنَا وَٱتَّجِهْ نَحْوَ ٱلْمَشْرِقِ، وَٱخْتَبِئْ عِنْدَ نَهْرِ كَرِيثَ ٱلَّذِي هُوَ مُقَابِلُ ٱلْأُرْدُنِّ، فَتَشْرَبَ مِنَ ٱلنَّهْرِ. وَقَدْ أَمَرْتُ ٱلْغِرْبَانَ أَنْ تَعُولَكَ هُنَاكَ» (1 ملوك 17: 3، 4) فانطلق النبي إيليا وعمل حسب كلام الرب، ذهب فأقام عند نهر كريث، لتأتيه الغربان بخبز ولحم صباحاً ومساءً.

وسائد المقاعد البسيطة التي حلت محل المفروشات الحريرية، عنايةٌ رشيقةٌ وكياسة أنقذتنا من التشوهات البصرية ومن الكآبة، فإن راودها النحيب آخر النهار، تحتجب عني معظم الوقت مستنجدة بالغناء، كما وجدت وقتًا للعب مع الفتيات اللواتي عذُبت ضحكاتهن في أيام الصيف الأخيرة، حين امتزجت بتناغمٍ مع اِسْتِهْلال[1] وليدتنا الجديدة إيمي.

أظهرنا هدوءاً ورويّة ملتزمين الصمت بما يخصّ ظروفنا البائسة، لغايةٍ بعضها يعود لتكتمٍ وتحفظ عائلي، وبعضها الآخر لقلقٍ مفرطٍ على سمعة براون، الذي لم يرغب أي منّا بتعريضها لفضيحةٍ أو لازدراءٍ عام، حاولنا قدر الإمكان مراعاة الاقتصاد في إدارة شؤوننا، إلا أن الديون المتراكمة المتأخرة السداد، لفتت نظر التجار وأشعلت أقاويلهم داخل الحانات، حتى وصلت حالة استنزافنا المالي في النهاية إلى أسماع شركات كونكورد جميعها، في الوقت نفسه؛ لم يفُت الجيران ملاحظة العربات القادمة لابتياع أمتعتنا وترحيلها خارج الدار، ليهرع الأصدقاء المقربون من آل إيمرسون وثورو لمساعدتنا بلباقةٍ فائقة ولم يتوانوا في كثير من الأحيان، عن دعوتنا لتناول العشاء على موائدهم، ملتمسين الفائض من بعض منتجاتهم لإرسال السلال المترعة بالأطايب حتى عتبة بابنا.

لاحظتُ أمراً صنفته وجهاً من أوجه الجورِ في الحياة: من تنعم بمعيشة رغيدة يوماً محكوم بمزيد من التهذيب أثناء طلبه لديونه، بما فاق رجلاً لم يخنه العوز يوماً، طرق الدائنون المترفون بابي بسماحة وخجل، إن لم يكن باعتذارٍ صريحٍ عن طلب مستحقاتهم المالية، إذ بات تسديدُ مبلغٍ ضئيلٍ من ديوني المستحقة كرماً فائضاً بالنسبة لهم، بتّ أقدم الشاي لزواري متبادلاً محادثاتٍ مهذبةً يختمها التحسر والأسف على الدوام: «لا أملك أي نقدٍ، يا سيدي»، عبارة من الهوانِ فاضت من ذاتي المكروبة الكمدة التي لم يمسسها إلا لطف أخلاقهم العالية وكياستهم.

قد يتساءل المرء لماذا عكفتُ عن البدء لإعادة بناء ثروة جديدة! الأمر ليس بهذه السهولة خاصة أنّ الثروة تتطلب لنموها رأس مال أولياً وروحاً

1- الاستهلال: صياح الوليد.

مغامرة لشاب لا يسوؤه خوض الدروب الوعرة إلى فرجينيا لإدخار مبلغٍ ضئيل، أما المال الذي كنت أكسبه بقلمي ووعظي فكان ينفق قبل جنيِهِ لدفع ديوننا وممارسة الرفاهية الوحيدة المتبقية في حياتنا المتمثلة بالجود ببعض المال لأولئك الفقراء التعساء الأكثر عوزاً منا، عادةٌ فشلتُ مع مارمي بالتخلي عنها.

المحنةُ جارتْ بقسوةٍ لتبلغني على مراحل بأفكار مغايرةٍ لسبل تعامل المرء مع الحياة، فما انفكّ التوقف عن الإفراط بتناول الأطايب من الطعام والشراب واجباً إنسانياً بكل ما تعنيه العبارة من معنى، فإن عَمّرتُ موائد السمر غارفاً المزيد من ساعات الليل، تذكرتُ أنني أضيع حياة الحيوان الذي ذُبح بغية اجتثاث شحمه الباهظ الثمن لإنارة ليلتي حتى وقتٍ متأخر أو تلويث صفائي الذهني الناجم عن طول السهر، أما اعتياد ارتشاف القهوة، فهو هدر مالي لقاء إيذاءٍ جسديّ يمكنني تنقيته وتنشيطه بكأس من الماء دون أي تكلفة على الإطلاق، لا ضير في مقاطعة اللحم الذي لا نفضله منذ البداية، تعلمنا بعده الاستغناء عن الجبن واللبن كي لا نحرم العجل من حليب أمه! وجدنا أن تحديد كمية استهلاكنا الشخصي للمأكل والمشرب -مقتصرين على تناول وجبتين في اليوم- يساهم في تخصيص سلة من المؤن أسبوعياً تقوم الفتيات بتحضيرها بمتعةٍ تفوق إشباع شهوتهن الغريزية للطعام، كنّ يحملن ثمار تضحياتهن بمحبة، كهديةٍ للصغار المعوزين من المهاجرين الألمان.

عمي العارف بوضعي المالي الجيد، لم يترك قبل وفاته أي إرثٍ يخصني وفتياتي، بصرف النظر عن بعض التقاليد والوصايا المتعارف عليها بين ذوي القربى في سبيندل هيل، فقد وضع الرجل الطيب ممتلكاته وأمواله بالكامل بين يديّ زوجته الثرية بطبيعة الحال، المرصعة أصابعها بالمجوهرات النفيسة، العمّة التي يفترض بها معطاءة سخية في محنٍ مماثلة، اكتفت بعرضٍ متواضعٍ للعون، مدركة أنّ مساعدتها لنا غير مرحبٍ بها على الإطلاق، سارعت المرأة إلى منزلنا مع معرفتها بانحداري للفاقة، بلا خبر أو دعوة، ثم شرعت بتأنيبي بأقسى عباراتٍ يمكن تخيلها، غير آبهة بابنتي الكُبريين، ميغ وجو، الحاضرتين في غرفة المعيشة، في حين التجأت بيث بظهر والدتها

مرتعدة من الصراخ الذي أوشك على انتشال الرضيعة من غفوتها، امتقع وجه مارمي، فغرستُ إصبعي بشفتي محدقاً في وجهها بنظرةٍ حادة رادعة صارمة، لمحتُ إيماءة تسليمٍ طفيفةٍ وصراعاً لكبح غضبها ومحاولة السيطرة على نفسها.

مع نفاد عباراتِ التوبيخ أخيراً، التفتت العمة مارش للإفصاح عن غاية زيارتها الحقيقية، لوحت بذراعٍ مكسوّة بالدانتيل صوب غاليتنا ميغ: «أنا مستعدة لأخذها»، صرّحت برغبتها بتنهيدةِ إشفاقٍ مبالغٍ فيها، «سأتبناها على الفور كي أريحك من عبء إطعام أحد أفواه المنزل الجائعة»

حملقتُ بزوجتي، لا أظن أيّ إيماءة قادرة على لجمها في تلك اللحظة، حاولتُ غريزيًا رفع إصبع إلى شفتي، كرجلٍ يسارعُ بذراعه لصدّ ثقلٍ موشكٍ على السقوط فوق رأسه.

«عفواً؟ كيف تجرئين على وصف ابنتي الحبيبة بالعبء؟» صرخت منتصبة فوق قدميها كما لو أن الكرسي دفعها بنابضٍ لأعلى، ثم سارعت نحو العمة مارش بخطواتٍ متوعدة، صحيح أنني تعرضتُ للإهانة بدوري، لكنني لن أسمح لزوجتي بتصرفٍ غير لائق مع قريبة مسنة نكن لها الاحترام رغم سلوكها الفظ، بالتأكيد؛ ليس أمام فتياتنا الشفيفات الصغيرات.

«يا فتيات» خاطبتهنّ بنبرةٍ خفيضةٍ حازمة، «اخرجن الآن والعبن»، سارعت ميغ بمقلتيها الدامعتين وفمها المرتعش بالعدو خارج الغرفة، ثم نهضت جو ببطء، عاقدة الحاجبين فوق زوج العينين البنيتين المتلألئتين - ليس بالدموع كأختها بل بالغضب، رامقة العجوز بالملامح المتوحشة لوالدتها ذاتها، «اذهبي!»، قلت مُجهراً صوتي، آخر ما أردته أن تشهد جو على وجه الخصوص، سلوك والدتها العنيف أو الوسائل التي ستجبرني على اتباعها لكبح جماحها.

لأول مرة أجد نفسي في موقفٍ مماثلٍ مندفعاً نحو مارمي بذراعين لففتهما حولها كما أفعل مع إحدى بناتي في خضم نوبةٍ غضبٍ طفولية، لكنها امرأة قوية بما يكفي للمقاومة، التفتت نحوي متلوية بين ذراعيّ بملامحَ شوهها الغضب، حتى خلت أنها تنوي صفعي، تلافياً لذلك، أحكمت قبضة

ذراعي اليمنى حولها مطبقاً على فمها بيدي اليسرى، بقوةٍ غاشمةٍ سحلتها باتجاه الباب، ثمّ أفلتُّ قبضتي دافعاً إياها إلى الخارج، استدارت لتواجهني فساءتني الكدمة الحمراء التي تركها ضغط يدي على خدها، حاولتِ الاندفاع بجسدها لدخول الحجرة، فلم يكن أمامي خيار سوى إغلاق الباب في وجهها الحانق، جُنّ جنونها فبدأت تطرقه بقبضة محتدة، خاطبتها بهدوء قدر استطاعتي: «اذهبي إلى الحديقة من فضلك يا عزيزتي، وهدئي من روعك،، سأنضم إليك في الحال»

«لا تتعب نفسك يا رجل!» جاء الرد مقتضباً ساخطاً من الطرف الآخر للباب، تسارع وقعُ خطوها الذي خامره صوت حنا الفظ جالباً سكينة ما، واشياً بوقوعها بين أيد أمينة، لدى حنا خبرة طويلة وحكمة في إدارة هذه العصبية.

مع استدارتي عن الباب قابلتني عيناي عمتي بنظرةِ انتصار انتقامية، الإهانة الناجمة عن قلة لباقتها أشعلت المزيد من الغضب والغيظ بداخلي فخاطبتها بحزم: «لن نتخلى عن فتياتنا مقابل عشرات الثروات يا عمتي، أغنياء كنا أم فقراء، سنحافظ على أسرتنا متماسكة مترابطة، متلقفين السعادة عبر حبّ حقيقيّ لن يعرفه البعض أبدًا، ولن تبتاعه أموال العالم برمته»

زمّت العمة مارش شفتيها، ثم قامت معرجة أمامي تاركة عصاها المصنوعة من الفضة تطأ بعنفٍ ألواح الأرضية العارية من السجاد التركي، توقفتْ عند الباب واستدارت لتقول: «حبّ؟ ممن؟ من تلك الأفعى السليطة اللسان؟ هنيئاً لك بعشرتها الميمونة!»، هكذا غادرت عمتي منزلنا وحياتنا لعشر سنوات تالية.

كما قلت في السابق لم أكن معتاداً على الشرب بإسراف، لكن بعد ذلك الصدام، وجدت نفسي أطارد بقايا الخمر البرتغالي الذي سقيته لضيوفي في الأيام الخوالي، اختفت الخزانة حيثُ قمت بتخزين الجِرار، ثم استدعيتُ حنا للاستعلام عن زجاجات النبيذ، «الزجاجات؟»، ضحكت، «بِعناها قبل أسبوعين»، ثم ناولتني زجاجة لم يتجاوز عمقُ خمرها الإصبع، تجرعت النبيذ كله بما آزرني قبل المضي سعياً في طلب مارمي، وجدتها في الحديقة

الخلفية، تتمشى على ضفاف الغدير الموحل، تخرّب على حد علمي آخر ما تمتلكه من الأحذية اللائقة، خشيتُ أن العاصفة لمّا يحن أوان سكونها بعد، وشت بذلك الأرصاد الجوية المعتادة لمزاج مارمي، يُستهل الطقس بضغط الهواء المنخفض مع تجمع السحب الداكنة التي تلطخ إشراق ملامحها الحقيقية، يتخللها رعد غاضب صاخب، ينتهي بهطلٍ مطريّ بربري غزير معتّم لعدسة العين، يليه بِركٌ من الاعترافات النادمة والقرارات المفضية للإصلاح، الهيئة الحالكة لتعبيرها نمَّتْ عن مرحلة الرعد الذي صدح بصراخٍ مع اقترابي:

«أنت تخنقني! تقهرني! تلقي عظاتك عن التحرر ثمّ تمارس استعبادي بأقسى الطرق، ألا أمتلك داخل منزلي حرية للتعبير عن نفسي للرد على إهانة كهذه؟ أنت تطلقُ على فتياتنا اسم (النساء الصغيرات)؛ حسنًا، إنك تقلل من قيمتي كامرأة بما أصابني بالسأم، تعبتُ من قمع مشاعري الحقيقية، مللتُ من تطويع قلبي لتعليماتك، كما لو أنني تلميذة ضالة تنصاع لمدير مدرستها، لن أسمح لك بحطٍّ شأني لهذه الدرجة، أسمعت؟»

«أنتِ السبب!» قلتُ محاولًا الحفاظ على ثباتِ نبرة صوتي، متجاهلاً نبضات قلبي التي بدأت بطرق رأسي، «أنتِ من تحطّين من قدر نفسك كل مرة، حين لا تتمالكين أعصابك!»

انحنتْ مع عبارتي الأخيرة، ملتقطةً كتلة من الطين قذفتني بها، تسلل طعم التراب الندي إلى فمي، لكنني لم أتحرك لمسح وجهي، بل تسمرت مكاني متيحاً للطمي الانزلاق عن خدي، وجهت راحتي نحوها بإيماءةِ تهدئة محاولاً الوصول إلى غصن شجرة صفصاف جاف، ناولته لها وقلت «تابعي!»

خفق السوط بالهواء صافراً، ليسلخ خدي بجرحٍ توهج بالألم على الفور.

انفجر السحاب دموعاً خارج مقلتيها، فسارعت مهرولة نحوي تتلمس وجهي النازف، أخذتُ أصابعها الموحلة بين يديّ وقبلتها، ثم اضطررت للانحناء جانباً لبصق قطعة لزجة من الأوراق المتعفنة انسلّتْ إلى فمي، ضحكنا وتعانقنا، ليتكرر ما حدث بيومٍ غابر، حين انقلب هيجان غضبها

إلى حميّةٍ ملتهبة مثيرةٍ مرحبٍ بها، بعثرةُ ثياب وفوضى اضطرتانا للعودة عبر ممرات المنزل السريّة بعيداً عن أعين حنّا والفتيات.

منذ ذلك اليوم، باشرتْ مارمي نضالها المضني لإتقان سيادة ذاتها سالكة منعطفًا أكثر جدية، قالت متمعنة بالفكرة بذعر: «أخشى أن تمسي إحدى الفتيات ضحيتي التالية!»، محاولات لم تثمر خلال شهر أو حتى سنة، لعلها لم تتحقق بالكامل بعد، لكن أعاصيرها لم تعد هوجاء خطرة لدرجة ابتلاع من حولها.

من غير اللائق مقاطعة الأقرباء في بلدة صغيرة كبلدتنا، لكنّ محاولات المصالحة مع عمتي لم يكن عملًا سهلاً يُنجز بزمنٍ قصير، على الرغم من مبادراتِ مارمي بالاعتذار لها، كتكفيرٍ عن فعلتها وتنفيذٍ لقرارها الجديد بتغيير سلوكها، لكن عمتي صدتها رافضة لكل عرضٍ لاحقٍ مؤثرة الصمت، لذلك لم أتمكن من إعلامها حين احتجتُ لرهن المنزل الكبير، بل لأقل؛ حينما اضطررت لبيعه، لحسنِ الحظ، علم آل إيمرسون بوجودِ كوخٍ صغير بنيّ اللون متاحٍ للإيجار بالقرب من منزلهم، عملتُ بتقطيعِ الأخشاب مقابل أجرٍ سخيٍ يصل إلى دولارٍ واحدٍ في اليوم لتحصيل مبلغ الإيجار، بهذه الإجراءات تمكنا من البقاء في ولاية كونكورد الحبيبة، بكتْ ميغ وجو بمرارة مع مغادرتنا المنزل الوحيد الذي عرفتاه، لكن جو سرعان ما وجدت لنفسها مكاناً في عليّة الكوخ الجديد لتمارس الكتابة هوايتها المفضلة، وتكريساً للمهارات التي اكتسبتُها مذ كنتُ فتياً في سبيندل هيل حيث كوّنتْ أيادينا كل ما يلزم، صنعتُ منضدةً قابلة للطي لتستخدمها الفتاة كمكتب موائمٍ للمساحةِ الضيقة، أما مارمي فقد ورطت ميغ بمخططاتها التزيينية لتغطيةِ الجدران المتهالكة بأصص الورود خارجاً وبالستائر الجميلة داخلاً، قدمتِ الفتيات جُلَّ عونهنَ أثناء توضيب المنزل لاستضافة العبيد الفارين بأمان، تعاونٌ مثمر أسقط إحساسهن بالاغتراب تبنياً لوجهةِ نظرٍ جديدة غيّبت دموعهن بعد ذلك الحين.

بعد فترة وجيزة من إقامتنا في الكوخ، جاءت العمة مارش لزيارة جارنا جيمس لورانس، الرجل الغني الذي جمع ثروته من أعمال التجارة في الهند، كان الرجل منعزلاً يمضي معظم وقته خارج البلاد بما صرفنا عن التعرف

إليه، يبدو أن العمة مارش صديقة زوجته الراحلة، قد حافظت على علاقةٍ سطحية بالأرمل من بعدها، ذات نهار أثناء مغادرتها لمنزل جيراننا الحجري، تعثرت بجو التي كادت تطيح بها أرضاً، فتاتنا البرية بأسلوبها المعتاد البليد الفظ الغارقة في صفحات كتابها أثناء عودتها للمنزل، وحدها من تمكن من كسر الجليد الذي دام لعشرِ سنواتٍ بيننا،، أعوام وشت باعتلال جسد العمة مارش، التي بات عرجها عقبة حقيقية أمام قيامها بروتينها اليومي الذي عاشته وحيدة في منزلها الكبير الموحش المغطى بالغبار، الحال الذي دفعها لتقديم عرضٍ لجو متمثلٍ بالعمل لديها كمرافقةٍ مدفوعة الأجر لبعض اليوم، أبدت جو حماساً للوظيفة بغية المساعدة بطريقة ما بحمل جزء من الأعباء المالية الخاصة بالعائلة، خاصة أنّ ميغ سبقتها إلى ذلك كجليسة أطفال، صحيح أنّ جو حظيتْ بمحبة واسعة النطاق من قبل عائلات المدينة، لكن أحداً لم يُرد مربية غارقة بالفوضوية والبربرية والتهور كي تهتم بصغاره باستثناء عمتي التي منحت الفرصة لجو ليشكلا معاً زوجين متمايزين فاجآ الجميع بانسجام وتناغم ملحوظين، لقد أبدت جو لا مبالاة كافية لتجاهل انتقادات العمة مارش وحيوية مدهشة للإشراق بالأيام الرتيبة المملة في دارة العجوز.

إضافة إلى المال المرحب به، أمست الحرية المقتنصة من مكتبة عمي إضافة لا مثيل لها لجو، كلما خلدت عمتي إلى النوم أو أثناء انشغالها بزوارها، لا تتوانى الفتاة عن انتهاز الفرصة لمطالعة الكتب داخل المكان الذي منحها الحبّ طفلة، ليهبها بركاته ونعمه فتية، يا للأقدار! لولا خسارة ثروتي لحرصتُ على تزويدها بأمهر معلمي البلد وأفضلهم علماً، أو لعلني استقدمت أكفأهم من الخارج، لكن ليس بوسعي الآن، سوى تركها لتقتحم صفحات الكتب القيّمة بتوجيه مني ومن والدتها، حتى باتت القاعة المزدحمة بالكتب المهملة، الجامعةَ الخاصة لجو.

بالطبع، ما كنتُ لأتردد لو استطعت، في توفير الراحة لغاليتي ميغ، وتأمين المعيشة المرفهة التي أعلم بتوقها إليها، تلك المماثلة ليوميات العائلة الثرية التي تعمل في منزلها، كلما خرجتِ الأخوات الكبريات للأطفال الذين تعتني بهم، القريبات منها بالعمر، بدت مارغريت مرغمة على التحديق بفساتين الحفلات الراقصة وزينة الشعر المحرومة من اقتنائها، كان عليها الإصغاء

لأحاديث مرحة عن العروض المسرحية والأمسيات الموسيقية التي لم تستطع الانضمام إليها، يا له من اختبار حقيقي لفتاة بمثل سنها! بسنواتِ عمرها الكافية لتكوين توقعات مذهلة استناداً إلى طفولتها الثرية، حين رسمتْ صورة ذهنية واضحة لحياة مترفة كان من الممكن خوض غمارها.

أتساءل لو أنّ فتياتي تنعّمنَ برغد العيش، أكنّ حظين بمستقبلٍ أفضل؟ لا أعتقد ذلك، فبدل الكسل والكبرياء والتلقيم الفكري بملاعق الآخرين، اكتسبت نسائي الصغيرات الطاقة والحرفية والاستقلال، على الرغم من أوقات عصيبة أغرقتنا بالعوز والفاقة، لا يمكنني الجزم بأن ما حدث شُؤم أو قلة حظ.

الفصل الثامن
مذبح التعليم

أوك لاندينغ 30 مارس 1862

الغالية مارمي

أخيراً بعد الانتهاء من الحصاد، بدأ اليوم حلج محصول القطن في حجرة الندافة كما يُطلق عليها، التي لا تشبه كونكورد إلا بعاصفتها الثلجية حيث تتطاير الأليافُ في الأجواء، تتراقص تحت الأضواء، لتهوي بتراكمٍ حريريٍّ يدثر أركان الأرض.

لقد اضطررت للتحدث بحزم مع عدد من الأولاد اللاهين في المكان، المتقافزين المتشقلبين فوق القطن الناعم، لتطفو وجوههم فحمية اللون لامعة، التجوال بين الندف المتراكمة شغبٌ يهواه الصغار ومهمة يمقتها القائمون على الحلج، حيث لا يمكن تفادي استنشاق غبار القطن وتسلله الخانق من الخياشيم إلى الرئتين، بما يجبر الرجال على لفّ أقمشة حول وجوههم أثناء العمل داخل المساحة المكتظة المؤذية.

الآن بعد الانتهاء من جمع المحصول، آمل أن يخفف السيد كانينغ من تطبيق نظامه الصارم شيئاً فشيئاً، خاصة أن الشاب في الفترة الأخيرة أبدى طواعية ومرونة تجاه تلميحاتي واقتراحاتي التي من شأنها التقليل من العبء الملقى على عاتق العمال، أشكرك مسبقاً يا عزيزتي على السلع التي ستعملين على تأمينها لأشخاص بأمسِّ الحاجة إليها، أثق بقدرتك على الإقناع وأتطلع

كل يوم إلى رسوّ مركبٍ محمّلٍ بثمار مساعيكِ الحميدة، كتبتُ بدوري لمن يكنّون التقدير للمهمة المنوطة بي، موضحًا لهم الوضع البائس الملحَّ هنا.

أود إعلامك بان اختياري لـ «فصل التدريس» وقع على حجرة داخل المبنى الخاصّ برَكن المركبات[1]، حيث رحلت سيدة المكان إلى المدينة بإحدى عرباته التي ظلت في خدمتها، بينما قام اللصوص بسرقة العربة الأخرى وفق أخبار السيد كانينغ، لا شك أنهم سعداء بوسيلة تقلّهم بالسرعة المطلوبة مع حمولتهم المترعة بالمسروقات، قمتُ بجرف خيوط العنكبوت عن الجدران، نظفت المكان جيداً، ثم جعلت الأطفال يجمعون أغصانًا خضراء وحبائل من أزهار الربيع لتزيينها، صنعتُ لافتة للباب نقشت عليها أبيات قصيدتنا المفضلة:

«تسمو التلال عبثاً

تنضبُ مياه البحار.

إن غيّبتِ الوِهاد مذبح التعليم[2]».

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدا الأطفال متعطشين للتعلم جنباً إلى جنب مع أهاليهم، حتى باتت استفساراتهم عن موعد بدء الفصول الدراسية متكررة على نحو يومي، من الصعب تفسير الرغبة الجامحة لإتقان كتابة الكلمة وقراءتها، حين تشغف شعباً نالته أحلك ليالي الجهل والأمية، صحيح أن العبودية حطت من قَدْر البعض وحرمتهم من الضلوع بأساليب الحياة المتحضرة، فيما نهى الاسترقاق أصابعهم عن استخدام القلم أو الريشة، مسلمًا إياها ليد الفأس وذراع المحراث وأزرار القطن،، ناهباً الذكاء من عقولهم والحكمة والتبصر، لكن في الواقع، ما انفك العديد منهم يتقصدون حجب أي تألق ذهني تحت عباءةٍ من الغفلة والبلاهة، لا يسعني التخيل إلا أنهم محقون! فهم يجدون الحياة أسهل مع ادعاء الغباء، خاصة أنّ الشخص الساذج لن

1- كما يُطلقَ عليه اسم بيت المُدرِّب، مبنى مُلحق بُنِيَ في الأصل لركن العربات والأحصنة.

2- القصيدة لوليام إليري تشانينغ (1780–1842) داعية أمريكي توحيدي عاش في أوائل القرن التاسع عشر.

يُخشى منه، لا يشكل تهديداً أو يَعِدُ بالكثير، صحيح أنّ السيد كانينغ ما كلَّ عن وصفهم بالمملين والكسالى، أما دليله على تقاعسهم وحمقهم، فكان انشغالهم في رعاية رقعة الذرة بدل زراعة القطن وحصاده، لكنني لم أجده سوى برهان على حصافتهم، لم لا؟ فهم ينكفئون عن زراعة ما يتكبدهم المشاق، حين تاه دليلهم لربح بنسٍ واحدٍ من محصولٍ لا يسكتُ جوعهم أو يملأ أجواف صغارهم.

اعتدنا الحكم على عقل الرجل وفقاً لثقافته وتعليمه؛ مع ذلك ما رأيته هنا عرّفني بمعايير مغايرة، مع حرمانهم من التعلم ومطالعة الكتب لزمنٍ طويل، عملت أدمغة الزنوج بحكم الضرورة، بصقل مهاراتٍ متمايزةٍ متنوعة، أفضت إلى حدة بصرٍ حاذقة وذاكرةٍ آسرة، باخرةٌ تمخر عباب النهر على سبيل المثال، تمكِّن الزنجي من تحديد هويتها قبل فترةٍ من اقترابها أو التمكن من قراءة اسمها المكتوب جانباً، إنهم يسارعون كلما دنا قارب جديد، بالاستفسار عن اسمه، ثم يدققون بعناية بترتيب وتكوين حروفه ليحفظوها عن ظهر قلب، لن يعجزوا بعد مرور عام عن التعرف على المركب ذاته من مسافة قصيّة جدًا.

أتمنى الشروع بإعطاء الدروس بعد غد الموافق ليوم الأحد، وذلك بعد إلقاء عظتي الأولى لهم، سأسعى جاهداً لدعوة الزنوج للصلاة خارج معبدهم المدعوّ بـ«بيت التسبيح»، حيث يؤدون عباداتهم الصادقة، سألتمس أيضاً استضافة بعض الجنود التابعين لمجموعة استكشافية ممن يخيّمون جوارنا حاليًا، ما زلت أحرص أشد الحرص على انضمام الجميع للصلاة جنباً إلى جنب، تواقاً لمواصلة واجباتي التبشيرية بعد التقدم الذي أحرزته بمهامي الجديدة مع ذوي البشرة السمراء[1].

اذكريني في صلواتك وتمنياتك الطيبة،،.

تجولتُ بعد ظهر ذلك اليوم على ضفاف النهر قاصداً رقعة لفتت انتباهي مؤخراً، هناك انتصبت شجرة جميز عملاقة مشوهة بالتواء تدلى فوق سطح

1- ذوو البشرة السمراء أو الملونون: شعوب تنحدر من جذور صحراوية أفريقية زنجية، لا يُعتبرون من السود لأن عرقهم ليس أسود بما فيه الكفاية.

المياه البني الراكد، أعتقد أنها شجرة عتيقة نجت من بعض ضربات البرق الأليمة التي خضّبت جزءًا من جذعها بالأسود فنكس جافّاً مجوفاً؛ بينما اشتد بأس أجزائه المتبقية لتثب قوية مليئة بالنسغ أكسير حياتها، وجدتُ لي ركناً في فيئها، جمع بين الخشب الميت والحي بانحناءةٍ رقيقةٍ شكلت مقعداً مريحاً للجلوس، قعدتُ متأملاً أفكر بمحتوى العظة التي سألقيها الأحد والتي قررت إسنادها إلى الآية: «تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ»[1]

بعد الانتهاء من كتابة بضع صفحاتٍ جيدة كما بدت لي، جمعتها ومضيت عازفاً عن مشاركة العشاء غير المبهج مع كانينغ، عازماً الالتفاف إلى موقع معسكر فرق الكشافة المُقام بالقرب من ووتربانك، على نقيض نديمي، الذي سيفضل العشاء في المدينة بأي وقت حر مُتاح، فضلتُ التقاط أخبار جديدة عن العالم الخارجي الأكثر رحابة، كثيراً ما اتسمت قوات الاتحاد المتحصنة هناك، بالفظاظة والجلافة إلى حد كبير، فقد كانوا مجندين، أغلبهم من الأيرلنديين الذين يخدمون في ظلّ ظروف سيئة دون حماسة تذكر للقضية، في حين لاحقتهم السمعة السيئة من جراء نهبهم لممتلكات المدنيين في المناطق المجاورة، سلبوا الناس دجاجاتهم وخنازيرهم، فإن اعترض أحدٌ كبير السنّ أو صغير محاولاً الدفاع عن مقتنياته، لن يجد سوى الإهانة أو الضرب المبرّح، حتى النساء لم ينجون من تحرشاتهم الفاحشة، لا عجب إذاً من وجوم النسوة والزوجات بوجه أيّ يانكي مقبلٍ صوبهنّ، ليبادلنه التحية بملامح كالحة وقامات تدير ظهورها كلما بادر بإلقاء «نهار سعيد». لأسباب مماثلة جعلت من ووتربانك فاقدة الأمل بخلق مجتمع متحضر وراقٍ، بتُّ متحمساً لما سيصل لمسامعي من أخبارها.

لمحتُ ما يقارب عشرة أفراد مخيمين برحلةٍ استطلاع كشفية، حيّوني بابتهاج شديد، ثم دعوني للجلوس معهم، بينما اشتعلت نيران موقدهم على بعد مسافة قصيرة، علاها قدر غلى بمرقة الفاصوليا البنية التي أسال عبقها الغني لعابي، عندما جمع العسكري أكواب الصفيح لإخوته في السلاح

1- رسالة فيلبي - إصحاح (2: 12) (2: 13)

وحملهم على توزيعها فيما بينهم، مرر الرجال جرة فخارية كبيرة طافحة بخمر الذرة انتقلت من يد إلى يد ومن فم إلى فم، وصولاً إلى يدي التي مررتْها دونما إبداء استنكارٍ جليّ كما أملت، ملاحظاً نفاد ثلثي البيرة داخلها، سألت عن مصادفتهم لأي حدثٍ مستهجنٍ أثناء مهماتهم الاستكشافية، فأبلغوني عن اشتباك جرى قبل يومين مع مجموعة من رجال حرب العصابات، إذ قامت نيران مدفعية حاميتهم بمطاردة الغزاة حتى تراجعهم، ثم بقدراتٍ مخيفة تسربوا كالندى منسَلين إلى جحورهم الخفية التي لم يتمكن أحد من تحديد مواقعها بعد، «إنه ذاك المتجر في ووتربانك»، اعترض عريفٌ شاحب العينين ذو لحيةٍ بيضاء متابعاً القول: «أتعلم لمَ؟ ما انفكت زوجات وأخوات اللصوص يتجولن بارتياحٍ أينما وحيثما أردن، يبتعن الحاجيات والإمدادات المثقِلة لظهورهن، دافعاتٍ ثمنها بالمال الذي سرقه رجالهن، لولا حظوتهن بتلك الحرية لكان بإمكاننا إزالة نقاب الأخشاب الموارية لهم بأسرع وقت ممكن».

«لماذا لا يمنع الجنرالُ مالكَ المتجر من التعامل معهن؟» سألت.

ضحك الشاب الشاحب بشدة حتى تناثر رذاذ خمر الذرة من فمه، انضمت إليه قهقهات الآخرين، «كم أنت نقيّ السريرة طاهر القلب حضرة القسيس!»

ثم أردف كشاف آخر بالقول: «صديقٌ قديم حميميّ للجنرال شارك بحصة كبيرة من البضائع في المتجر ذاته، وبناء عليه لن يقوم الجنرال بمضايقة صديقه، أليس كذلك؟ خاصة حين يدر المتجر مرابح تقارب الألف دولار في اليوم الواحد!»

«الأمر لا يتعلق بالصداقة والشراكة فحسب، وليس مرتبطاً بالمكان هنا»، أضاف رجلٌ مرحٌ ذو ملامح أقرب إلى وجه كلب الصيد، أكبر سناً بكثير من الآخرين، ثمّ تابع حديثه رافعاً قلنسوته القشية للخلف كاشفاً عن شعر أشيب بالكامل: «يحدث الأمر ذاته شمال النهر وجنوبه، لقد بعث زعيم التمرد لقائد الحامية رسالة مفادها أن منصب القائد لن يتعرض للتهديد المباشر، طالما ظلّ المتجر مشرّعاً لنشاط نسائهن المتسربلات بحلتهن الفروسية الجنوبية، أما النتيجة فكامنة بكمية الإمدادات الواقعة بأيدي الخصوم، الفائضة عن

حاجاتهم الداعمة لمواصلة إرهاق وإزعاج الخفر الخاص بنا، فضلاً عن منافعهم التي تفوق الجهود المبذولة لتأهيل الزنوج والمشاق التي تكابدها في سبيلهم!»

إن كان ما قاله الرجل صحيحاً -لا حجة لدي أو سبب للتشكيك بتصريحاته- أيّ إغراء يحثّ رجال حرب العصابات على المكوث في محيطنا المجاور! أيّ كارثة!، استغرقني استيعاب الأخبار الصادمة زمناً أقصاني عما يجري قرب النيران المستعرة حتى دوت صيحة قوية كنعيق الغراب، مجموعة من الأطفال الرضع الهزالى -أعتقد أنهم كانوا متلطين بين الشجيرات- وجدتهم متجمعين بأفواه مشدوهة حول أحدهم بينما يولول قابضاً على يده، ركضت واحتضنته بين ذراعي، تفحصت راحة يده المحترقة مع أطراف أصابعه، لأحظت تغضن الجلد الرقيق متفتحاً بالقروح، التفتُّ طلباً لتوضيح أحد الكشافين، فتجاهلني مسارعاً لبعثرة جمرات الطهي وإخمادها بحذائه متعامياً عن الصبي الباكي.

«ماذا حدث؟» سألته.

«كنت أمازح صغار السامبو[1]»، قال مهتزاً بكتفيه دون أي مبالاة؛ «لقد تجمعوا متسمرين حول الموقد وقد سال لعابهم كجراءٍ لعينةٍ جائعة، لذلك قمتُ بدعوتهم للغرف من القدر!»، بقسوةٍ لم أفهمها، تمنع الرجل عن تحذير الأطفال المتضورين جوعاً كي يحترسوا من حرارة الغلاية الواقدةِ فوق الجمر لعدة ساعات، كانت تنهدات الطفل المحترق محزنة مثيرة للشفقة، حيث التصق المرق الحار اللزج بقعر كفه الرقيقة.

«أعطني حافظة الماء الخاصة بك»، طلبتُ زاجراً، حين رفض تقديمها انتزعتها من يده انتزاعاً، ثم سكبت الماء البارد فوق يد الطفل، «لمَ لم تعطه ملعقة ليأكل؟»، كشّر الرجل ثم رد مشمئزاً: «أوَتعتقد أني سأدع شقيّاً زنجيّاً يأكل بملعقتي؟»

1- سامبو: تسمية مهينة ومسيئة لأي شخص أمريكي من أصل أفريقي في اللغة الإنجليزية، بعد الحرب الأهلية تم استخدام المصطلح للتقليل من أهمية السود في اللغة الإنجليزية الأمريكية والإنجليزية البريطانية.

ساخطاً خطوتُ مبتعداً حاملاً الصبي بين ذراعي مُلاحَقاً بصريخ الجندي الناقم وضحكات ساخرة لرجالٍ آخرين.

بحثت عبثاً في المنزل عن مراهم مهدئة، لاعناً احتياجاتنا الكثيرة والمسافة التي تقصينا عن أصدقاء قادرين على تلبيتها، ما وجدته في النهاية، لم يكن سوى ماء باردٍ داخل إناء فخاري مع قطعة من الكتان، غسلت يد الصغير ولففتها، بدا معصم الطفل رقيقًا جدًا لدرجة شعرت أنني ألفّ خيطاً حول كرةٍ تبرز منها إبرة الحياكة، اصطحبته إلى الرواق طلباً لنسيمٍ عليلٍ، أجلسته على ركبتي ثمّ سألته عن اسمه.

«جيمسي»، أجاب بصوتٍ حادٍّ خافت النبرة.

أطعمته الخضار المسلوقة الباهتة مع عصيدة الذرة المتخثرة التي أعدها الطاهي لتناول العشاء، أكل جيمسي بنهمٍ كما لو أن الوجبة الكئيبة شهية لذيذة، في الحقيقة لم يكن الطفل من شدة نحوله يزن شيئاً، أرقدته بين ذراعيّ بهدوء ثم دندنت لأسماعه بعض الأغاني المحببة لدى فتياتي الصغيرات، حتى خفّ الألم بدرجة كافية للسماح له بالنوم كملاكٍ أدهم حالكٍ، أسندت خدي إلى رأسه الناعم، لمستُ شعره الذي نما طويلًا بتجعيداتٍ كثيفةٍ معقوصة، مداعباً إحدى الضفائر النابضة متفكراً بعائلتي التي أفتقدها بمرارة.

لا بد أنني غفوت داخل كرسيي دون وعي بالظلام الهاطل في الأرجاء، تحرك الطفل في نومه فأيقظني على حين غفلة لألمح الهلال متسللاً بوميضه الفضي الباهت عبر شرائح المصاريع الخضراء، متهاوياً بخيوطه اللامعة فوق الطوب المضفر، حين لمحتُ طيفها، سرعان ما جال بخاطري أن والدَي الطفل يفتقدانه، وقلقان بشأن غيابه.

أبصرتها مسمرة في الحديقة، منتصبة كشجرةٍ باسقة تحدق في وجهي، بدا لون بشرتها داكناً جدًا بحيث لم أتمكن من تحديد ملامحها، لم أعِ المدة التي أمضتها المرأة واقفة على هذا النحو، ولا أعرف الفترة الزمنية التي قد تستهلكها بمزيدٍ من الانتظار، نهضتُ والطفل بين ذراعي لا يبلغ أكثر من حجم جرو هزيل، ثم هبطتُ السلم نازلاً نحوها، كانت فتاة فارعة القامة شابة جدًا؛ أصغر سناً بكثير لأتوقع أمومتها لولا معرفتي بحلول ذلك الوقت، أن

الحياة الجنسية لهؤلاء الناس كثيراً ما تبدأ قبل فترة طويلة من انتهاء مرحلة طفولتهم، مدت ذراعيها النحيلتين وأخذت ابنها، ثم انحنت فوقه برأسها المترع بالخصلات المجعدة بإيماءة طفولية حنون، سارعتْ بعدها بالعدو بعيدًا بأقدامها الطويلة العارية تاركة آثارًا ندية على وجه العشب، استيقظتُ في صباح اليوم التالي، لأجد قبعة بلميطٍ عريضة الحواف منسوجة يدويًا، معلقة على مقبض باب المخزن، يبدو أنها طريقتها في التعبير عن الامتنان.

كنت أعتمر القبعة حين قابلتها مرة أخرى، وجهتها إليها بإشارة الممتن لهديتها، فابتسمت بأسرع تلميحٍ لابتسامةٍ يمكن لفمٍ بشريٍّ رسمها، حتى إنها بدت ما يشبه تشنجاً لاإرادياً قبل أن يعود وجهها إلى وقاره الحذر المعتاد، كانت تجلس القرفصاء على أرضية الفصل الدراسي، بينما ضغطت على الأرض بأخمصي قدميها العاريتين، مسندة مرفقيها إلى ركبتيها المثنيتين، وضعية ليست مريحة على الإطلاق بالنسبة لي، لكن يبدو أن الآخرين أمثالها لا يجدون صعوبة في الجلوس على هذا النحو.

تجعد جبينها المصقول أثناء جهد بذلته لتشكيل الحرف (M) بعصا فوق الأرضية الترابية الناعمة، كنت عاقداً العزم في بادئ الأمر على تعليم تلاميذي كتابة أسمائهم، لكنني غيرت رأيي وشرعتُ بتعليمهم كتابة اسم معلمهم أولاً.

لقد تعرفتُ إلى اسم الفتاة؛ زانا -ليس منها بالطبع، فالتكتم أو الخوف جعلها صامتة تمامًا أثناء وجودي- أما طفلها الصغير، جيمسي فانضوى جوارها قدر استطاعته، كما لو أنّ الاثنين ملتصقان عند أطراف الضلوع، أظهرت أيام التدريس الأولى صعوبة لا تضاهى، إذ لم يكن لدى طلابي أي فكرة عن الجلوس بلا حراك أو التركيز لفترة طويلة أو التوقف عن الثرثرة والضحك أينما شاء مزاجهم، بينما فاح عبق غنيّ من الأجساد المتكدسة في الغرفة يشبه رائحة المسك إلى حد كبير، حضر السيد كانينغ لبعض الوقت خلال اليوم الثاني لبدء الدراسة، إلا أنه سارع بالانسحاب بلا تردد، دون الانتظار لملاحظةِ أيّ إنجازٍ لتلاميذي في باطن الفوضى الظاهرية.

أثناء تناولنا لوجبة العشاء في مساء ذلك اليوم، أعربتُ عن الإحباط

والخيبة اللذين أصاباني من جراء زيارته القصيرة، فتمتم بشيء حول وجود رزمة قطنية عليه النظر بشأنها، ثم تغضن وجهه بالقول: «المكان ضيقٌ جداً هناك، أتساءل من أين تستجدي القدرة على الاصطبار».

«المساحة ضيقة بالفعل لتعجّ بمجموعةٍ كبيرةٍ من الطلاب»، ردّدتُ مؤكداً ما قاله، على الرغم من أنني حاولت إدارة المدرسة على فترتين موزعاً الدروس بالتوازي مع الأوقات المتعلقة بأعمال الحقل، لكن نادرًا ما كان يحضر أقل من خمسين شخصاً إلى الحجرة كل مرة.

«في الواقع، أنا مندهش من عدد الأشخاص القادمين للفصل، فضلاً عن كدّهم تحت الشمس لساعات طويلة لا يتوانون، حتى أكثرهم تخلفًا، عن مساعيهم للتعلم بمحاولاتٍ حثيثةٍ مضنية، إنني أجدهم بالفعل كما قال الشاعر[1]: «صور الله المنحوتة على خشب الأبنوس».

ضحك كانينغ وقال معلقاً: «أتمنى ألّا تفوح من الرب رائحة نتنة مماثلة! قد أتحملهم معتّقين لأقصى الحدود خارج الأبواب، لكنني عاجز عن الانحشار بينهم لساعة كاملة مثلك».

كيف أوضح له؟ لأي غاية أستفيض بالشرح لرجلٍ مثله؟ بالفعل أحببتُ شغفهم وحماسهم ومعنوياتهم العالية، كما أنني أتعهد بالنضال الدؤوب لإحداث النظام التعليمي الذي أخطط لترسيخه حتى لو استغرق الوقت لإنجازه طويلاً، إنها المدرسة التي تاق ذاك المتجول الشاب لتأسيسها، الميدان الذي سيمنحه الفرصة لاختبار نظرياته المتمايزة في التعليم، ما برح هدفي كامناً بإيقاظ القلب على الأفكار الهاجعة فيه بدلاً من غرس الحقائق عنوة في الذاكرة،، العزف على أوتار الأفئدة بدل تقييدها بأفكار مسبقة جاثمة في الرؤوس، خاصة أنّ عقول البالغين هنا بحكم ظروفهم، بدت مناسبة لهذا النهج مثلها مثل عقول أطفالهم؛ مطواعة بالقدر ذاته، سهلة التشكيل.

تم تخصيص الساعة الأولى من عملنا الصفي لنسخ الحروف وتعلم

1- توماس فولر: عالم إنجليزي وباحث وواعظ ديني، أحد أكثر المؤلفين ذكاء وإنتاجاً في القرن السابع عشر، وله العديد من المؤلفات في المكتبة الإنجليزية التي اشتهرت على مستوى العالم.

أصواتها، نفّذنا ذلك عبر خدش التراب بالعصي أو حكّ شظايا الفحم بقطع الألواح، على الرغم من افتقادنا الورق وأي احتمالٍ واقعيّ ممكنٍ للحصول عليه، فإنني حثثتهم على صنع ريشاتهم الخاصة إلى جانب نقع اللحاء لتقطير أحبارهم استعداداً ليومٍ لاحقٍ يتيح ممارسة مهاراتٍ مماثلة.

قضينا بعض الأوقات لمناقشة الكلمات ومعانيها الحقيقية، حاولت أثناء ذلك استفزازهم إلى نمط تفكيرٍ أعمق وتعبيرٍ أكثر حرية مما كانوا يستخدمونه حتى تلك اللحظات، سألتهم ذات مرة عن معنى كلمة (وديع) ثم تبعته بطلب التفكير بأي شخص وديعٍ يعرفونه وما كانت صفاته المثلى، فإن تعمقوا بالمعنى الكامل للوداعة، أحثهم بالسؤال عن تعريف (الوحشيّ) وذكر أمثلة عن السلوك المتماشي مع المفردة، عبر خوض مساراتٍ متعرجة تمكنتُ من قيادتهم للتفكير في أوضاعهم، مانحاً إياهم أصواتًا مناسبة للتحدث عنها، لم يكن الأمر سهلاً، فقد تطلب التعلم منهم بذل جهودٍ جبارة.

منحتهم فترة استراحة قصيرة للترفيه، للسماح للأطفال بالركض بحرية خارج الأبواب، بينما يخفف الكبار قليلاً من ضغوط التركيز، لم تحظ أوقات الاستراحة كما أسميتُها بقبول كانينغ على الإطلاق، إذ لاقاني متجهم الوجه مؤكداً أنني أهدر الوقت سدى، متوعداً بتقليل عدد ساعات التحرر من العمل في الحقل، اضطررتُ لتذكيره بأن تعليم المُهربين مهمة أجازها الجيش كجزء من تجربة التحرير، أما الطريقة التي اخترتُها لتنفيذ المهمة فتحيله مرؤوساً تابعًا لأمرتي، اجتمعت مع طلابي بعد الاستراحة لاستئناف الدروس، فقمتُ بنقلهم بعيدًا عن العوالم المجردة، ناقشنا الجغرافيا عبر رسم خرائط لأحياء العبيد وتموضع أماكن بيوتهم؛ تعلمنا الحساب بعدِّ أكواز الذرة -كم كوزاً تم تقشيره؟ ما كمية ما تبقى؟- ثم حساب الفرق، أثبت البعض أنه عصيّ الفهم حتى بما يخصُّ أساسيات العد، امرأة عجوز، ذات أسنان متراكبة مدبوغة، أظنها في الستينيات من عمرها، أخبرتني بزهوّ أنها أتقنت العد حتى الرقم عشرة، ثم شرعت بإظهار مهارتها: «واحد، اثنان، ثلاثة، خمسة، ثمانية، عشرة»! هنأتها على ترتيب الأرقام بالشكل الصحيح، ثم أشرتُ برفق إلى عدد أصابعها بالمقارنة مع رصيدها الذي ما زال بعيدًا عن العدد الكامل، بدت محبطة للغاية مع نهاية ملاحظتي، لتعتكف بعدها

عن القدوم إلى الفصل، حين سعيتُ باحثاً عنها كي أحثها على المثابرة والالتحاق بالدروس، هزت رأسها بأسى قائلة: «لقد فات أوان تعلمي يا سيدي، أعتقد أنني سأتخلى عن المساحة التي أشغلها لمصلحة الأطفال الصغار»، للأسف، لم أفلح بإقناعها بخلاف قرارها.

آخرون كجيسي، الشاب القوي البنية الذي يعمل سائقاً لدى السيد كانينغ، أثبت كفاءة عالية نمّت عن ذكاءٍ فطري وقدرة مدهشة على التعلم الذاتي متحدياً الظروف القاحلة فكرياً التي أُجبر على خوض غمارها، لقد أظهر جيسي أهليّة باهرة في تعلم الرياضيات، حتى إننا مضينا معاً بتطبيق نظريات أكثر تعقيداً كحساب النسبة المئوية للزيادة التي تكتنف قيمة القطن عبر دورة حياته المختلفة، بدءاً من البذور وصولاً للخام وانتهاء بالملابس المغزولة، ما كان علي سوى شرح أحد المفاهيم، لأجده مع القليل من الممارسة، يسابقني بإيجاد الحلّ لأي مسألة منتهياً بإجابتها الصحيحة.

تكشف أنّ تلاميذي مُحتَجبون تماماً عن معالم بلادهم بأبصارٍ أُغشيتْ وأفكارٍ أُثبطتْ وخيالاتٍ نُحرتْ، أحبوا الجغرافيا، لكنها وُضِعت قيد المحرمات لارتباطها مع العبيد الهاربين والطرق التي يسلكونها قاصدين الشمال، أما التاريخ فأمسى مجرد صفحاتٍ خاوية في عقولهم، أحداثٌ مبهمة أخفقتْ جميع محاولاتي لنبشها أو جذبهم إلى تفاصيلها، جاهدتُ لإقناعهم بضرورة اعتبار أنفسهم فِقْرَة من القصة الأمريكية، وأنهم منتمون لأمّة عليهم التفاخر بماضيها، لكن مرادي أبى أن يتحقق إلا حينما تطرقت للحديث عن المغامرات المرافقة لسفري من كونكورد لأمكنة عديدة حول البلاد، سرعان ما أدركتُ أن استجابة طلابي راضخة لِما يُشرح ضمن الإطار الشخصيّ، فقد ساهمت أخبار مدينتي بإثراء شغفهم خاصة مع روايةِ أحداثها العظيمة التي ساهمت بتقدم أمتنا، لتغدو «حصة القصة»، كما أطلقوا عليها، أفضل الحصص المرتقبة التي جعلتُها خاتمة محببة حظيتُ إبانها بجمهورٍ جذلٍ كارهٍ لإنهاء سرد الحكايات، لطالما رفعت سيلا يدها الصغيرة في الهواء متوسلة مناشدة بصوتها الرقيق: «أخبرنا بما حدث بعد ذلك، يا سيدي،،»، في حين وجدتُ صعوبة في إرسال بقية الحاضرين بوجوههم المجهدة إلى مهامهم المتراكمة المنتَظرة.

رغم دأبي الحثيث ما زلتُ عاجزاً عن إنصاف العديد من الطلاب المكتظين في الفصل الواحد، كم تقتُ لمعلمين مساعدين! من المفترض بي استذكار زوجتي مارمي بما يخص هذا الشأن، لكن في الحقيقة، لا بد من الاعتراف بأن غريس من طرقت خيالي طوال الوقت، غريس! البعيدة المنال، المكبلة بأغلال ولائها السامي لعجوزٍ لئيمٍ تسبب بإنجابها للحياة دونما احتضانها كابنة، فكرت كيف ستؤجج معلمة زنجية ضليعة طموحات تلاميذي بتكريس المعرفة والتحفيز لغرفِها، دعماً لهذه الفكرة قمتُ بتعريف طلابي بالسيرة الذاتية لفريدريك دوغلاس[1]، كما ألقيتُ على مسامعهم أبياتاً من قصائد حفظتُها عن ظهر قلب للشاعرة فيليس ويتلي[2]. كم سررت برؤية ملامحهم المشدوهة مزهوة بإنجازاتٍ حققها زنجيان مثلهم؛ رقيقٌ هارب ومستعبدةٌ بربرية من أصل أفريقي اختطفت وتم استرقاقها!

ما من عناءٍ يضاهي التعب الذي قاسيته أثناء تلك الأمسيات التدريسية، بما فيها الضنك المبرح الذي أرهقني في أعقاب المعارك، لقد تطلب تعليم الزنوج هدراً هائلاً للطاقة الجسدية، حيث لا يمكن جذب انتباههم بغير التحدث بحيوية عالية مع شرح يكاد لا يخلو من الإيماءات المتكلفة والتعبير اللافت للأنظار، كنت أغدو إلى مرقدي منهكاً كل ليلة، لأغمضُ عينيّ بينما يطوف عقلي في فُلك برنامج اليوم التالي، كم غفوتُ مستأنفاً شرح الدروس في منامي، مدركاً بمحبة أنني أخيراً وجدت العمل الذي خلقتُ من أجله، كل ليلة قبيل النوم أثناء خربشة بعض السطور لزوجتي العزيزة، لم يكن

1- فريدريك دوغلاس: رقيقٌ هارب أصبح ناشطًا بارزًا ومؤلفًا ومتحدثًا عامًا. غدا دوغلاس قائدًا للحركة المناهضة للاسترقاق التي سعت لإنهاء العبودية قبل الحرب الأهلية وفي أثنائها، حتى بعد ذلك الصراع وإعلان تحرير العبيد عام 1862 واصل دوغلاس المطالبة بالمساواة وحقوق الإنسان حتى وفاته عام 1895.

2- فيليس ويتلي: أول شاعرة وكاتبة أمريكية تقرض الشعر على الرغم من كونها أمة، ولدت في أفريقيا الغربية 1753، خطفت وتم استرقاقها ومن ثم شراؤها وانتقالها إلى إحدى عائلات أمريكا الشمالية، حيث تعلمت القراءة والكتابة، ثم أطلقت مواهبها في الشعر.
كتبت أشعاراً عن الوطن والأخلاق والدين.

إرهاقي أو إحباطي ما حاولت نقله مع مشاق تعليم الكثيرين بمستويات فهمهم المختلفة، بل اليقين الراسخ:

«كم تمنيت حيازة تلسكوبٍ سحريٍّ يُمَكنني من رؤيتك مع فتياتي وتبيان أحوالكن من بعيد، عساه يمنحك في الوقت ذاته فرصة النظر إليّ من وقت لآخر، كي تبصرين خطوات ازدهار مغامراتي التي أحدثتْ فرقاً ملموساً، كم أحدث مرور موسم واحد من التغييرات العجيبة لهؤلاء الأشخاص القاطنين في أوك لاندينغ، ليتك تشهدين التقدم السريع لتلاميذي بتعلم الأحرف الأبجدية كباراً وصغاراً، بعد انفتاح عقولهم وتوقد حماسهم واضمحلال تحفظهم أمامي، أتذكرين يوشيا! لا يزال متوعكاً ينتابه سعال مزعج يصدّع قلب من يسمعه، لكنه مع ذلك بات مهذاراً محترفاً في إطلاق المفردات، حتى إنني بالكاد أستطيع مقارنته بالصبي الكئيب الصامت الذي قابلته أول مرة عند الضفة، استفززته ذات مرة مازحاً مستفسراً حول سلوكه المتحفظ في السابق، فاعترف موضحاً أن صمته وليد الخوف والحذر من أيّ محادثةٍ بريئةٍ مع شخص أبيض قد تتوعد بمخاطرَ جمّة، أخبرني ذات مرة أثناء تنفيذه لبعض المهام في البلدة، أنه ألقى التحية على تاجرٍ أبيض بعبارة: «يوم سعيد!»، سلامٌ تسبب بفتح جرحٍ عميق في خده، إذ كيف يجرؤ يوشيا «الزنجي الوقح» على التحدث مع رجل أبيض. مكتبة سُر مَن قرأ

توقفتُ عن الكتابة متأملاً؛ هل أخبرها عن زانا؟ الطالبة الوحيدة التي اعتكفت عن محادثتي مؤثرة الصمت المُطبق؟ الفتاة التي فسّرتُ التزامها بالسكوت في بادئ الأمر؛ خفارة أنثوية أو وُقوراً شلّ قدرتها عن محادثتي داخل الفصل أو خارجه، لكن الأيام امتدت لأسابيع لتعلن زانا عن نفسها بالمرأة الصامتة المتنحية عن النطق، بدأ الأمر يقلقني، فضغطت عليها بلطفٍ موضحاً الحاجة للإصغاء لأفكار الجميع كإضافةٍ قيّمة لرحلتنا المشتركة في التعلم، لكنني لم أحظ بحرفٍ واحد، بينما تململ الآخرون بضيقٍ شديد، مبدين كدراً من موقفي الملحاح.

بعد مضي فترة من الزمن جاء جيسي، أكثر تلاميذي ذكاء وقائد شعبه بالفطرة، مستأذناً بمحادثتي على انفراد، أخبرني أن زانا لا تتكلم لأنها بكماء عاجزة عن النطق، في سنّ مبكرة جداً وقعت الفتاة ضحية للاغتصاب من

قبل رجلين من البيض ثملين عابرين على متن إحدى البواخر، مع مواجهتها لاعتدائهما بـ «صرخات وشتائم مزقتِ السماء» على حد تعبير جيسي، قبض عليها أحدهما بينما أخرج الآخر سكين جيبه، أكرهها على فتح فمها، ثم قام بقطع لسانها، لم يتوانَ آل كروفت، بموقف كريمٍ يُحسب لهم، عن اللجوء للعدالة رداً على فعلِ الإجرام الوحشي، لكنهم فشلوا بالحصول على تعويضٍ عن «الأضرار التي لحقت بممتلكاتهم!» فالأَمَة المعنية لم تتمكن من الإدلاء بأقوالها بشأن الاعتداء المزعوم.

لم أذكر في الرسالة شيئاً عن تلك الحادثة المؤسفة، لأن مارمي جاهلة تماماً بمدى الهمجية والعدوان اللذين يمارسان ضد العبيد، ولا أعتقد أنه عليّ في الوقت نفسه تلطيخ مسامع صغيراتي بمثل هذه الارتكابات الشنيعة، أقصيتُ قلمي عن نفشِ أي موقف لا إنساني مؤثراً توصيف الطبيعة المحيطة:

الربيع هنا لا يشبه الربيع الذي اعتدنا عليه في بلادنا: فالوعد الدافئ الرطب بذوبان الثلوج وتغلغل الجليدِ بلبّ الطين، يؤول على نحو مباغت إلى حرارةٍ هائلة تهبط على حين غرة من السماء، كاتمة أنفاس المرء شالّة حركته كحجرٍ مترسبٍ في قعر غلاية الحساء، استجابة لدعوة شمسه ينطلق الغطاء النباتي من الأرض بقوةٍ جارفةٍ لا تقاوم، فلو رغبت أجسادنا بالتباطؤ وإفساح المجال للكلل، فإنها ستُرمى تحت نير التعجيل، الربيع في هذي البلاد يوقد التحدي بين الجهد البشري ووتيرة الطبيعة النشطة، فإن لم يجار خطواتها تسُده بغزارتها.

لا بد أن الخصوبة المفرطة المفاجئة مثيرة لقلق كبيرٍ حرصتُ كما العادة، على مواراته عن السطور، لأتابع الكتابة عن آمالي التي علقتها بوفرة حصاد المستقبل الواعد في أوك لاندينغ، راسماً الأمل بموسمٍ سيشهد نضوجًا شاملاً في المحاصيل الزراعية والنفوس البشرية، كنت آنذاك، بحاجة إلى وصف الموسم المخضرّ المتنامي على أنه مبشر بالخير مترع بالبركات، أما ما يخص الآفات -من غزو للديدان أو اجتياح للأعشاب، من سوء الطقس أو نشوب معركة ما- فقد خصصتها بتفكيرٍ أقلّ وكلامٍ أنضب، لا خيار أملكه بعد كل شيء، سوى إغراق الوقت ببث الطمأنينة والثقة في أفئدة نسائي الصغيرات مع والدتهن.

الفصل التاسع

باكورة الإزهار

أوك لاندينغ، 10 مايو 1862

عزيزتي.

سيُقام اليوم احتفالٌ عظيم، يحشُدنا في حدثٍ مشهودٍ عظيم للتنعم برؤية القطن المحلوج محزّماً محمّلاً على متن السفينة مشحوناً بأمان إلى الأسواق، نُقلت الرزم إلى المرفأ منذ أسبوع وأكثر، لكن زوارق المدفعية وحركتها الدؤوب على طول النهر جعلت من المستحيل لسفينة بخارية المجازفة بالتقدم نحو الشاطئ للرسو أو تحميل القطن أو نقله بعيداً، أما الخوف اليومي فأمسى متربصاً بنا، خشية الغارات المرتقبة للقوات غير النظامية ممن يسعدهم إضرام النيران بمجهودنا الشاق الذي استمر شهوراً، أو تمزيق الرزم أو إغراقها في النهر دونما رحمة، لكن القطن غادر بسلامٍ داخل السفينة المشيَّعة بابتهاجِ الجموع ومرحها، تزامناً مع الوصول المفاجئ للسفينة ماري لو، السفينة التي تعرفين، المحمّلة بما تمخضت عنه مساعيك الحميدة، كم تمنيت لو شاهدتِ مع المتبرعين الكرام، الوجوه المشرقة بالفرح والدهشة، لدى رؤيتهم لبراميل العسل الأسود وأسطوانات الملح والرنجة والصابون والخيوط والغزول والألواح وكتب النسخ وعلب الأعشاب المجففة والعقاقير الدوائية وصناديق الملابس المستعملة الجيدة على وجه الخصوص، كنتِ ستحمرين خجلاً لرؤية النساء بعد ارتدائهن للتنانير البسيطة وتنقلهنّ بزهو كالطواويس، كما لو أنّهن يرتدين أزياء

باريسية، أما المخزون الضخم من العقاقير الدوائية، فغمرني بالسكينة خاصة مع المخاطر الوبائية التي ينذر الموسم الحار بجلبها للجميع، حظي كل منا ببعض الأسباب لبثِ الضحكات والهتافات كلما أُفرغت حمولة من السفينة وتمّ الكشف عن محتويات صناديقها المكتظة.

لم أُعلِم مارمي بالوجه الوحيد الذي فارقته البسمة طوال فترة الإجراءات المبهجة؛ كان السيد كانينغ متسمراً بثباتٍ بملامح كالحة تشي بمزاجٍ سيئ جليّ للعيان، بما اضطرني أخيرًا لسؤاله، فأجاب بازدراء:

«يا للسخاء المفرط! إنها هباتٌ لا تفيد الزنوج بشيء!»

«لكن، إيثان!»، صرختْ (بتنا نتخاطب بأسمائنا الأولى، ليس بفعل المحبة قطعاً، بل بحكم الألفة الضرورية من جراء تقاربنا المكاني والزماني ومواجهتنا للظروف القاسية ذاتها)، «أنت من أبدى الموافقة،، من شجعني على السعي لاستجداء الإحسان،،،!»

«نعم،، لكنني لم أتوقع نجاحاً باهراً لهذه الدرجة، على هؤلاء الأشخاص أن يتعلموا أنّ الهبة لا تُقابل سوى بالعطاء،، ألّا تُلبى رغباتهم دون مقابل، نعم، نعم؛ لقد وافقت على بذل بعض الجهود لإغاثةٍ ضئيلة تساعدنا بدفع أجورهم المؤجلة -لكن هذا يفوق أي شيء تخيلته، ما من أحد أعرفه في إلينوي سيبادر بتقديم سلعًا عالية الجودة- بمثل هذا السخاء، لمن؟ للزنوج؟ وفي زمن الحرب؟ بينما يرزخ بعض البيض تحت نير الفاقة والجوع!»

«حسنًا» أجبته، «لعلك تحتاج إلى توسيع نطاق معارفك في إلينوي!»، سارعتُ بعدها بالمغادرة كي لا أفسح له المجال بمضايقتي أكثر، على أيّ حال لمحتُ بعض تلميذاتِي يومئن من بعيد، يناشدن رأيي بمظهرِ كسوتهن الجديدة، الملابس في الواقع، مصنوعة من القطن الناعم أو من قماش الدنيم[1] المتينين الموائمين لأي عامل رجلًا كان أم امرأة – مع ذلك فقد غُسل كل ثوب بعنايةٍ وأصلحت عيوبه قبل حزمه بأناقة لإرساله، أظن أن

1- نسيج الدنيم: استخدم في أمريكا منذ أواخر القرن الثامن عشر. ومن الشائع صباغة قماش الدنيم باستخدام النيلة الزرقاء لإنتاج قماش الجينز الأزرق.

اهتماماً طيباً كهذا من صنع نسائي الصغيرات بتوجيهٍ من والدتهن الرائعة، من غيرها يمكن أن يأخذ تلك التفاصيل الدقيقة بعين الاعتبار؟!

إن كان إيثان كانينغ يعتقد أن معونة بسيطة تسدّ احتياجات الزنوجِ بطراً، فلا يحتاج إلا لرؤية القمصان الممزقة أو السراويل البائسة التي استبدلوها بالملابس الجديدة، لم يتردد معظمهم بطي الثياب القديمة الرثة وحملها إلى مساكنهم، لا شك أنها ستجد مكاناً في وقت لاحق، لترقيع ألحفتهم الشتوية.

كثيراً ما نوّهت مارمي بالمخاطر المتعلقة بشغف الأفارقة بالألوان الفاقعة والزينة الوضاءة، خاصة حين توجب علينا إقناع أكثر من «طردٍ» نسائي ممن مررن عبر محطتنا، بأن الشال القرمزي المتوهج ليس خياراً جيداً لمن تأمل بالتخفي عن الأنظار، لكنها خالفت قناعتها مع الظروف المعوزة، لتُدرج في الشحنة عددًا كبيرًا من وشاحاتٍ براقةٍ بان جلياً اقتطاعها من فساتين الحفلات ذات الألوان النابضة بالحياة والأقمشة المتألقة، أعتقد أنها ستنال رضا وإعجاب الجميع.

لمحتُ زانا، المطرقة كعادتها بملامح موشحة بالحياء قصيّةً عن حشد النساء الصاخبات الضاحكات، التقطتُ لها شالاً مربعًا من الساتان الفيروزي الغني المشرق، ثم خطوتُ صوبها حيث تقف قائلاً: «أعتقد أنه يليق بكِ»، أخذته بامتنانٍ، وبغضون ثوانٍ معدودة ربطته بعقدةٍ متقنةٍ وجذابة للغاية، بدأ جيمس الملتصق بها كعادته، بمطالبتها برفعه إلى الأعلى كي يحظى برؤيةٍ أفضل لوالدته الجميلة، فهرعت لحمله مستمتعة برنين ضحكته العذب وتصفيقِ كفيه الصغيرتين المتعافيتين الآن إلا من ندبة بيضاء متداخلة داخل راحة يده، مدَّهما نحو والدته التي قبضت عليهما بابتسامة آنية واحتضانٍ طفولي رؤوم.

حريّةٌ ليليةٌ تامة أباحها كانينغ للسماح للزنوج بالانخراط فيما أسماه «حفلة سمر همجية» ابتهاجاً بشحن القطن، تحضيراتٌ استهلها فريق تنظيف الحقل باقتلاع أكوام من سيقان القطن، لاستخدامها في إشعال نيرانٍ تطايرت شراراتها عالياً في السماء متسللة بدخانها إلى مرقدي القريب من المحلج، أما موسيقاهم الصادحة لمسافةٍ بعيدة عن أحيائهم وصولاً إلى فراشي الممدود فوق بذور القطن، فداهمت هزيع ليلتي بصوتٍ رخيم رنان،،

آخر صدح بإيقاعاتٍ متماوجة،، تلته تراتيل جوقةٍ من المغنين، أغانٍ مترعة بالحياة والنغم، زاخرة بالصبابة والشجن، نغماتٌ أيقظت الحنين في فؤادي المتصدع من الغمّ والوحدة بصورة لا يمكن تفسيرها، حينما جرفني النوم أخيرًا، أتاني الغناء معتدلاً متسللاً بضجيج الدُجى لأحلامي حيث رأيتُني مطارداً من قبل أشخاصٍ مجهولين استيقظت مذعوراً لحظة قبضِهم عليّ؛ لأتحسس كيس الوسادة غارقاً بدموعٍ لم أعِ متى ذرفتها!

خلال الأسبوع الأول من قدومي، أشرفتُ على جنازةٍ لأحد المرضى لحقها في الجمعة التالية دفن ثلاثة جثامين لراحلين من بينهم وليدٌ متوفى مع أمّه المسكينة التي أودت حمى النفاس بحياتها في دار المرضى، الخوض في أداء واجباتي لم يعرضني لأيّ نهايةٍ مباغتة أو مفاجِئة، فالملاريا من عادتها بسط جناحيها وحصد الأرواح مع ارتفاع موجات الحر، لكن الأوضاع تبدلت كثيراً بعد وصول شحنة المساعدات، إذ عمل تجرع الجلاب[1] وشاي البابونج، فضلاً عما وفرته السلع والأطعمة من تحسيناتٍ طفيفة بنظام الزنوج الغذائي، بالإسهام بتقوية أجساد المرضى مسارعين بتعافي الحالات الأقل خطورة بينهم.

التغيير الأكبر خصّ العمال على وجه الخصوص، فقد هبّ الجميع إلى مهامهم بروحٍ وقّادة وإرادة عالية بعد ظفرهم بعوائد جهودهم رغم ضآلتها، تجلّت الفلاحة في الحقل أقرب ما تكون إلى موكبٍ جليلٍ فخم يقود أفراد الحراثة مسيرته طارحين التربة للجانبين عبر رتلٍ طويلٍ علاه ثور يجر خشبة المحراث خلفه، لمحتُ زانا تخطو إثره حاملة كيسًا بحجم جسدها، ناثرة البذور بحرية داخل الخندق الطري، صاحب مسلفة[2] صغيرة تبع الباذرين مدثراً البذور بالتراب، بحلول وقت الانتهاء من زرع الرقعة الأخيرة من

1- الجَلَب أو الجَلاَّبِ دواء مسهل، عفا عليه الزمن إلى حد كبير في الطب الغربي، ويتألف من الجذور الدرنية لنبات الأثمان المسهل.

2- المسلفة أو الزحافة: آلة زراعية تستخدم أساساً في تفتيت كتل التراب وسحق التربة المحروثة وتمهيدها أو تغطية الأرض المزروعة بالقش أو التبن وتغطية البذور وإزالة الأعشاب.

الحقل، تدفقت غشاوة سندسية مذهلة أغرقت التربة الحمراء للحقل المزروع قبله، بدا معدل النمو السريع أعجوبة لأي مزارع شمالي مترقبٍ بكللٍ أوان إنبات حقله القاحل البارد.

معجزاتٌ صغيرة حلّت بالمكان، فقد استبدلت قاعدة البطاطس بشمعدانٍ فضيّ أشرق بمائدة عشائنا، وجده مربي النحل توماس أثناء تفقده لقفيره، لا بد أن «شخصاً ما» حرص على مواراته خشية نهبه من قبل أحد جنود التحالف، ثم «نسيه» هناك، يبدو أن الشمعدان والبهجة التي أشاعها حوله، جنباً إلى جنبٍ مع الامتنان للنعماء، أشعلت ذاكرة الزنوج حول ما خبؤوه يوماً: أوانٍ خزفيةٍ مركونةٍ بأمانٍ تحت أعشاش دجاجات القن، طبقان من الفضة أخفيا على نحو غريبٍ أسفل الحوض القذر لمياه الخنازير.

أراحني الأمر حين أخذه كانينغ على محمل الفكاهة والود، فالأدوات العائدة للدارة ليست ملكه بأي حال من الأحوال، «المخبأة لحمايتها» قبل وقت طويل من وصوله هنا، على الرغم من كونه رجلاً عسيراً مقتصداً، لكنه منصفٌ في جوهره مقدِّرٌ ممتنٌ للجهود الصادقة التي بذلها العمال مع ظهور البراعم الأولى لسيقان القطن.

في غضون أسبوعين من نثر البذرة الأخيرة، تآزرت سلاسل التلال بخضرةٍ منقطعة النظير، المئات؛ بل الآلاف من الشتلات المتجمهرة المحتشدة بكثافةٍ تفوق عشرين أو ثلاثين مرة ما كان لازماً وفق اعتقادي، بما استدعى الكاشطين المزوَّدين بمعاولهم الغليظة؛ الذين أظنهم أكثر العمال مهارة على الإطلاق، إذ بدوا كالجراحين المتنقلين بخفة بين الشتلات المزدحمة، توقفوا كل قدمين لانقاذ نبتة رقيقة واحدة، لتنال معازقهم بعد ذلك من بقية البراعم، مع اقتراب حلول الليل أهلّ صفّ مديد من نباتات القطن الصغيرة، المصطفة بانتظام ضمن رتلٍ طويل على مدّ النظر، ما زالت إزالة الأعشاب الضارة ضرورة روتينية لا يمكن إهمالها، فاستنفرت الأيادي العاملة جميعها استباقاً لتفشي الحشائش والنباتات المعرشة والأزهار البرية المنذرة يوميًا بخنق النباتات المفضلة وحسرها من الوجود، بضعة أسابيع أخرى من العمل الدؤوب، بدأ القطن يتفوق على منافسيه ملقياً بظلٍّ كافٍ حجبَ نموهم، أما كل ما بقي علينا فعله؛ فكامن بانتظار شهر يوليو الواعد

بانبلاج الزهرة الأولى، أقول «كل»! لكن بالطبع ما لبثت المحاصيل الغذائية تتطلب الاهتمام والرعاية، الذرة على رأسها، مبشرة بغلالٍ وفيرةٍ تلبي الحاجة للاستهلاك والبيع في آن معاً، لم يتقاعس الجميع عِن الكدّ بمن فيهم تلاميذي الذين حرصوا عن الالتحاق بدروسهم بأرواحٍ وقادة توهجت بعظامهم المنهكة.

كذلك جرتِ الحال مع كانينغ، إذ إنه لم يتوان عن إكراه نفسه والمضي بلا هوادةٍ لقيادة عماله مقبلاً مدبراً بساقينِ بان عرجهما جلياً يومًا بعد يوم، ما اضطره في النهاية للاستناد إلى عصا مقلمة أثناء تحركاته بين الحقول أسفل وأعلى التلال، قلقتُ بشأن صحته لكنني تفهمت ترقبه القَلِق لتقرير الوكيل التجاري الخاص بعائدات القطن المباع، خاصة أنّ المحصول القليل المخيب للتوقعات لا بد آتٍ بعائد منخفض مقارنة بأرباح الأعوام السالفة بعد ضياع الكثير بفعلِ الطقس والإهمال اللذيْن جعلا إنتاج أفدنة الأراضي -المقدر بمئتي رطل من وبر القطن موسمياً- يتقلص إلى ربع الكمية فقط، على الرغم من ارتفاع الأسعار الناجم عن ندرة المحاصيل، لكن مزاج كانينغ انحرف من الأمل إلى اليأس كلما صرف ذهنه لاحتساب الإدخالات والأجور مرة بعد مرة، ليطرْحها بعد ذلك من الإيرادات المفترضة، أخيرًا عندما وصلت مدفوعات الوكيل تقلها سفينة بخارية، سارع كانينغ للانفراد بنفسه لإتمام إجراءات الحسابات الحقيقية، ليطلّ بعد حين بملامح شاحبة حاملاً دفتر حساباته وحقيبة النقود.

«السيدة كروفت»؛ نطق بشفاه ضيقة مبتئسة «ستضطر لاتباع خطة تقتير هذا العام، إذ بعد توزيع أجور الزنوج، لن يتبقى لها سوى مبلغٍ زهيد، أما أنا،،،!»، انسحب الشاب إلى الخارج دون إكمال ما ودّ قوله، حيثُ أمر خادم المنزل بطليموس بقرع الجرس لحشد العمال للاجتماع.

«أيّاً كانت الإحباطات التي تشعر بها،،»، قلتُ مواكباً خطاه السريعة المترنحة عبر الفناء، وعلى طول خط سياج الحقل، «لكنني مضطرٌّ لتذكيرك بأنه يوم غير عادي لهؤلاء الرجال والنساء، أعتقد أنّ إظهار اللطف أثناء تسديدك لأجورهم، سيخلق وداً مناصراً للعلاقات المستقبلية معهم، حتى لو اقتصرت الصلات على ما يتعلق بشؤون الحصاد التالي».

قطب كانينغ حاجبيه وردّ مؤيداً: «أنت محق؛ بالطبع هذا ما يتوجب عليّ فعله»، ارتقينا تلاً يعلو حقل القطن الأوسع، فمد يديه محاولاً احتواء آفاق الوفرة الموعودة، «آمالي كلها كامنة هنا، هذا المحصول،، إن لم يحييني فسوف يقتلني!»

لمحنا الزنوج يركنون أدوات الشُغل مُقبلين من الاتجاهات جميعها، جماعة إزالة الأعشاب الضارة أشرفوا أول الوافدين ترافقهم سيلا، الطفلة الصغيرة التي تذكرني بوجه داكنٍ لصورة إيمي، المسارعة المتدافعة بجسدها عبر الطوابير صارخة ببهجة وحبور، وقفت قبالتنا لاهثة تحاول التقاط أنفاسها، ثم وصلت إلى خصلة من شعرها الأسود حيث تدلّت زهرة رقيقة ذات بتلاتٍ كريمية، رفعتها أمام كانينغ وقدمتها بحياء: «هذه لك يا سيدي»، «الزهرة الأولى!» كشف كانينغ عن ابتسامة طفيفة، ثم مد يده لمنح الرأس الصغير تربيتة عجولة.

ثرثرات خافتة تسللت من الأحياء حيث تجمع الحشد، فأطلق كانينغ مع اقترابنا نداءً طلباً للصمت، ثم دعاني لتأدية صلاة الشكر، يا لها من لفتة كريمة غير متوقعة! بدأتُ بصلاة صادقة استهللتها مبشراً: «صحيح أنّ قانون العتق لم يَسُد أرض البلاد بعد، لكن سكان أوك لاندينغ على وشك تذوق إحدى ثمار الحرية الموعودة»، ثمّ تضرعتُ ليومٍ قريبٍ تتزعم الحرية فيه كامل المناطق، فصرخ الجموع «آمين!» مسبحين باسم الرب! مطلقين الدعوات والابتهالات، بدأ كانينغ بعد ذلك بدعوة العمال بالاسم لتسليمهم أجرهم النقدي، قدم الرجال الاحترام بقدمٍ أردوها للخلف، بينما مدت النساء أياديهن برفق مع انحناءة طفيفة، قبّل البعض المال، رفعه آخرون عالياً مع رقصة قصيرة، شارفت الشمس على الغروب بحلول زمن الانتهاء من التوزيع.

ضجةٌ طفيفة تأججت بين الرجال متقدمة بأفضل تلاميذي جيسي الرجل الضخم الذي انتصب أمامنا بجفنين منخفضين متحدثاً بصوتٍ رخيمٍ ذكرني بنغمٍ عميقٍ لناي: «طلب القوم مني إعلامكما بأن هناك شيئاً نود تقديمه الآن!»

نظرتُ إلى كانينغ وقد أسكته ارتباكه، فابتسمتُ لجيسي ممتناً بالقول:

«هذا لطفٌ منكم! لكن ما هو؟» استدار مشيراً إلى الحشد المتجمهر الذي هرع ما يقارب نصفه نحو الكبائن؛ ليعود الرجال ساحلين أكياساً من الخيش المنتفخ استخدموها كحشيات ضخمة، أسقط ابن جيسي الكيس الأول عند قدمي والده مسلماً إياه منجلًا، اجتاح جيسي بالنصل عقدة الحشية قاطعاً الخيوط مفرجاً عن قطن طويل التيلة يعد من أجود غلال القطن المنتجة في الحقول، لمحت الناس على طول الصف يسحبون مراتب مماثلة ضخمة.

«بعد مغادرة السيدة كروفت»، أوضح جيسي شارحاً: «اشتمّ الكونفدراليون خبر توقيعها لوثائق تعاونٍ مع الاتحاد، فهرعوا إلينا آمرين بإضرام النيران بجميع البالات القطنية الموجودة في المكان، حسنًا، لم نملك خياراً آخر، فقمنا بحرق حوالي مئة رزمة من القطن الخاص بالسيدة كروفت في ذلك الوقت، إلا أننا أثناء انشغالهم، سارعنا بإلقاء القشور أو الطحالب من فُرشنا وحشوناها بأفضل قطن المحصول، أعتقد أننا وفرنا ما يبلغ ستة أو ثمانية بالات هنا، إننا كردّ لمعروفِ عدلك وإيفائك بما وعدت، نسلمها كلها إليك».

لم أر وجه كانينغ الضيق المتجهم مترعاً بالمشاعر كما شهدته تلك اللحظة، خلع نظارته ثم دعك عينيه، لعله ذرف الدموع لأحد سببين عرفاناً بالجميل أو ارتياحاً، لم أقبض تماماً على السبب الحقيقي.

«شكرًا لكم!»، نطق أخيراً محاولاً السيطرة على نبرة صوته، «شكراً لكم جميعاً! يُرفع حظر التجوال الليلة، كما يمكنكم الاحتفال حتى وقت متأخر كما يحلو لكم»، أدار كانينغ ظهره موشكاً على المغادرة، حين أطلق جيسي صوته من جديد: «أيها السيدان؛ يُسر القوم انضمامكما للمشاركة بترديد الأهازيج معنا»، التفتُّ إلى كانينغ، فأتت ابتسامته الخفيفة وإيماءة الموافقة بسروري وراحتي، أجبت بحماس شديد: «نتشرف بحضور احتفالكم».

لم أكن أعرف أن الليل سيقلني عبر البحار إلى بقعةٍ خاويةٍ داخل الأدغالِ الغربية لإفريقيا، أو أنْ يحملني إلى زمنٍ بعيدٍ أقصى من تاريخي وأعتق من إلهي! أعلم أن ما رأيته وسمعته وفاض بمشاعري سرى بجسدي بنشوةٍ يستحيل وصفها أو اختبار منتهاها، حاولتُ التعبير قدر المستطاع، لكن

ما من كلمة تُداني الانفعالات والمشاعر الفياضة المدهشة التي اجتاحتني تلك الليلة.

الشمس الغاربة أعلنت بداية الحفل، واشمة السماء بأطياف ذهبية وقرمزية ونيلية متداخلة، أحضروا مقعدين متهالكين لجلوسنا، ثم أشعلوا نيرانهم متحلقين حولها بدائرة واسعة، التقط أحدهم عودين من القصب القديم، ثم بدأ بطرقهما معاً واحدًا تلو الآخر بإيقاعٍ موسيقيّ متسارع معقّدٍ، تلقفَ الناس الإيقاع أثناء مشيهم الهوينا، ثم بدأوا بالدوران حول النيران، صوتٌ فأصوات منتظمة تابعة، استهلها جيسي في البداية، لتتبعه جوقة كاملة، دمدماتٌ عميقة وهديرٌ مُصادقٌ صدحوا تالياً من أفواه الحشد، يا لها من صرخات! بدائية! هدارة! صافية! ضئيلة النغمات! بعكس ما اعتاد عليه غناؤهم المتماوج العذب، عباراتٌ تكررت مراراً، أياد شرعت بالتصفيق بإيقاعٍ حثيث، متضارب تمامًا مع حركات الأقدام الرشيقة ومعارضٍ لضرباتِ العصي السريعة، لم أستوعب كيف تمكنوا من إدارة الأنغام معاً - الأطفال مع كبار السن والشباب، كلهم بانسجامٍ تامّ مثيرٍ للعجب! لن أتمكن من ذكر معظم الكلمات التي أنشدوها، لكني التقطتُ الكلمات القليلة التالية:

«بنفسي،،، بنفسي،،، الليلة،،، لا بد من رحيلي كما تعلم،،، العربة قادمة،،، يا إلهي،،، أوه متى متى متى،،،،؟»

موسيقى الإيقاع المتعجل المتواتر طرقت فؤادي متسارعة بخفقانه! لعله الافتتان، الاتقاد، الارتعاد من الحماسة! لكنني لم أعِ كيف انتصبتُ على قدميّ متمايلاً بجسدي الذي علاه دماغ أجوف خاو من أفكاره كيقطينة مُفْرغة، طروباً وجدتُ نفسي أتماشى مع أطراف الطواف المستدير، أجرجر قدمي بمرح، أصفق، أطلق صوتي صارخاً بموازاة الجوقة الصادحة، لم يكن لدي أدنى فكرة عن الزمن العابر على هذه الحال، حتى شعرتُ بحلقي جافاً وبجسدي مبللاً بالعرق،، منهك القوى مرتعش الأطراف غادرتُ حلبة الرقص قاصداً الانضمام لكانينغ، إلا أنني أبصرتُ الكرسيّ خالياً ولا أثر للرجل في المكان.

الفصل العاشر

الحُمى المتكررة

استيقظت كما العادة على قرعِ جرس العمل، لكن رنينه هذه المرة طرق أذنيّ بعنف مقوضاً مسامعي، فتحتُ عيني فأغشتْهما حبائل الضوء الساطع المتهاوية عبر شقوق ألواح المخزن، حاولت الاستدارة هرباً من وخزات أظافر الفجر، فقاومتني عضلات جسدي معلنة عجزها التام عن المساعدة برفع قامتي.

يا لحماقتي! من البيّنِ أن جسم قسيسٍ في الأربعين من عمره، لم يعد نافعاً للتورط باحتفالاتٍ ليلية لا تلائم سوى قاماتٍ جسام وأيادٍ ضخام، بدأتُ منهكاً بجرد أضراري الجسمانية،، صداع بالرأس، حرقة في العينين، خشونة كالمبرد في حلقي الجاف، استجمعت قواي للنهوض محاولاً الهيمنة على أطرافي، لكن مفاصلي خانتني حتى بدا الأمر كما لو أن العظم مُفرغ بتجاويف مترعة بقطع من الزجاج المهشم، لطالما أيقظتني ليالي الصيف الحارة مبللاً بالعرق، لكن القشعريرة والتعرّق هذه المرة ليسا بفعل الحر بكل تأكيد، فكرتُ بينما ألتحف بالغطاء بأيدٍ متوجعة أنني سأضطر للاستسلام للراحة فترة أطول كي أتمكن من استجماع طاقتي المزهوقة،،.

مكثتُ معتلّ الجسد راقداً بغفوات متقطعة إلى أن آبَ الارتعاش إلى حمى شديدة وضروبٍ من الهذيان، أما تفاصيل ما حدث بعد ذلك، فالقصة تستند إلى رواية الآخرين.

عندما سمع كانينغ بتغيبي عن فصول الدراسة، ضحك معتقدًا أن استغراقي بالنوم ناجم عن الإفراط بحماقاتٍ تابعة لتلك الليلة، ثم قصد محلّ

إقامتي باحثاً عن بعض الدعابة والتهكم، وفقًا لجميع الروايات هرول الرجل لزيارتي بروحٍ معنوية عالية غير معتادة، بعد تأكده أن البالات الإضافية من القطن الجيد كافية لتغطية مديونيته برمتها، أياً كان مصير محصول الحقل المرتقب، فلا يَعِد بنهاية عقد إيجاره بأوك لاندينغ، أو برحيلٍ مهزومٍ موشومٍ بالإفلاس، فالآن فقط؛ يمكن لكانينغ التطلع إلى القطن المتكاثر برباطة جأش واتزان، موقناً باستحالة إصابته بانهيار ماليّ مهما ساءت الظروف، بل لعله يغادر إلى إلينوي محملاً بجعائب الأموال، لأول مرة أرى فيه ذلك البائع المتجول الشاب العائد إلى وطنه غانماً بعد مغادرته لأراضي الجنوب.

عبر دروب الحقول المؤدية إلى المخزن وصل كانينغ وقت الظهيرة، شرع بفتح الباب ملقياً تحية حارة متعمداً السماح للضوء الساطع بالانسكاب بغزارةٍ فوق وجهي، مع تكشف حالتي المزرية ذبلت الدعابات على شفتيه ثم هرع بخطوات واسعة صوب فراشي، جثا على الأرض ثم انتفض بيدٍ وضعها على جبيني كما لو أن لهيباً لفحها، «أحضروا الماء البارد!» صاح، «أسرج الفرس يا أستر! إن السيد مارش مريض للغاية!»

أصدر تعليماته لبطليموس بالعمل على ترطيب جسدي، ثم جنِد العديد من الأطفال للتلويح بمراوحَ قد تساعد بخفض الحرارة المتلظية به، امتطى فرسه بعد ذلك سالكاً الطريق مسرعاً إلى ووتربانك في طلب طبيب الاتحاد، مع معرفته أن الرجل لن يوافق على مقابلته، اقتحم غرفة الطعام التي جمعت الضباط حول مائدتهم مصراً على اصطحاب الجرّاح لمعالجتي، محاججاً إياه بوصفه عنصراً من الجيش، مطالباً بتحمله للمسؤولية والقدوم لرعاية قسٍ برتبة نقيبٍ في جيش الاتحاد، لكن الطبيب على ما يبدو لم يكن لديه الكثير من الوقت لـ «عاشق الزنوج!» كما هو حاله مع أبناء العرق المضطهد أنفسهم، معلناً عدم تزحزحه بعيداً عن طبق طعامه، بتململٍ شخّص إصابتي بحمى الملاريا، أكثر أمراض المنطقة الصيفية شيوعًا، ثم سلّم كانينغ زجاجة من زيت التربنتين[1] مرفقة بتعليمات تجرعها بكميات ضئيلة، حين سأله

1- زيت التربنتين: زيت مائل للاصفرار، ذو رائحة قوية نفّاذة، يستعمل في صناعة المواد المطهرة، والعقاقير الطبية، والعطور.

كانينغ عن مدة المعالجة، هز الطبيب الجراح كتفيه باستخفاف مجيباً: «حتى تعافيه - أو مقتله»، ثم انحنى بملعقته ليغرف الحساء.

يبدو أنّ التأثير الوحيد لزيت التربنتين كان متمثلاً بإحداثٍ إقياء شديد، استلقيت بحالةٍ من الهذيان والتأوه والتشنج ليومين متتاليين، حتى خمدت الحمى مع حلول الليل بما أغرقني في نومٍ عميق، صباح اليوم التالي فتحت جفنيّ على وجه الطفلة سيلا الغافية عند زاوية مرقدي، مع تعديل جلستي فوق الفراش استيقظت الفتاة بوثبة مرتاعة أعقبها ابتسامة مشرقة من ثغرها الصغير، لا بد أنّ تلاميذي تناوبوا على رعايتي، مدثِرين قشعريرتي بالألحفة، مرطِبين توقد جسدي بمياه الآبار المترعة بالحشائش، عندما قمت بتعديل الغطاء، تدحرجت حفنة من البذور الصغيرة على الأرض، «إنها بذور الخردل»، شرحت سيلا بحدقتين واسعتين، «كانت زانا تبعثرها فوقك كل ليلة كي تحفظك من شرور السحر»، ثم انخفضت نبرتها إلى همسٍ: «كانت تترقب رحيل السيد كانينغ حتى وقت متأخر من الليل، لأن السيد لا يوقن بوجود الساحرات»، من جانبه أكد جيسي أن كانينغ أمضى ساعات مديدة ساهداً بجوار فراشي مترقباً زوال الحمى، متماثلاً للشفاء تلقيتُ أخبار البراهين والمودة والاهتمام بدموعٍ سخية أربكتْ جيسي وأحرجتني.

أدركتُ في اليوم الأول لاسترداد عافيتي، أنني محظوظ لأن الحمى الرهيبة قلّمت براثنها عني أخيراً، كان جيسي مضطراً لحمل جسدي المنهك إلى كرسيّ استلقاء من الخيزران تم إصلاحه كثيرًا، أجلسني بفيء الرواق، لأستريح هناك مستمتعًا ببركة العافية ووقت الفراغ لكتابة بضعة أسطر لأحبتي في الوطن.

لا تظني أيتها الغالية، أن رسائلي التي لم تصلك طيلة الأسابيع الماضية، دليل على نزوحك عن أفكاري، فأنتِ أولّ من أراها حين أفتح جفنيّ وآخر من أغلقهما عليها، لو تدرين كم يزورني طيفك في أحلامي، نسائي الصغيرات يفعلن، إحداهنّ أو كلّهن في تناغم موسيقي بهيج، ما زلتُ حريصاً على ارتداء القمصان التي كدّت ميغ العزيزة في حياكتها، آه كم أتوق لرؤية يديها البيضاوين الفاتنتين! لوضع قبلة رقيقة على كل إصبع محببة من أصابعها.

يؤسفني إعلامك أنّ مراسلاتي البطيئة، لا تُعزى إلى مسائل ضخام متعلقة بحربٍ أو سياسة؟ بل لأسبابٍ واهنةٍ لا يمكنك تصورها، البعوضة ما أقصد، الحشرة التي ما لبثت تنقل وباءً فظيعًا في هذا البقعة الحارة من الأرض، لدرجة آثرتُ بسببها الاعتكاف مساء عن كتابة أي شيء أثناء وقت الفراغ كما اعتدت فعله يومياً، حاولت الدخول تحت شبكة قماشية قمت بتثبيتها على العوارض الخشبية لحماية نومي من هؤلاء الشياطين الغزاة، لكن شمعتي ما انفكت تلهبُ حضورهم الغزير، لا بد ستضحكين لرؤيتي أرقص الجيغ[1] بينما أحاول سحقهم، يمكنك القول إن كلماتي التي تصف تلك الحادثة راشحة بالحنان!

كم يسعدني الظفر بساعةٍ في وضح النهار، تهبني الفرصة لمنحك فكرة عما أراه الآن بينما أتجول في الحقول، وصل القطن إلى مرحلة الإزهار الكامل، إذ تفتحت البتلات الخجولات بيضاء قشدية رقيقة في إحدى الليالي، لا أعرف حقاً هل أشعت بوميضها الخاص أو أنها أشرقت بوهجِ القمر، خلال الصباح تألقت بزهو وبهاء وسرعان ما خمدت بحلول الظهيرة الشديدة الحرارة، حيث بدأت التويجات بالذبول والاضمحلال مصطبغة بالوردي وبعده الخمري لتسقط جافة مع احتدام شمس النهار التالي، كتلة خضراء صغيرة بقيت يطلقون عليها «اللوزة» التي نضجت بدورها وتفتحت مفرجة عن خصلات صغيرة من القطن، أما القطاف (فمن المبكر جدًا، لا يزال هناك وقت،،) هذا ما يراه الكادحون متلكئين عن تشكيل فرقٍ لبدء القطاف، أخشى أن التأخير الشديد في جني المحصول السابق ترك الناس منهكين، غير مستعدين للانغماس سريعاً بجولة جديدة من العمل الدؤوب، خاصة مع موسم انتشار الملاريا.

بما أنني تعافيت، لم أجد سبباً لإثارة مخاوفها بخبر وقوعي ضحية من

1- الجيغ: إن منشأ رقصة الجيغ في القرن السادس عشر في إنكلترا، ثمّ انتقلت إلى إيرلندا وإسكتلندا في القرن السابع عشر، حيث تم تكييفها وإدراجها في الرقص التقليدي الإيرلندي والإسكتلندي، اجتازت الرقصة المحيط الأطلسي مع جماعات المهاجرين ثم أصبحت تُؤدى في كندا والولايات المتحدة الأمريكية. لتضحي فيما بعد جزءًا معترفاً به من ثقافة الأوزارك مسهمة في تطور رقصة التاب الأمريكية.

ضحايا الوباء، وددتُ في الواقع شطب الجملتين الأخيرتين، لولا تشتت انتباهي بجلجلة محركٍ غافلَ تركيزي في الكتابة، رفعت يدي لأحيي كانينغ بينما يركن العربة العائدة من ووتربانك والمحملة ببعض لوازم المؤونة – القهوة الرديئة التي لا تشبه نكهتها القهوة في شيء، بعض الخبز الريفي المقرمش، إضافة إلى اللحوم البقرية المخللة لاستهلاكه الشخصي، أو «اللحوم المملحة» كما سمّاها باستخفافٍ وتذمرٍ ذات مرة، حيث لا يوجد في هذه البقاع سوى الكثير من لحم الخنزير الصعب الهضم على معدة رجل شمالي!

الحيوية والمزاج المرح! ما أبداه كانينغ مؤخراً مبتهجاً لشفائي من جهة، متفائلًا بشؤون العالم بأسره من جهة ثانية، لكن تلك اللحظات، فاجأني الامتعاض المرسوم على ملامحه، تساءلتُ بقلق! لم يعرج الشاب عابساً خارج المركبة، راكلاً بنزقٍ الأعشاب المتعالية بين فراغات الحصى؟

«ما الأمر يا إيثان؟» سألته.

خلع قفازي القيادة وصفعهما بشدة براحة يده، «إنهم يقومون بخفضٍ أعداد عناصر الحامية في ووتربانك، بحلول نهاية الشهر، سيقل تواجد الاتحاد إلى سريّة[1] ذات قوة محدودة!»

«لكن،،، هل أنت متأكد من ذلـك؟ لعلها مجرد خدعة لتضليل المتمردين؟»

«أنا متيقنٌ تمامًا» أومأ برأسه مؤكداً.

«لكن أيّ جنون هذا؟ جنود الفروسية بأعدادهم الحالية بالكاد يؤمنون الحماية لنا، كما أننا لسنا المستأجرين الوحيدين في المنطقة، إلام يستند قرار عشوائي كهذا القرار؟»

«علام اعتمدوا برأيك؟» ردّ بعنف متابعاً شرح وجهة نظره: «استندوا إلى حقيقة أن هذه الحرب خاسرة لا محالة، بحكم أنّ جنرالات لينكولن الأكثر عجزًا على الإطلاق عن قيادة جيش في ميدان المعركة!»

1- السرية: وحدة عسكرية مشكلة من 3 إلى 5 فصائل ويتراوح عدد أفرادها من 62 إلى 190 فرداً ويقودها عادة ضابط برتبة نقيب.

ظهر بطليموس جواره مع إبريقٍ من الماء، تناول كانينغ الكأس المعروضة بعصبية ونفاد صبر، فزُلق مقبضها من قبضته لتهوي متهشمة فوق الطوب أسفل قدميه، استدار موشكاً على تعنيف العجوز المحدودب، نهضتُ بصعوبة ووقفت بينهما.

«إيثان»، قلت بهدوء: «هدئ من روعك رجاء، أعلمُ أنه خبر مخيب للآمال،،،»

«مخيب للآمال! بل قل إنه الخراب المطلق! هل تدري كم سيستغرق الوقت بالنسبة للقوات غير النظامية –أو حتى القوات الكونفدرالية النظامية– لاستعادة كل شبر من هذه البلاد الثرية؟ أؤكد لك أنهم يعرفون كيف يُجلّونها أكثر من مما يضمره حلفاؤنا الجسام،،،»

رمقتُ بطليموس في هذه الأثناء، ما زال جاثياً على ركبتيه يلملم الشظايا المكسورة، سرعان ما لحظتُ اشتداد ارتعاش يديه على نحو فاق ارتجافهما من جراء كبر سنه.

أومأتُ برأسي رافعاً بسبابةٍ إلى شفتي بضرورة التوقف عن الحديث، إذ إنّ استفزاز هلعٍ عامٍّ في أحياء الزنوج آخر ما نريده بكل تأكيد، التقط كانينغ المعنى الذي قصدت، فسارع بالقول: «بالطبع، لا تزال قوات الاتحاد تهيمن على النهر، لن يجرؤ الكونفدراليون على مهاجمة أيّ ممتلكات واقعة في نطاق الزوارق الحربية، سواء أكانت ووتر بانك محصنة بالكامل أم لا».

وافقته بحرارةٍ مردفاً: «بالضبط، فلا يوجد أيّ داعٍ للقلق»، نهضَ بطليموس بقامة متداعية، بينما طقطقت قطع الفخار المكسورة بين يديه، استدار قاصداً المنزل، لكن ليس قبل أن ألمح وجهه الموشى بالاضطراب.

«بالطبع ذهبت لرؤية الكولونيل، الذي أشار بضرورة تعيين مشرف على المكان»، تابع كانينغ ما يجول في رأسه، «يتوجب استئجار مبان في ووتربانك بالقرب من ثكنات بقايا القوات، إضافة إلى استشارتهم فيما يخصّ تحركات العدو قبل المخاطرة بقيامنا بأي زيارة يومية قصيرة»

«حسنًا»، قلت، «لأن خطر الغارات يتزايد أثناء الليل، أعتقد أن رجلاً مثل زيك، ذا صلاتٍ بمقاتلي العصابات، سيغدو خياراً آمناً كمشرف على – –»

لم يسمح كانينغ بإكمال عبارتي ثم قاطعني بغضبٍ رافعاً نبرة صوته بالقول: «متى ستتوقف عن الثقة بهؤلاء الناس، أوَتظن أنّ أياديهم لن تنأى عن المحراث تحت إشراف واحدٍ منهم؟ أو أنّ نزاهتهم ستردع البغال فلا «تهيم» على وجهها ليبيعوها فيما بعد بثمنٍ هائل؟ أوَتحمي عفتهم الخنازير فلا تغدو لحماً مقدداً تلتقمه أفواههم الشرهة وتبتلعه الحلاقيم؟ ما انفكت مغادرة المكان حماقة، أما المخاطرةُ فكامنةٌ في البقاء! أمران أحلاهما مرّ، يمكنك يا مارش القيام بما تشاء متابعاً مهمتك بسوقِ هؤلاء الأشخاص لمنحهم تعليماً متواضعاً من مسافة آمنة؛ لكنني لن أفلح بإدارة مزرعةٍ بهذه الطريقة على الإطلاق!»

«إيثان»، علقتُ بهدوء: «لا تعتقد أنني أقل التزامًا بما يخصّ نتاجي بالمقارنة مع محصولك، إنني أعمل لأجني مثلك تماماً، على أي حال، لو حسِبتَ أنني سأتخلى عنك لتواجه الخطر بمفردك، فأنت لم تتعرف على طبيعتي جيدًا خلال الأشهر الماضية،،،!»

خانني جسدي العليل من جديد، فخارت قواي وتهدج صوتي، بما هاود بملامح كانينغ فأعطاني ذراعه مسانداً: «لا بد أن تستريح»، قادني إلى كرسي الخيزران حيث جلست متأوهاً، «هل أحضر بطليموس شيئًا لتأكله؟» سأل، «علينا العمل على استرداد عافيتك بسرعة. سأجعله يجلب شيئًا من المؤن (الطازجة اللذيذة)، قال راسماً على شفاهه ابتسامة شاحبة.

عرج كانينغ متوجهاً نحو المنزل، بينما تناهى صوته إلى مسامعي مصدراً الأوامر بتفريغ العربة، التفتّ إلى مكتبي المحمول بأفكارٍ مبعثرة حالت بيني وبين متابعة رسالتي بأي وسيلة كانت، «مع حلول نهاية الشهر،،»، أعدت ترديد عبارات كانينغ، «أسبوعين ولسوف نرى!»

عدت إلى التعليم في الفصل لمدةٍ بلغتِ الساعة أو الساعتين في اليوم، مضطراً لركوب البغل في الذهاب والإياب، محوجاً للجلوس طوال فترة إعطاء الدروس، سعادة وامتنان لمحتهما في عيون تلاميذي من جراء عودتي وحرص شديد على بذل أقصى ما بوسعهم.

في نهاية الحصة الدراسية، ساعدني جيسي على ركوب البغل، بينما

اقترب أحد الأطفال لقيادته تنفيذاً لتعليماتٍ يوميةٍ لإرجاعه إلى الحقول بعد إيصالي، تجادل الأطفال المتجمهرون حولي متنافسين للحصول على هذا الامتياز، لكن جيسي قام بدفعهم بعيدًا ملتقطاً اللجام بنفسه، اقترب مني بعد تجاوزنا مسافة قليلة من الآخرين، ثم همس بصوتٍ منخفض:

«وددتُ الاستفسار إن كنتَ أنت والسيد كانينغ تريدان البقاء هنا،،،؟»

«بالطبع يا جيسي؛ ولمَ لا؟»

غرز عينيه المحمرتين في وجهي معقباً: «أظنك على دراية بالسبب!»، تقصدت ألّا أجيبه، فتابعَ شقّ دربنا بصمت، لم تخفف حرارة النهار من وطأتها رغم الحلول المتأخر لما بعد الظهر، لتحط فوق البشرة كثيفة حارة لزجة، كما لو أنها لهاث مشتعل لوحشٍ عظيم، تنسم الهواء ثقيلاً لدرجة بات يتطلب مجهودًا كبيرًا لاستنشاقه، غليظًاً يجول في الرئتين فاقداً قدرته على إنعاشهما، صدّع طنين الحشرات وأزيزها السكون بيننا، حين تحسس عدم مقدرتي على النطق بحرف، غمغم جيسي ببعض الكلمات بعينين مطرقتين إلى الأرض:

«إن جاءوا، في الواقع سيقتلونكما لا محالة»

«أحقاً ما تقول؟» تساءلت مظهراً التعجب، «أعتقد أنه افتراض متطرف إلى حد ما، فقوات الاتحاد في ووتربانك لن تنسحب بالكامل هذا أولاً، أما تمركزها قرب النهر فلا يخشى من اختراقه، في النهاية؛ السيد كانينغ وأنا لسنا مقاتليْن – هل تعرف ما معنى ذلك؟»

«يعني احتياجك إلى مسدسٍ للدفاع على نفسك»

«جيسي، إن الجندي الكونفدرالي مقاتل جلف ويائس، لكنه ليس بالمتوحش، ما زالت ثمة أصول وقوانين تخضع لها الحروب،،،»

توقف بعد ذلك رامقاً إياي بنظرةٍ ألفتها في أيام حياتي اللاحقة، نظرة جمعت بين الشفقة والسخط، «سيدي، هؤلاء الرجال المتحصنون في الغابة أكثر تجمهراً من أسراب البراغيث –إنهم لا ينتسبون إلى فرق الجيش، وهم متحررون تماماً من اتباع أيّ قواعد عسكرية، أما الناس القاطنون في الأحياء غير المنتمين لهذا المكان، بحكم أنهم مرسلون من المعسكر المقام

في داروين بيند- فما انفكوا قوماً جبناء مخيبين للآمال، بالنسبة لنا نحن المنحدرين من أوك لانديغ، نعرف هؤلاء المقاتلين ويعرفوننا جيداً، على الأرجح سيقومون بادئ ذي بدء بحرق المحصول، كما أنهم لن يدعونا وشأننا إلا إن تخلينا عن زراعة القطن، أما أولئك الغرباء بيننا، حسنًا، دعني أشي لك بأن بعضهم يتحدث عن «نية الهروب من هنا، قبل أن يتم بيعهم في مكان ما!»

تسرّبت الكلمات مني فلم أدر بمَ أرد، كما خانتني الحجج لمناقشة ما يبرر تلك المخاوف، بالكاد يمكنني تأييد الناس بالتخلي عن السيد كانينغ، لكنني في الوقت ذاته لا أستطيع حثهم على البقاء، خاصة إن كانوا على صواب فيما يعتقدونه حول حريتهم المعرضة للخطر، مع وصولنا إلى البستان لامس البغل فرعًا متدليًا من شجرة التمر حنة[1] فتهاطل بشلالٍ من الأزهار الوردية فوق رؤوسنا، تمكنت من النزول من دون مساعدة، مسلماً اللجام لجيسي.

استدار لإعادة البغل إلى الحقول، بينما توّجت البتلات الكثيفة رأسه بإكليلٍ زاهٍ، التفت إلي من فوق كتفه مخاطباً إياي بنبرة حزينة: «لو كنتُ مكانك يا سيد مارش، لرحلتُ بعيدًا من هنا واصطحبت السيد الشاب معي»

نويتُ إثارة الموضوع مع كانينغ مع أوان العشاء، لكنه أهلّ بوجه شاحبٍ داعكاً بتوجعٍ صدرَه، اعتذر عن مشاركتي الطعام لفقدانِ شهيته، خلد بعدها إلى النوم، أكلتُ عصيدة الذرة مع بعض السلطة التي قطفتُ أوراقها بنفسي، ثم مضيت إلى سريري مضطرباً من كلمات جيسي، في تلك الليلة شرعت بتنفيذِ مشروع حمايةٍ بسيط: صنعتُ نفقاً داخل رابية بذور القطن المتراكمة فوق أرضية المخزن، دعّمته بالأكياس المترعة بالبذور، حتى تمكنت في النهاية من تشكيل ملجأ آمن جدير بإخفائي ومواراة حاجياتي، وضعت حافظة مليئة بالمياه داخله مع قطع من الخبز الجاف، محاولاً حجب مدخل النفق الصغير ببرميل من دبس السكر الفارغ، أما من الداخل، فبات تحريك كيس واحد كفيل بتهاوي البذور أمامه بما يخفي الآثار الواشية بالمخبأ، فإن جاء المقاتلون أمكنني اللجوء بسلامٍ إلى حفرتي.

1- تمر حنة أو الكريبي ميرتيل شجرة من أشجار الزينة.

اليوم التالي، وفي لحظة شروعي بالذهاب إلى الصف ممتطياً ظهر البغل، لمحتُ كانينغ مقبلاً نحوي على غير عادته بدل الالتحاق بعمال الحقول، تقدم بخطوات متمايلة، بينما لاح وجهه متغضناً كملاءةٍ مجعدة، لا بد أن النوم غافله ليلة أمس، «سأقصد ووتربانك مرة أخرى»، قال بقلق: «عليّ محاولة استئجار عددٍ من الحراس - لعلني أتمكن من إحضار المولاتو[1] الذين كانوا يخدمون في المخفر - لا يمكنني جعل الزنوج يسترسلون بأفكارهم المفضية إلى الهرب.»

«إيثان! لا أصدق أنك جادٌ فيما تقول؟»

حدق بنظرةٍ مفعمة بالسخرية.

«بم تفكر بحق السماء؟» تابعت القول معنفاً: «أولاً؛عليّ تذكيرك بعدم شرعية احتجازك لهؤلاء الأشخاص في هذا المكان تحت أي نوعٍ من الاعتقال. أنت لست سيدهم بغض النظر عما يلقبونك، ثانياً؛ إن كنت تبغي إثارة حركة نزوحٍ جماعيّ، فلا يمكنني التفكير بوسيلة أفضل من إظهار الخشية مما سيحدث لدرجة سارعت فيها لاستئجار الحراس، هل باعتقادك حقاً أن اثنين أو ثلاثة من المولاتو المسلحين بأسلحة خفيفة كافون لكبح جماح ما يزيد عن مئة شخص التهبت رؤوسهم بفكرة الفرار؟ لا بد أنّك سُفعتَ بضربة شمس!»

لم أتحدث معه بمثل هذه القسوة من قبل حتى أثناء ذروة خلافاتنا العديدة، نظر إلي بإعياء، وبدا جلياً أن العنجهية ارتشحت منه.

«لم أفكر في الأمر على هذا النحو،،، ما أردتُ قوله، أنني أرى ما كنتَ،،،»

عباراتٌ أحالته فتى غرّاً في الحال، غيرتُ نبرة صوتي ثم رسوتُ بيدي فوق كتفه مهدئاً: «لا مهرب من أقدارنا،،» تابعتُ برفق: «التي سنواجهها معًا!»

انحسر شهر يوليو، ونفّذت القوات أمر انسحابها من موقع ووتر بانك وفق

1- مولاتو أو الخلاسي أو المُوَلّد: تسمية لتمييز الأجناس والأعراق، تم تصنيف الإنسان في أوروبا بين أبيض وهندي وأسود، ما اختلط بينهما أطلق عليه: مولاتو (المولدين).

التعليمات القيادية، لكن المنطقة ظلت هادئة ولم ترِد أي تقارير عن زيادة ملحوظة في نشاط العصابات طوال تلك الفترة، أيامٌ مرت بسلام، أعادتنا إلى ممارسة مهامنا المختلفة في الصف والحقل، متغافلين عن الهواجس الدفينة المفضية إلى الهشاشة المرعبة لجبهتنا، تسببت الحمى التي عاودتني من جديد بضياعِ ثلاثةٍ من أوائل أيام أغسطس، ارتفاع حروري مُعاوِد أنذر بتوعّك متعاقب بعد أن اتضح أنني لا أعاني من حمى الملاريا الشائعة، بل ما يسمى بالحمى المتكررة، لأن فترة التعافي لا تدوم سوى فتراتٍ مؤقتة تتخللها هجمات مستمرة من الوهن، مع ذلك، لم أسمح للاكتئاب شريك اليأس بالنيل مني، فالمعرفة بحالتي المزرية وصحتي المعتلة، أفاضت الحافز لبذل جهود أكبر في الفصل الدراسي، خاصة مع مضاعفة الحاجة للمثابرة بتعليم تلاميذي المتلهفين الذين شاركوني الدأب بجدٍّ دون تذمرٍ أو شكوى.

زنوج داروين (ذوو المرتبة العرقية الأدنى!)، لم يهربوا بعد كل شيء: لعل الخشية من الرحيل فاقت ارتياعهم من البقاء، خاصة أنّ النزوح تجربة لا أظنها راقت لنساءٍ ورجالٍ تجرعوا مرارتها مراراً وتكراراً، أولئك الذين اختبروا عن كثب مخاطر حالت بينهم وبين أي ملاذٍ ضئيل يؤويهم خارج حدود الاتحاد؛ ممن عانوا البؤس والفوضى في معسكرات التهريب التي كانت بانتظارهم، ربما مكثوا هنا لأنهم أحبوا تجربة الكسب المشروع، غير مستعدين للتخلي عن أموالهم المستحقة مع اقتراب موسم الحصاد، أو تُراهم بقوا لقوة ثقتهم بنا وبقرارنا المفضي إلى عدم الفرار.

حيوية الصيف الآفل أشرقتْ بمهام الفصول التالية، فأُنجزت الأعمال الروتينة في جوّ متقد بالنشاط، رغم إخفاقها بتدثير ملامح القلق الذي كابدتُه شخصياً، تجشمه كانينغ بدوره وقاساه عمال الحقل جميعهم، مضى الموسمُ مُربكاً ملوثاً الأنفاس بخوفٍ مقيتٍ يقفُ المرء عاجزاً عن مواجهته، خائباً في تجاهل رهبته.

الفصل الحادي عشر

قرع الأجراس

هل من كلمتين أكثر توأمة في اللغة من مفردتي الشجاعة والجبن؟ لا أظن أن إنساناً عاقلاً لا يتوق لامتلاك سماتِ الأولى، مرتاعاً من الاتهام بالثانية، فإحداهما مَجْدٌ وعلياء فيما النقيض انحدار للوضاعة للدرك الأسفل، مع ذلك، تحطُّ الصفتان جنبًا إلى جنب في دائرة الحياة، لا يفصل بينهما إلا أدنى درجاتِ القوس.

أتساءل في أعماقي! هل الشجاع رجلٌ لا يغزو الذعر قلبه؟ إن كان التعريف كذلك، فالشجاعة ما هي إلا مصطلح مهذب لعقلٍ خاوٍ من الرشد والخيال، لا بد أن كل امرئ جَسور ما برح يرتعد مذعوراً، يتعرق وتخونه أحشاؤه، مع ذلك يُقْدمُ مغواراً نحو الفعل الذي يروعه، من وجهة نظري؛ لا تعني البطولة المجازفة باقتحام حلقة النار والتلظي بألسنتها المستعرة خشية الاتهام بالجبن، إذ في بعض الأحيان، تتطلب الشجاعة الحقيقية التقاعس بمعناه الحرفي؛ أن يعتكف المرء في منزله إبان احتدام المعترك، إن كان خياره يرضي الصوت المطمئن لضميره الحي.

في كونكورد وبحكم عملنا في السكك الحديدية، تعرفنا على الكثيرين ممن انطبق عليهم التوصيف الأخير، أغلبهم كويكرز ممن انبثقت لديهم نزعتا السلام والتحرير من العبودية النابعتان من جوهر اعتقادهم الديني، المؤمنون بأن الله حاضر في الأفئدة ما يحرّم استعباد أي إنسان لآخر أو قتله، حتى في سبيل تحرير العبيد، لاحقاً، في أكتوبر عام 1859، قام الكويكرز والطوائف المناهضة للعنف بقصد أو بغيره، بمناصرة جون براون الذي اتبع

منهج القتل وسيلة للعتق، براون الذي جند ثلاثة من أبنائه إلى جانب عشرين رجلاً قادهم في هجوم على الترسانة الفيدرالية في هاربرز فيري في فيرجينيا، مخمناً مسارعة العبيد القاطنين في المنطقة المجاورة للتمرد والانضمام إلى صفوفه فور سماعهم بهجومه المسلح المدعم بآلاف الدروع والعربات المحملةِ بالبنادق والمسدسات لنصرة رايتهم،،، لكن «النحل» -العبيد كما كان يصفهم براون- ممن اعتقد انضواءهم تحت رايته، فشلوا في التمكن من لمّ شملهم مؤازرين له، خاذلين إياه في نهاية المطاف، شعرتُ بالاضطراب الشديد حينما علمت أن أول الهالكين بجروحٍ قاتلةٍ على يد رجال براون لم يكن أحد مالكي العبيد، إنما الأسود هايوارد شيبرد؛ الحرُّ الذي عمل رئيساً لقسم الحقائب بسكة حديد بالتيمور (أوهايو)، اختتمت غارة براون بهزيمة نكراء أنهت حياة اثنين من أبنائه وبقتلِ عدد من أتباعه إلى جانب إصابته بجروح، لحقها وقوعه بالأسر.

غفرتُ لبراون تبديده لثروتي منذ زمن بعيد، مدرباً نفسي على تحاشي النظر إلى الواقعة بمرارةٍ أو حسرة أو لومة لائم، خاصة أنني وهبته المال بكامل إرادتي بنيّة تحرير البشر وليس ذبحهم، أما الآن فقد بتّ متيقناً من عدم قدرتي على مسامحته، خاصة بعدما عرفت أن صِلتي البريئة ببراون ساقتني إلى التورط بجرائم وحشية بشكل أو بآخر، مهشّمة الروابط المقدسة بعائلتي.

سرعان ما علمت أني لستُ وحدي من تنازعه الهموم ويساوره القلق، إذ سمعتُ عن الشاب فرانك سانبورن[1]، مدير مدرسة كونكورد -الذي بدا مرتبطاً بخطط براون أكثر مما كنت أتخيله- فاجأته ذات صباح، قبيل اصطحاب لطلابه للقيام بالرحلة السنوية لجمع الكستناء[2]، طَرَقات أحد الهاربين من المداهمة بحثًا عن ملجأ، ما دفعه باضطرابٍ إلى وضع الرجل بعهدة هنري ثورو، تلاه مسارعته بالفرار من القرية بحالة من الذعر، زاعماً أن هناك ألف طريقة فضلى لمواصلة الكفاح ضد العبودية بدل المخاطرة والتعرض للاقتياد مُعتَقلاً إلى فرجينيا.

1- فرانكلين بنجامين سانبورن: (1831-1917) كاتب سير ذاتية وصحفي ومؤرخ أمريكي.

2- جمع الكستناء: (chestnut hunt) حدث سنوي يتم فيه إلغاء الدروس، ليسافر الطلاب إلى التلال من أجل جمع الكستناء والتفاح.

يعتبر سانبورن حديث العهد بمساعدة براون نسبة لعونيَ الذي سبقه بسنوات، إلا أنني ما برحت أتنقل بخطواتٍ حذرة، كرجل يخطو على طول حافة منحدر يلتهمه الضباب، فقد دفع مجهول ما ثمن الصناديق المكتظة ببنادق شارب لجون براون، بما جعل الجنوبيين يتوعدون مرغين مزبدين لمعرفة هوية الفاعل.

لطالما فاضتْ أمسيات السمر مع عائلتي بسحرٍ آسر، لولا تلطخها بارتياعٍ حجب ناظريّ عن التمتع بانسدال جدائل بنية وخصلاتٍ موشاةٍ بالذهب فوق كراسة رسم أو صحيفة، جامحة داكنة كجداولِ جو الغزيرة، أو مجعدة مصففة بأناقة فوق كتفي إيمي الضئيلتين، الخشيةُ التي داهمتني صرفتْ كلمات فأرتي اللطيفة بيث أثناء مخاطبتها الهادئة لهررها، موارية أصابع ميغ المعاونة مارمي بتطريز قطعة من القماش، كنت أحدق بهن تارة، لأختلي ساعات مع هاجسِ فراقهن، لم يكن خيالي آنذاك يطوف حول القدر المحتوم ببتر الأواصر المقدسة لعائلاتنا، المنذر بانفصالٍ مديدٍ مبهم العواقب.

آخرون مرّوا بمآزق مماثلة، لكنهم اختاروا المضي قدماً بأفعالٍ أبعد ما تكون عن الاهتياج والقلق، الكويكر الثري غريت سميث على سبيل المثال، الممول الأعظم لبراون لزمنٍ طويل، رتب مع أصدقائه لخطة نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية والنفسية للبقاء بمنأى عن يد المحققين الجنوبيين، في حين هاجر سانبورن إلى كندا، ليبحر دوغلاس بدوره إلى إنجلترا.

أتراه جُبناً تصرف أولئك الأشخاص؟ لا بكل تأكيد، إذ على الرغم مما كتبه دوغلاس مؤنباً نفسه بالقول: «اشتهرتُ بالفرار لا بالنضال، أما الاختبار الذي تعرضت له في هاربرز فيري فأثبت افتقاري المخزي إلى الشجاعة والإقدام!».

لو أنّ أهل الجنوب سارعوا إلى قتل براون فوق أرصفة هابرز فيري أو قاموا بشنقه في أحد أزقتها بعد غارته بأسبوع، لاندثر اسمه من كتب التاريخ إلا من هامش بسيط في كتابٍ مُهمل لا يقرؤه أحد، *فالمجنون المُضلِّل* أولى

السّمات الناقدة التي أطلقت على الرجل، حتى في مقالات الصحف الداعية لإلغاء الرق، لكن براون حرص ببراعة ودهاء على الاستفادة من أسابيع عمره الأخيرة، إذ بحلول وقت إعدامه في أوائل ديسمبر، عمل سلوكه الحسن في الأسر وخطابه المؤثر أمام المحكمة، إلى جانب قبلة وضعها على جبين طفلِ عبدٍ أثناء خطوه نحو المشنقة – غيّر نظرة العالم إليه.

أتت أخبار الغارة بادئ الأمر بتقسيم مدينتنا كأمّة تنشطر على نفسها، هنري ثورو، الوحيد بيننا من أبدى استعداداً مستميتاً للدفاع عن براون، ما انفك الرجل مهووساً بالقضية التي أعلن عن نيته الذود عنها أمام مبنى البلدية، قمنا جميعنا، حتى والدو، بنصحه بالاعتكاف عما يعتزمه، لكن رده جاء مقتضباً: «لم أرسل بطلب نصيحتكم، بل كي تذيعوا موعد خطابي المرتقب!»

عندما رفض الرجال المختارون في البلدة قرع الجرس كإعلانٍ عن بدء حديثه، قام هنري بقرعه بنفسه، خطابٌ من أكثر الخطب حماسةً مما سمعته على الإطلاق، لدرجة طُلب منه إعادة إلقائه بالعديد من الأماكن في الأسابيع التالية، هنري الذي زلزل الأرض من تحت جمهوره صدح بالقول: «صُلب المسيح منذ ألفٍ وثمانمئة عام؛ ليأتي هذا الصباح بشنقِ الكابتن براون، يا للمصادفة! طرفا سلسلةٍ خاوية الحلقات»،، حسنًا، فكرت مصغياً لعباراته المتقدة، فالمسيح لم يفتك بأحد ولم يُحكم عليه بالصلب متهماً بجرائم القتل، لكنني حين رمقت الوجوه الجذلة على طول القاعة، أدركت أن خطبة هنري المستعرة جذبت عقول الحاضرين إلى عالمٍ أقصى ما يكون بُعداً عن المنطق،، «لم يعد براون الآن كما عرفتموه في السابق» صاح هنري بصوته مردفاً: «فقد أمسى ملاك النور،،،!».

بحلول الوقت لانتهاء اجتماعنا في قاعة البلدية، في ذلك اليوم القائظ الممسوس نهار تنفيذ حكم الإعدام، أمسى براون الهمام الشهيد بدل المجنون المضلِّل، أما التصور النورانيّ لهنري بحقه فأضحى أيقونة لدى الجميع.

وجهة النظر الخاصة بأهل الجنوب أتت مغايرة تمامًا، فلو قام شماليّ كبراون بقتل أحد الرجال البيض، بغض النظر عن ملكيته لعبيدٍ من عدمها، ثم قُدس لفعلته المشينة، فهذا يعني إطلاق نفير الحرب، منذ فترة طويلة؛ ما

انفك الجنوبيون متذمرين من معايشة الشماليين المستوطنين بينهم، حتى إنّ ثلة من الغوغائيين هاجموا مرة بائعاً متجولاً (كحالي يوماً) صارخين بالقول: «إنّ الشماليين المتعاطفين مع الزنوج، لا بد من تخضيبهم باللون ذاته!»، ثم غدوا يطلون الشاب بالقار، ليطردوه ذليلاً مُهاناً خارج المدينة، إبان تلك الحادثة تيقن العبيد أن حبل العبودية محكم الوثاق حول أعناقهم، في حين فقد الزنوج المعتوقون حريتهم التامة في التنقل من مكان إلى آخر.

إحدى النتائج الفورية للواقعة أتت بتأخر «الطرود» القاصدة كونكورد عبر قطار السكك الحديدية، بصراحة كنتُ ضمنياً مسروراً بما حصل، خاصة مع فقداني أيّ رغبة في ذلك الوقت بالمخاطرة بمخالفة القانون في سبيل القضية، كما أنني لم أجد ضرورة في إظهار مخاوفي لمارمي التي ساورتها الخشية من فقدان واجبنا المتواضع الداعم لمساعي العتق، كانت «مهمتنا» بإخفاء العبيد إحدى المهام الست التي تُستهل أولاها من ميناء بوسطن، حيث كان المركب الشراعي قارب صيدٍ وترفيه كما يُفترض، بمنزلة وسيلةٍ لنقل العبيد الهاربين إضافة إلى بعض المسافرين خلسة إلى الشمال، العديد من المنازل في قريتنا أمست محطاتٍ مؤقتة لحين إيصال الطرود غربًا بمساعدة المرشدين إلى ليومينستر وفيتشبرج كي تقلهم القطارات إلى أصدقاء ينتظرونهم في كندا، أما ما وقع على عاتقنا فلم يتخطّ توفير ليلة من الطعام والمأوى والأمان ريثما تُرتب إجراءات النقل، عادة ما كنا نستضيف بين الطردين أو الثلاثة خلال الشهر الواحد، حتى اعتادت بناتي على الترحيب بوجهٍ غريب أسود على مائدتهن بين حين وآخر، حرصت مارمي منذ نعومة أظافر الفتيات على تعليمهن أصول اللباقة داخل المنزل واتخاذ الحيطة والحذر خارجه، لكن هذا لم يمنع إيمي ذات يوم من التفاخر أمام صديقها الصغير، متباهية بالمخبأ القائم أعلى الدرج، في أمسية ذلك اليوم، حينما اجتمعنا في الصالة ساعة السمر استبعدتُ مطالعة صحيفة السبنسر وشرعت أقرأ لهن رواية (كوخ العم توم)[1] أو (حياة التواضع)، وقبل الانتهاء

1- كوخ العم توم أو حياة التواضع: روايةٌ للكاتبة الأمريكية هيريت بيتشر ستو، تدور حول مكافحة العبودية، وطرح معاناة الأمريكيين الأفارقة. نُشرت الرواية في عام 1852. ويُقال إنها ساعدت في وضع الأساس للحرب الأهليّة الأمريكيّة.

من فصول الكتاب الأولى، انهمرت عينا طفلتي بدموع التعاطف والإشفاق، لم يكن علي قول أكثر مما قرأته لمطالبتها بالاحتراس في كلامها.

أتوقع أننا ساعدنا حوالي ستين شخصًا: إجمالاً معظمهم من الشبان، وبعض الأزواج، إضافة إلى امرأتين خاضت كل منهما رحلة محفوفة بالمخاطر لوحدها، أي همجية دفعت بامرأة إلى تحدي المجهول بأهواله! أيّ وحشية فاقت تصور العقل وأفق الخيال! أيّ عزيمة شطرت فؤادي!

إحدى المرأتين -فتاة بالأحرى- زارتنا في أمسية باردة من أمسيات يناير الجليدية، كأول الطرود منذ غارة أكتوبر، تحلقنا حول النار سعداء بوفرة الحطب نتاج جهود تحطيب الخريف الماضي حين سمعنا وقعاً ناجماً عن اهتزاز السرج وصرخة «قف!» المتسللة عبر النافذة، هرعت الفتيات لرفع الستارة للتعرف على المنادي في تلك الليلة الباردة، أدركن في الحال أنها عربة صديقنا السيد بينغهام من ميناء بوسطن، لتسارع كل منهن للقيام بالدور المنوط بها، عجلت ميغ وبيث إلى المطبخ لتسخين الخبز وتحضير الكمية المتبقية من التفاح المخبوز للعشاء، صعدت جو الدرج بخطواتها الصبيانية المعتادة لترتيب فرشِ المنامة في الحجرة المخفية، كما أخذت إيمي على عاتقها مهمة الوقوف معنا ترحيباً بالضيوف.

أهلّ السيد بينغهام مدثراً جسده حاجباً وجهه عدا العينين، رافضاً الدعوة بالدخول خشية تأذي الحصان من الجو القارص، قمت بمرافقته قاصديْن العربة، ثم سحلتُ الكيس عن طردنا كاشفاً عن صبي مكتسٍ بالفراء، سارع السيد بينغهام لتقديمه باسم فلورا التي اختارت التنكر بحلّة الرجال للتمويه، وقعت عيناي على قدميها العاريتين إلا من بعض الخرق المربوطة، فعرضت حملها لأعلى الدرب الجليدي المؤدي إلى البيت، رمقتني بعينيها السوداويين الواسعتين، ثم صرفتهما عني بحرجٍ وارتعاش وشيا بموافقة خجلةٍ صامتة، فسارعتُ إلى حملها فوق كتفي قاصداً المنزل، مع وصولنا إلى عتبة الباب لمحتُ السيد بينغهام في مقعده رافعاً اللجام، صادحاً بصوته: «حظاً سعيداً وإلى اللقاء!»، تبعثرت كلماته تحت وطأة العجلات بينما تشقّ طريقها المفروش بالجليد.

للفتاة وزن يقلّ عن وزن إيمي إلا أنها بنفس قامة ميغ وبعمرها تقريباً، خمنت ذلك حين أجلستها في ضوء الموقد، كانت ترتدي معطفاً رجالياً ضخماً، لعله تقدمة من بينغهام، أصرت على شده حول خصرها بعناد رغم توهج النار، لكنها رفعت يدها لانتزاع القبعة المتسخة والشال الصوفي الذي لفّ وجهها بإحكام، أعتقد أنهما ساهما إلى حد ما في تمويه هويتها الأنثوية، لم يُبدِ وجهها المنبلج المحاط بشعر صبياني شعثٍ خشن أي ملامح ذكورية، بل على العكس، بانت نضرة جميلة رغم مقاساتها لتعب الرحلة ومشقتها، تربعتِ الرقة على أوصافها وتلألأت عيناها الكبيرتان الساحرتان ببريق آسر، بدأت مارمي ترحيبها بعباراتٍ هادئة مطمئنة، بينما أعطتها بيث منشفة ندية دافئة، فتنهدت فلورا بسرور وسارعت إلى مسح وجهها ورقبتها ويديها، ثم تناولت كوبًا من مغلي البابونج الساخن بيدين أحاطتاه بقوة طلباً للدفء.

سرعان ما لاحظتْ زوجتي الحالة المزرية لقدمي فلورا، فهمست لبيث بجلب ما تبقى من الماء الساخن داخل حوضٍ عميق، بدأت بفك الخرق المتسخة المتيبسة، فانْسَرَى ما أطلق صراخ مارمي، مضغةٌ من لحم قدمها التصقت بقطعة القماش السوداء.

«أوه يا عزيزتي، أنا آسفة حقاً!» خاطبت مارمي فلورا التي لم تأتِ بأي رد فعل أو إيماءة ألم، بل تركت فنجان البابونج على المنضدة منحنية إلى أسفل لتكمل فكّ الأربطة عن قدميها المتقرحتين، وضعتهما بعد ذلك في الماء الدافئ مع تعبيرٍ آنيٍّ عن توجعٍ طفيفٍ، ثمّ رحبت الفتاة بهدوء واتزان بطبقِ الخبز والتفاح المخبوز الذي قدمته ميغ.

لأسباب واقعية ونفسية، حرصنا جميعنا منذ فترة طويلة، على عدم استجواب مسافري السكك الحديدية عن أحوالهم، إذ غالبًا ما يرزح الأشخاص القادمون تحت عبء المعاناة، الخوف والإرهاق، وربما الحداد على ما هجروه خلفهم من عائلات وأصدقاء وأحبة وذكريات حميمة، ما برح الوطن وطناً ولو سوّر بالعبودية، مأوى ليس من السهل الانفصال عنه بغير رجعة، بعد زواجنا أوضحت مارمي ضرورة قلة معرفتنا بضيوفنا، فإن ضحُلت تجنبنا فرص إفشاء أسرارهم، فكرة غاية بالأهمية خاصة أن فتياتنا

الصغيرات قد يبحن ببراءة بالتفاصيل المتعلقة بالأمكنة أو الهويات، أو لعلهن يفضحنها دونما تحفظ عبر استجوابٍ ذكي من أحد المغرضين.

واصلت مارمي مخاطبة فلورا بكلماتٍ رقيقةٍ لا تتطلب رداً، داعكة قدميها بمرهم النعناع المبرد، مضمدة إياهما بشرائط الشاشِ النظيف، رفعت الخرق النتنة لإيمي الأقرب إليها - بغية رميها بعيداً وإحراقها، فتراجعت الطفلة متقززة خطوة إلى الوراء، عاقدة يديها البيضاوين الصغيرتين بارتعاشٍ خلف ظهرها، ألقت مارمي نظرة متوعدة تجمّد بحيرة بحالها، بما أوقد وجه إيمي التي سارعت لالتقاط الأربطة المتسخة، مع الحرص على إبقائها بعيدة عن ثوبها النظيف الناصع أثناء حملها خارج الغرفة.

بعد انتهائها من طعامها وتشبعها بالسكينة، قامت مارمي وميغ بمرافقتها إلى الحمام الذي جهزته حنّا لاغتسالها، ساعداها بعد ذلك على صعود الدرج إلى «الحجرة» التي أشرفت جو على تحضيرها، فأشرقت بالشموع والدفء والأمان، أما عني فقررت الخلود للنوم مع غياب أي واجب يخصني للمساعدة بطقوسهنّ النسائية، انضمت مارمي إليّ بعد حين بوجه متغضن من شدة الألم، أغلقتِ الباب، ثم أسندت ظهرها إليه بعينين مغمضتين، تنهيدة عميقة هزت كيانها.

«ما الخطب يا عزيزتي؟ ألم تحظ الفتاة بالراحة حتى الآن؟»

«راحة! أشك في أنها تعرف معنى الكلمة!»، خطتْ نحو السرير ثم ألقت بجسدها فوقه بأصابع متوترة تجول فوق ذيل ثوبها، مددت يدي لتهدئتها، لكنها رفعت يدي بعيدًا ثم استدارت نحوي، شيء ما صدّع قسماتِ وجهها - ملامح ذكرتني بأعراض غضبها القديم التي مرّت بخفّة كسحابةٍ سكبتْ ظلاً فوق حقل مضاء بالشمس: «تلك الفتاة تحمل طفلاً!»، قالت بحنق: «إنها لمعجزة أن الجنين ما زال حياً، فظهرها يعجّ بالكامل بآثارٍ حديثةٍ لـ،،»، خفتت نبرة صوتها، ثم توقفت عن الكلام دافنة رأسها في كتفي.

تنامت رغبة مارمي في إبقاء فلورا معنا طوال فترة حملها، كارهة لفكرة رحيلها على هذه الحالة إلى مستقبلٍ مجهولٍ في بلدٍ غريب، على الرغم من معرفتها بأنّ السود الأحرار في كندا سيرحبون بالفتاة بحرارة وود، لكن ما

زال المجتمع هناك فتياً محدود الموارد، أخذتُ وجهة نظرها بعين الاعتبار واضعاً مخاوفي جانباً، لكني مع ذلك لم أر أيّ حكمة في كلامها، خاصة مع علمي بأن القانون الخاص بالعبيد الهاربين صارم لا يحابي أحداً من الفارين حتى في ولاية ماساتشوستس، لذلك لن أخاطر بإبقاء الفتاة وجنينها بما يعرضهما لتهديدٍ يوميّ، قد يعيدها وطفلها المنتظر إلى العبودية من جديد، بناء عليه قررنا استضافة الفتاة لأسبوعين ريثما تلتئم قروح قدميها، لتبذل مارمي قصارى جهدها في هذه الأثناء لرعاية الوالدة الصغيرة بمهارات الأم الرؤوم.

في الأيام التالية، حاولنا الالتزام بطقوس أعمالنا الروتينية المعتادة قدر الإمكان كي لا نلفت النظر أو نجذب انتباهاً غير مرحبٍ به، تابعت ميغ اهتمامها بأطفال السيد كينغ، ولأول مرة في ذلك الأسبوع تمنعت عن إبداء أي وجهة نظر عن صعوبة مهمتها ولهاثها طوال اليوم خلف أقزام مدللين، بالمثل، لم تنبس شقيقتها جو ببنت شفة عن نوبات عمتها الهستيرية، حتى إيمي قاطعتِ الشكوى مؤثرة التحدث بمرحٍ عن زملائها المثيرين للغيظ.

لم أجالس فلورا إلا لأوقاتٍ قليلة: إذ على الرغم من محادثتي الهادئة معها، بدت متحفظة لدرجة الذعر، تفهمتُ موقفها بالنظر للظروف التي مرت بها، مخمناً الدوافع التي جعلتها تربط السمات السيئة برجالٍ بمثل عمري من ذوي البشرة البيضاء، لكن مارمي أبلغتني عن إقصاء الفتاة لنفسها عن أي تعاملٍ مهما كان، حتى معهنّ على نحوٍ غير مفهوم.

فأرتي الصغيرة بيث، الأكثر خفراً بين أخواتها، وحدها التي تمكنت من أسرِ فؤاد فلورا واقتحام خزينة أسراره المقفلة، لطالما تسببت روحُ بيث الرقيقة وصحتها العليلة بحجبنا لها عن العالم الصاخب خارجاً، لذلك لم تلتحق الفتاة بمدرسةٍ أو عمل، مؤثرين بقاءها في المنزل معاونة حنا بما تيسر لها من الأعمال المنزلية، أما تعليمها فتلقته مني ومن والدتها، فلورا بدورها غير القادرة على مغادرة المنزل خشية النظراتِ المبغضة، خاصة بعدما ألهبت قضية إلغاء العبودية نقمة الناس في كونكورد من جراء الغارة التي شنها براون، أما القرية فباتت محطة لسائقي عربات الخيل، فمن يدري بم يفكر أولئك الجوالون المترددون على الحانات؟

بالنظر لزمهرير الجو واحتياج زائرتنا للراحة، لم يكن من الصعب عليها الالتزام بعدم مغادرة المنزل، أما بيث عاشقة التنزه بالغابة، فكانت تعود بأكواز الصنوبر المنعشة وعناقيد الإيلكس المشرقة، كي تزيّن الحجرة الخفية التي تقطنها فلورا بفتنةِ الطبيعة الثرية، نهاراً بعد آخر، كان يتناهى إلى مسامعي أثناء مروري أسفل الدرج صوتان ناعمان يتبادلان الحديث: همساتُ بيث الأنيسة الخجلة يليها النبرة الجنوبية غير المألوفة في الرد، لطالما تقتُ لمعرفة ما تتحدث به فأرتي ذات الأحد عشر ربيعاً الآمنة المحصنة من تلوث العالم الخارجي، مع فتاة مسكينة لم تتخط عامها الخامس عشر، الشاهدة على سفالة البشر، الهاربة من فسوقهم، على الرغم من قلقي وحرصي على وقاية براءة طفلتي وصونِ نقاوة ذهنها، فإنّ التدخل بعلاقتهما بدا غير لائقٍ على الإطلاق، فأنى لي تفريق روحٍ هادئةٍ معطاءة عن صديقتها الوحيدة البائسة!

في فترة ظهيرة اليوم الثالث لإقامة فلورا معنا بالمنزل، وبينما كنت منهمكاً خلف طاولة مكتبي بمطالعة مخطوطٍ جديدٍ لوالدو تلبية لرغبته بقراءته وتذييله برأيي الشخصي، بالكاد سمعت طرقاً على الباب لمرة أو اثنتين، فرفعت رأسي:

«نعم؟»

«أبي»، جاءني صوت فأرتي، «هل يمكنني الدخول؟»

«بالطبع يمكنك يا فتاتي العزيزة!» قلت واضعاً أوراقي جانباً ثم نهضت واقفاً، لم أعهد لبيث أيّ مقاطعة من هذا القبيل، لذلك حاولت إبلاغها بأنها موضع ترحيب عظيم، خطوت نحو كرسي بذراعين قرب المدفأة فلا يفصل مكتبي بيننا، ثم أشرت لها بالجلوس على ركبتي.

لاحظتُ تكوّر قبضتها الصغيرة بارتعاش تحت مريلتها، فأخذت كفها بيدي، قوّمتُ أصابعها وقبلتها، ثم ابتسمتُ مشجعاً بالاستفسار: «ما الخطب يا عزيزتي؟»

«حسنًا، أعلم أننا اعتكفنا استهلاك الحليب والجبن كونهما ملكية خاصة بالأبقار، لكني أتساءل إن كانت البقرة لا تمانع بتقديم القليل من ألبانها

لفلورا النحيلة جداً، العاملة منذ نعومة أظفارها في مصنعِ ريتشموند – أوه!»، وضعت يدها على شفتيها، «لا يتوجب عليّ إفشاء ذلك»

«لا بأس يا حبيبتي، سرك بأمان، أكملي»

حدقتْ بنظرة ثقةٍ واطمئنان: «أعلم يا أبي»، ثم واصلت ما تود قوله بجبينٍ متغضن: «تراءى لي أثناء قراءتنا لكتاب السيدة بيتشر، أن العبيد يظفرون بالهواء الطلق، الشمس والتربة الدافئة، لم أفكر مطلقاً بالمصانع المشادة بالجنوب، بآلاتها الصاخبة السيئة، بالمسجونين المستعبدين تحت نير العمل المضني كما وصفته فلورا،،،»، تدلى رأسها قليلاً، فتهدلت خصلة من شعرها الكستنائي فوق جبينها، مسدتُه برقة حيث افترق بأناقة وجمال، ثم ناولتها منديلاً كي تجفف عبراتها، تابعت حديثها على الفور: «قطعت فلورا المسافة مشياً على الأقدام لستة أيام متواصلة كما تعلم، قبل أن يتم القبض عليها وتعرية ظهرها وجلدها بالسوط، ثم حاولت بعد أسبوعين الفرار من جديد، يا لها من فتاة شجاعة يا أبي! أظنها على وشك مواجهة المزيد من الصعوبات بمفردها، لذلك قد تكون الألبان وما شابهها، كما أخبرتني حنا، الحل الأمثل لـ،،، «

«أنت محقة تمامًا يا حبيبتي، من الحكمة التفكير مليّاً بالأمر، أخبري حنا أن لها مطلق الحرية بالتزود بالمؤن المتنوعة طوال إقامة فلورا معنا، فلتحرص على تلبية ما نستطيع توفيره من احتياجات الفتاة».

انزلقت بيث من حجري والفرح مشرق في عينيها، ثم هرعتْ إلى المطبخ، نهضتُ من كرسيّي بذهنٍ مضطرب ارتشح بذكرياته الدفينة في أنحاء المكان، أحداثٌ لطالما حاولتُ قمعها على الدوام، تفاصيلُ يوم حارٍّ في حظيرةٍ مظلمة وسوطٌ يسلخ جسداً عارياً لشابة بريئة، قصدتُ النافذة محدقاً بالأشجار القاتمة المكسوة بالجليد، الظلم مع عجزي عن مواجهته أشعلا حفيظتي، ملهبين غيظي حتى استحال بركاناً تفجر بقبضتي فانهالتْ بعمىً فوق زجاج الشباك.

نظرًا لضرورة متابعة اهتماماتنا المعتادة قدر الإمكان، لم أستطع وزوجتي رفض دعوات بعض الأصدقاء للزيارة، أذكر منها مأدبة الغداء التي أقيمت على

شرف ناثانيال هوثورن العائد مؤخرًا إلى قريتنا بعد سنوات قضاها في الخارج، دار الحوار عن جون براون والمطاردة المستمرة لأنصاره بقيادة سياسيين جنوبيين نافذين في واشنطن، حديثٌ أصابني بعدم الارتياح، ليزداد الطين بلّة بما ارتآه هوثورن، البعيد كل البعد بقناعته عن مداراة وجهة النظر الشمالية مصرّحاً بالقول: «من منتهى العدل أن يُشنق رجلٌ مثل براون!»، تحولت المقلُ في الغرفة إلي، متوقعة دفاعًا شغوفًا عن براون، لكنني آثرتُ التزام الصمت.

لا بد أنّ مارمي راودها الشعور ذاته، بدا ذلك جلياً حين اشتكت من صداعٍ طفيف، دفعنا لنكون أول المبادرين بالمغادرة، في الطريق المختصر إلى منزلنا، أمسكتُ ذراعها بإحكام أكثر من المعتاد متأملاً في الأوقات البديعة التي شهِدها لنا الدرب، متفكراً بعدم قدرتي على النجاة إنْ حُرمت من رفقتها.

مع وصولنا إلى البوابة، لمحت الممر مُسجى بعلاماتِ أحذيةٍ ثقيلة، هرعتُ لفتح الباب، فرأيت حنا محنية على أطرافها الأربعة، تمسح آثار الأقدام الموحلة المتجولة في الداخل.

«الشكرُ للرب، لقد سررتُ بعودتكما!» سارعتْ حنا بالقول مطمئِنة: «الفتاة أفضل حالاً الآن»، مومئة برأسها نحو الردهة، حيث كانت بيث مستلقية على الأريكة، بوجهٍ ملطخٍ بالاهتياج والدموع.

«ماذا حدث؟»، صرخت مارمي، جاثية على ركبتيها متحسسة جبين الفتاة خشية من بوادر الحمى.

«جاء موظف الأمن باحثًا عن فلورا»، أجابت بيث بصوت متهدج.

«لم أكن هنا»، قاطعتها حنا: «ذهبتُ إلى السوق، ما وضع الطفلة المسكينة بخضم المواجهةِ بمفردها،،،»

اغرورقتْ عينا بيث بالدموع من جديد، فاحتضنتها مارمي بين ذراعيها، «لا بأس لا بأس! ليست غلطتك! لم يكن بيدك حيلة لإنقاذها،،،»

«من المذهل أنها أنقذتها بالفعل»، أردفت حنا وهي تنهض بتثاقلٍ ملقية بقطعة القماش الموحلة في الدلو، «ما زالت فلورا آمنة في مخبئها، من يمكنه التخمين بأن صغيرتنا تمكنت من تدبر أمر الشرطي بذكاء كما

فعلتْ!». ابتسمت حنا بوجه بيث التي جلست برأسٍ ملقى على كتف أمها، «يا لها من فتاة شجاعة! سأقوم بتحضير بعض المشروبات الساخنة، أظنكم بحاجتها جميعكم».

غادرت حنا المكان بينما طلبت مارمي برفق من بيث سرد ما حدث، بنبرةٍ خفيضة استهلت الطفلة روايتها التي بدأت بضرباتٍ ثقيلة على الباب.

«كنا إبانها نلهو مع القطط في الطابق العلوي في حجرتي، سارعت فلورا إلى مخبئها بينما نزلتُ لأفتح الباب للطارق الذي اقتحم المكان دون استئذانٍ أو تعريفٍ بنفسه أو الاكتراث بمعرفة غيابكم عن المنزل، بدأ يصيح بغضب مدلياً بمعلوماتٍ تفيد بمواراتنا لأحد العبيد الهاربين، فأنكرت الخبر بشدة»

«بيث!» خاطبتها بذهول، لم أصدق أن فأرتي الصغيرة لها القدرة على محادثة الغرباء، بل ومجادلة غريبٍ حانقٍ وتضليله ببسالةٍ وإقدام!

«لم أكذب يا أبي، ولم يكن ما قلته بهتاناً» ردت بيث كأنما التقطت ما يدور بذهني.

« أخبرته أنني لم أر عبداً في هذا البيت»، ثم أكملت ما تود قوله بهدوء شديد «أتراني نطقتُ بالباطل؟ لا! بل بالحقيقة التي علمتنا إياها يا أبي مراراً وتكراراً: (لا عبيد في عيني الله)، فإن كان الرب لا يعتبرهم عبيداً أنّى ليَ أن أفعل؟»

تبادلتُ مع والدتها نظراتِ اعتزازٍ أعلى شعرها البني، مبتهجيْن بطفلتنا المشبعة بالإنسانية والإيمان.

«أبدى الشرطي وقاحة لا نظير لها، مصراً على التأكد بنفسه مندفعاً لصعود الدرج بخطواتٍ فجة، إلا أنني اعترضتُ طريقه مطالبة بإذنٍ رسميٍّ للتفتيش، فتغير اللون في وجهه وغادر مسرعاً إذ لم يكن في جعبته أي تصريح بذلك»

«بيث»، خاطبتها بافتخار؛ «أيتها المذهلة!»

الحقيقة المؤسفة أنّ الشرطي الذي لم يجد حاكماً من كونكورد لمنحه تصريحاً رسمياً، لن يضيره الحصول على إذنٍ من أحد قضاة ماسوتشوستس المناصرين لقانون معاقبة العبد الهارب، على الرغم من رضاي عن مهارتي بحجب الحجرة عن الأعين، فإن اعتزازي بحرفيتي لن يبيح المجازفة

بحرية فلورا عبر إخضاعها لاختبارات تفتيش الشرطة، بما أوجب مغادرة الفتاة لنا بأسرع وقت، أرسلتُ حنا بطلبِ مشورة بعض الأصدقاء، وما إن حلّ الظلام حتى وصل هنري ليقلها بعيداً إلى مسكن إدوين بيغلو الحداد الذي سيرتب لرحلتها القادمة، لم يُتح لميغ وجو فرصة وداع فلورا نظراً لالتحاقهما بأشغالهما، أما إيمي وبيث فلم تكفا عن ذرف الدموع، تندت مقلتا مارمي، كما راودتني رغبة عارمة بالبكاء لرحيلها، وداعٌ لم يخضِل عيني فلورا الجافتين، لكنه لم يردعها عن تقبيل بيث، قبيل ارتحالها خلف التلال عبر دروب الغابات السريّة المؤدية لمنزل الحداد.

عامٌ مضى قبل تلقينا خطاباً أرسلته سيدة كندية عاكفة على رعاية الفتاة التي أرادت إعلامنا بتجاوزها لمأساتها رغم وفاة وليدها، كتبت المرأة الكندية تقول: «على الرغم من جزعها المحتوم على مصير رضيعها، فإنّ نظرة متفائلة للمستقبل ما انفكت تومض بعينيها، إنها راضية بمشيئة الرب كما أعلنت، فالإله ما كان ليخلصها من الاستعباد في مصر لولا قدرٍ جميل يخبئه لها، في حين ما زال الكثيرون من أقرانها يرزحون تحت نير العبودية، يا لها من شابة ذكية! أدرك في الوقت ذاته مدى معرفتكم بجسارتها وعزمها، سأعلمها حروف الهجاء، لذلك توقعوا أن يُرسل الخطاب التالي وغيره الكثير منقوشاً بخطّ يدها»

هذا ما حدث بالفعل، فقد وصلتنا رسالة من فلورا بعد يوم واحد من تخلي جيفرسون ديفيس[1] عن مقعده في مجلس شيوخ الولايات التي لم تعد متحدة، قرأت الرسالة بصوتٍ عالٍ لبناتي المتحلقات حولي في الصالة، الجريدة من بعدها، «لقد أخبر ديفيس زملاءه أعضاء مجلس الشيوخ قبل رحيله بأنه لا يكنّ العداء لأحد، متمنياً التوفيق لهم جميعاً، أسرّ مصدر في مجلس الشيوخ عن ديفيس قضاءه الليل مصلياً من أجل السلام!»

1- جيفرسون فينيس ديفيس (1808-1889) سياسي أمريكي والرئيس الوحيد للولايات الكونفدرالية من عام 1861 إلى عام 1865. كان عضواً في الحزب الديمقراطي وممثّلاً لولاية ميسيسيبي في مجلسي الشيوخ والنواب قبل أن يصبح رئيسًا للاتحاد الكونفدرالي.

جميعنا نصلي رجاء إحلال السلام، لكن قلبي ما برح مترصداً نشوب الحرب، حينما أفسح الشتاء المضطرب الدرب لربيعٍ كئيب، بات جلياً أن جون براون كان محقاً: ليس بإلحاقه العامة بذعرٍ جزافيٍ أعمى، بل في نبوءته عن إراقةٍ حتميةٍ للدماء، فكيف للمرء أن يُدِير خداً لصفعة الشر، خاصة إن كان هذا الخد ملكًا لأبرياء لا ذنب لهم، لفتاةٍ ذات أقدام مهشمة وظهرٍ مجلود بالسياط، أوشك صائدي العبيد على اقتناصها من مخبأ سريّ أعلى درج بيتنا؟!

احتدمت الحرب بالفعل، حاشدة بالجنود الأغرار أوائل الصيف في منطقة تدعى كاتل شو، جارفة إياهم جنوب البلاد، كغيرنا من القرويين، نزلنا للتشجيع والتهليل، فتعرف عليّ العديد من الشبان، صاح أحدهم: «ألن تلقي كلمة لأجلنا يا سيد مارش؟»، أيّده الآخرون بالهتاف حتى وجدت نفسي مقتحماً الحشود ذات الوجوه النضرة المتلهفة، وصولاً إلى منبرٍ مقلقلٍ لأحد الجذوع طريحة الأرض، وقفتُ بثبات أتجول بين المقل المترقبة، يا للشباب المتحمسين المستعدين للمخاطرة بحياتهم! كم منهم سيعود سالماً إلينا؟ تساءلتُ مكروباً، رسا بصري على شاب ذي شعر رملي بدا شاحبًا شارد الذهن، سرعان ما تعرفت عليه إنه ابن إحدى عائلات الكويكر، لا بد أن تواجده هنا كلفه الكثير من الصراع الداخلي.

«هل تعلمون أن ملك السلام نفسه قال لتلاميذه يوماً: من لا سيف عنده، فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً[1]، ها قد حان دورنا، صحيح أن غيرنا من أطلق شرارة الحرب، لكننا لن نرضخ لشرها، إنها دعوة للتأمل؛ لمَاذا نخوض معاركنا وأيّ عدوّ نحارب؟ يا أبنائي ألا يقول الكتاب المقدس: «وَأَمَّا نَحْنُ فَنَتَجَرَّدُ مُسْرِعِينَ قُدَّامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى نَأْتِيَ بِهِمْ إِلَى مَكَانِهِمْ[2]..، لَا نَرْجِعُ إِلَى بُيُوتِنَا حَتَّى يَقْتَسِمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ[3]»، إننا غادون إلى الحرب لتطهير أرضٍ آثمة داخل بلدنا المبارك، لتخليص بقعة بات من الجُرم فيها تعليم

1- إنجيل القدّيس لوقا 22 (35-38)
2- (عد 32: 17)
3- (عد 32: 18)

كلمة الله لأبناء الله، ذاهبون لقتال أفكارٍ فاسدةٍ تفرق من جمعهم الربُّ معًا، ماضون إلى مرابعَ رجيمة! فمن غيرنا يستأصل الشر الكامن بين ثناياها؟»، صارخاً بالكلمات غارقاً بفراغ فحواها، تأملتُ يائساً؛ ما جدوى كلماتي بعد كل شيء، مقارنة بالمخاطرة التي يوشك أولئك الشباب على خوضها؟ أفعالاً لا أقوالاً، هذا ما نحتاج إليه في آخر المطاف!

توقفتُ لأمسح حبات العرق عن جبهتي محدقاً بالهاماتِ المنحنية حتى وقع بصري على رأسٍ شامخٍ وعينين مثقلتين بالدموع ترمقاني بحزن، إنها مارمي، لعلها أصغت لمرادي المحشور خلف الكلمات، للنية التي لمّا يدركها عقلي بجلاءٍ بعد، لحظة طويلة جمعت نظرتينا حتى تبيّن تساؤل ملامحها واضحاً، كما لو أنها أعلنت ما أضمرته بصوت عالٍ فأومئ بالموافقة رأسي.

«سنذهب!» صرخت، كانت تعلم قبلي أنني أعني ما قلته، رفعتْ كفيها في إيماءة تأييد، كما لو أنها صفقتْ بالريح تحت جناحي فتعالى صدى صوتي:

«أقول (نحن) يا أصدقائي إن وافقت قيادة الجيش على اصطحابي معكم!»، رفع الشباب رؤوسهم بابتهاج مطلقين هتافات صاخبة، أسكتّهم وأردفت: «نذهب معاً ومعاً نعود بمشيئة الرب، في ذلك اليوم العظيم المشرق حين يقتسم بنو إسرائيل كل واحد نصيبه: ميراثُ سيمسي أمة موحدة، دولة واحدة حرة إلى الأبد!».

نزلتُ عن المنبر ثم شقّقتُ دربي عبر الحشود صوب مارمي التي أبدت افتخاراً أقعدها عن الكلام، قبضتْ بشدةٍ على يدي وضمتها إلى صدرها، أحسست بقبضة كفها قوية كما لو أنها لرجل.

طوال الأسابيع التالية؛ عاملتني القرية كبطلٍ هُمامٍ، وجهاء كونكورد وكبارها حضروا إلى منزلنا مبجلين، محمّلين بحفناتٍ من الأموال داعمين مهنئين، في حين وجه البعض تهماً مبطنة بقلة الحكمة والتهور للشروع بتعهدٍ مماثل لرجلٍ مثلي، لكنهم لم يصرحوا بمكنوناتهم عدا عمتي مارش التي تجرأت فنعتتني بالحمق والغرور، وبأنني أبٌ غير مسؤول، متنبئة بمقتلي في الحرب وترك عائلتي للعوز والفاقة، شكرتها على صراحتها راجياً صلواتها ودعواتها إن لم يكن مباركتها القلبية.

ما حدث أنّ قائد وحدة الكونكورد أسند مهمة الكاهن لقسيسٍ أكثر تحفظاً مني، لذلك لم أغادر مع شبابنا، أمرٌ لم يثبط عزيمتي خاصة مع صعوبة إعادة المعونات المقدمة، لذا قام القس داي بترشيحي للخدمة بوحدة مكتظة بأبناءٍ أغراب من قرى المصانع، التحقت بهم في ذلك الخريف لمدة قصيرة حرصت إبانها على خدمتهم قدر استطاعتي، إلا أن الأقدار قادتني هنا إلى أوك لانديغ.

عامٌ مرّ حتى اللحظة، منذ ذكرى عهدي الجَسور المتفاني بالانضمام إلى صفوف الجيش والالتحاق بالحرب، ها أنا أستيقظ كل صباح، لأجد نفسي متصبباً بالعرق، مرتاباً فاقد الاتزان داخل مخزنٍ للبذور في أوك لانديغ، أياماً، أسابيع وشهوراً. أميال وأميال تحول بيني وبين ذلك الخطيب الشغوف المنتصب فوق منبره الخشبي أعلى الحشود المتحمسة المتأهبة، كم أتوق للعودة يوماً، ليس إلى زوجتي وبناتي فحسب، بل إلى ذاك الرجل النابض باليقين، البريء، واثق الخطوة، الحكيم البصير الذي بتُّ أفتقده.

الفصل الثاني عشر

القمرُ الدموي

ألوذ بمرأى عباءةٍ متلألئةٍ ناصعةٍ نقية، ساطعةٍ تبهر العينين، كلما أردتُ إقصاء مشاهد لاحقةٍ مترعةٍ بالأسى وشمت أيام حياتي!

أخبرنا الزنوج أننا محظوظون على نحو غير مألوف لحصولنا على موسمٍ معافى بلا عراقيل تذكر في الحقول، وأننا سننتهي من القطاف مع خسوف البدر في سمائه، وحلول أوان الرقص تحت طيفه القرمزي، حصادٌ عظيمٌ تطلب تحضيراتٍ ضخمة منها نصب دفات الموازين في نهايات الصفوف، وإصلاح السلال وأكياس جمع القطن، كما تم توضيب المحلج لاستقبال قطن المحصول الجديد، نتاجٌ غنيّ ضاعت فرصة قطافه للأبد، بعد تسلّلهم متقدمين بزوغ الشعاع الأول للقمر الأحمر في الأفق، قبيل الفجر خلال ساعة هادئة هرعوا مهرولين بصمتٍ قاصدين أحياء العبيد مخترقين الفناء الفاصل بين المحلج والمصنع، مغافلين غفوتنا أنا وكانينغ.

بداية ظننتُ أنني أصغي لجلبةٍ ما أثناء نومي، لعلها نَخيرُ حصانٍ في الظلام الحالك أو طقطقةٌ لِركابٍ ما، لا أدري أيّ منها أيقظني، لكن سرعان ما تسللت إلى أنفي رائحة فضلاتٍ حديثةٍ لخيلٍ لم أعهد لها إسطبلاً قريباً، تدحرجتُ عن فراشي دون أي تفكير مندفعاً إلى مخبأي الضيّق، سحلتُ كيساً فتهاوت البذور مغلقة فوهته خلفي.

لم تمضِ سوى دقائق معدودة حتى زُلزل كياني برعشات الذعر مع سماع صرير المفصل القديم للباب، تلاه وقعُ أقدام ثقيلة على الألواح الخشبية، خشخشةُ تطاير البذور بعد ركل أحدهم لمرتبتي، ثم،

«اللعنة!»

«لا يزال السرير دافئًا»، علّق أحدهم بنبرةٍ خفيضة: «لا بدّ أنّ الملعون الداعي لإبطال العبودية لم يبتعد كثيراً من هنا»، لمحتُ عبر نفق الهواء الذي صنعته للتنفس، تأرجحَ شعلة المصباح ذهابًا وإيابًا بينما كانوا يجوبون أرجاء المكان بحثًا عني.

صوتٌ آخر تسرب من نهاية المخزن: «انظروا لوحاً خشبياً مهترئاً! لا بد أن الرجل انسلّ هارباً من هنا!»، رقص الضوء من جديد قبل أن يتلاشى مُغدقاً العتمة والذعر، كنت جالساً محدودب الظهر بركبتين مرفوعتين إلى صدري، بينما عُقدت يداي الغارقتان بالعرق فوق عينين عاجزتين ضريرتين.

وقعُ خطواتٍ تتراكض - الكثير من الأرجل تقصف الأرض المكتظة بالخارج، عجيجٌ، طلقات مسدس وزعيق، شعرتُ كما لو أنهم يجرون شيئًا عبر الفناء، ثم توقفوا جوار المخزن، ليتسلل بعدها أنينٌ وعويلٌ، ثم تعالى صراخ إيثان غليظاً أجشّ: «لا!»

صوتٌ هادئ خفيض النبرة ردّ بتأنٍّ ولطفٍ:

«يؤسفني إعلامك أن عرجك سيغدو أسوأ حالاً بعد انقضاء الليلة، من فضلك يا سيد كانينغ أرسل في طلب مارش، وإلا سأضطر لإطلاق النار على ساقك السليمة أيضًا»

«اللعنة عليك!»، تلفظ إيثان بالشتيمة متأوهاً لاهثاً.

صدح أزيز طلقة أخرى، رافقه صراخ مفعم بالأسى والألم، انقبضتْ معدتي دالقة بمحتوياتها في الحفرة الخاوية من الهواء الطافحة الآن برائحة القيء النتنة، مرتعشاً فكرتُ بالخروج وتسليم نفسي، لكن الخوف الجاثم فوقي كصخرة ثقيلة، أفرغ صدري من الأنفاس مُثبتاً جسدي بلا حراك، مع ذلك، لم يتمكن هدير الدماء المتدفق بعروقي من حجب أذني عن سماع الصوت الخافت من جديد: «هلاّ يمكنك تقديم معروف لنا يا سيد كانينغ، فليس بوسعه الهروب بعيداً، لا بد سنعثر عليه في الغابة إن لم نتمكن من القبض عليه الآن».

سمعتُ نشيجَ إيثان ولهاثه مكافحاً لالتقاط أنفاسه، أظنه همسَ بشيء فاتني فهم معناه، صليلُ سيفٍ استُل من غمده، ثم! صيحة تلاشت بتأوهٍ مكتوم.

«لقد أغميَ عليه»، نطق صوتٌ آخر أكثر خشونة.

«لا عليك، اربطه فوق حصانه وأحضر العبد العجوز»، لحظة صمتٍ وجيزة عبرت تلاها ضجيجٌ لجرجَرة الأقدام وبالنبرة ذاتها صدح السؤال: «ما اسمك أيها الرجل؟»

«بطليموس أيها القائد» جاء الردّ بصوتٍ منخفضٍ، هادئ وقور – لا علاقة له بتهدج صوت بطليموس المسنّ، لا بدّ أنه زيك.

«مألوف للغاية!»، علّق القائد، «لقد اعتدنا مناداة أحد عبيدنا بهذا الاسم، أما الآن فاركع أيها الرجل وانحنِ بعنقك، ليس هنا! بل هناك أعلى ذلك الجذع المقطوع بالضبط، أشكرك! ثمّ رفع القائد صوته لصراخٍ رنانٍ صدّع سكون الأرجاء، «يا سيد مارش! حبذا لو تصغي جيداً، أعلمُ أنك تحب الزنوج وتتعاطف معهم، المدعو بطليموس بصحبتنا الآن، وأخشى أني مضطر لقطع رأسه إن لم تأتِ للترحيب بضيوفك على الفور»، أخفض صوته ثم خاطب ساخراً رجاله: «أعلم جيداً أنْ لا أخلاق لأولئك اليانكيين على الإطلاق»، تعالت ساخرة القهقهات من حوله.

كنت أتصبب عرقاً بينما يلتهم الارتجاف جسدي، ما انفك عقلي يأمر أوصالي بالتحرك، بالزحف مسارعاً لإنقاذ الرجل العجوز، لكن أعصابي المخدرة أبت الاستجابة، تناهى إلى مسامعي صوت بطليموس المتصدع صارخاً بالقول: «سيد مارش، إن كنت تسمعني أرجوك ابق حيث أنت؟ لا استنفدت حياتي لآخرها وأنا مستعد لمقابلة اللـــــ --»

صوتُ كشط معدني، تأوه مع قضم نصل السيف للخشب، تلاه خبطة خافتة لارتطام جسد بطليموس بالأرض، شعرت كما لو أن رمحاً جليدياً طعن صدري، أيّ جبنٍ تسبب بوفاة عجوزٍ لا حول له ولا قوة، تكورتُ في حفرتي أكثر فأكثر، ضارباً رأسي بأكياس البذور، ناحباً كطفلٍ يائس.

«لا مزيد من الوقت للعبة الاستغماية»، قال القائد «هيّا أنتم الثلاثة، احرقوا المحلج ومخزن البذور، أما أنتم فأضرموا النيران في الحقول، فإن أنجزتم المهمة، احتشدوا أمام منازل الزنوج»، لا بد أنه امتطى جواده الذي صهل وخبّ قاصداً أحياء العبيد.

سمعتُ طقطقة تلاها أجيج اشتعال النسيل في المحلج، أقبلت خطواتهم

بعد ذلك صوب مخزن البذور، سرعان ما فاح عبق البارافين الحاد حيث بدأوا يرشون الوقود من مصابيحهم على أخشاب المبنى، إن لم أخرج من المكان لاحترقت داخله، خطرٌ أجبر أطرافي المتخاذلة على التحرك أخيراً، أفلا أكون رجلاً بما يكفي لأنقذ حياتي على الأقل! شققتُ طريقي عبر البذور المتناثرة زاحفاً على بطني نحو اللوح الخشبي المهلهل الذي ذكره المتمردون في آخر المخزن، وقد قاموا بركله موسعين الفجوة بما مكنني من التسلل عبرها، تابعتُ التنقل منبطحاً، مستخدماً مرفقيّ وركبتيّ عابراً الأرض المكشوفة وصولاً إلى ركام الجذوع المنشورة، استعار النيران في بطن العتمة أنار المكان برمته، فلو التفت أي من الرجال لتمكن من رؤيتي بجلاء، لكن المبنى المحترق حال بيننا منتزعاً انتباه الجميع، وصلتُ إلى كومة الأخشاب ثم قمت بتحريك الألواح، فاخترقت شظية طويلة كفي أسفل الإبهام، مضطرباً قمتُ بإعادة تموضع أعمدة الكومة المقطوعة في محاولة للاختباء داخلها، لم يكن بإمكاني النظر واستطلاع المشهد إلا بعد التأكد من احتجابي التام.

الفناء مضيء بالكامل الآن، إذ تأججتْ ألسنة اللهب بجنونٍ ملتهمة المبنيين بنهم، انبلجتْ صورة كانينغ ساطعة أمام ناظري، شُدّ وثاق الرجل بقوة إلى أستر، بينما تدلت ساقاه على نحو غير مألوف، دماء سوداء تقطرت من جروح ركبتيه، بينما رقد رأسه فوق رقبة الحصان الذي تخضبت خصلات شعره بنزيفِ رأس إيثان، يا إلهي! لقد قاموا بقطع أذنه، بدا أستر مذعوراً من النيران ورائحة الدماء حتى ابيضت عيناه وتنقلت أطرافه بارتياعٍ محاولاً إلقاء حمله غير المرغوب فيه، مكافحاً للإفلات من لجامه المعقود بيدِ شابّ متجهم القسمات بالكاد يتحكم بزمامِ الحصان المُهتاج، في الواقع لم يكن سوى فتىً ضعيف البنية نحيل الجسد، سرعان ما أفلتت مقاليد الأمور من يده حين شبّ أستر بعنف، فصاح الفتى منادياً الآخرين لمساعدته مطلقاً وابلاً من الشتائم.

«لم يعد لدينا ما نفعله هنا، فلننظر بشأن الزنوج ولننته من هذا المكان، لكن قبل كل شيء ألقوا بجثة الزنجي العجوز في النار!»، بدا كأن الرجال الثلاثة الآخرين -الأكبر سناً- يتلقون الأوامر من ذلك الشاب، اثنان منهم

حملا جسد بطليموس الهش، بينما قام الآخر بحمل رأسه المنفصل متقززاً لاعناً، ألقوا بأحمالهم في النار كما لو أنّها قطع من الحطب لتأجيج ألسنتها، تمتمتُ بالصلاة من أجل راحة روحه.

لكن لماذا على الربّ أن يصغي لأي صلاة أتلوها الآن؟ فقلبي بات دركاً مظلماً تعجّ بالكراهية، بالبغضاء تجاه القائد المجهول ذي الصوت العذب! بالنفور من الفتى النحيل الوحشي! بالعداوة تجاه رجاله ذوي السحناتِ الساخطة! أما الأهم من ذلك كله، فأنا أشعر بالتقزز من نفسي الآثمة.

مكثتُ متوارياً بين أعواد الخشب حتى رحيلهم، زحفت إلى الخارج بعد ذلك، ثمّ انكببتُ على وجهي موغلاً أصابعي برعونة داخل التربة الطينية، يا لي من جبانٍ سفيه! انكمشَ بخِسّة داخل حفرته متسبباً بتعذيب رجلٍ ومقتلِ آخر، لماذا فعلتُ ذلك؟ لماذا سيطر الرعب علي إلى هذا الحد؟ ألأنني آثرت العيش؟ لكن ما فائدة العيش، إن كان على المرء قضاء حياته كارهاً لذاته الرعديدة؟ ما شكل أيامي اللاحقة بعد ليلة كهذه؟ كيف يمكنني مواجهة زوجتي وفتياتي مدموغاً بوصمةٍ لا تُمحى من العار؟

على مهلٍ وبنحو مفاجئ، راودني إحساسٌ غريب بالجدوى بدد حزني واشمئزازي من نفسي، أجبرتُ جسدي على الكفّ عن التململ ومن ثمّ النهوض، جثوتُ على ركبتي، مسحتُ وجهي بيدي الملطختين، بما لوّث خديّ وأوشك بالشظية أن تحكّ عيني، كان عليّ القيام بفعلٍ ما للتعويض عما حدث في الساعة الأخيرة ولو كلفني ذلك حياتي التي باتت بلا قيمة تذكر على أي حال، نظرت إلى الهيئة التي كنت عليها، فوجدتني أرتدي قميصاً خفيفاً وسروالاً خاصين بالنوم، حافي القدمين التهمت النيران حذائي والسترة، أيّ نفعٍ يجلبه مظهري البائس هذا؟ لا أدري حقاً، لكن ما أعرفه وجوب تتبع كانينغ حيثما مضوا به، حتى لو كان المكوث معه آخر ما أفعله في حياتي، فكرتُ إن بقيت أي رحمة في العالم، لا بد أن أجد وقتاً لمزاولتها.

أفرجتِ الظلمة عن أفقٍ لؤلئي رماديّ السيماء، فتحركتُ مهرولاً عبر

الفناء قاصداً المنزل، توقفتُ في الداخل لأرى إن كان ثمة شخص في الأنحاء فوجدتُ الدهمة قد اكتسحت المكان وأغشاه السكون، ركضتُ مسرعاً عبر غرفة الطعام، فلحظتُ أنّ المقاتلين اقتحموا المنزل مستولين بمهارة فائقة على بعضٍ من ممتلكاته الثمينة، اختفى الشمعدان ومعه الكمية القليلة المتبقية من الخزف الصيني، الحذاقة البينة في السرقة لا تنم إلا عن خيانة ما،، زيك بكل تأكيد! لا بد أنه ظلّ طوال أشهر مُبطناً الولاء لأبنائه، مناصراً للكونفدرالية التي يخدمون، افترضت أن الضيم الذي سببته قسوة كانينغ المبكرة، أترع قلبه ببغضٍ دفين.

لكن زيك لم يكن على دراية بالمخبأ الكامن تحت لوحٍ أرضيّ متحرك في إحدى الغرف العلوية، حيث كان إيثان يحتفظ بمخزنٍ صغير لمواراة أغراضه الشخصية، لم يبح بالسر مؤخراً لأحد غيري تحسباً لمثل هذا الظرف الطارئ، فتحت مصراع النافذة لاستجداء القليل من الضوء، ثم شعرت بقدمي تطأ اللوح السائب، سارعتُ بخلعه فعثرتُ على محفظةٍ جلدية أخبرني كانينغ أنه يحتفظ بمبلغ قليلٍ من النقود داخلها، فتحتها، فرأيت صورة أمبروتاب[1] لفتاةٍ ذات شعر داكنٍ في نفس عمر ميغ، لم يتحدث كانينغ عنها قط، قربتُ الصورة من وجهي مستغرقاً بضع ثوانٍ لتفحصها، فلم أر شبهاً بينهما على الإطلاق،، لا خديها النضرين الممتلئين ولا شعرها الغامق، المتمايزين عن ملامح كانينغ الحادة وشعره الأشقر، تيقنت أنها ليست أخته، مع ذلك فاحتمال وجود حبيبة لكانينغ وفرضية كفاحه المحموم للفوز بالزواج منها، طعناني في الصميم، أغلقتُ المحفظة ووضعتها في الجيب الداخلي لقميصي، حيث احتفظتُ بجعبةٍ حريريةٍ صغيرةٍ تخفي خصلات شعر بناتي الحبيبات.

حاولت زجّ قدميّ بأحد أحذية كانينغ، لكن دون جدوى، إذ كانتا أكبر بكثير من مقاس قدميه، مع ذلك لا بديل آخر لدي، حملت زوجَي الأحذية للمطبخ، لعلّني أقطع مقدم الحذاء فيتوسع قليلاً، لكن لم أجد سوى سكاكين مثلّمة لا تنفع لشيء، بترت مكان الأصابع بصعوبةٍ بالغة ثمّ وضعت قدمي

1- الأمبروتاب (ambrotype) تقنية قديمة لالتقاط صورة إيجابية على لوحة رفيعة من الحديد أو الصفيح.

بالحذاء الضيق الموجع لتخرج أصابعهما عارية ملامسة الأرض، لا بأس فهذا أفضل بكثير من السير حافياً.

عدوتُ عابراً الفناء متجهاً صوب الحقول حيث اندلعت النيران بلا رحمة مستعرة بمحصولها، إلا انّ الهدير واحتدام اللهب لم يتمكنا من حجبِ الصرخاتِ الصادحةِ من أحياء الزنوج، غيرتُ الاتجاه مخترقاً رقعة الذرة الممتدة على طول الطريق المؤدي إلى صف المساكن الأول، يا لأعواد الذرة الغضة السامقة التي أجارتني من الأنظار!

المقاتلون الأشداء - كما ظننت، بان هوانُ قواهم بجلاء أمامي، فالمجموعة مشتتة لا تضمّ أكثر من عشرين رجلاً يرتدون ثياباً فضفاضة بدرجاتٍ من اللونِ الجوزيّ، اثنان منهم من الزنوج، خمنتُ أنهما ولدا زيك، بما يعني على الأرجح أن الشاب النحيل الذي يقود أستر، لم يكن سوى ابن المشرف الأسبق على العمال في أوك لانديغ.

لمحتُ أحد الزنوج ممتطياً حصانه خلف رجلٍ أنيقٍ أكبر سناً، القائد على ما أظن، بدا أنهما يتشاوران حول إجراءات تخصّ الفرز، ثمّ بدأ المتمردون مع خيولهم بتشكيل طوقٍ لمحاصرة الزنوج الذين تجمعوا في الفناء حيث صدح الزعيق، لم يتبقَ سوى ستين فرداً بعد تمكن الزنوج الأسرع من الفرار كما ظننت.

احتجز الرجال عشرين شخصاً من أفراد زنوج داروين بيند -معظمهم من النساء بينهم أربعة أو خمسة رجال- مقيدين معاً بحبال طوقت أعناقهم، سارع أحد المتمردين حيث انكمشت الفتاة الصغيرة سيلا بذعرٍ خلف جدتها، الطفلة المحببة التي تذكرني بإيمي، دفع الرجل المرأة العجوز بهمجية، ثم قبض على معصم الطفلة رافعاً إياها إلى ظهر حصانه، حينما صرخت الفتاة مقاومةً محاولةً النزول، صفع وجهها بعنف، خيّالون آخرون اخترقوا الحشد ملتقطين الأطفال، منحّيْن الآباء جانباً متجاهلين صرخاتهم وتوسلاتهم، قبض أحد الرجال على جيمس، فمدّ الصبي الصغير ناشجاً مناشداً أمه زانا التي هرولت للأمام بذراعين مفتوحتين محاولة اللحاق بصغيرها قبل أن ترديها ضربة بحافة بندقية أحد المتمردين، فانكبت بوجهها

على الأرض، نهضتْ من جديد والدم يسيل من أنفها مسارعة ثانية إليه، لكن الرجل سارع بتوجيه الفوهة نحو رأس الصبي متوعداً بقتله إن اقتربت أكثر، فما كان من المرأة إلا أن جثت بركبتيها فوق الأرض الموحلة متقهقرة يائسة.

ما رأيته فاق قدرتي على الاحتمال، لم أدرك ما بوسعي عمله، لكني وجدتُ نفسي مضطراً للقيام بفعلٍ ما، تحركتُ إلى الأمام، مبعداً أعواد الذرة بذراعي، حتى أتتني ضربة خلفيةً على ركبتي كادت توقعني أرضاً، لحقتْها كفّ كبيرة أطبقت على فمي، «ابق حيث أنت يا سيدي!»، همس جيسي من ورائي، «ليس الآن،، الوقت ليس ملائماً للتحرك على الإطلاق».

«أيها السادة، تحركوا، حان الأوان لمغادرة المكان!» صدح القائد بصوتٍ رنانٍ أغرق الأنين والنحيب وهدير الحقول المشتعلة، «لدينا موعد علينا الالتزام به» توجه بعد ذلك مخاطباً الزنوج: «لن نختلف مع أي شخص هنا، طالما تمنّع عن زراعة القطن لمصلحة العدو، أتمنى لكم يوماً سعيداً!»، قام برفع قبعته وأخفضها ممرراً إياها على طول جسده مع انحناءة متهكمة، ثم قاد حصانه قاصداً وجهة الغابات، ساق الفتى الحصان الذي حمل كانينغ فاقد الوعي، تبعه المتمردون يجرون العبيد المكبلين، مع ستة من بغالنا التي امتطى زيك أحدها، فتأملتُ متسائلاً منذ متى بالتحديد قرر الرجل خيانتنا، أبصرتُ زانا تجري إثرهم، لعل احتياجها لتواجدها قرب ابنها أشدُّ من خشيتها من الوقوع بأسر العبودية، رآها أحد الجنود فسارع لتنبيه القائد، هزّ القائد كتفيه بلامبالاة لفعلتها، ليقوم رجاله بعد ذلك بدفع زانا إلى الأمام لتنضم إلى طابور العبيد المقيدين بعد تصفيدها من عنقها.

مكثنا حتى تواروا جميعاً خلف المنحدرات الوعرة لغابات السرو، حين قبض جيسي على يدي لاحظتُ سكيناً حادة طويلة محزومة على ظهره، بدأنا بتتبعهم مخترقيْن صفوف الذرة، متقدميْن بهرولةٍ سريعة: «إن استطعنا إبقاءهم على مرمى البصر حتى حلول الظلام، قد نحصل على فرصة لفكّ أسر البعض منهم».

بدت خطة الرجل حاذقة متفوقة على أي فكرة قد تخطر ببالي لتخليصهم، تابعنا مراقبتهم من خلف الأشجار.

الفصل الثالث عشر

رجلٌ طيبٌ عطوف

غشاوةٌ ختمتْ على قلبي خلال الساعات التالية، إذ تسبب الحذاء الضيّق بسلخ قدميّ على طول الدرب الحراجي الكثيف، في حين جلدتِ الأغصان المتشعبة جسدي ممزقة سترتي الرقيقة خادشة الجلد تحتها، لم يمر الوقت طويلاً حتى أصابني دوارٌ وظمأ من شدة الجوع والعطش، إلا أنني تحاملتُ على نفسي ولم أتوانَ عن متابعة مسيرٍ يتقدمه جيسي بعزيمةٍ لا يشوبها ألم أو إرهاق، لأخطو بصعوبة متخبطاً متعثراً خلفه، المقاتلون العاجزون عن الإسراع أثناء جرّ أسراهم، أنقذني مسيرهم البطيء المتوازي مع خطواتِ المنساقين خلفهم، حتى إننا في بعض الأحيان؛ اقتربنا بما يكفي لسماع صرخاتِ الإهانة والتهديدات الجلفة لحثهم على التعجيل، إلا أنهم كثيراً ما اضطروا للتوقف مرغمين، لنتسمر بدورنا بعيداً متوارين عن أنظارهم، إبان كل استراحة قصيرة، كنت أنكبّ فوق أوراق النباتات، محاولاً التقاط أنفاسي والتيقظ بحثاً عن قوتٍ يسند كاهلي، سارعتُ مع رؤيتي لجدولٍ بطيء، لدفن رأسي بالمياه الطينية غارفاً ما تيسر لي، مدركاً أن فرصة صلاحية مياهه للشرب ضئيلة للغاية.

لا أعتقد أنني تقتُ يوماً إلى غروبِ الشمس كما فعلتُ في ذلك اليوم، حطّ الرجال رحالهم في مقاصّة واسعة، في حين مكثنا بداية تحت أكمةٍ من السرخس حابسي الأنفاس مع اقتراب أحدهم مستطلعاً المكان على بعد بضع ياردات منا، همس جيسي بأذني قائلاً: «لقد وضعت برميلين كبيرين من الويسكي في شرفة كوخي، حيث يمكن للخصوم العثور عليهما بسهولة، أدعو للرب أن يجلبوهما».

ما كادت ساعة تمر، تلتها اثنتان حتى صدح الضجيج متسرباً إلى خارج المعسكر، بدا أن المقاتلين قد عثروا بالفعل على المون شاين[1] الخاصة بجيسي أو لعلهم تزودوها من غيره، تسللنا مقتربين مُظلليْن بستار العتمة والأصوات الصاخبة، بما مكننا من رؤية ما يفعلونه، فأبصرنا الزنوج مقيدي الأيادي والأرجل، جميعهم عدا زانا، التي أوكلوها بمهمة طهي الطعام، كانوا على يقين من عدم قدرتها على الهروب طالما يأسرون طفلها بحبالٍ مثله مثل الآخرين، حيث ربطوا كل ثلاثة أو أربعة منهم حول شجرة واحدة.

بالطبع لم يقوموا بتقييد إيثان، العاجز عن الركض لأي مكان مرة أخرى، لم يسعفني التفكير بدواعي تحمل العبء الشاق لنقله معهم، بينما يكمن الخيار الأيسر بقتله على الفور، أنزلوه عن الحصان ثم أسندوه إلى أحد الجذوع المقطوعة، ما عرفتُ إنْ كان واعياً أم لا؟ حتى رأيتُ زانا تحمل مغرفة من المرق وتتجه صوبه، احتضنت رأسه محاولة سكب القليل من الحساء في فمه، أتُراها نجحت في محاولتها؟ هذا ما توسمته، طال المشهد حتى أبصرتُ أحد أبناء زيك، وكان شاباً نحيلاً طويل القامة يبلغ من العمر تسعة عشر أو عشرين عامًا، يخطو حيث جلست الفتاة القرفصاء ليهمس في أذنها شيئًا، فما كان من المرأة إلا أن التفتت بوجهها للناحية الثانية ثم بصقت بالتراب، سارع الشاب لاستلال سيفه ضاغطاً بحافته المدببة على خدها، قبض على شعرها ثمّ سحلها مجرجراً قدميها خلفه، صرخ جيمس مذعوراً، لكن الزنجية مي المقيدة جواره التقطت يديه المربوطين عند الرسغ ودفنت وجهه بحضنها، كي لا يرى مقاومة والدته اليائسة أو يسمع دويّ صوتها الوحشيّ.

دفع الشاب زانا خارج حدود المقاصة، ثم وقف ليتحدث مع شقيقه المُرابط إلى جوار الجندي الأبيض الهزيل الذي تخلص من جثة بطليموس، «اترك لي شيئاً يا كاتو!»، غمز أخاه بمرحٍ مناولاً إياه فانوساً، بينما قام الجندي الأبيض بحركةٍ خليعة قائلاً: «أتمنى لو أنّ بإمكاني تعليم عشيقتي البراعة

1- المون شاين: (moonshine) ويسكي يُصنع من الشعير في إسكتلندا وإيرلندا أو من مهروس الذرة في الولايات المتحدة.

التي تجيدها الفاسقات السوداوات!»، لم أسمع رد كاتو حينما تجاوز أخاه مقتاداً زانا إلى الغابة، تمايل لهب الفانوس ناسجاً خيوطاً مضيئة تماوجت بين الأشجار بعيدًا عن أنظار الجاثمين في المقاصة، شعرتُ بأنفاس جيسي المتقطعة تتعالى جواري، «علينا مساعدتها!»، همستُ له، فعارضني بالقول: «إن إثارة أي جلبة ستقضي علينا، على زانا وصغيرها في آن معاً»، لكن بعد تخاذلي المشين عن ردعِ جريمتي تعذيبٍ وقتل، لا يمكنني التسمر بالظلام غاضاً البصر عن فتاةٍ يُنتهَك جسدها بين الأشجار، باستخدام ركبتي ومرفقي حاولتُ التراجع للخلف وتحرير نفسي من ركام الأغصان المتهاوية المتشابكة، توقع جيسي ما أنوي فعله، فأوقع ذراعه الضخمة فوق ظهري مثبتاً إياي بالأرض، «أعني ما قلته ياسيدي!» هسهس، «إن أردت مساعدتها حقاً، فابق هادئًا الآن، إن أفسدت خطتنا، سيتم بيعها في مكان ما، حيث تُغتصب ليلة بعد ليلة بمثل ما تتعرض له الليلة وأكثر!»

«إذن، ما الذي يتوجب علينا فعله؟» بقلقٍ أردفت هامساً.

«الانتظار!»، أجاب «انتظر ودع الويسكي يقوم بنصف العمل الموكل إلينا، لقد أضفتُ شيئًا فوق ويسكي الذرة».

تعالى الصخب من المعسكر مترافقاً مع القهقهات، بينما دارت النقاشات حول الأموال المتوقع جنيها في اليوم التالي: عن الأثمان التي سيدفعها تجار تكساس مقابل هذا الزنجي أو ذاك؟ ثم أتى الحديث المعتاد الجلف عن تشبيه البشر بالدواب، توقف أحد الجنود عن متابعة نكتةٍ بذيئة كان يلقيها، ثم نهض شاتماً ضاغطاً على بطنه مهرولاً يتخبط إلى الغابة حيث انحنى مفرغاً أحشاءه لمرتين، ضحك الرجال منه ساخرين، وأخذوا يهزؤون بصوت عالٍ مشيرين إليه: «أي رائحة نتنة فاقت رائحة الظربان!»

فجأة وبهدوء شديد، قفز جيسي من مكانه ملتقطاً سكينه المحزومة بظهره، «ابقَ مكانك يا سيدي، إن هذا الرجل لي، ستتولّى أنت أمر التالي»، مر كظلّ رشيق بهوادة ورويّة فاقا حجمه الكبير، ليمر الوقت مجهِداً مسامعي بالتقاط خبرٍ حجبته ثرثراتُ المقاتلين والضوضاء الصاخبة الناجمة عن حفيف الأغصان وصرير الليل المواكب لنقيق الضفادع، في غضون

بضع دقائق، حاملاً سكينه الكبيرة المخضبة بالدماء عاد جيسي بحوزته بندقية الجندي ومسدسه وسيفه، ناولني الأخيرين، فارتعشت يداي حين استلمتهما، صحيح أنني جئت هنا بغية تحرير أولئك العبيد، لكنني قسّ في النهاية ولست بقاتل أبداً، يلزمني السيف لقطع وثاق الأسرى، أما المسدس فأعدته إليه في الظلام، توجه ببياض عينيه نحوي فتخيلتها نظرة من الازدراء لم تدم سوى لحظات قطعتها هرولة رجل آخر نحو الأدغال متوجعاً لاعناً تخبط أمعائه.

هرع جيسي خلسة خلفه، ثم رجع بغضون دقائق حاملاً الغنائم، «لن تتاح لنا الكثير من الفرص كهذه!» همس، «إذ مع مرور الوقت، لا بد سيلاحظ شخص غياب الرجال تباعاً خلف الأشجار، افتقادٌ يليه استنفار للعثور عليهم، ثم يأتي دور مهمتنا الكبرى».

لكن المرح الصاخب جعل معظم الرجال مشتتين تمامًا، على الأقل آنذاك، حين حولوا حديثهم إلى كانينغ، متسائلين عن الثمن الذي يستحق، «لا بد سيدفعون مبلغاً كبيراً إشفاقاً على حاله المزرية»، بات من الواضح الآن، أن القائد متيقن من فكرة معتوهة تُفضي بأن كانينغ سليل عائلة شمالية ثرية، لذلك خططوا للحصول على فدية مقابل حياته.

يبدو أن كانينغ الذي استعاد وعيه، كان يصغي للمحادثة بدوره: «لقد ارتكبتم خطأً فادحاً، أيها السادة»، قالها بينما قام الآخرون بإسكاتِ بعضهم بعضاً، منصتين باهتمام شديدٍ لما يود الشاب الجريح قوله، «هل تعتقدون أني سأقصد هذا المكان القذر مُخاطراً بحياتي، لأنكفئ للعمل كالأقنان لو كنتُ رجلاً ثرياً؟ لا ينتظرني في الشمال إلا الدائنون، لا أحد هناك يُلقي بالاً لحياتي!»

تمنيتُ لو كنت قريبًا بدرجةٍ كافيةٍ من كانينغ لأصفع فمه مُخرساً إياه بكفي، بدا الأمر كأنه يعترف بارتكابه لجريمة كبيرة، مطالباً فعلياً بإعدامه.

«ماذا لو كان يقول الحقيقة؟»، سأل أحد الرجال القائد، «في هذه الحال لماذا نقلق بشأن جره معنا؟ لعلّه من الأفضل إطلاق النار عليه وإنهاء المسألة، عسانا ننعم بإجازة قصيرة بعد إتمام بيع الزنوج»

تحرك القائد قاصداً كانينغ، مرر يده على شعيرات لحيته مستفسراً: «هل تقول الحقيقة؟ أم أنها مجرد كذبة يانكية جديدة؟»، صوّب مسدسه إليه صارخاً متوعداً «قل، أو سأشرع بمزادٍ علنيٍّ لإطلاق النار عليك»

التفت كانينغ برأسه المغطى بالدم الجاف بعيداً عن النار، فلم أستطع قراءة ملامح وجهه.

«أنا لا أكذب»

«أخشى أن يكون ذاك الجندي الطيب على حق؛ نحن مكبلون بك، نكابد مشاقّ مضاعفة لعلّة اصطحابك معنا»، ثم قام القائد بتلقيم مسدسه.

لم أعِ كيف وثبتُ من مكاني متحرراً من قبضة جيسي متجاهلاً شتائمه الصاخبة، أوقعتُ السيف فوق الأوراق الجافة المتناثرة، ثم هرعتُ راكضاً خارج الأكمة.

«انتظر!» صرختُ متخبطاً متعثراً بين المحتشدين في المقاصة «إنه يكذب! لديه خطيبة! لا ريب ستدفع ثمن حياته!»

«مارش!» صدح صوت كانينغ موشحاً بالألم والدهشة، أما المقاتلون الذين نجوا لأشهر في الغابة بفضل رد فعلهم السريع، فقد تأهبوا على أقدامهم ببنادقهم المستعدة رغم حالة السكر التي أخلّت بتوازنهم، اثنان منهم قبضا علي قبل اختتام ما وددتُ قوله.

«إذاً يا سيد مارش»، قال القائد «قررت الانضمام إلينا أخيراً»، «يا لها من مفاجأة غير متوقعة!»، ثمّ أشار للرجال فأطاحوا بي أرضاً.

«قل لهم يا إيثان! أعلمهم باسم الفتاة صاحبة الصورة، أخبرهم رحمة بك، إنقاذاً لحياتك!»

«رحمة؟»، نطقها بضحكةٍ هازئة تلتها نوبة من السعال، «أشك أنهم يعلمون ما الذي تعنيه الكلمة هذه»، تحرك متوجعاً لتخفيف الضغط عن ركبتيه المحطمتين ثم أكمل قائلاً: «لا ضير من إخباركم باسمها؛ إنها مارغريت جيمسون، وستجدونه محفوراً على شاهدة قبر في مدافن الإلجين، لقد توفيت قبل عام في مايو الماضي إثر إصابتها بداء السل قبل ستة أسابيع فقط من موعد زواجنا»، التفت برأسه محدقاً بالقائد: «أطلق

النار، عليكَ اللعنة وأنهِ الأمر، لقد أحلتني عاجزاً ومفلسًا، لا روحٌ فوق أرض الله الواسعة تهتم إن عشت أو مت»، ثم انفجر بالنحيب.

حك القائد رأسه بمؤخرة المسدس، ثمّ استدار مخاطباً الرجال القابضين عليّ، «اربطوه، أعتقد أنني سأفكر بشأنهما عند الصباح».

قيدوني بشجرة جوار كانينغ، على بُعد مسافة قريبة من الزنوج، ألقى أحدهم بكسرةٍ من خبز الذرة نحوي، فرفعتها لفمي بمعصميّ المغلولتين، بشهية مستعرة أيقظها فكُّ صياميَ ليوم بطوله، تناهى إلى مسامعي صريخ جيمس عبر المقاصة مطالباً بأمه، بينما حاولت مي تهدئته بصوتها الناعم وتطمينه بأنّ والدته ستعود على الفور، ما برح الطفل متوتراً، لكنّ إنهاكه أسلمه لغفوة متهدجة بحضن مي، تأوه إيثان من شدة الألم فما كان من أحد الحراس إلا ركل التراب بوجهه صارخاً:

«اخرس»

«إيثان»، همستُ «أنا آسف»

علا صرير الحشرات في العتمة.

«أعرف».

أوغلتِ الشجرة حوافّ لحائها الخشنة بظهري عبر السترة الممزقة، أما تكبيلي بالقرب من النار فآخر ما كنت أتمناه، إذ سرعان ما اشتعلت الحمى بجبيني ونالت الأوجاع من حنايا جسدي، بدأ العرق بعدها بالتصبب فوق رقبتي مبللاً ما تبقى من السترة، رجلٌ آخر هرع نحو الغابة قابضاً على بطنه متأوهاً:

«لا بد أن العاهرة السوداء بصقت في الحساء».

فكرتُ بأن المسألة لن تستغرق سوى القليل من الوقت قبل ملاحظة أحدهم لتزايد أعداد الآفلين المفقودين خلف الأشجار، كنت آمل أنّ جيسي خطط لمواجهة لحظة إطلاقهم لإنذار الخطر، أما عني فما برح ذهني خاوياً من أيّ خطة، سادت جوقة متعالية من الأنفاس الصافرة والشخير والنخير، على نقيض الأربعة الموكلين بالحراسة ومنهم شقيق كاتو الذي لمحته عبر الدخان مستنداً إلى جذع شجرة، ما برحتُ أراقبه حتى التقط نظرتي فبادلها بشزر.

الحمى، قميصي المبلل، وجوم النار، الإنهاك وآلام عظامي انهالت علي بقشعريرة لحقتها إغفاءة أو فقدان للوعي، لبرهة! لساعة! لا أعلم بالفعل! غصنٌ بلبّ النار انفلقَ فاهتزّ بكياني مبدداً غفلتي، نظرت حولي مرتعشاً فإذا بالضباب المتصاعد من الأرض الرطبة جاب المكان كثيفاً كالدخان، مفرجاً عن شعاعٍ ضئيل من قرص القمر الأحمر، أبصرتُ كاتو مرابطاً محلّ أخيه، حاولت قَدر استطاعتي التلوي بجسدي المقيد، كي تتاح لي رؤية من بقي مستيقظاً، فأدى الجهد إلى صداعٍ في رأسي وتماوجٍ للأشجار المحيطة بالمقاصة، أغمضت عيني فما لبث أن دار العالم برمته، فتحتُ جفنيّ محدّقاً في نقطة واحدة بالأفق دون القدرة على التركيز، ما انفكّ أمرٌ علي الإلمام بمعرفته،،، أيُّ أمر! ليتني أتذكر! نعم؛ عليّ إحصاء عدد الرجال، تريثتُ حتى تبدد الضباب فانكشفت أجزاء أوسع من المعسكر، أوه لم لا تتوقف الأشجار عن طوفانها المثير للغثيان،،،؟ جلس أحد الحراس القرفصاء برأسٍ دفنه بين ركبتيه جوار شجرته، أظنه غارقاً بغفوةٍ مؤقتة، أردتُ النوم بدوري لكن هيهات لرأسي المرتج السكينة، بدأت العد، فاختلطت الأرقام بعضها ببعض، يا إلهي عليّ التخلص من صداع رأسي، أغلقتُ عينيّ مجاهداً لتجميع أفكاري المبعثرة، عشرون منهم في المكان، بالطبع، اثنان لقيا حتفهما على يد جيسي، لعلهم ثلاثة أو أربعة الآن، بدأت أتساءل بضجر؛ إن تمكن جيسي بطريقة أو بأخرى من قطع الطريق على الكثيرين واقتناصهم فرادى، فلن يتبقى منهم في هذه الحالة سوى ستة عشر رجلاً،،، عدا شقيق كاتو المفقود بدوره،،،!

أحسستُ بالحبال تشدّ وثاقها حولي أكثر فأكثر حتى ارتخائها التام، لم أتمكن من تحريك رأسي، لكنني لمحت زانا بطرف عيني حاملة سيفها البتار، تهمُّ لقطع قيود الأسرى الآخرين، رغم تشويش ذهني إلا أنني أدركت أن احتمالات النجاة لا تزال واهنة، حتى لو نجح جيسي بطريقة ما بالتعامل مع الرجال المفقودين جميعهم، لكن ما برح في الأنحاء خمسة عشر جنديًا مسلحون أقوياء، إلا في حال تمكنه من تسليح أنصارنا،،.

أتى تصدع غصنٍ من ناحية الغابة، صادحاً كإنذارٍ ناريّ، استدار كاتو ليستكشف سرّ الضوضاء، لكن رصاصة سبقته قاذفة بشظايا جمجمته في

الأرجاء، محيلة قامته إلى جثة هامدة، ضجيجٌ أغشى الأبصار بعد ذلك، أجسادٌ ترنحت مقتولة أو متراكضة مذعورة، طلقاتٌ وصرخات، وثبتُ بأطرافٍ ليست أكثر من قضبان رصاصية، ثم اندفعتُ نحو النار لالتقط فرعاً مشتعلاً لم يسعفني بالتعرف على ملامح من قابلتهم عبر الضباب الكثيف، جريتُ بعد ذلك بينما يتطاير وابل الشرر مثيراً دوامة ساطعة حولي، متجهاً لجيمس حيث قُيّد بالحبال فلم أجده، لا بد أن زانا سارعت إليه قبلي، رأيتها معدّية عبر الأكمة بينما يتشبث الصبي بظهرها، أما مي فكانت تجري بتثاقل لاهثة في أعقابها، لم يحجب الضباب عن عينيّ بندقية تصوب رصاصها نحوهم، فسارعتُ بجسدي درعاً لحمايتهم، لكن المتمرد أطلق النار قبل وصولي مودياً بحياة مي التي انكبت على وجهها بذراعين تتخبطان يُمنة ويسرة.

كان الرجل يلقم بندقيته مستعداً بإصبعٍ على الزناد لإطلاق رصاصته التالية، حين غافلتُه واسماً جمجمته بنارِ القضيب المشتعل، سقط السلاح من يده، فهرع منقضّاً عليّ لنتشقلب كلانا فوق الأرض، ثبتني بقوة منهالاً بضربةٍ على وجهي هشّمت غضروف أنفي، مسربة الدماء لمؤخرة حلقي، ألحقها بانتزاع حجرٍ من بين الأوراق الجافة قاصداً تحطيم وجهي، فاستدرت بسرعة ما خفف قبضته ليهوي الحجر فوق صدري مرتداً عنه دون أذية تذكر، أبصرته بعد ذلك يتلمس مؤخر عنقه بأصابع لاقاها نصلٌ ماضٍ لسيفِ سيلا، الفتاة الفاغرة فاها بتنهيدة هزيلة حطّت بسيفها فوق عنقه بما أكرهه على الانحناء ساخطاً راكلًا، دفعتُه محاولاً النهوض على قدمي، مسارعاً للإمساك بيد سيلا المرتجفة لجرها بعيداً نحو الغابة، لكنها قاومتني بشدة كطفلةٍ مشاكسةٍ تعاند والدها، مسارعة بيدٍ فوق مقبض السيف محاولةً نحر الرجل، حين لم تسعفها القوة بما يكفي، عملت على إسناد قدمها الحافية على كتفه وكشطتْ عظمة من عنقه فتقطر الدم متقطعاً، ثمّ انهالت بضربة ثانية ثلمت شريانه خافقة دافقة بدمائه، لم أتوانَ عن حملها بين ذراعي الواهنتين الضعيفتين، والهرولة بحثاً عن ملاذٍ آمنٍ بين الأشجار.

لكنني لم أعِ أنني ركضت بالاتجاه الخاطئ المؤدي مباشرة إلى القائد الذي بزغ فجأةً على بعد أمتار قليلة مصوباً بندقيته نحونا عبر الدخان

المتصاعد، جفلتُ مترقباً رصاصته، فاستدرت بجسدي لحماية الطفلة، لكنه بدلاً من ذلك صاح مطلقاً لعناته مترنحاً بقامته مشتِّتاً الطلقة بعيداً، ما طمسَ الضباب جسد كانينغ الذي لمحته منبطحًا بالقرب من قدمي القائد، بعد أن زحف بضع ياردات ضارباً كاحل الرجل بحجرٍ مسنن في محاولةٍ لإنقاذ حياتنا، بمقدم حذائه ركل القائد رأس كانينغ المغطى بالدماء، سحب مسدسه ثم انحنى مطلقاً النار على وجهه من مسافة قريبة.

«إيثان!»، زعقت، فما كان من القائد إلا أنْ وجّه مسدسه نحوي، رميتُ سيلا بعيدًا عني لأشعر بضربةٍ قوية كما لو أنها لكمة قاسية، تلاها دويّ انفجار عنيف، يا للغرابة! فكرت بينما أتهاوى على ركبتيّ، أصواتٌ متأخرة تناهت إلى مسامعي،،، انحنيتُ للأمام بوجهٍ منكبّ على بعد بوصات من الفحم المحترق، محدقاً بلبّه القرمزي المنبلج النابض في الخشب الحالك،، أي مشهد ختاميّ تلتقطه عيناي! أي احتدام للصراخ والعويل تتلقفه أذناي! أي انسجامٍ مع نبض اللهب في الفحم: عالٍ،، خافتٍ،، مرتفع،، خفيضٍ،، ثمّ،، صمت!

حين حاولت فتح جفنيّ مستلقياً في المقاصة، أغشى ضوء النهار بصري، أزيزٌ مزعجٌ داهم أسماعي، حاولت النهوض فلم أستطع رفع رأسي، دخانٌ لاذع أحرق أنفاسي كاشفاً الستار عن مشاهد الجثث المرتمية في الأركان جواري، تعرفتُ على جثة كاتو ومتمرد آخر، جثمان إيثان، مي المخضبة بدمائها، سيلا الصغيرة الممددة جوارها بركبتين مرفوعتين لأعلى كما لو أنها غافية، غير أن بطنها انفلعت مفرجة عن أحشاء مكومة لامعة خارج جسدها الصغير، احتشدت جيوش الذباب الأزرق المخضر فوق كل جثة مطلقة العنان لطنينها الفظ، بينما حلّقت ظلالٌ سوداء بطوافٍ متأنٍ فوق المقاصة، لم أبد أيّ مقاومة، فلا رغبة لدي بالاستيقاظ، تماوجت الأجنحة الضخمة مدلهمة فوقي، سحلتني إلى ديجورها.

هبطت الظلمة، تأرجحتْ، هدهدتني ذهاباً وإياباً، دنت الأرض

وانحسرت، حطت الأوراق جافة خشنة فوق يدي، ألم ما برح مفتتاً أوصالي، جارفاً إياي إلى غيبوبة جديدة.

ليلٌ،، خمدتِ الضوضاء، خفقانُ بصيصٍ من اللهب، حاولتُ رفع رأسي، طاف العالم حولي،، دهماء.

الدوارُ ثانية،، مسارٌ عشبي،، ظلالٌ شجرة،، عبقُ النهر الموحل.

الفجر،، السكينة أخيراً، أوراقٌ مبعثرة تحتي، أغصان متشابكة في الأعلى، ركزت عيني على إحدى أوراقها التي لطخها القرمزي المذهب قبل الأوان، لونٌ آسرٌ ورِفت ظلاله عبر وميض السماء الزرقاء، يا لجمال الأفق! يا لاتساع المدى! يا للفتنة السرمدية! لن تخمد بغيابي، لن تبهت! لن تحتجب عن مارمي أو نسائي الصغيرات، إنه المعنى الجوهري للنعمة، غريس!

ليل،، حرارة،، ارتعاش.

«برد،،!»

نطقتُ الكلمة بصوتٍ بالكاد أدركتُ أنه صوتي، فقد صدح محشرجاً لعلّةٍ في أنفي المحتقن بالدم الجاف، اندفعت زانا نحوي بوجهٍ شاحبٍ ملطخٍ بالأوساخ، تحمل بعض الدرنات الجذرْية الطازجة، لتحطّ بيدٍ خشنة فوق جبيني الملتهب، هرعت الفتاة بعدها حيث مربط البغل، سحبت سرجه السميك ثمّ قامت بلفه حولي، داهمت رائحة العرق والإسطبلات أنفي المعطوب.

ليلة أخرى، أو لعلّها الليلة ذاتها،، حين أفقتُ على عبقِ ذرةٍ محمصة، فرأيتُ زانا ترفع مقلاة صغيرة عن النار متجهة صوبي، ألقمتني شيئاً من الحبوب بأصابعها، حاولت البلع لكن سخونتها أحرقت حلقي المتهيج ثم علقت مضغة فيه، سارعت الفتاة بإعطائي الماء الذي غرفته كما لو أنه حممٌ بركانية.

«أين البقية؟»، أتى صوتي مُخرَّشاً.

أطرقتْ، ثم أومأتْ بأسى.

«جيمس؟»

ترقرقتِ الدموع من عينيها، انسكبتْ كغدرانٍ لامعةٍ عابرة وجنتيها الملوثتين، أخذتْ تحلُّ الزر المربوط بحرصٍ على رسغها المسوّر بحلقاتٍ سوداء مجعدة، رفعتها إلى وجهها ثم بدأت بالنحيب، حاولتُ الوصول إليها مقاوماً جسدي المنهك المرتعش، رافعاً يداً ثقيلة لرأسها الذي سارعتْ بدفنه في حضني، يا للوشاح الفيروزي الذي تهلل بضحكات طفلها المرحة مع خفقانه الأول فوق شعرها! تلمستُ خصلات الطفل التي قبضتْ عليها بإحكام، ابنها،،! قطعة منها، من جسدها! من روحها! كيف لهذه المرأة أن تتحمل فقداناً جسيماً جديداً ملقىً فوق خسائرها الجمّة؟ متجرعاً الحسرة أغمضتُ مقلتيّ حتى الصباح، لا بد أنّ المرأة انتحبت في حجري حتى غلبها النوم، تحركتُ، فاستيقظت موضبة جلوسها، فركتْ جفنيها، ثم نهضتْ بتثاقلٍ فوق قدميها، كانت على وشك إعادة دسّ خصلات جيمس في كمها، حين ترددت لوهلةٍ منتزعة حلقة صغيرة مغلِقة راحتي عليها، رفعتُها إلى شفتيّ وقبلتها.

سألتُها عن جيسي بعد مرور بعض الوقت؛ فمدت يديها مقفلة على معصميها، مقلدة هيئة الأغلال.

«ماذا عن الآخرين؟»

الأغلال مرة أخرى.

«أنتِ الوحيدة التي نجتْ؟»

أومأت برأسها مغرورقة العينين.

«رجعتِ ووجدتني؟ زانا أنا،،،»

مكتبة
t.me/soramnqraa

هزت رأسها بحدة، ثم وضعت يدها على فمي لتمنعني من متابعة الحديث، استدارت بعد ذلك لإسراج البغل، كنت أراقبها عبر سديم النار الخامدة حينما غزتني الحمى واختطفتني بعيدًا.

مستلقياً على ظهري صحوتُ فطناً لموجة التأرجح في رأسي بعد أنْ خبتْ لهدهدة طفلٍ في مهده، عبقٌ قلوي اجتاح أنفاسي، بطانية رمادية خشنة لفّتني بإحكام، فتحت جفنيّ متفقداً أرجاء المكان، فلمحت عبر كتلة من

الشاش نافذة موشاة بستائر شفيفة حاجبة لوميض الشمس، نثرات فاحمة تقافزت لأعلى منبتّة عبر الزرقة الشاسعة، شيء ما – لعلّه ارتجاج محركـ! أغشى الضوء بصري فأغلقت عينيّ لبرهة ثم فتحتهما على سوادٍ أشبه بعبابٍ من الدخان الداكن مترافقٍ مع صخبٍ وضوضاء، نقراتٍ، طقطقاتٍ، كما لو أن قطعاً من الرخام تطرق بعضها بعضاً، ثم! أبصرتُ ما لم أتخيله على الإطلاق؛ وجه امرأة أبيض محاطاً بخمار باهتٍ لراهبةٍ يتمعن في وجهي.

«يجب أن تستريح الآن!»، حاولتُ رفع رأسي، لكنها أرجعته برفقٍ للخلف فوق وسادة – وسادة! آخر توقعاتي كلها.

«لا تقل شيئاً، كنتَ مريضًا جدًا – وما زلت»، قالت برفق ثم أوضحت: «لقد تعرضتَ للإصابة بعيارٍ ناريٍّ، رصاصة تمكنا من معالجة جروحها، لكنّ الحمى ما ترهقك الآن»

«كيف،،،؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ أين أنا ومن تكونين ؟»

ابتسمتْ،، لم تكن المرأة المسنة ذات الوجه الضيق المترع بتجاعيد عميقة تثير النفور، سوى ملاكـ حارس بنظري!

«أنت على متن سفينة مستشفى ريد روفر[1]، أما عني فأنا الأخت ماري أديلا التابعة لطاقم تمريض راهبات الصليب المقدس، سنقلك شمالًا، لا تقلق إنك بأمان الآن»

أمان؟ تأملتُ متفكراً؛ أيُّ أمان طالني يوماً! لكن كل ما قلته كان الاستفسار: «كيف وصلتُ إليكم؟»

«اششش، ردت بلطف، ثم أخذت معصمي بيدٍ رقيقة لتجس النبض، تدلت الخرزات البنية الباهتة لسبحتها المحزومة حول خصر ردائها الأسود الفضفاض، متمايلة بنعومة أثناء تعديلها لوسادتي.

«فتاة سوداء بكماء، كما أخبرني الرجال –جلبتك إلى الحدود الفيدرالية، حسبك الخفر مالكها- سيداً داعماً للكونفدرالية – فرفضوا الامتثال لما

1- ريد روفر (USS Red Rover) سفينة بخارية تابعة للولايات الكونفدرالية الأمريكية يبلغ وزنها 650 طناً استولت عليها البحرية الأمريكية، بعد إعادة تركيب السفينة، استخدمها الاتحاد كسفينة مستشفى خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

أرادته، لكنها لم ترتدع بل وقفت مسمرة أمامهم مجابهة بنادقهم الغاضبة، مصممة على إفهامهم مبتغاها، أعلموني أن معارضتهم العنيدة أجبرتها على خلع حجابها والتقاط عصا متفحمة من موقدهم لتكتب عليه، احتفظنا بالوشاح لأجلك»

لم تتمكن عيناي اللتان أغشاهما الوهن من فهم آثار الفحم المبهمة على النسيج المتسخ، حاولت جاهداً قراءة ما نقشته زانا على قطعة الساتان الفيروزي، حتى تمكنت أخيراً من تفسير ما صاغته عباراتها المتهدجة:

كابتن مارش

واعظ شاب

قادم من مكان يدعى كونكورد

إنه رجلٌ عطوفٌ طيب

انتحبتُ بجزعٍ مع قراءة السطور، بتنهيداتٍ لاذعة أفسحتِ المجال لنوبة من السعال العنيف، انحنت الأخت فوقي بيدٍ مدتها لجيب عميقٍ بردائها خلف سبحتها الطويلة، حيث أخرجت قطعة قماش بيضاء وضعتها تحت ذقني، لم أعِ كيف تناثرت بقع البلغم والدم من فوقها، أما آخر ما رأيته، فكان وجه الراهبة المتجهم قلقاً وظهرها حين استدارت لاستدعاء الطبيب الجراح.

الجزء الثاني

قرأت جو البرقية بصوتٍ مشوبٍ بالذعر:

السيدة مارش

زوجك مريض جداً. احضري حالاً.

س، هيل

مستشفى بلانك، واشنطن

لويزا ماي ألكوت، نساء صغيرات

الفصل الرابع عشر
مستشفى بلانك

لم أذرف دمعة لحظة فراقنا، فأنا من شجعته على الذهاب، ودعته كمناضلةٍ سخيّة بذلت قصارى جهدها في سبيل البلد الذي تحب، واريتُ عبراتي لحين رحيله، ثم ذرفتها غزيرة بمفردي، لقد أعلمتُ الفتيات يومها؛ أنْ لا سبيل للتذمر أو الشكوى فما نصنعه ما برح واجباً مقدساً سيدرّ الهناء والسلام في نهاية المطاف، كم أتى صدى كلماتي أجوفَ في ذلك الوقت! كم يصدح عقيماً الآن! أيُّ سعادة تنثر أطيافها إن احتضر الرجلُ فاقداً حياته في ذاك المكان البائس؟ أيّ بهجة تطوف حولنا لو تماثل للشفاء عاجزاً؟

انحسر الصخب الروتيني اليومي في المستشفى، ليهوي السكون متخللاً الثواني الناضحة قطرة قطرة من الضمادات المبللة فوق جبهات الجرحى، ها أنا أرمق وجهه في الوهج الضئيل الشاحب لضوء الغاز – فما الذي أفعله هنا، سوى! التحديق بوجه زوجي؟ تفحصته متسائلة عن الملامح التي أشعلت عشقي ذات يوم: الطلعة التي أخفت عمرها حين عاينتها لأول مرة، المتقدة حيوية أعلى منبر أخي؟ لم أصدق للوهلة الأولى أن تلك الكلمات الحماسية صادحة من شفاه محيّاه اللطيف، بدا كأنه ملاك مرسوم بريشة فنان إيطاليّ؛ شعرٌ أشقر وبشرة برونزية ذهبية، شابٌّ يانعٌ وقور في آن معاً، أما قسماته فمسجّاة بعاطفةٍ وقّادة، موشّحة بالبراءة وبالخبرة!

سنواتٌ عديدةٌ مرت، ما حرمته أعوامه التسعة والثلاثون النضارة والرونق بعينيّ، يومَ تأهب الجيش مغادراً لخوض الحرب، لمحتُ زوجي داخل أحد

نوافذ سيارات الجنود الآفلة، باسماً ملوحاً للمتجمهرين وقد بدت ملامحه أصغر سناً من قسمات وجوه الشبان الأغرار حوله.

كان من الجائر قراره بالانضمام إلى صفوف المقاتلين، من الحماقة مجاراته بالموافقة على الرحيل،، مع ذلك لا يجوز لي إفشاء وجهة نظري بما يخص الشأن الحربي، إنه بند مندرج ضمن قائمة طويلة من المحظورات التي يحرّم على المرأة التصريح بها أمام العلن، ما برح العالم يدعو التضحية نبلاً، لكن أين العالم الآن من تجشّم محاولاتي اليائسة لترميم ما دمرته الحرب؟

العمة مارش وحدها من تجرأت على المجاهرة بالحقيقة، استلمتُ رسالتها المغلفة مع المال الذي استجديتُه منها لتحمل أعباء الرحلة إلى زوجي المصاب، قرأتها ثم سارعتُ بحرقها، رمقتني عينا حنا حينما كوّرت الورقة بنزقٍ وأسلمتها لنيران الموقد، لا بد أنها ظنّت أنني ناقمة من العمة مارش، بيد أنّ الحقيقة كامنة في غضبي من نفسي، فأنا من افتقدتُ الشجاعة للوقوف بوجه نفير الحرب الصاخب، أنا من جبنتُ عن الهتاف الصادحِ بـ: «لا!! ليس بهذه الطريقة، لا يمكنكم دحر الظلم بالظلم، لا ينبغي تشويه سمعة الرب بوعظٍ لا يمتُّ لتعاليمه بصلة، فالله لا يرضى بقتل الشباب بعضهم لبعض»،، هل من سبيلٍ صالحٍ إلى الإله سوى أنين الحرجى المتناهي إلى مسامعي الآن؟ يزعمون أنّ كونفدراليين يرقدون للمعالجة هنا في المستشفى؛ لعلّ الولايات الأمريكية بلغتْ اتحادها أخيراً! أيّ توحد للآلام! أيّ تآلفٍ للمعاناة! هل تقضي مشيئة الرب أن تُطلقَ النيران على فتى مدينة المصانع الممدد في العنبر المجاور، أتراه راضياً لمُزارع مضطجعٍ جواره طَعن أحشائه بنصلٍ فولاذي؟ - يا للشاب الفقير المسكين! لا أظنه تورط يوماً بقضية تمس الاستعباد بأي شكل من الأشكال!

لم أتفوه العام الماضي بعباراتٍ من هذا القبيل، فقد أخرسني الوجوم حين كان للكلام نفع وجدوى، كم سهُلَ إقناع ضمائر البشر وضميري معهم، بأن الحرب مولّية بغضونِ تسعين يوماً وفق تصريحات الرئيس، بأنّ الثمن المدفوع دماءً وأرواحاً، يبرره الخير العظيم الآتي والخاتمة المُثلى المتمثلَيْن برفع نير القهر عن رقاب المعذبين! بدتْ فترة تسعين يومًا من الحرب مقابلاً عادلاً، لكن! يا لها من حسبة ضالة! ما زلت أعتقد أن إزالة وصمة العبودية

قضية تستحق بعض المعاناة - لكن معاناة من؟ إنْ ساهم أجدادنا بفساد العالم، فهل على أطفالنا دفع حياتهم ثمناً لإصلاحه وتقويمه؟

حينما رأيته واقفاً فوق جذع الشجرة في المرعى محاطًا بوجوه الشبان المتحمسين، أبصرتُ في عينيه تعاطفاً وحباً لهؤلاء الأولاد، خمنت أنه يفكر بالعبء غير المنصفِ الملقى على عاتق جيلٍ بريء لا ذنب له فيما يحدث، ساقته اللحظة بعيدًا، فلم أتوانَ عن رفع ذراعيّ لردعه، مناشدة إياه ألا يتفوه بالكلمات التي تشكلت في ذهنه، لكنه حدّق بوجهي، بمقلتيّ الغارقتين بالدموع، ثم تجاهلهما، مؤثراً فعل ما أراد، ليأتي الدور المنوط بي كزوجة صالحة عليها التظاهر بالسرور والفخر بزوجها البطل المقدام، حين تنحى عن منبره قاصداً إياي، لم أستطع التحدث إليه، أمسكت يده، غرزت أظافري بلحمها، راودتني رغبة بتمزيقها انتقاماً لتفطر فؤادي.

لستُ المرأة الوحيدة التي سمحت لزوجها بالقيام بما يفعله الرجال بالنساء، حين يختارون المضي قُدماً نحو مجدٍ فارغٍ وعزّةٍ جوفاء، مخلفين وراءهم الهلاك وأطلال المدن المدمرة والمخازن المحترقة والحيوانات البريئة المقتولة وجثامين رجال رقدنا وإياهم، وأطفال حملناهم في أحشائنا.

يا لهدر الأعمار! يا لضياع الحياة! ها أنا أجد نفسي جالسة قربه متمعنة بحطامه بمقلِ مئاتِ النساء الجالساتِ جواري: زوجة المزارع المتمرد، الفلاحة الإنجليزية، والأم الجسورة المضحية بابنها: «عد من الحرب مع درعك أو محملاً فوقه»، أراها بعين فؤادي ناحبة محنيّة فوق جسد ولدها المهشم، وقد غصّ حلقها بصرخاتٍ مكتومةٍ وكلماتٍ آلت غباراً.

أشكر الرب على ذريتي من الفتيات دون الصبية، كيف أتحمل لو أنّ ميغ ذات الستة عشر ربيعاً جنديٌّ يحارب على جبهة القتال، ماذا إنْ احتدمت المعارك لسنوات، فتلحقها جو للانضمام للحرب؟ توجب إخفاء ما يضمره عقلي عنهن والحرص على إظهار وجهٍ جادٍّ صارمٍ كي أجنبهن اليأس والتشكيك بحكمة والدهن وحسنِ خياراته.

والدهنّ! ماذا تبقى منه؟ ماذا؟ الحرب والمرض نجحا معاً بإعادة تشكيله عبر تفاعلهما المروع، تغييرٌ تلمسته حتى قبل إصغائي لدمدمة هذيانه، منذ

لحظة إرشادي إلى سريره بعد ظهر اليوم، فمن عساه يكون هذا الغريبُ الراقدُ؟ لعلهم دلوني على السرير الخطأ!

لا أنفي أنّ سنواتنا معًا تكللت بالسعادة حتى في أحلكِ أوقاتها، إذ لم ترسم النوائب أكثر من خطوطٍ رقيقةٍ حول زوايا عينيه وأقواسٍ عميقة محببة على جبينه وجانبي شفتيه، لكن الأشهر التي فرقتنا نحتت له وجهًا مختلفًا وملامح مغايرة، لا أعلم حقاً إن كنت سأرى ابتسامته من جديد؟

شعرتُ بيدٍ تربتُ على كتفي، فأدركت أنّ الفكرة الأخيرة لا بد نطقتها بصوتٍ عالٍ، «لا تعذبي نفسك بأسئلةٍ كئيبة يا سيدة مارش، الإرهاق يزيد من وطأة الأفكار المكروبة، أنتِ متعبة جدًا؛ أفلا نذهب لأدلك على مكان إقامتك؟»

استدرتُ، فلمحته بجانبي، كما فعل على مدار الساعة منذ وصول البرقية الرهيبة تلك، أبصرته شاحب اللون من شدة التعب الذي رافق رحلتنا الفجائية، عدا جهوده المتواصلة منذ أوان وصولنا، لمحتُ عينيه البنيتين غارقتين بالقلق.

«لا أريد أن أتركه،،،»

«ليس بوسعك فعل شيء لأجله، لا تقلقي فالممرضة المشرفة أقدَر على الاهتمام بصحته أثناء الليل، حين تحدثتُ معها بشأنه أعلمتني بوجوب مغادرة جميع الزوار عند التاسعة مساء قبل إطفاء مصابيح الغاز»

«حسنًا»، أجبتُ بنبرة يائسة، «على الأقل دعنا نبقى بجواره حتى حلول الميعاد المحدد للخروج»، رفعتُ يده المرخية على الغطاء وضغطتُّ بباطن كفها على خدي، مصغية لوقع العكازات فوق ألواح الأرضية العارية للمرضى العائدين إلى أسرّتهم مذعنين للممرضة الليلية بتنفيذ تعليمات ما قبل النوم.

أخذ السيد بروك نفسًا عميقًا مُفرجاً عن تنهيدة حارة، أخشى أن جاري الطيب السيد لورانس قد كلف السيد بروك بمهامَّ صعبة يشعرُ إزاءها بمسؤولياتٍ حثيثة، مسكين هذا الشاب، فقد أعلمني أثناء رحلتنا أنه ينوي الانضمام إلى الجيش مباشرة بعد الانتهاء من واجباته كمدرسٍ نهاية الخريف المقبل، مع التحاق لوري بالجامعة.

أردتُ معارضة ما ينويه بصرخة عاتية: لا تفعل! اخدم بلدك كما تخدمه الآن بتشكيلِ وتهذيبِ العقول الشابة، بدل المساهمة بتحطيم أجسادهم وقتل أرواحهم، لكنني افتقرت إلى الشجاعة من جديد وجبنتُ عن النطق، ليس من السهل عليه ما يراه كرجلٍ بلغ من العمر سنته الثامنة والعشرين، حين يتخيّل نفسه بين أولئك الأولاد جريحاً متلوياً من شدة الألم فوق سريره المتواضع، مع ذلك، لا يزال بروك ذا خبرة طويلة بكيفية شق دربه في العالم، صاحب شخصية صامتة جادّة يفكر أكثر مما يتكلم.

«سيدة مارش، من الحكمة أن ننطلق الآن، لأن العاصمة ومحيطها معروفان بغياب الأمن والنظام، كما أخشى أن لمنطقة جورج تاون على وجه الخصوص سمعة سيئة للغاية، لقد أبلغوني أنه وفقاً للأوامر يتم وصد الحانات عند الساعة التاسعة والنصف، بما يسمح لقدر مشينٍ من سلوكياتٍ غير لائقة بالحدوث في الشوارع بعد ساعات الإغلاق، أود أن أوصلك بأمان إلى غرفتك»

ماذا يمكن أن أقول! فالشاب بدا مهموماً للغاية ومتعبًا، لذلك ألقيت نظرة طويلة أخيرة على زوجي، وضعت كفّي على جبهته المحمومة، آملة أن أشيّعه بالحنان والحب، كاظمة الغيظ المشتعل في قلبي قدر الإمكان.

مع نهوضي اجتاحتني موجة من الضعف، لتسعفني يد السيد بروك المتماسكة فوق ذراعي، في الحقيقة، آمل آلا أقوم ثانية بسفرٍ مماثلٍ للرحلة التي ساقتنا إلى هنا، ما فتئت ميغ تظن أن شهر نوفمبر من أكثر شهور السنة سوءًا، أعتقد أنني بتُّ مضطرة لمشاطرتها الرأي، في صباحٍ مريرٍ غزاه الصقيع، جاء السيد بروك لمرافقتي في رحلتنا الطويلة –قبل يومين أم ثلاثة؟ لا أدري حقاً– لكننا انطلقنا بعد ليلة مديدة من القلق والأرق، هجرني النوم وألقاني فوق قدميّ أجول بجزعٍ بين أرجاء المنزل، أحدق بنسائي الصغيرات أثناء غفوتهن – جو بشعرها المقصوص حديثاً كصبيّ، ميغ الراقدة جوارها، يا إلهي! لقد انبلجت الملامح الأنثوية لجسد الفتاة دونما سابقِ إنذار، شهقتُ مرتعدة لوهلة، مدركة أن الزمن لن يمر طويلاً قبل أن تأخذ ميغ مكاناً لها في سرير أحد الشبان، تساءلت هل سيكون والدها حاضراً بحلول ذلك الوقت، ليهبها عروساً له!

في الحجرة المجاورة، بدت طفلتاي النائمتان بيث وإيمي، صغيرتين جدًا، لأن تتركا خارج كنفِ والدتهما، رغم رعاية حنا العاقلة واهتمام جارنا الطيب، كما تزاحمتِ الأفكار وتخبطت داخل دماغي مستعرة بالخوف العارم من أخبار تنتظرني حيث أمضي، استلقيتُ فلم أتمكن من إغلاق جفوني، نهضتُ، أشعلت المصباح ثم حاولت إشغال نفسي بإصلاح أحد الجوارب حتى سمعت حنا العزيزة قبل حلول الفجر بوقت طويل، تجهز إفطاراً دافئاً بالكاد تمكنت من تناوله.

أحرقتِ الدموع المحتقنة مقلتيّ، بعكس الفتيات اللواتي بدين أثناء وداعي بمنتهى الشجاعة على نحو غير مألوف: لم تبكِ أي منهن بل حمّلنني رسائل محبة لوالدهن رغم معرفتهن بوصولي المتأخر لتسليمها، بالكاد تحكمتُ بخطواتي حين نزلنا من عربة الخيول إلى السيارة التي ستقلنا إلى السفينة عابرين بين أطفالٍ باكين ونساءٍ شاحباتِ الوجوه ورجالٍ يدخنون ويبصقون، أراحني الوصول إلى السفينة الراسية في نيو لندن، حيث تمكنتُ أخيرًا خلف ستارة مضجعي، من إطلاق العنان لدموعي المكبوتة.

في صبح مسجى بإنهاك الجسد واحمرار العينين، شققنا طريقنا صوب محطةٍ قذرةٍ في نيوجيرسي، هناك حيثُ ركن السائق السيارة بين عربات الخيول والشاحنات والحمالين الهادرين المُقسِمين بالأيمان، سار بنا الدرب عبر منازل فيلادلفيا المحاطة بشجيرات الكريب وصولاً إلى بالتيمور المسخّمة بالفحم، مع مغادرتنا المدينة، لمحنا الخفر على طول السكة الحديدية بما يشعر المرء أن حرباً عاصفة تلوح في الأفق، في الواقع ما انفكت الأماكن كلها تشي باندلاع المعارك؛ القوات، العربات؛ الذخائر، خيام يلوذ بها الجنود،،! خيام،،! المزيد من الخيام! أيّ مآوٍ مهلهلة! أيّ بيوتٍ قُماشيّة باردة بائسة، متناثرة بين التلال كركام من الثلوج.

وصلنا إلى واشنطن مع حلول فترة الظهيرة، حين حشدتِ السماء سحبها المطيرة بكثافة أعلى مبنى الكابيتول غير المكتمل كغطاء صندوقٍ منجّد، لتجود برذاذها بارداً فوق رؤوسنا، طلبتُ المسارعة بالوصول إلى المستشفى قدر الإمكان، فإن كانت الأخبار على غير ما يرام، أودُّ سماعها بأقرب وقت، تلقى السيد بروك دلالات الوصول إلى المكان الذي كان فندقًا

قبل كوارثِ ماناساس وشبه الجزيرة[1]، لقد طال استيطان جيشنا الكنائس وكليات المدينة، إضافة للحجرات الخاصة بمبنى مكتب براءة الاختراع[2]، من حسن الحظ أن السيد بروك كان يتحرى عن التفاصيل بدقة، خاصة أنّ سائق العربة الأول أثبت احتياله حين أصرّ على معرفته بموقع مقصدنا الواقع على طريقه، كنتُ على وشك تصديقه لولا السيد بروك الذي استجوب الرجل بذكاء، فعلم أن وجهته ليست سوى الجانب الآخر من المدينة، حين وبخه السيد بروك على محاولة تضليله لنا، أخذ السائق يقسم مبرراً جهله بمواقع المستشفيات التي تتنقل يومياً من مكان إلى آخر، أما التباسه بالأمر فبرره بأنه محض صدفة.

أخيرًا؛ وجدنا إحدى العربات الغادية إلى وجهتنا، في الطريق لم يتوان السيد بروك عن الإشارة بإصبعه لمنزل الرئيس، حيث رُكنت عربات الخيول خارجه محيلة الدرب إليه إلى نهرٍ من الطمي، ما لاحظته كان قذارة المكان، حيث تجول الخنازير في الشوارع عابرة جثث الخيول المنتفخة الملقاة على جانبي الطريق، حتى الخيول الحية بدت نصف ميتة، فاضحة الإهمال الذي تلقاه من المسؤولين عن رعايتها، هذا عدا الزنوج المتكاثرين في كل مكان، اعتدنا في كونكورد رؤية واحد أو اثنين من المواطنين السود بملابس أنيقة وسلوكيات لائقة، لكن واشنطن غارقة ببقايا العبودية الممزقة، مستوطنون مهرَّبون يحاولون التعايش مع واقعٍ مهزومٍ للحفاظ على وجودهم، اختنقتُ لرؤية صغارهم العاملين بمسح الأحذيةِ وهم يجرّون عدتهم مستجدين المارّة دون جدوى، فمن سيجازف بدفع فلسٍ واحدٍ لمسح حذائه في عالمٍ غاطسٍ بالطين؟!

1- مباني الحكومة البيضاء غير المنتهية البناء، أصبحت ثكنات للجنود ومستشفيات للمصابين.

2- مبنى مكتب براءة الاختراع في الولايات المتحدة: كان أحد أوائل المباني الكبيرة التي تم إنشاؤها في واشنطن (بعد مبنى الكابيتول والبيت الأبيض)؛ بدأ المكتب عمله في منتصف ثلاثينات القرن التاسع عشر واكتمل في نهاية الحرب الأهلية الأمريكية، استخدم مكتب براءة الاختراع في البداية منزلاً مؤقتاً للجنود المستعدين للمغادرة نحو المعركة وبعدها مستشفى للجرحى العائدين.

لا غرابة بأن تهلّ المدينة أطلالاً مدمرة؛ فمخاضُ المستنقع لا يأتي إلا بناقصٍ أو متداعٍ، مررنا بالمسلة المخصصة لتكريم رئيس الأمّة، التي لم يُنجز أكثر من ثلث بنائها، لتنتصب كقلمِ رصاصٍ مكسور رست الحجارة حول قاعدته مكدسة مغطاة بالعشب، أما المباني القليلة المنتهية البناء فتلاقي بعضها بعضاً، كأيقونات مجدٍ ضائع، كسيماءِ مدينة لبدة العظمى[1] لكن دون أفقٍ أزرق لسماء بحرٍ وضّاء مشرق!

فكرتُ بثرواتِ البلاد التي ابتلعتها الحرب، بغنائمَ مهدورة أحالت المدينة أنقاضاً مشوهة في بطن المستنقع، تأملتُ أوهام بعض الحالمين ببناء أمّة قائمة على أفكار حضارية كالحرية والمساواة!

الأفكارُ الباعثة على اليأس قضّ انثيالها صياح سائق العربة: «فندق بلانك!»، ساعدني السيد بروك في النزول أمام مبنى ضخم الأنحاء، يتقدمه أمام البوابة علم مرفرف أعلى هامات الرجال المتجولين بزيهم الرسمي، تركتُ للسيد بروك التعامل مع حقيبتي السوداء القديمة الثقيلة، ثم هممتُ بتثاقلٍ لصعود الدرجات، رمقني الحارس بنظرةِ تعاطفٍ لحقها بمسّ قبعته في إيماءةِ ترحيبٍ رسميّة، لا بد أنه يقابل الكثيرات من أمثالي يومياً، زوجاتٍ بائسات يصعدن السلم ذاته بأسى وذعر للاطمئنان على أزواجهن.

أطلّ فتى زنجي –يا لكثرتهم! أما من نهاية لأولئك الزنوج؟ مع فتح الباب فاح عبقٌ نتنٌ وعفونة مختلطة مع بخار الكرنب المغليّ، روائح عرقٍ لأجساد متسخة– زنخُ مشروبٍ مخمّر بفعل الحرارة التي فاقت قيظ بومباي، لاحظتُ إغلاقهم للنوافذ الطويلة قاطعين المسارب المحررة للهواء الملوث، امرأة زنجية نحيلة، مهندمة مرتبة بمظهر يبعث على الاطمئنان، بعكس النساء اللائي رمقتهن في الشارع، مرّت أمامي تحمل صينية تعلوها بعض الأدوات.

«من فضلك» خاطبتها، التفتتْ بنظرةٍ متقدة بالاهتمام، «أين يمكنني العثور على الطبيب الجراح هيل؟»

1- لبدة العظمى: مدينة من مدن الشمال الأفريقي الكبرى السابقة، لها إطلالة رائعة على الساحل المتوسطي، تبعد 120 كم شرق مدينة طرابلس عاصمة ليبيا، المدينة كانت من أبرز مدن الشمال الإفريقي في عصر الإمبراطورية الرومانية.

«هلّا تبعتني لطفاً، فأنا في طريقي إليه»، انساب صوتها رقراقاً عذباً – منخفضًا بإيقاعٍ جنوبي، أنيق النبرة أرستقراطي النغمات، تتبعتُ خطواتها السريعة متجنبةً الصخب الصادح بالقرب من المدخل، متجاوزة القدور المتشحة بالسواد والغاسلات الزنجيات مع أكوام البياضات والأغطية القذرة؛ خطوتُ قرب جنودٍ متماثلين للشفاء يعرجون بخطواتهم حاملين أباريقَ الشاي الساخن ومدنيين متشائمين منهكين، كحالي، باحثين عن أحبائهم، مررنا بجناحٍ مكتظّ بنقالات جرحى الجيش تعلوها وجوههم الشمعية الشاحبة، حدّق جريحٌ بوجهي بعينين زجاجيتين محمومتين، «شارلوت؟ هل أتيتِ أخيرًا من أجلي؟» استفسر بذهولٍ، حاولت التحكم بارتجافي مومئة بالنفي، محيلة ابتسامة الأمل فوق ثغره إلى تقطبِ حاجبين.

أُغلقتْ نهاية القاعة ببوابةٍ واسعةٍ مزدوجةٍ تقود إلى غرفة مزخرفة بالأفاريز مزينة بالثريات، يافطةٌ مذهبةٌ علت المدخل مكتوب عليها (قاعة الحفلات)، اسم تكشّف أمام ناظريّ كدعابةٍ سخيفة، خاصة أن أرضية الرقص المصقولة ارتصفت بضحايا العيارات النارية التي أحالتهم عاجزين عن الرقص إلى الأبد، أربعون سريراً وضعت في الداخل، أسرّة فنادق راقية بأعمدةٍ منحيةٍ بعكس تلك النقالات المتواضعة خارج القاعة، جرحى رقدوا فوق بعضها بينما شَغُر غيرها بانتظار مجموعةٍ من الوافدين الجدد الهزيلين الملطخين بالدماء والطمي، المستندين إلى الجدار المترقبين لتفرغ الجراح لأوجاعهم، لمحتُ هزائمهم وقد خُطّت بجلاء على وجوههم كعناوين رئيسة لأخطاء فادحةٍ في زمن الحرب، اقتربتِ الممرضة السوداء من رجلٍ أشيب ملفّحٍ بوشاحٍ أخضر اللون، وضعتِ الأدوات جانباً، ثمّ التقطت وعاءً معدنيًا لتلقي داخله شظية ملطخة بالدم انتزعها الطبيب من كتف المصاب، حوّلت رأسها حيث وقفتُ بارتباك عند المدخل الواسع، همستْ للجراح بشيء ما، أشارت لي بعدها بالتقدم نحوهما، دنوتُ على مضضٍ مع شعورٍ بالتطفل على الرجل المصاب وكتفه المكشوفة وأوجاعه المبرحة.

«الجراح هيل؟» استفسرت بشفتين مرتعشتين، «تسلمت برقيتك، فجئت بأسرع ما يمكن، إن زوجي، الكابتن مارش،،، آملُ أنني وصلت في الوقت المناسب؟»

التفتتْ الممرضة برأسها مع عبارتي فتماوجت أطراف وشاحها الأبيض، حدقت بوجهي باهتمامٍ بالغٍ في حين لم يرفع الجراح ناظريه عن الجرح متسائلاً بنبرةٍ خفيضة: «مارش!،، مارش!»

«القس،،» قالت ثم تابعت موضحة: «الذي وصل الأسبوع الماضي على متن سفينة الريد روفر»، بدقةٍ أخرج الطبيب شظية أخرى من كتف الجريح، ثم ألقاها لتحدث جلبة داخل الوعاء المعدني.

«أوه نعم مارش! لا يزال الرجل على قيد الحياة أو على الأقل حتى هذا الصباح حين عاينته أثناء جولتي الصباحية، لكن حالته خطيرة للغاية كما أشرت لكِ في برقيتي، اسمحي للممرضة كليمنت بمرافقتكِ إليه بعد الانتهاء من معاونتي بمعالجة هذا الرجل»

«من فضلكما، لا تزعجا نفسيكما» قلتْ، «هلّا أخبرتماني بمكان رقاده، متأكدة من أنني سأجد طريقي إليه، أعتقد أن احتياجات الجرحى أكبر وأهمّ بكثير من احتياجاتي»

واصلتِ الممرضة التمعن بي، تعاطفٌ لمحته في وجهها، إلى جانب أمرٍ آخر لم أفهمه لشدةِ قلقي، «ستجدينه في عنبر المصابين بالحمى في الطابق الثاني على يمين الدرج»، ثم أشارت بالقول: «سريره الرابع يساراً بعد الباب»، سكتت عن الكلام، كما لو أنها تريد أن تضيف شيئاً، «أما من أحد برفقتك؟»

«نعم» أجبت، «معي مرافق قادم مع الحقائب»

«أنصحك بانتظار وصوله»، قالت «أخشى أنك ستفاجئين برؤية زوجك وقد تغير كثيرًا للأسف»

لو كنتُ متمالكة نفسي أكثر، لتعجبتُ من ملحوظتها المثيرة للجدل، لكن ما ركزت عليه في تلك اللحظة كان الاحتفاظ بذاكرة الاتجاهاتِ داخل ذهني المضطرب عساي أصل سريعاً إلى زوجي.

شكرتها ثمّ انسحبت بنيّة العثور على السيد بروك الذي رمقته على الفور بالردهة تائهاً وسط الصخب والزحمة، متنقلاً على عجل من جناحٍ إلى آخر باحثًا عني، لوحتُ له فسارع بخطاه نحوي، أعطاني ذراعه وصعدنا السلم.

لو لم تدلني الممرضة بدقةٍ لحيّز رقاده، لما عرفتُ أنّ ذاك الرجل المنهار

فوق سريره ليس سوى زوجي، هلّت خداه غائرتين كما لو أنهما لوجه جمجمة، أما أنفه الناعم فمفلطح ملتوٍ، في حين تكاثرتِ القروح النازة في زوايا فمه، ذراعه امتدت فوق الغطاء بلا لحمٍ تماماً كعظمةٍ ملفوفةٍ ببعض الجلد، بينما خسر نصف وزنه.

قبل مغادرته العام الفائت، كان شعره ذهبيَّ اللون تتخلله خصلات فضيّة من النضوج هنا وهناك، الآن بات رأسه رماديّاً بالكامل فاقداً الكثير من فروته، حين حاولت رفع خصلة عن جبينه المحموم سُلّ شعره متساقطاً بين أصابعي، بمَ أصفُ بشرته المحترقة بأشعة الشمس، التي استبدلتْ بريقها البرونزي بشحوبٍ أصفر، ساكبة احمراراً متوهجاً تحت العينين؟ أصغيت لأنفاسه غير المنتظمة يزفرها صدره المضطرب المرتعش، مسارعة لاحتضان يده النحيلة متحسسة عظامها الهشة كعظام العصفور، لم أستطع السيطرة على نفسي، فاستسلمت لنحيبٍ عنيف.

مكث السيد بروك بجانبي حتى انتهاء نوبة البكاء، استأذن بعدها بالمغادرة لإرسال برقية قصيرة إلى الوطن بغية طمأنة الفتيات بوصولنا الآمن وبأن والدهن ما زال على قيد الحياة، إضافة لإعلامهن بمحلّ إقامتنا الجديد، هكذا جالستُ مارش وحدي طوال فترة هذيانه الجامح، تجهمتْ ملامحه، حرّك يده بعشوائية فوق الغطاء، تخبط برأسه من جانب إلى آخر فوق الوسادة، صرخ بعدها هاتفاً لشخصٍ يدعى سيلاس، اعتذر له مرارًا وتكرارًا عما حدث، صدح بصوتٍ أجشّ، بدا أنّ النطق أوجع حلقه، ذكر أسماء أخرى لاحقًا، ترنم بالعديد منها كما لو أنه يتلو ترتيلة كاثوليكية، سمعته ينادي بطليموس، ثم اسماً أشبه بجيمي، ربما سوزانا بعد ذلك، قلقٌ صاحبَ كل من ناداه وتوسلُ بالغفران.

مشاهد مشتتة مثيرة للاضطراب بما يكفي لتجاهلها، لكنني كنتُ مضطرة للإصغاء لما يقوله لعلني أتمكن من ربط أو فرز خيوط هذيانه من حقيقة ما يقوله لنسج أو ترتيب الأحداث التي مر بها، تمتم بعباراتٍ مبعثرة لفترة وجيزة من الوقت، ليجد نفسه بعد ذلك في خضم المعركة مشجعاً الرفاق على الإقدام بلحظة، حاثاً إياهم على التراجع لحظات أخرى، مخفضاً رأسه قابضاً على ذراعي بمحاولةٍ لإبعادي عن وابلٍ من الرصاص.

لم أر أيّ ممرضة في جناح مرضى الحمى، لكن عندما بدأ يصرخ بصوتٍ عالٍ، سارعتْ إلى سريره امرأة قوية البنية ذات وجه شاحب وعينين صغيرتين غائرتين، دون أن تلتفت إليّ أو تحادثني بشيء، ألقت بذراعها الثخينة خلف كتفيه ثمّ رفعته لأعلى، تأوه متوجعاً، من الواضح أن خشونتها تسببت بألمه، أطلقتُ تنهيدة خفيضة، فبادلتْها بنظرة ازدراء، ثم فتحت شفتيه المتقرحتين وسكبت خليطاً لزجاً بملعقة داخل فمه.

«ماذا تعطينه؟»

«صبغة الأفيون»، أجابت بفظاظة.

«لا يجوز السماح بالضوضاء في هذا الجناح، على مرضى الحمى أن يرقدوا بهدوء وسكينة»

«ما الأدوية الأخرى التي يتناولها؟»

«عليكِ أن تسألي الجراح هيل عن ذلك»، أجابت مسارعة بالابتعاد.

«أحضرتُ معي بعض زجاجات النبيذ المعتق الجيد، الليمون، إضافة إلى ماء الأرز المطبوخ، لعلني،،،-»

«جيد جدًا»، قالت مقاطعة: «لكن لا تعطِيه أي شيء حتى تسألي الطبيب الجراح أولاً»

«ومتى سيكون ذلك؟»

«حينما يصل إلى هنا!» ردت بعنف، «إنْ لم تلاحظي، هناك أكثر من رجلٍ مريضٍ في هذه المستشفى!»، بهذه العبارة الزاجرة أدارت ظهرها تمامًا وانصرفت.

عمل إرهاقي الشديد وأعصابي المنهارة على اندلاع الدموع في عيني، حاولت إقناع نفسي أن الممرضة محملة بالأعباء غير قاصدة إهانتي، لكنني فكرتُ في الوقت ذاته أنه لولا وهني التام، لتبعتها ورددت لها الصاع صاعين، لكنني بدلاً من ذلك دنوتُ أراقب مفعول صبغة الأفيون مغرقاً زوجي لأسفل نحو الأعماق، قصياً عن متناول الكوابيس الشيطانية التي طاردته، كنت لا أزال جالسة بمفردي حين جاء السيد بروك ليصطحبني بعيدًا عن المستشفى.

صفعتنا رياحٌ جليدية عند بوابة الخروج، استنشقتها بشراهة زافرة

هواء المستشفى العفن من صدري، أخذ السيد بروك يعتذر عن سوء جودة المسكن الذي اختاره لإقامتنا وعن وجوب الوصول إليه سيراً على الأقدام، لا بد أنه استجاب لرغبتي بعدم السماح بإنفاق أيٍّ من أموال السيد لورانس لتلبية احتياجاتي، خاصة أنّ الرجل العجوز كان كريماً معي بما فيه الكفاية، صحيح أنني ما زلت أحتفظ بجعبتي بالمال الذي طلبته من العمة مارش، مضافاً إليه الخمسة والعشرون دولارًا التي قبضتها عزيزتي جو ثمناً لتضحيتها بشعرها الجميل، لكن ما زال علي اتخاذ الحيطة، فلا أدري كم من الزمن يكفيني هذا المبلغ المتواضع؟

نظراً لإصراري على الاقتصاد بالمصاريف، وجد السيد بروك نفسه حريصاً على استبعاد الإقامة بمنازلَ فخمة أو بيوتٍ ذات غرف متعددة، ليعثر لنا في النهاية، على أسرّة في مسكنٍ مشترك وصفه بالقول: «متواضع بسيط، لكنه محترم»، لا ريب أنه مناسب للميزانية، قريب من المستشفى، كل ما جال بخاطري تلك اللحظة أنّ أيّ ركنٍ مستور يُغلق بسكينة عليّ سيغدو كافياً جداً.

أوضح السيد بروك أن المنطقة تعج بأولئك المستفيدين مادياً من المعسكر المسلح الكبير الذي آلتْ إليه المدينة، يبدو أن الحرب أفرزت فئاتٍ مختلفة من البشر، لتحتشد المساكن بمراسلي ومصوري الصحف القادمين من مختلف الولايات، بالضباط المأذونين الساعين للترفيه! الحانوتية متعهّدي تكفين الموتى ودفْنِهم، صانعي النعوش، سائقي الشاحنات، بائعي جرار النبيذ، إضافة إلى أعداد ليست بقليلة من المحتالين والمخادعين، على الرغم من أن السيد بروك خاتل بذكرهن متعمداً تجاهلهن، إلا أننا على بعد خطوات قليلة من باب المستشفى، تقابلنا مع أكثر فئاتِ سكان المدينة استغلالاً للحرب: جيش النساء المجدليات[1].

1- المجدليات: (تيمنًا بالشخصية الإنجيلية مريم المجدلية التي صُورت في القرون الماضية كبائعة هوى أعيد تأهيلها بنجاح.) يشير المصطلح للنساء التائبات اللواتي مارسن الجنس غير الشرعي أو عملن في الدعارة، ووُصفت به النساء الشابات اللواتي حملن خارج نطاق الزواج، أو الفتيات الصغيرات والمراهقات اللواتي لم يحصلن على دعم عائلي، كان يتم إعادة تأهيل النساء داخل المصحات المجدلية أو ما يسمى

فتاتان وقفتا في جنح الظلمة بثوبين سافرين عن مفاتنهما على نحو غير لائق، وقد طَلَتا وجهيهما بمستحضراتٍ فاقعةِ الألوان، لعلهما ترصدان الرجال المتماثلين للشفاء سعياً لكسبِ المال، لا أعتقد أنهما أكبر سناً بكثير من ميغ أو جو «يا للطفلتين البائستين!»، تمتمتُ بإشفاقٍ حين لمحتُ جسديهما المزرقّيْن من شدة البرد امتقع وجه السيد بروك خفراً ولم يقل شيئًا، حاولت تفادي الانتباه لشعوره بالحرج فالتفتُّ إلى نهر البوتوماك، حيث انهالتْ أنوار القمر ساطعة فوق باخرة بيضاء متدرجة طبقاتها مثل كعكة الزفاف، لم أتمكن من الجزم إن كانت سفينة استشفاء أم ناقلة جنود؟ وصلنا إلى زقاقٍ يخترقه ممر مجاور لقناة مائية تنفث رائحة كريهة تفوق بكثيرٍ العفن النتن للمستشفى، عرفنا أنها قناة صرفٍ لجميع أنواع النفايات بدءاً من فضلات البشر وانتهاء بأوساخ حيواناتهم، مررنا عبر الظلمة ببائع أسماك متجول يلقي قدرًا من الفضلات الملطخة بالدماء داخل القناة، لم يتوانَ السيد بروك عن تقديم اعتذاراته، كما أشرت سابقاً، لكن قلبي قاطعَ الخفقان تماماً مع توقفنا عند أحد المنازل المشرفة على القناة، كان كوخًا ضيقًا مؤلفاً من طابقين من الآجر الوردي، أقل خراباً بقليل من البيوت المجاورة.

امرأةٌ شاحبة ذات وجهٍ طويل حادِّ الملامح، أطلت مع فتح الباب بملابس سوداء بسيطة محتشمة لأرملةٍ هزمها قدر كنت أخشى الوقوع بين براثنه، قدمني السيد بروك إلى السيدة جاميسون التي استقبلتني برتابة مملة ثم دعتني للدخول، لا صالة داخل البيت الصغير، توجهنا مباشرة إلى حجرة صغيرة لعلها كانت ردهة فيما مضى قبل أن تتحول إلى غرفة نوم بسريريْ مهجعٍ تفصل بينهما ستارة صغيرة عُلّقتْ على نحو عشوائي أفشلَ الغاية المرجوة منها في حجب أحد السريرين المشغولِ عن الآخر، «السيد بروك؛ ستشارك الغرفة مع السيد بولاند، الذي يعمل ناسخاً في خزانة الدولة، أما أنتِ يا سيدة مارش سترقدين بسرير بالعلية جوار سريري، هناك حمّام خلف الغرفة، إن رغبت باستخدامه قبل الصعود».

المجتمع المجدلي في الولايات المتحدة الذي تأسس في فيلادلفيا عام 1800. تظهر سجلات المصحات أنه في الفترة الأولى للحركة المجدلية سُمح للعديد من النساء بالدخول والخروج بحرية، ليتحول إلى سجنٍ رهيب لاحقاً.

في الحقيقة لم يكن لدي شهية لتناول أي شيء، رغم أنني طوال اليوم لم أذق من الطعام سوى كوبٍ من الحساء، إلا أن السيد بروك أصرّ على شراء بعض المحار مع رغيفٍ من الخبز، اضطررت لتناولهما جالسة على كرسي خشبيّ أمام نار الموقد الضئيلة، من الغلاية المعلقة فوق الموقد، سكبت السيدة جاميسون الماء الساخن داخل حوضٍ لاستحمامي في حجرة ذات فتحة سماوية محاطة بالضباب، أغلقتُ الباب خلفي منفردة بلحظةِ خصوصية يتيمة، مفسحة المجال لتنهداتٍ ترثو الحال المزري الذي أمسيت عليه.

لو ما فقدنا ثروتنا بالكامل! أيّ ترفٍ ورغد ظللا معيشتنا! بعد إنفاقه رصيد أمواله بمشاريع براون المزعومة، لم ألق اللوم على زوجي مطلقًا: ليس من حقي تقريعه، فالملكُ ملكه، نتاج أعماله واستثماراته الحكيمة، صحيح أنّ قضية إبطال العبودية مهمة لكلينا، لكن ما آلمني بشدة عدم استشارته لي بقراره الذي ترك عواقبه الوخيمة على الأسرة برمتها، حاولت تحمل إهانة البشر وإذلال الفقر، حتى إنني اعتنقتُ فضائل الحياة البسيطة مثلما فعل، لكنه كلما انعزل داخل مكتبه بغية التأمل الروحاني، كنتُ أقضي الوقت متفكرة بالديون المتراكمة أو بانحطاط قدري مع الحاجة لاستدانةِ المال من هنا وهناك؛ كم من ليال بتُّ بمسغبةٍ لأوفر مأكلاً للبنات وله! أوه! كان يعمل بأعمال البستنة لوضع طبقِ طعامٍ على طاولتنا، يقطّع الأخشاب للآخرين كلما فرغ مخزن اللحوم، ليحصد في النهاية مديح السيد إيمرسون وإطرائه: أنت «أورفيوس خلف المحراث»[1]، (لم يفكر أحد بإطلاق هذه التسمية الشعرية علي، على الرغم من تورطي غير المنتهي برحلة المجهودات والتحولات اللازمة لحفظ حياتنا جميعاً).

1- «أورفيوس خلف المحراث» عبارة ذكرتها كاتبة الرواية جيرالدين بروكس مرتين: في روايتها مارش وفي مقال نُشر في نيويوركر بالعنوان ذاته «Orpheus at the Plow»، يبدو أنها سعت جاهدة لإحياء سمعة برونسون ألكوت، الذي أسيء إليه كفيلسوف مؤثر وداعٍ لإلغاء الرق، كان ألكوت صديقًا مقربًا لزملائه الكونكورديين رالف والدو إيمرسون وهنري ديفيد ثورو، عمل على إعالة أسرته من خلال القيام بجمع الخشب وتقطيعه للآخرين.

حالة كابدتها في كونكورد، لكنني اعتدتُ على تداعياتها بدعم من الأصدقاء وبنجدة من سمعة عائلتنا الطيبة، لكني أرى من الصعب جداً مقاساة العوز هنا، كامرأة معدمة غير معروفة الأصل، متشردة بلا أصدقاء، عدا السيد بروك بالطبع، جالسةٍ بمكان نافثٍ لأكثر الروائح إثارة للاشمئزاز، ثم! فكرة شريرة راودتني: (لا نجاة إلا بمصيرٍ يتكفلُ بموت زوجي سريعاً للتمكن من مغادرة مشهد القذارة هذا)، يا للسفالة التي حطت بثانية فوق دماغي! سارعتُ بنفضها خارجه، كان الإرهاق عذري البائس الوحيد!

غسلتُ وجهي وذراعيَّ بالمياه الدافئة المحببة، ثم عدتُ إلى الكوخ الذي ضجّ بشخير الناسخ ونخيره، تابعتُ دربي صعوداً للعلية مشفقة على حال السيد بروك جواره، توجهتُ إلى سريري الحديدي الضيق بحشيته الهزيلة وملاءته النظيفة لحسن الحظ، بالكاد تمكنتُ من تغيير ملابسي، لأرقِدَ رأسي المثقل فوق الوسادة حين تناهى زعيقُ رجل لمسامعي.

«هااا ييييي أقفل!».

لعله أحد المراكبيين يوشك على الرسو بقاربه، أدركتُ بيأس أن الصرخات ستصدّع مسامع الليل بطوله، إن تابع الصياح قَدّ الدهماء أم اندثر عنها، لا أدري حقاً! فالفكرة تشكلت قبل أن يسلبني النوم لإغفاءة عميقة لا يمكن لأي ضجيجٍ على الأرض إيقاظها.

الفصل الخامس عشر

لمّ الشمل

لن أقول إني استيقظتُ مرتاحة منتعشة، لكن حينما داهمت خيوط الشمس الفضية عينيّ، نَاجَدَت فؤادي وأعادت توازناً توارى عني لحظة إغلاقهما،، ما برح النوم مرمماً بديعاً للأرواح! جلتُ بناظري حول أركان الحجرة الكئيبة، محاولة اختلاق بعض البهجة من شيّة فيها أو مثلب أو نقصان، إنها عادةٌ تمرّنت عليها مع إطلالة كل فجرٍ جديد منذ تبدد ثروتنا هباء منثوراً، حينما تسمرت مقلتاي تحدقان بتصدعات ألواح النوافذ الزجاجية، أخبرتُ نفسي أنها شقوقٌ ناجعة بتوفير تهوية صحية للمكان، أما المرآة الضئيلة بحجم الكف فقد بدتْ لحسن الحظّ، باهتة ملطخة بما يكفي لحجب الهيئة الرهيبة لمظهري الرثّ المُجهَد، في حين ضمن سريري الضنِك غير المريح ضرورة استثمار لحظاتِ الاستيقاظ كلها بعيداً عن حشيته الهزيلة.

نهضتُ فوجدت صاحبة المنزل والنزلاء مستيقظين متأهبين للالتحاق بأعمالهم، بينما ترك السيد بروك ملاحظة تشير إلى مغادرته المبكرة بغية القيام ببعض المهام الموكلة إليه من قبل السيد لورانس، أخبرني بانتهائه من معالجتها بغضون ساعة أو ساعتين، مناشداً إياي انتظاراً في الكوخ لم أكن لأطيقه، خاصة مع استحالة تهدئة هواجسي عن كيفية قضاء زوجي لليلته تلك، كتبتُ مذكرة اعتذار قصيرة، حمّلتُ سلتي بعبواتِ النبيذ والمقويات التي أحضرتها من الوطن، ثم غدوت إلى المستشفى.

اضطررت لتخيّر خطواتي بحذرٍ تجنباً لوطء روث البغال المكوم المتوزع على طول ضفة القناة القذرة، قارصٌ الجو، لكنه ليس ببارِدٍ بما

يكفي لهطل الثلج، كم صبوتُ لعاصفةٍ ثلجيةٍ تهبُّ من ديارنا، عساها تبدّل الرذاذ المتواصل المزعج برقائقَ نقيةٍ من شأنها دفن عيوب هذه المدينة الموحلة تحت لحافٍ أبيضَ ناصع.

يا للغفلة! نسيتُ أمس الاستفسار عن مواعيد الزيارة الصباحية الخاصة بالمستشفى، باضطرابٍ اقتربت من الحارس متسائلة عن الساعات التي ستبعدني بانتظارٍ مقيتٍ عن زوجي، لكن لا داعي للقلق: فالمستشفى على ما يبدو، شرّعت أبوابها لجميع القادمين، مكرهِة الموظفين المحمّلين بصواني الخبز واللحوم والحساء، بشق طريقهم بين الزائرين من أقاربَ وشم الذعر وجوههم! أو عملاء لجمعياتِ الإغاثة الصاخبين المختالين، أو عبر أناس بدوا بلا مهامّ سوى التحديق بفضولٍ والعملِ على إرهاقِ الرجال الجرحى باستفسارات شتى وقحةٍ بعيدةٍ عن الذوقِ والكياسة.

ارتقيتُ السلم بخافقٍ متخبط، مذعورة من حالٍ ناكصةٍ مرتقبة لزوجي، قلة قليلة من متطفلي الطابق السفلي يهتمون بالصعود إلى عنابر المصابين بالحمى؛ أتوقع أن هيئة الجروح أكثر إثارة لتدخلاتهم، بدا جناحه مهجوراً خاوياً إلا من المرضى، التقطتُ أنفاسي حينما رأيته راقداً منهاراً بين أغطية السرير المتشابكة، بينما تلطخت ملاءاته بفضلاتٍ خضراء ناجمة عن المرض، وعاء من الحساء حطّ على كرسيٍّ منخفضٍ جانب سريره، أحدٌ بالطبع لم يمسه، باردٌ تعلوه طبقة سميكة من الشحم، لا عجب من نحافة الرجل، خاصة مع افتقادٍ من يقلق بشأن إطعام عاجزٍ لا تفارقه نوبات الهذيان، لا بد أنه رقد دون تغذية البتة طوال فترة مرضه، فلا ممرضات هنا، ولا أي نوع من المراقبين أو المهتمين.

من الواضح أن لا شخص غيري موكلٌ بمهمة العناية بالرجل العليل، خلعت معطفي وقلنسوتي، رفعت أكمام ثوبي، ثم خاطبته بهدوءٍ قدر المستطاع أثناء سحب ملاءات السرير من تحت أطرافه الهزيلة، جردته من ثوب المستشفى النتن، فانكشف جسده بالكامل أمام ناظري، عام حتى الآن، بل أكثر منذ آخر مرة لمحتُ جسم زوجي بهيئةٍ سافرةٍ جليّة يجتاحها سطوع لاذع كما أبصره الآن، يا للصدر الغائر! يا للشحوب! يا للشفقة! منذ سنوات، على ضفة البحيرة المعطرة بعبقِ أشجار الصنوبر، أذهلتني عضلات

جسده المثيرة، خاصة مع جهلي بظروف تربيته وتوقعي ليديه الناعمتين ألا تحسنا سوى الخطّ بأقلامٍ ثرية، أحاطني يومها بذراعيه المفتولي العضلات وداعبني بلمسات قوية ليَدين كادحتين، أما الآن؛ الرجل ذاته يرقد سقيماً، بالكاد يمكن التعرف عليه، ضعيفاً هزيلاً أوهن بكثير من تحملِ عناقٍ لطيف.

لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية العثور على ملاءات نظيفة، أو حوض ماء دافئ، أو قطعة إسفنجية، أو أي من الأشياء الضرورية لتنظيف جسده وإراحته، لذلك قمت برفع غطاء سقط عن سريره قبل تلوثه كالبقية، ثم رميته فوق جسده البائس، جمعت الأغطية المتسخة في إحدى يدي، وحملت طبق الحساء البارد في اليد الأخرى ثمّ دلفتُ بحثًا عن المساعدة.

لسوء الحظ؛ المرأة ذات العينين الخرزيتين، كانت أول شخص قابلته، تلك التي بادلتني حواراً حاداً أمس، رأتني قادمة فواجهتني بذراعين مغروستين على جانبي وركيها العريضين.مكتبة سُر مَن قرأ

«لو سمحتِ هلا دللتني إلى – –»

قبل أن أنهي جملتي، هاجمتني بالقول: «هل تظنين أنني سأخالف تعليمات المستشفى، مفضلة تلبية احتياجات مريضك أكثر من الحالات الأشد حرجاً،،،؟»

زممت شفتيّ بقوة محاولة الحفاظ على رباطة جأشي، مستعينة بسنوات الانضباط والتحكم بالغضب التي فرضها عليّ ذاك الرجل الراقد نصف ميتٍ في سريره، تركتها تنهي مقطوعتها، ثم استجديتُ معونتها بأدبٍ مرة أخرى، متسائلة عن مكان العثور على ما أحتاجه، فغرت فاها بضرورة انتظاري لـ «بضع ساعات، ريثما يتم التعامل مع الحالات الحرجة!»

«حالات حرجة!» انفجرت بالصراخ، «إنني على وشك دفن زوجي بحفرة قبره بفضل إهمالك! يرجى إعلامي بمكان وجود البياضات – حالاً!»

«لا أسمح لك بمخاطبتي بهذه الطريقة!» قالت وقد علت نبرة صوتها، «أيها الخفير!» صاحت، «سوف أطردك إلى الشارع!»

في كل الأوقات، أعني في كثير من الأحيان، كنتُ مضطرة لمحاربة طبيعتي النزقة وخنق ثورة حنقي، اللتين بديا في تلك اللحظة كأنهما احتقنا

معاً داخل الردهة الفوضوية الحارة، تعالى الضجيج برأسي، ثم شعرت بضغطٍ داخل صدري رفع منسوب جنوني كحال مياه الفيضانات خلف سد واهٍ، قبلَ أن أعرف ما فعلته، كان وعاء الحساء يرتفع بيدي مدعوماً بقوةٍ خارقةٍ للطبيعة متمردةٍ على إرادتي، لتندلق محتوياته ذات اللون الأصفر والرمادي فوق وجه الممرضة الممتلئ.

«نظفي نفسك بهذا!» صرخت بينما ألقيت عليها الملاءات الملطخة بالفضلات الخضراء، «قولي كيف يمكن لإنسانٍ قضاء بضع ساعات راقداً مع هذه القذارة!»

«أيها الخفير!» زعقتْ بحالةٍ هيستيرية، «ساعدني! أنا أتعرض للاعتداء!»

لا أعرف ما الذي كان سيحدث في تلك اللحظة؛ لو قادت الصدفة خفيراً متهوراً في الممر، لكن الشاب الملبي للنداء اندفع شاحبًا كأنه يقضي فترة نقاهته هنا، عرّج صوبنا بمشيته متألماً مع كل خطوة يخطوها.

حين طلب بلطفٍ مرافقتي إياه خارجاً، تسرب الغضب مني على نحو مفاجئ، فاتّبعتُه بوداعة.

«أنا – أخشى أنني مضطرة لجلبِ معطفي»، قلت «لقد تركته،،،»

«لا عليكِ سيدتي، أنا لا أسعى لإخراجك من هنا، لا تقلقي»، قادني بعد ذلك لأسفل الدرج لِما كان ركناً للخدم أيام الفندق، توجه نحو غلاية تبث بخارها فوق الموقد الصغير، ثم سكب لي كوبًا من مغلي قشور الليمون مع أوراق التوت.

«اشربي هذا وستشعرين بتحسنٍ سريع»، خاطبني الرجل بدماثةٍ متابعاً ما ودّ قوله: «لا أنوي سوى إبعادك عن عينيّ الممرضة فلين لبعض الوقت ريثما تنهي نوبة عملها الصباحية، هذا كل ما في الأمر، نعرف جميعاً أنها الإرهاب بعينه، وأن ما تتشدق به عن الاهتمام بحالة المصابين الحرجة محض كذب وأوهام،،، في الحقيقة أنها لا تهتم بأيّ مريضٍ على الإطلاق، ولا تقوم بفعلٍ سوى الطواف في المكان مكلّفة إيانا نحن المتماثلين للشفاء بكثيرٍ من الأعمال، في حين يعجز البعض منا عن النهوض من سريره»، مزجَ محتويات الكوب قليلاً ثم ناولني إياه، «الحقيقة؛ أن الكثير

من الناس في هذا المكان سيسرون بسماعهم عن فعلتكِ بحقها، فهي بالفعل تستحق»

الخفير، أو لنقل الجندي الذي أصيب في فخذه أثناء حملة شبه الجزيرة، طلب مني أن أبقى هادئة ريثما يعود فور مغادرة الممرضة فلين لعملها، «يا سيدتي لا تقلقي بشأن القسيس مارش، سأحضر شخصًا لمعاينته، أو سأفعل ذلك بنفسي إن اضطررتُ لذلك»

خرج الشاب الطيب بعد أن وشّى قلبي بارتياح كبير، أي لطفٍ بسيطٍ له مفعول عظيم! إنه بلسم للروح المقهورة بكل تأكيد، بالطبع كما العادة! بدأ الندم يأكل قلبي وتمنيت ألا تصل كلمة عن ثورة الغضب تلك لمسامع السيد بروك فلا يغير من وجهة نظره المحترمة تجاهي، قبل أن يوشك القلق على النيل مني ذهاباً ومجيئاً داخل الحجرة الصغيرة، سمعتُ طرقة خفيفة على الباب.

«تفضل!»، قلت مترقبة دخول الخفير الشاب، لكن رجلاً رصين الوجه بمنتصف العمر مرتدياً لزيّ القساوسة الأسود أطلّ من الباب.

«السيدة مارش أستأذنك بالدخول»

«نعم؟» قلتُ بينما يُثقلُ وقر الذنب كاهلي، توقعت في تلك اللحظة أن قسيس المستشفى جاء ليوبخني في أعقاب ردة فعلي المُشينة، كما كان يفعل زوجي على الدوام، أو لعله سيلقي محاضرة مهينة بشأن السلوك غير اللائق لامرأةٍ فاضلةٍ وزوجةٍ وأم!

«أعتذر من تطفلي عليكِ سيدتي، لكني مؤتمنٌ على أشياء تخص زوجك، أودعتني إياها إحدى ممرضات باخرة ريد روفر لنقل المرضى كي أحفظها لحين وصولك - من المعتاد اختفاء الأشياء في هذا المكان، بما يمكننا من إلقاء اللوم على بعض العفاريت السود الصغار المحلقين حول أمهاتهم الغاسلات، لكن من الضروريّ تجنب ابتلاءٍ جديدٍ مضافٍ لمصائب إفريقيا، ألا توافقينني الرأي؟»، رمقني بنظرةٍ فضوليةٍ وابتسامةٍ غبيةٍ إلى حد ما، يبدو أن الرجل حاول طرح نوعٍ من الفكاهة السخيفة التي لم تلق من وجهي إلا ردّاً متحجراً مستاءَ التعبير.

بلع ريقه مستطرداً بالقول: «حين سمعت بمجيئك، اعتقدت بوجوب تسليمها لك»، لمحته يحمل بيده صرة صغيرة ملفوفة بورقة بنية اللون محزومة بخيط، مدها إليّ فأخذتها شاكرة، كان يستدير بنية المغادرة حين أوقفته منادية: «أيها القس؟»

«نعم، سيدتي؟»

«أيمكنك إخباري بأي شيء تعرفه عما تعرض له زوجي - ليتم إجلاؤه من ساحة المعركة على متن السفينة؟ خاصة أن رسالته الأخيرة لم تلمّح بأي إشارة إلى مرضه أو وقوعه تحت خطر معين»

كان للقسيس وجه طيب مغاير للجدية التي تكون عليها ملامح شخص بمهنته، بدا سريع التأثر مطواعاً بتبني المشاعر اللازمة للموقف، قلب شفتيه تعاطفاً وأجاب: «هذه هي الحال في كثير من الأحيان، أخشى أن الأخبار السيئة لا تصل إلا مباغتة لأقرب الأقارب، فالمحبون يحاولون دائماً تجنيبنا معرفة الحقائق الصعبة والمؤلمة، يبدو أن زوجك كان مريضاً منذ فترة، ضعيفًا جسمانياً بما يكفي لعدم مقاومته لمرضه العصيب الحالي، يبدو أن مناوشة من نوع ما نالت منه، ليس لدي تفاصيل عنها، كل ما تريدين معرفته عليكِ الاستفسار عنه من الممرضة التي أوصلته إلي، تحدثي إليها بنفسك، فالأخوات اللواتي يعملن على سطح ريد روفر أخبرنها بإسهاب عن حالته الصحية».

«سأفعل ذلك؛ أشكر لطفك، هلاّ أخبرتني لو سمحت باسم الممرضة تلك؟» سألتُ وجلّ ما خشيته أن ينطق باسم فلين!

«كليمنت، على ما أعتقد»، أجاب ثم أردف موضحاً: «امرأة زنجية من فرجينيا - كانت مُستعبدة كما يقولون، على الرغم من صعوبة تقبل الأمر مع التعرف إليها وسماع حديثها، عادة ما تعمل في عنابر الجراحة كمساعدة للدكتور هيل، اللافت للنظر أنه يفضلها على بقية الممرضات، لعله يجدها كأمَةٍ أكثر امتثالاً ووداعة!»

لم أكن لأتوانى عن الرد بتعليقٍ لاذعٍ مع غمزٍ مماثل، خاصة حين تتسلل عنصرية كهذه من شفاه قسّ ينتمي للاتحاد، لكن الخمود الذي أصابني جنباً إلى جنب مع الامتنان لذوقِ الرجل منعاني من الاستنكار، فرددتُ بالقول:

«شكراً أيها القس، سأبحث عنها من فوري»

رحل، فأخذت أحدق بالطرد الصغير الملقى بحضني، إن زوجي حين غادر كونكورد، حمل معه صندوقاً من الأمتعة؛ الكتب والكراريس، المقطوعات الموسيقية والأناشيد، أشياء ضرورية للحياة في المخيم، مجلاته المحببة، إضافة إلى المكتب المحمول الذي قدمته والفتيات كهدية قبل مغادرته، كنا في أشهر غيابه نخيط ونحوك ونطرز بلا كلل أو ملل، لإرسال قطع ثيابٍ متنوعة! أين أغراضه؟ سحبتُ الخيط المربوط، متسائلة ما هذه الزرمة الصغيرة الناجية وحدها من كل شيء؟!

فتحتُ الورقة فأحدثتْ خشخشةً كاشفةً عن حافظةٍ جلديةٍ ممزقةٍ قطعةِ قماش مربعة قذرة مع حقيبة صغيرة من الحرير، من بين العناصر الثلاثة تعرفت على الأخيرة فقط، أغلقت يدي عليها، متفكرة كم تعزّ عليه محتوياتها ليبقيها ملاصقة له طوال الوقت، ثم أدخلتها في صدر ثوبي، فتحتُ الحافظة الجلدية، فوجدت بعض الأوراق المالية بالداخل؛ تعجبت أن أحداً لم يقم بسرقتها، خلف المال تلمستُ حافة معدنية صلبة لما يشبه صورة أمبروت، سحبتها، فبانت صورة فتاة غريبة لم أتعرف عليها، خاصة أنّ زوجي لم يكتب لي مسبقاً عن تعامله مع أيّ امرأة بيضاء، تسبب الفضول بمعرفة هويتها بارتباكي وحيرتي.

التباس آخر اعتراني من السبب الذي قد يجعل أحدهم يحتفظ بقماشٍ قذرٍ نتنٍ كهذا، حتى إنني أوشكت على إطعامه لنارِ الموقد حين لمحتُ حواشيه المحاكة بعشوائية بطريقة سرعان ما عرّفتني بالقماش، لا يمكن لـ «جو» حياكة حاشية متساوية مطلقاً؛ كان تركيزها منصباً على صياغة الحبكة الروائية لقصتها الأخيرة، بحيث تُنسج ملاءاتها ومناديلها بأطراف مشابهة لصدفة المحار المتعرجة، غالبًا ما كنت أمازحها بشأن أسلوب تطريز الروكوكو[1] الذي كانت تتبعه، سويتُ المربع الأخضر المزرق فوق

1- الروكوكو أو الركوكو: كلمة معناها الصدفة أو المحارة غير المنتظمة الشكل ذات الخطوط المنحنية، استمدت منها زخارف القرن الثامن عشر، أسلوب يعد امتدادًا للباروك ولكن بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقة.

ركبتي وابتسمت، لا بد أنه جزء من أحد الأوشحة التي صنعناها للزنوج من بقايا الأردية القديمة المُتبَرع بها عدة أشهر خلتْ، أيُّ رحلةٍ خاضتها قطعة القماش الصغيرة هذه! نظرتُ عن كثب فاستعر لغزٌ خطف بصري من جديد! لاحظتُ أن اللطخاتِ السوداء ليست بقعًا عشوائية، بل بقايا لأحرف خُطّت بالفحم في يوم ما، قلبتُ القماش بوجهيه بمحاولة قراءة ما كتب قدر المستطاع دون جدوى، لم أتمكن من فك الشيفرة المعقدة!

الخفير اللطيف، المدعو سيفاس وايت، حضر بعد فترة وجيزة ليأخذني، «غادر عدوك الميدان»، قال معلناً دخوله الغرفة بابتسامةٍ محببةٍ رغم كسرِ أحد أسنانه الأمامية، في الحقيقة وشت ملامح وجهه بالكثير من المعاناة، بينما كنا نخترق فوضى العابرين في العنابر السفلية، تجرأتُ بسؤاله عن مسبباتِ جرحه، لكني سرعان ما تمنيت لو لم أفعل أثناء سرده لحكايته المأساوية.

«لقد نجحوا بإخراج الرصاصة بشكل جيد» قال شارحاً، «صحيح أنني لم أنزف بحياتي بهذا القدر، لكني أعتبر نفسي محظوظاً لعدم اختراقها العظم بعد تمزيقها الشديد للعضلات، كنت على وشك التعافي قبل أسبوع أو أكثر، لكنهم طلبوا مني رفع رجلٍ ثقيلٍ عجز عن تحريك نفسه، ما تسبب بتهتك جروحي التي لم تلتئم بعد، وضعوا كماداتٍ من الخبز الرطب فوقها كي تتدفق بالصديد خارجاً كما اعتقدوا، إلا أنّ رائحة كريهة بدأت بالانبعاث من قدمي،،،»، تآمرتْ كلماته مع الفوح النتن للجناح، مما أشعرني بغثيان موشك على إفقادي الوعي، إنه الضعف بعينه، عليّ المجاهدة لتمالك أعصابي، فالرجل الذي تحمّل أوجاعاً مبرحة لجرحه، يمكنني على الأقل الإصغاء لشكواه؟ طلبتُ من الشاب السيد وايت ألا يزعج نفسه بارتقاءٍ غير ضروريٍّ للدرج، تمنيتُ له الشفاء العاجل من كل قلبي، ثم استدرت للصعود إلى عنبر مرضى الحمى.

يا له من تغيير أحدثه مرور ساعة واحدة! أهلّ سرير زوجي مُلبّسًا ببياضاتٍ ناصعة كالثلج، أما الملاءات المتموجة فألقيت مشدودة فوق قامته الراقدة، كما تمّ إسناد رأسه وكتفيه عالياً على وسائد كبيرة ممتلئة كي يتاح له التنفس بحرية دون حشرجة الموت الرهيب، ممرضة طويلة سوداء انحنتْ باهتمام

فوقه، خمنت أنها كليمنت، كم هو محظوظ! فكرتُ بصمت، يتوجب عليّ سؤالها عما تعرفه عن تفاصيل الحوادث التي مرّ بها زوجي، اقتربت فرأيتها تطعمه بعض الحساء.

كان ظهرها لي عندما أوشكتُ على التحدث، وددتُ التعبير عن شكري لاهتمامها اللطيف، لكنها في تلك اللحظة وضعت الملعقة في الوعاء الفارغ، رفعت يدها لترد لأعلى خصلة من شعره الأشيب، ثبتت كفها على جبينه لبعض الوقت، ثم انحدرت بباطن أصابعها نزولاً لخده، مداعبة برفقٍ إبهامها شفته السفلى.

لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لا بد أنني مخطئة فالحركة لعاشقةٍ لا ممرضة، أغمضتُ عيني بشدة محاولة إلزام أفكاري بالتوقف عن هواجسها، لكن المشهد أهلّ بمزيدٍ من الدهشة حين تمعنتُ النظر فيهما من جديد، التقط زوجي يدها الداكنة بأصابعَ نحيلة مرتعشة ورفعها إلى شفتيه، أتاني صوته خشناً خافتاً:

«شكرًا لك يا عزيزتي غريس»

لم أعِ ما عليّ فعله! جزء من روحي مرتاح لاستعادته وعيه، توّاقٌ للجري نحوه واحتضانه وتقبيله، بينما أراد الجزءُ الآخر الفرار من الغرفة والمبنى والمدينة والذكرى! ذكرى تلك المداعبة الحميمة.

قبل أن أتمكن من اتخاذ قراري، اقتحم السيد بروك الحجرة صارخاً من شدة الحبور: «قابلتُ الجراح في الردهة وأخبرني أن السيد مارش استعاد وعيه، إنه كذلك بالفعل! كم من الرائع يا سيدي أن أراك تتحسن! الشكر للرب الذي استجاب لصلواتنا!»،

في هذه الأثناء تراجعت غريس كليمنت عن السرير بحركةٍ رشيقة أنيقة لم تش بأي شعور بالإحراج، تشاغلتْ بأخذ صينية الحساء وبقايا الخبز ثم انسحبت من المكان بصمت.

على الرغم من ملامح وجهه المتغيرة –لكن ابتسامته حين تعرّف علي، لا تزال ابتسامته بعد كل شيء، مد يده المرتجفة– لم تكن اليد التي لمستْ يدها – أخذتُها بين كفيّ.

وحدها ليالي الفقد أنِستْ توقي لهذه اللحظة! أيام القلق والاضطراب حفظتْ خيالاتِ لقياه مرات ومرات، كنت أعتقد أن آخر أمانيّ من هذا العالم لا تفوق رؤيته على قيد الحياة،، كم تخيلت ملمس أصابعه داخل أصابعي! بكاءنا البهيج لحظة اللقاء!

حسنًا، الدموع،، تذرفها مقلتاي؛ عيناه أيضاً، لكن أنى لي التوقع بأن دموعي لحظة لمّ شملنا ستنهمر ملطخة بكل هذه المرارة!

الفصل السادس عشر

نهرُ الجحيم

كان وضعه الصحي سيئاً بما يكفي لمنعه أن ينبُسَ بحرفٍ واحد، بينما تسبب جهده المبذول لنطقِ بضع كلماتٍ بإطلاق نوباتٍ أليمةٍ من السعال، طلبتُ منه عدم إتعاب نفسه بالكلام، فأشرق بعينين لامعتين محمومتين هامساً: «لدي الكثير لأقوله،،،».

«سيكون لدينا متسع من الوقت» - هذا ما أردفتُ به؛ «العمر بطوله للتحدث، حين تتحسن صحتك»

«رؤيتكِ تجعلني أفضل،،،»، قال بصوتٍ متحشرجٍ، ثم اختنقتْ كلماته بنوبةٍ من السعال، غادرنا السيد بروك بطريقته اللبقة المعتادة، متعذراً بإرسال برقية للفتيات اللواتي لا يُحبَّذ انتظارهن دقيقة إضافية لمعرفة الأخبار السارة عن والدهنّ، ممرضة أخرى، ليست كليمنت أو فلين، بل امرأة ناضجة بمثل عمري، جاءت أخيرًا لتولي علاجه بالأدوية اللازمة، بردٍّ مترعٍ بالتهذيب على استفساراتي مناولة إياي الدواء، أوضحتْ أن الكالوميل دواء قوي الفعالية مركبٌ من الزئبق والكينين المُعايَرين معاً لعلاج الحمى والالتهاب الرئوي، أما اللودانوم فينفع كما شرحتْ «لتأمين الراحة والمساعدة في تقييد وتماسك الأمعاء»

جلستُ جواره أترصد مفعول الدواء وقد سرى سريعاً بجسده المُستنزف، كان يوشك على إغلاق جفنيه منزلقاً إلى عالمٍ آخر، حين استعر اهتياجٌ رهيبٌ في أعماقي رغبة بكشف النقاب عن أسراره المخفية، طالبتُ نفسي بالتحلي بالصبر، لكن المرارة دفعتني لاستغلال الفرصة قبل فقدانه للوعي مرة أخرى، الحقيقة ما أصبو إليه؛ لن أتمكن من التجلّد أكثر.

انحنيتُ فوقه وهمست في أذنه: «تلك الممرضة، غريس كليمنت، هناك شيء بينكما، أليس كذلك؟»

ارتعشت جفونه المغلقة، «شيء ما،،،»، كرر عدة كلماتٍ تسللت أقرب للصفير، اضطررتُ للانحناء أكثر لأدنو على بعد بوصات من وجهه، «وقت طويل،،،»، فجأة فتح عينيه بالكامل، أخذ يحدق بي ومن خلالي بحدقتين واسعتين وبؤبؤين مطفأين مفضيين لعتمةٍ خاويةٍ هائلة، ثم غمغم: «حبيبتي»

أُغلقتْ عيناه من جديد، لم ينبس بالمزيد فقد خطفه المخدر بعيدًا، هززته برفقٍ، ثم بعنفٍ عساه يسترد وعيه، حتى تناهى إلى مسامعي اصطكاك أسنانه داخل لثته الملتهبة، حين وعيتُ لما أفعله، استعدت يديّ كطفلةٍ مذنبة وشبكتهما خلفي، حاولتُ الانتصاب فقاومني تشنج جسدي بينما آلمتني عضلات رقبتي وكتفي، رحتُ أتنقل في الجناح جيئة وذهاباً بروحٍ ثكلى، جلستُ ثم أخرجتُ حقيبة الحرير الصغيرة، متأملة بقدرة شعر بناتي على مواساة خافقي المضطرب، تعرفتُ على الخصلة الأولى -إنها لي، ثم هوت خصلات إيمي الذهبية في راحتي، قصاصات لبيث وميغ جو العزيزة كريمة القلب التي لم يتبق من شعر رأسها سوى هذه الخصلة- ابتسمتُ، لكن الابتسامة سرعان ما خبتْ فوق شفتي، لمن هذه الخصلة الغريبة؟ شعرات مجعدة مدلهمة كسواد الليل، شعرٌ زنجيٌّ،، يا إلهي! لا بد أنّه شعرها!

لستُ بريئة أو ساذجة، فأنا أعرف كيف يقع الأشخاص في فخّ الغواية، كما أستوعبُ شيوع الخطيئة بين البشر، ألم أشاهد لسنواتٍ الحالة الحميمة بين هنري ثورو وليديان إيمرسون، وكم تعذبا من شدة تعلق أحدهما ورغبته بالآخر! حتى أعفّ الناس لا يمكنه تحاشي الوقوع بالإثم، هذا كله أعلمه وأتقبله، لكن علي التثبت من حقيقة تخصني أولاً، ما الذي كان يقصده بكلمة: حبيبتي؟ أتراه كان يخاطبني؟ أم أنه،، قصد ما أخشاه! أتراها حبيبته حقاً؟ شخصان في العالم يمكنهما إرشادي، وبما أن أحدهما عاجز عن القيام بذلك، عليّ التوجه للآخر، بغض النظر عن صعوبة المواجهة.

لكن كما يحدث دائمًا، إن قصد المرء البحث عن شخص ما، يستحيل

العثور عليه، أين غريس كليمنت؟ دلفتُ في أجنحة الجراحة، ثم صعدت إلى عنابر مرضى الحمى، لم يروها، ولا أحد يعرف مكانها.

لجأت في النهاية لسيفاس وايت الذي وجدته ينقل ضماداتٍ ملطخة بالدماء خارج عنابر الجرحى، شرحتُ له بأن القس أوصاني بالتحدث مع الممرضة كليمنت، لأنها كانت ضمن الفريق الذي أحضر زوجي من سفينة المستشفى، نظر إلي من فوق الصرة الرهيبة، ثم هز رأسه بالقول: «يمكنني إعلامك بالمكان حيث تتواجد الممرضات البيض عادة»، قال غامزاً ثم أفرج عن ابتسامة ثغره المكسور الأسنان، «هناك مساكن لهن في غرف العلية، لكنني متأكد أنّ أياً من السيدات السوداوات ليست هناك، كما أنني جاهل تماماً بأماكن مبيتهن،،، يمكنكِ الاستفسار من النساء الغاسلات، فهن على معرفة تامة بالمكان»

عرّج السيد وايت مرافقاً إياي إلى نهاية الردهة مشيراً إلى ساحةٍ جرداء مرصوفة بالحصى في الجزء الخلفي للمستشفى، أعلنتِ البقعة المخصصة للغسيل عن نفسها عبر تدفقات البخار المنخفضة المتبددة في الهواء الخارجي البارد، لم أحضر معطفي، لذا هرولتُ مرتعشة عبر الفناء وصولاً للبِّ الغرفة الدافئة بفعل الحرارة الرطبة للغسيل، آخر ما وضعته في حسباني دخولي لركنٍ خاصّ بالأموات، من الواضح أن واجبات الغاسلات تضمنت غسل جثث الجنود الذين ختموا معاركهم بالموت، لعلّ أول غرفة غسيلٍ في المستشفيات أنشئت لهذا الغرض، جثة جنديّ عارية –مبتورة الطرفين– راقدة فوق حامل خشبي لمحتها قبل أن أهرب بعينيّ، بينما تقوم زنجية مسنة بإلقاء قطعة قماش على جسده الضامر، لتقوم بعدها بغسل أطراف الجراح المرتوقة التي فشلت في إبقائه حيّاً، جثتان متهتكتان مغطيتان تنتظران انتباهها، كانت تشدو بصوت قويّ! صدمني تصرفها غير اللائق، لكنني سرعان ما أدركت أن ما غنته ترنيمة كنسية، التوابيتُ الخشبية المهلهلة الفاغرة أفواهها لابتلاع حمولتها جنباً إلى جنبٍ مع قامتها الضخمة وصوتها المعتدِل عميقًا رنانًا بين غيوم البخار المنبعثة من القدور النحاسية، جعلها تبدو كملاكٍ أسود كبيراً يصعد بروح الرجل إلى السماء، التفتتْ نحوي مع ابتسامة علت ثغرها، ملقية التحية مستفسرة عن حالي، عن أيّ حال تعسة

سأخبرها أو أبادلها الابتسامة فوق أجساد الموتى العراة! تمنيتُ لها يومًا طيباً متابعة مسيرتي رافعة أطراف تنورتي عن الأرضيات المبللة، قاصدة الغرفة الخلفية حيث أبصرتُ النسوة يكدحن فوق ألواح الغسيل ومناضد المكاوي، بينما ينزلق أطفالهن كالجراء فوق رغوة الصابون المنسكبة على الأرض.

نظرت النساء بفضول إلي، فسارعتُ باستفساري عن غريس، «تلك،،؟»، ردت غاسلة مسنة مسارعة بالنهوض غارسة قبضتها بخصرها مردفة بالقول: «تلك المرأة اللطيفة لا تقيم مع أمثالنا يا عزيزتي!»، التفتتْ امرأة مع مكواتها بنظرةٍ ساخرةٍ وضحكتا معاً.

«أعمل في هذا المكان مذ كان فندقًا حيث أسكنونا بادئ الأمر في الغرف العلوية، التي باتت الآن خاصة بالممرضات البيضاوات بعد قيامهم بطردنا جميعاً وحشْرِنا في غرفة المرجل، هنا كما ترين! فأنّى لفتاةٍ شابة بنظرتها المتعالية وأنفها الصغير المتغضن اشمئزازاً أن تقيم معنا؟»، بأصبعين ضغطت المرأة فوق أنفها الأسود العريض ورفعته بزهو، محدثة مرحًا صاخباً بين جموع النسوة، «ليس هذا كل شيء يا سيدتي، بغض النظر عن كونها امرأة مستعبدة آتية من الجانب الآخر للنهر، فقد قام الطبيب باستضافتها في منزله، أو لنقل داخل قصره العظيم الأحمر أعلى التل، نظرات ذاك الرجل تشي بأنه منحها ركناً بعيداً عن حُجرة الخدم، هذا إن تركها ترقد فيه على الإطلاق!»، انفجرت النساء الأخريات بالضحك.

شعرتُ بالدم يتدفق من وجهي، أيّ امرأة تورط زوجي معها؟ كان السخط يرتعد بأوصالي حين عدت إلى الجناح، أخذت معطفي وقلنسوتي، شرعت بالاسترشاد عن موقعِ إقامة الطبيب، ثم اتجهت إليه.

سرعان ما تحول رذاذ المطر إلى هطولٍ غزير، أما الأوراق المتساقطة المتعفنة فآلت إلى هريسٍ بنيّ تشبث بنعلِ حذائي متسبباً بانزلاقي مرة تلو المرة أثناء ارتقاء التل، تدفقتِ المياه من قلنسوتي شلالاً حاجبة عيني عن رؤية الدرب الصاعد، فنزعتها بصبرٍ نافد متابعة المضي برأسٍ عارٍ غير آبهة بآداب الاحتشام المعهودة، ولأنني كنتُ في عجلة من أمري صباح اليوم

قبل حضوري إلى المستشفى، لم أثبت شعري بالدبابيس جيداً، بما تسبب بانسدال خصلاته مبتلة حول كتفي، بحلول وقت وصولي إلى قمة التل وصعودي درج ما استنتجت أنه قصر الطبيب، كنت غارقة بالمياه.

بحدقتين واسعتين مذهولتين، أهلّ زنجي أنيق بزي الخدم فاتحاً الباب، لا بد أن مظهري البائس جعله لا إرادياً يتخذ خطوة إلى الوراء، لم يكن لسلوكي أي انطباع أفضل من مظهري.

«أريد مقابلة الممرضة كليمنت!»، انفجرتُ بغضب.

لم يبح وجه العبد الطيب الخجول بأيّ استياء أو نفور فاق التواء آنيّاً بشفتيه، «لحظة واحدة»، أجاب ثم أغلق الباب في وجهي.

مع فتح الباب ثانية أطلت امرأة نحيلة ذات شعر فضي، كانت ترتدي ثوباً فاخراً من حرير الماهوجني المزين بذيلٍ من الدانتيل المصفر، «يا إلهي أنتِ مبللة تماماً!»، ثم دعتني بالقول: «تفضلي بالدخول بعيداً عن المطر»

«ماركهام، من فضلك خذ من السيدة – آسفة؛ ما اسمك؟»

«مارش»، أجبتها.

«من فضلك خذ المعطف المبلل من السيدة مارش، وأحضر لها رداء من الغرفة الصينية، اطلب من هيستر أن تعدّ الشاي»

«حسنًا سيدة هيل»، رد الزنجي، ممسكًا بثوبي المبلل بازدراء.

«تفضلي هنا سيدة مارش ودفئي نفسك»

بدت الصالة باذخة الفرش مخمليّة الأرائك والستائر، رفوفٌ رخامية أحاطت بالموقد أشرقت بناره المستعرة الشهية، وقفتُ أتقطر بما أغرقني من المياه فوق السجادة النبيذية اللون، بينما انتظرت السيدة هيل وصول الرداء الذي أخذتُه على مضض، وضعت هيستر الشاي على منضدة منخفضة من الرخام المصقول، قبل التفات سيدتها بنظرة مباشرة من مقلتيها الخضراوين، لتلقي عليّ بسؤالها الحازم لكن بأسلوبٍ لطيف:

«هلا أخبرتنا من فضلك يا سيدة مارش، ما سر زيارتك الغريبة المُفاجئة؟»

وضعتُ كوب الشاي الخاص بي محدقة بيدي المنهكتين المزرقتين من شدة البرد والقشعريرة.

«زوجي مريض جداً، وصلنا أمس بعد تلبيتنا لبرقية استدعاء مستعجلة إلى واشنطن من قبل الدكتور هيل، أخبرني قسّ المستشفى اليوم أن الممرضة كليمنت على بيّنة بالتاريخ المرضيّ لزوجي، أنا - أتطلع لمعرفة ما جرى، هذا كل ما في الأمر»

رفعتُ بصري،، فالتقطتني العينان الخضراوان ببرود وثبات.

«ألم يكن بإمكانك الانتظار حتى الغد لمقابلة الممرضة كليمنت، الفتاة تكدّ بمعاونة زوجي في المستشفى لست عشرة إلى ثماني عشرة ساعة يومياً؟ أكان عليك اقتحام خصوصية مسكنها والتطفل على الوقت القليل المتبقي لراحتها؟»

لدغتني الكلمات كتلميذةٍ لسعها سوط العقاب، أجبتها فخرج صوتي خفيضاً:

«حالة زوجي حرجة للغاية، عليّ الإلمام بالحقيقة كي أتمكن من مساعدته بصورة أفضل»

«أعتقد يا سيدة مارش، أنّ لديك حقيقة تخفينها، تقطن غريس كليمنت منزلنا منذ حوالي نصف العام، مواظبة العمل يومياً مع زوجي دون كللٍ أو مللٍ، أراها اليوم للمرة الأولى تغادر واجباتها في ساعة مبكرة متعذرة بتوعكٍ في جسدها، لتأتي أنتِ الآن،،،»

جالت عيناها من رأسي المبلل حتى حذائي المشبع بالوحل، ثم خاطبتني بالقول: «لا أعتقد أنني سأزعجها إلا إن تكلمتِ بصراحة تامة معي»

لم أردّ مطأطئة رأسي محدقة بحذائي الموحل القذر، ورقة شجر عفنة متشبثة بنعله الأيسر، بينما ثُقب النعل اليميني مسرباً الماء إلى جوربي، لا بدّ أن السيدة هيل ستتحاشى فظاظة أسلوبها في التحدث لو أنّ ملابسي أنيقة صارخة بغير «الفقر المدقع»!

شعرتُ بتأجج الغضب داخلي، كيف يمكن لزوجي أن يضعني في موقفٍ مهينٍ كهذا؟ رفعتُ رأسي بنزقٍ، لكن الكلمات الشرسة ماتت فوق شفتيْ، دخلت غريس كليمنت في تلك الأثناء بصمتٍ تام مرتدية ثوبِ التمريض البسيط المنسوجِ من الصوف الرمادي الداكن، بينما حجبت شعرها بوشاحٍ أبيض ساطع، تسمرت قامتها في المدخل بيدين مشبوكتين بهدوء أمامها.

«لا عليكِ يا إميلي، كل شيء على ما يرام، إنني جاهزة لاستقبال السيدة مارش».

استدار الرأس الفضي بحدة، فأبصرتُ الشعر المعقوص مثبتاً بأناقة بمشبك فاخرٍ من الماس.

«غريس، يا عزيزتي، هل أنت متأكدة؟ ليس من الضروري أن - -»

«من فضلك يا إميلي،، إنني حقًا بخير»

«قولي ما تشائين، لكن،،،»

«إنني بحالةٍ أفضل بالفعل، دعيني أخمد هواجس السيدة مارش»

«حسنٌ يا عزيزتي،، لكن أرسلي في طلبي إن احتجتِ أيّ شيء»

كأختين؛ كانتا تتبادلان الحديث على قدم من المساواة، بأسلوبِ تعاملٍ لا يمتُّ بصلة لسيدةٍ راقيةٍ تحادث عشيقة زوجها، احمرّ وجهي من شدة خجلي من نفسي، لم أكُ لأقبل فيما مضى على الإصغاء لأيّ ثرثرةِ خبثٍ أو نميمةِ رجسٍ من أفواه نساءٍ بيض، فكيف بي الآن أصدق غيبة مترعة بالحقد والحسد من أفواه غاسلاتٍ زنجيّات!

نهضت السيدة هيل ملتمسة العذر بالمغادرة، ثم أمسكت بيد غريس أثناء خروجها وضغطت بحنوٍّ عليها، انحنتْ غريس، الأطول قامة من السيدة هيل، ثم قبلت خد المرأة المسنة.

أخذتْ مكانها على أريكة السيدة هيل، ثم صبت الشاي بالكوب المعدّ مسبقاً لصاحبة المنزل، جلستْ بظهرٍ مستقيمٍ كمدكّ البندقية، متنقلة بحركات يديها بتمهلٍ وأناقة كما لو أنّ غرفة المعيشة غرفتها أو طقم الخزف الصيني الفاخر إرثٌ من أجدادها، ارتشفت الشاي، وضعت الفنجان برفق، ثم طوتْ يديها بحجرها لتطالعني بنظرةٍ ثابتةٍ لعينين عسليتين ذهبيتين لامعتين.

«السيدة مارش، أعرف زوجك منذ كان في الثامنة عشرة من عمره»

تلقيتُ كلماتها كصفعةٍ مريرة حتى بات لزاماً علي غرس أصابعي بمسند الكرسي لأحافظ على اعتدال جلوسي: «سأخبركِ بالحكاية كاملة!»، قالت؛ ثم بدأت بسرد الرواية منذ بدايتها في منزل السيد كليمنت، كاشفة بالكامل عما حدث بينها وبين البائع المتجول الغرّ في ولاية كناتيكيت، متابعة قصّ التفاصيل المتعلقة بلقائهما التالي بعد معركة الجرف.

عندما كانت ميغ صغيرة، أهداها أحدهم مشكالاً[1] مليئًا بقطعٍ متحركةٍ من الزجاج الملون الذي ظلّ لعبتها المفضلة لفترةٍ طويلةٍ من الزمن، لطالما أذهلها كلما شكّل بدورانه أنماطاً جديدة لأَشْكال هَنْدسيّة مُخْتلفة الأَلْوان، المشكال ذاته دار أمام ناظري فوق تلك الأريكة، لقد مزقت غريس كليمنت زواجي إرباً إرباً، كل جملة نطقتْها نثرتْ شظايا جديدة من حياتنا، مبعثِرة إياها لتصوغ مشاهد غريبةً لم أتعرف عليها.

أيّ كذبٍ! أيّ نفاق! كنتُ فخورة بالأنباء السارة التي أرسلها زوجي من هاربرز فيري، حين أخبرني عن الإلهام الذي حثّه لترك وحدة الجيش قاصداً الجنوب لتعليم الزنوج المهرَّبين، أيّ حقيقةٍ مهينةٍ أليمةٍ تكشف نقابها أمامي هذي اللحظات! فالرجل الذي قبض عليه في وضعٍ مشينٍ مع هذه المرأة، طرد بعدها تحت وطأة التهديد بفضيحةٍ مدمرة، ارتفع الدم دفاقاً برأسي، حاولت التماسك مستنجدة بسنوات الانضباط للحفاظ على رباطة جأشي أمام نبرة صوتها العذبة المتوازنة:

«بعد شهرين من الواقعة توفي والدي، فقررتُ فعل ما حضّني عليه زوجك، قمتُ بمراسلة الكولونيل الذي رشحني بدوره للعمل مع الجراح هيل في خطوةٍ أعتبرُها الأهم في التغيير الذي مسّ حياتي، علمني الدكتور هيل الكثير، في حين أبدت زوجته السيدة هيل لطفاً وطيبة فاقا تصوري، كما لو أنني أحد أفراد هذه العائلة، بالمقابل أحاول بذل ما بوسعي لتخفيف الأعباء عن الدكتور هيل قدر المستطاع، منذ حوالي الثلاثة أشهر، كلفني الدكتور هيل بواجب تفقد سفن المستشفيات وانتقاء أصحاب الحالات الحرجة التي يتوجب نقلها إلى مستشفى بلانك تحت رعايته، هذا ما حدث في الميناء تلك الليلة، حين وصلت ريد روفر السفينة التي أقلّت زوجك»

من جديد وصّفتِ المشهد بإسرافٍ بأدقّ تفاصيله، ذكرتِ السفينة وقد فاقت أعدادُ الجنود المصابين طاقةَ استيعابها، كيف وقع اختيارها على

1- المشكال: أنبوب مرايا يحتوى خرزاً ملوناً، وحصى وغيرها من الأشياء الملونة الصغيرة، المشاهد ينظر من أحد الأطراف بينما يدخل الضوء من الطرف الآخر منعكساً من المرايا، كلما تم تحريك الأنبوب بشكل دائري، يستطيع المشاهد رؤية الاشكال بألوان وأنماط مختلفة.

مكتوين بحروقٍ خطيرة ناجمةٍ عن انفجار مرجلِ السفينة من جراء قذيفة، بيّنتِ حالة الجرحى الذين شغلوا كل ركنٍ من سطح الباخرة! ذكرتِ السلالم والممرات المكتظة بالأجساد السقيمة قبل نقلها بالنقالات خارجاً لترقد بإعياء على رصيف الميناء، أشارت إلى مصباحٍ بالكاد أضاء درب خطواتها الحذرة المتنقلة بين قامات الرجال المضطجعين المتأوهين المتناثرين كقطعٍ من البضائعِ هنا وهناك، عيونٌ لا تعد ولا تحصى رمقتها بقلقٍ واسترحام.

«كانوا خائفين من أن يتم وطئهم بإحدى الأقدام العابرة، وهو أمر كثير الحدوث، إذ يُدهس الراقد الجريح بلا حول ولا قوة، من قبل جنودٍ في ساحة المعركة أو يُداس بأقدام عمال مستهترين على متن القوارب، ما برحت الأحذية تُرهبهم مع حلول الظلام»

شرحت غريس أنّ اهتمامها انصبّ على اختيار الحالات الحرجة التي تتطلب تدخلاً جراحياً، لكن إحدى الممرضات الراهبات في ريد روفر لاحظت جدية غريس بالعمل، فطلبت منها فحص رجلٍ مصاب بالحمى، قسيسٍ محبوبٍ جدًا بين رعيته من الزنوج المهرَّبين، أخبرتِ الراهبة غريس قصة الزنجية البكماء التي أوصلته إلى صفوف الاتحاد، ذاكرة الكلمات المبهمة المنقوشة فوق الوشاح الفيروزي، «زنجية بكماء!»، اضطرمت النار بدماغي، أتراها عشيقته بدورها؟ لعلها عشيقته بكل تأكيد! وإلا لمَ جازفت المرأة بحياتها، قاطعة أميالاً خطرة لإيصاله إلى بر الأمان؟!

باستئنافِ روايتها بدأبٍ ورويّة، بدا جليّاً أن غريس كليمنت لم تتصور مطلقاً حجم الاضطرابِ الذي أثارته كلماتها بداخلي، مشيرة أثناء سردها لعبارةٍ كتبتها الراهبة ثم حاكتها بقميصِ زوجي: «كابتن مارش من كونكورد»، حينما قرأتْها غريس عرفتْ صاحب الاسم على الفور: «أؤكد لكِ لولا اسمه؛ لما تعرّفتُ على هويته تحت ضوء الشعلة الباهت، فقد غيرتِ الحرب ملامحه إلى حد كبير!»

«تأكدتُ من ترحيله عبر سيارات الإسعاف الخاصة بنا، ثمّ في وقت لاحق من تلك الليلة عُدتُه في المستشفى لأطمئن عليه، فوجدته يهذي مغمغماً، انحنيتُ لضبط ترتيب وسادته هامسة باسمه، فاستعاد شيئاً من وعيه

-كما يحدث عادة مع مرضى الحمى- تعرّف عليّ عائداً بذاكرته إلى صباحِ اليوم التالي لهزيمةِ معركة الجرف، حين كنا معاً في مزرعة السيد كليمنت، متخيلاً أنني أحضّر القهوة له كما فعلتُ في ذلك اليوم، بعد انتهاء العمليات الجراحية لذاك اليوم، قضيت الليلة جوار سريره، هذر كثيرًا أثناء لغوه،، أفشى بتشوشٍ وهلوسةٍ بأشياء،،، بأحداث مؤلمة،،، جرت أثناء معركة الجرف،،، أمور أخفاها عني في ذلك الوقت، ألقى باللوم على نفسه بسبب وفاة جندي يدعى ستون، يبدو أنه حاول مساعدة الفتى الذي لا يجيد السباحة على عبور النهر،، لكنه آثر ركله بعيدًا في منتصف الدوامة رغم قدرته على إنقاذه بغية النجاة بنفسه، ليراقبه بعدها غارقاً مفارقاً للحياة، في اليوم التالي، تلاشى وجودي من ذاكرته تماماً، ليربكني بذكر زنجية أخرى، لعلها المرأة التي أنقذت حياته، أخذ يبكي متوسلاً الصفح والغفران من جراء قتل طفلٍ، وموتِ آخرين معتقداً أنه مقصر في إنجادهم، ذاكراً عجزه عن مساعدة أسرى أُعيدوا إلى العبودية من جديد»

تنهدتْ غريس ملقية ببصرها لأسفل إلى يديها الساكنتين في حجرها، «لا أخبرك بكل هذا لإلقاء الأعباء عليك، لكن مساعدته تتطلب حكمة ودراية بما يختلج في فؤاده، لقد أُغرق زوجكِ في نهر الجحيم يا سيدة مارش، أخشى أنّ الرجل الذي عرفناه في السابق لم يتبق منه الكثير!»

ما برحتُ أكبحُ جماع غضبي حتى تلك اللحظة، مستغرقة بمحاولة مواءمة روايتها مع فتاتِ الأخبار الواردة برسائله المثيرة للشفقة - رسائله الشجيّة المضللة غير النزيهة! لكن إشارتها إلى «الرجل الذي عرفناه!» أغشت بصري، فكيف تجرؤ هذه المرأة على مجاورة مكانتي فيما يتعلق بزوجي؟!

انتصبتُ بقامتي وجلتُ بالمكان بخطى متسرعة، كل الصراحة الزائفة التي أدلت بها ليست سوى زيف وخديعة، حين سألته من تكون أجاب «حبيبتي»، ها أنا أدرك تماماً الآن أنه لم يكن يقصدني.

انفجرتُ بصوتٍ عالٍ: «إنه يحبك»

«أنتِ مخطئة يا سيدة مارش»، ثم انتصبت لتقابلني وجهاً لوجه مطلقةً نظراتٍ رزينة كما لو أنني فقط أخطأتُ بتقدير توقيت الساعة!، «إنه لا

يحبني» استدارت بظهرها ثمّ خطت صوب النافذة الرطيبة متأملة الشارع الغريق بالأمطار.

وعاءٌ من زهورٍ دفيئةٍ تعالى فوق طاولة مصقولة بالقرب من حافة الشباك، مررتْ يدها بين سيقان الأوركيد معادلة تناسق أعوادها وترتيبها داخل الإناء، «لعلّه يحبُّ نظرته عني: سيماء أفريقيا المتحررة، الفتاةُ التي تمثل بنظره أيقونة الكمال الزنجي، لعلني لستُ سوى ماضٍ ينوي إعادة تكوينه قدر المستطاع آملاً في مستقبل يتوق لتحقيقه»

استدارتْ بعد ذلك لتصبّ نظراتها عليّ متابعة بالقول: «أتراني مخطئة إن ظننت أن حياته تستظلُّ بأفكار يعيش لأجلها بعد أنْ شيّدتْ عالمه برمته؟ أعتقد أنه ترك لكِ مهمة التعامل مع الأمور العملية في الحياة بدلاً عنه!»

إن معرفتها الدقيقة بأعماقه ودوافعه لم تزدني إلا ريبة، أما رباطة جأشها فمثيرة للنزق والإزعاجِ أكثر فأكثر، ليستْ في النهاية، سوى خادمةٍ بزغتْ من مخاض علاقة فاحشة شهوانية، فمن تكون هذه الأمَة لتخبرني بواقعِ حياتي الزوجية؟

«كنتما عاشقين! اعترفي بذلك! وإلا لماذا يحتفظ بخصلة من شعركِ --»، خذلني صوتي في تلك اللحظة، فسارعتُ لإخراج الكيس الحريري الصغير، مزقتُه بأصابع جامحة ملقية بالخصلة فوق السطح الرخاميّ للطاولة، تبدلت ملامح وجهها حين نظرت إليها، عاودت الجلوس على الأريكة بقسماتٍ مرتاحة، مدت يدها وأخذت تفكُّ عقدة الوشاح الذي يغطي شعرها، تخيلت زوجي يراقبها متمعناً بجسدها الذي بدأتْ بتعريته له على ضوء الشموع.

«لا تفعلي»، قلت.

لكن الأوان فات، فالقماش الأبيض انزاح بدلالٍ عن جبينها، يا لخجلتي حين تدلى الشعر المتحرر من الوشاح مدلهماً سميكًا، ليتهاوى بانسيابٍ كموجاتٍ كثيفة - لا تشبه على الإطلاق، الحلقة المجعدة الضيقة الملقاة على الطاولة.

غلغلت أصابع يدها بشعرها، كما لو أنها تمسّه للمرة الأولى.

«ورثتُ شعر والدي، كما ترين»

«إذاً،، لمن،،،؟!»

رفقتِ الخصلة وقلبتها بين أصابعها الطويلة.

«من يعرف؟ أظن أنها لطفلٍ صغير، انظري إلى نهاياتها النضرة البهيّة، كأنها قُصّت من رأسٍ لم يسبق حلاقة شعره»

لحظات قليلة مرت قبل الوثوق بقدرة صوتي على الكلام.

«لا أعرف ماذا أقول،،!»

«لا تقولي شيئًا إذاً»، قامت بإمالة رأسها من جانبٍ إلى آخرَ فوق عنقها الأهيف، أغلقت جفنيها بنصف إغماضة لتأخذ بعدها نفساً عميقاً وتزفره كما لو أنها تحرر توتراً مكبوتاً، إنها الإشارة الأولى لثقل المحادثة على قلبها، لم يكن الهدوء الذي انسدل برزانةٍ وسلاسةٍ سوى دثار من رباطة الجأش الصارمة التي تتمتع بها، نهضتْ مومئة بالقول:

«كانوا يجففون معطفك في المطبخ، سأتفقد إن بات جاهزاً، يبدو أن الغيوم خففت من دلق دلائها، اسمحي لي بجلبِ المزيد من الشاي لنرتشفه ريثما يكفّ المطر عن الانهمار»

«لا من فضلك؛ فقد فرضتُ نفسي بما فيه الكفاية»

«لا على الإطلاق، فأنا سعيدة جداً بحضورك الذي لن تتجرأ على فعله الكثيرات من النساء»

استدرتُ مع خروجها نحو نيران الموقد لأكتنز دفئاً كافياً لمسيرة عودتي الباردة أسفل التل، بصرف النظر عن كلماتها، أصبتُ بالحزن والشعور بالرعونة الشديدة، نعم! أحسستُ بالحمق من تصديقي لوشايات النسوة الصباحية، الكثير مما أجهله تكشّف جهاراً أمام ناظري، أسرارٌ خاصة بزوجي الذي رأى أنه من غير اللائق إفشاؤها.

دخلتْ بقامتها الممشوقة بينما عقدت شعرها بوشاحٍ جديد، عبقٌ حادٌّ من النشاء الممزوج برائحة الكي تسللا إلى أنفي أثناء انحنائها لوضع إبريق الشاي، سارعتُ بارتشاف الشاي الحار متلهفة لاختتام هذا اللقاء، فأتاني سؤالها مستفسرة عن مكان إقامتي.

ذكرت الموقع باتزانٍ، محاولة التقليل من شأنِ الظرف المزري الذي أجبرتُ عليه.

لكن معرفتها بجورج تاون ومدى قذارة القناة قطّب حاجبيها متجهماً بملامح وجهها، يا للمفارقة! لعلّ موقفاً كهذا أرداني ضاحكة في وقت مضى: امرأة مسترقة! تشعر بالشفقة عليّ من جراء صعوبات أواجهها! يا لسخرية الأقدار!

لم تسمح غريس بمغادرتي حتى هدأ المطر تمامًا، مصطحبة إيايَ خارج البوابة الأمامية للقصر نزولاً إلى مسافةٍ قريبة منه، لتنبئني مودِّعة أنها ستزورني في المستشفى في وقتٍ لاحقٍ بعد الظهر، تخيّرتُ لخطواتي درباً حذراً أسفل التل، مدركةً قدرتي على منح الغفران لزوجي والتسامح مع ضعفهِ تجاه تلك المرأة، إذ كيف لرجلٍ -مندفعٍ، وحيدٍ، بعيدٍ عن وطنه، منهوبٍ عاطفياً!- أن يقاوم انجذابه لامرأةٍ فاتنةٍ آسرة كغريس كليمنت؟

لكني لم أكن لأخمن مدى تمكني من مسامحته على سنواتٍ مثقلة بالصمت ورسائله المترعة بالأكاذيب.

الفصل السابع عشر

إعادة البناء

طوال ذلك اليوم لم يستعد وعيه، حتى مع النفاذ المُفترض لمفعول اللودانوم بجسده وعلى الرغم من خمود الحمى فوق جبينه.

عادته غريس كليمنت كما وعدت، قامت بقياس نبضه وجسّ صدره، ثم التفتت بملامح يلتهمها القلق قائلة: «إنّ روحه كشمعةٍ تحترق» مردفة بتوضيح مخاوفها: «أعتقد أن عذابه النفسي يؤثر على جسده ويمنعه من الشفاء، صادفتُ حالاتٍ مماثلة، رأيت عكسها كذلك، تعلمتُ أنّ العقل حين يشاء ينتشلُ المريض من حافة قبره،، لكن عقلاً مضطرباً، كحال عقله،،،!»، تبعثرتْ كلماتها ثم تابعت بنبرةٍ خفيضة: «إن نبض قلبه ضعيف، لكن صدره،، صحيح أنني لا أسمع حشرجة الموت، إلا أنّ داخله ما يشبهها إلى حدٍّ بعيد!»

لن أقول إن قلبي لم يتأجج غيظاً من لمساتها ومهاراتها التي أعجز عن امتلاكها، لكني حاولت خنق الغيرةِ اللاذعة فلا موجبَ لها الآن، ثمّ بتواضعٍ قدر استطاعتي طلبت مشورتها للتمكن من مساعدته.

سوّت الغطاء ثم رفعت يديه اللتين زادهما بياض الملاءة شحوبًا، «إن عادَ -أقصد عندما- يعود إلى وعيه مرة أخرى، أرى أن تكلميه بطريقةٍ من شأنها تقليل شعوره بالذنب تجاه أحداث الماضي، يجب أن يسترد شغفه بالحياة -بالمستقبل- اللذين ينتظرانه، أعتقد أن لديك بنات؛ صحيح؟»

«أربع فتيات»، أجبتْ.

«أعلميه بأخبارهن وذكريه باحتياجاتهن وواجبه تجاههن، تلك الفتاة -المرأة أيًا كانت- التي أنقذته: كانت محقة فيما كافحت لخطّ ما كتبته عنه: إنه بالفعل رجل طيبٌ ودود، لكني لا أعتقد أنه يرى نفسه كذلك بعد الآن، مهمة تقع على عاتقك الآن! يتوجب عليكِ إقناعه بذلك إن أردتِ عودة شغفه بالحياة»

بعد مغادرتها لتأدية واجباتها الأخرى، تأملتُ بفكرتها الحصيفة التي لم يكن من السهل عليّ تنفيذها، لطالما سألتُ الفتيات أن يغفرن بعضهن لبعض مطالبة إياهن: «لا تدعن الشمس تغربُ على خصامٍ يباعدكن»، موجّهة إياهنّ نحو الصفح بحنو الأم وصرامتها كلما فرّقت بينهن سجالات الطفولة ونزاعاتها الساذجة، ها هي الأقدار تضعني بخضم الاختبار عينه، فأيّ النصائح تنجدني خاصة أنّ خذلان زوجي لم يتوانَ عن إطلاق سهامه السامة مرة تلو المرة! فهو لم يوفر معيشة موسرة كما كنتُ أتوقع، لأكابد الشُحّ والعوز اللذيْن تكيفتُ مع ضنكهما لزمنٍ طويل، كما أنه لم يبادر بمشورتي حينما اتخذ قرار الالتحاق بالحرب، مع ذلك تظاهرتُ بالرضا والقناعة حتى صدقني الجميع، طعنني بمدية الخيانة على المستوى الأنثوي العميق، مُكنّاً مشاعر سريّة لامرأة أخرى، فما كان مني سوى تفهم أسبابه بوعي الزوجة الصالحة،،! حرجٌ لا يوصف يغتالني كلما وشى الآخرون عن تفاصيل غامضة جاهد زوجي لإخفائها عني؟ فأيّ عظاتٍ عليّ اتّباعها لمواساة آلامي المنسكبة بلا مانعٍ أو رادع؟

توجب عليّ بطريقةٍ ما، تفريغ الغضب والشعور بالإذلال الجاثمْين على صدري، أو على الأقل محاولة حشرهما داخل صندوقٍ محكمٍ لأواريه بأحد رفوف القلب فأتعامل مع محتوياته لاحقًا، لم أكن متأكدة من قدرتي، جَلَدي أو انضباطي لتحقيق مبتغاي حتى لو كان ذلك في سبيل إنقاذِ حياته.

كم من السهل الإدلاء بالمشورة الحكيمة وما أصعب تحقيقها على أرض الواقع! نصحتُ الفتيات قبل رحيلي بمجابهة قلقهن على والدهن عبر التركيز على أعمالهن بالقول: «تحليْن بالأمل وانشغلن بالعمل»، حسنًا،

لعلّها نصيحة صالحة لوالدتهن أكثر منهن، للأمّ المماثلة لمازر غوز[1] إلى حد كبير، لذلك طوال الساعات التالية حاولتُ جاهدة مواساة نفسي بإعانة مصابين آخرين في الجناح عبر المساعدة بخطٍّ رسائلهم أو تعديل وسائدهم أو تزويدهم بأكوابِ مياه عذبة، لمحتُ بأحداقهم امتناناً هائلاً لخدماتٍ ضئيلةٍ أسعفت روحي المضطربة ورفعت معنوياتي المتدهورة.

في فترة ما بعد الظهيرة انضم إليّ السيد بروك مقترحاً العناية بزوجي في حال رِمتُ بعض الراحة، وافقتُ على عرضه مع غياب أمارات عودته القريبة للوعي، عدا احتياجي الشديد للتنفيس عن الضغوط التي أضنتني طوال اليوم، وصلتُ إلى الكوخ فوجدت السيد بولاند قد سبقني إليه، جالساً على كرسيٍّ يتيمٍ في المكان بالقرب من الموقد المستعر النيران مستغرقًا بقراءة إحدى الصحف، بما أضاع الفرصة للتربعِ أمام المدفأة، هرعتُ إلى حجرتي طلباً للسكينة فوق السرير آملة بكتابة خطابٍ للفتيات قبل غفوتي؛ خاصة أن مهمة نقل تفاصيل أحوالنا كانت طوال الوقت موكلة للسيد بروك، أحضرت عُدّة الكتابة لكن على غير العادة، شعرتُ بأوصالي ترتعش من شدة البرد، لعلها رطوبة العليّة الخاوية من الموقد جنباً إلى جنب مع تسلل الرياح الجليدية عبر تصدعات زجاج النوافذ، نزلتُ إلى الطابق السفلي –نيرانٌ ضئيلة خير من أُفُولها التام– قلَبتُ صندوق أعواد الإشعال الفارغ كي أجلس عليه، ثم ركزت انتباهي لما أودّ كتابته مستهلة الرسالة بنقشِ تحياتي.

لم يكن من السهل الاستمرار بالكتابة، ليس بفعل الإلهاء الناجم عن محاولة بولاند المستمرة وغير الفعالة لتطهير حلقه، بل لأنّ الشاب كان يعاني من مشكلة رئوية مروعة توقفه عن قراءة صحيفته كل ثلاث أو أربع دقائق ليبذل مجهودًا مؤلمًا لتحرير البلغم من حنجرته، بذلتُ قصارى جهدي لحجبِ الصوت غير المرغوب فيه والتركيز على ما أرغب بنقله إلى فتياتي.

لكن ما الذي أسعى لكتابته حقاً؟ فالأخبار في جعبتي غير مبهجةٍ على

1- «مازر غوز» أو Mother goose بالفرنسية (Mère l'Oye) لقبٌ أطلق في الأساطير الفرنسية على الملكة بيدوك، زوجة ملك فرنسا روبرت الثاني، باعتبارها تختلق حكايات خيالية لا تُصدَق تُبهج الأطفال.

الإطلاق، ماذا أنبئهنّ عن صحة والدهن؟ هل أعلن لهنّ عن حالته الحرجة؟ أم أصرّح أنّ تعافيه الظاهري مجردُ وهم! ماذا عني؟ عن نهاري المُربك بتفاصيله المُعيبة التي بالكاد تصلح للقراءة: أأعلمهن أني رميتُ محتويات الحساء على رأس ممرضةٍ في الصباح؟ أم أني أمضيتُ بقية نهاري باستجواب عشيقة أبيهن للاطلاع على ماضٍ سريّ شاركتْه إياه؟ أو أبلغهن عن إقامتي في حيٍّ فقيرٍ بائسٍ يخترقه مجرى قذر فوّاحٍ بالنتانة، قابعة فوق صندوقٍ مقلوب بجوار رجلٍ غريب تتناثر بقعٌ من البيض الزنخ أعلى صدريته.

جفّ حبر القلم أثناء بحثي عن أفضل نمطٍ لنقلِ أخبارٍ حقيقيةٍ لا تثبط عزيمة متلقيها، أدركتُ حينها المعضلة التي واجهها زوجي بعد كل نهارٍ مروّع جثم فوق صدره، سواء أكان في المعسكر أم بخضمّ ساحة المعركة: الأكاذيب ما كتب لا الحقائق، لعله خجِلَ من سرد بعض التفاصيل، نعم؛ لكن مراده ما انفك كامناً في تجنيبي الحزن وحمايتي من تكدرٍ مؤكد من جراء تصريحه بالهيئةِ الواقعية للأحداث، ها أنا أدرك كم أضناه تشكيل محتوى ما أرسله! حارماً قلبه من راحةِ تفريغ اختلاجاته! مزركشاً مفرداته، مطوّعاً أحاسيسه كي تنقل أحواله بإشراقٍ يسكب طمأنينتي، يا لي من ظالمةٍ متأهبة لإدانته على فعلٍ اعتقدَ أنه إعراب يوميّ عن الحُبّ!

مكثتُ على حالي حتى خمد نور المصباح، فقام السيد بولاند بطي صحيفته وألقاها بعيداً، شعرتُ بأنه يحملق بوجهي، بقلمي الجاف وصفحاتي الفارغة، حين رفعتُ عينيّ نحوه أشاح ببصره مُحرجًا بما اضطرني للبدء بحديثٍ معه.

«هل أنت مقيم في العاصمة منذ فترة طويلة يا سيد بولاند؟»

«منذ زمنٍ طويلٍ، سيدة مارش، سأتّم العام هنا مع حلول يناير»

«لا ريب أن المدينة توفر بعض المباهج لعازبٍ مثلك؟»

«لست عازبًا يا سيدة مارش، فزوجتي وطفلي يقيمان مع والديّ في مزرعتهما في ولاية ديلاوير، صحيح أنني أفتقد وجودهم بشدة، لكن الأجر الذي أتقاضاه كناسخٍ لا يكفي لتغطية تكاليف نقلهم ومعيشتهم هنا، لا مسرات تذكر في المدينة يا سيدتي. باستثناء محاضرات التطوير التي أحرص

على حضورها من حين لآخر في معهد سميثسونيان[1]، ما من مباهج تثير المتعة هنا أو تجلب سعادة عميقة للمرء».

هوت كلمات السيد بولاند دون صدى في الغرفة الصغيرة الكئيبة، حاولتُ لكني فشلتُ بتبادل حوارٍ عادي مع غريبٍ عابر، لا شكّ أنّ عبارات هذا الرجل المنفصل عن عائلته ألقتْ مزيداً من الأحمال فوق كاهل روحي البائسة، مخرسة لساني عن النطق بحرف، فأيّ متعةٍ متاحةٍ لامرءٍ جذمتِ الحرب صِلاته بأسرته - قصياً أردته ظروفه القاسية، مرتاباً مسلوب اليقين؟ تأججتْ مشاعري على حين غرّة متفكرة بضرورة الإسراع باصطحاب زوجي إلى المنزل مهما كلف الأمر، لا بدّ أنّ تشتت أفكاري بدد أيّ رد أقوله للسيد بولاند، خاصة مع افتقادي مدخراتٍ إيجابية قد تصوغ بضع كلمات مهذبةٍ مبهجةٍ لمواساته، طويت أوراقي يائسة من خطّ أي رسالة، استأذنتُ ثم صعدت إلى العلية حيث أمكنني إسناد رأسي المتعب إلى وسادة السرير، التفقتُ بمعطفي ومن فوقه الغطاء الرقيق حريصة على حشر كفيّ المتجمدتين داخل القفازين.

غفوتُ رغم مقاومتي للنعاس لأفتح جفنيّ على دجى ظلّل النوافذ، في حين أعلن خمود الضجيج عن تأخر الوقت، هرعتُ إلى أسفل الدرج متلهفة للعودة إلى المستشفى، فلمحت السيد بروك ماكثاً بانتظاري أمام الموقد.

«لا تزعجي نفسك»، خاطبني برقة: «لم أفارقه حتى أُطفئت الأنوار، بينما تمكنتِ الممرضة الزنجيّة الماهرة من إطعامه ماء الأرز مع الليمون الذي أعددتِه مع قليل من حساء اللحم البقري».

تلوّن وجهي مع ذكر غريس، متكدرة من فكرة معاودة اهتمامها بزوجي مرة بعد المرة، لكني أعرف زوجي جيداً، سيسارع لتأنيبها بدل شكرها من جراء الطعام الحيواني ذاك، ابتسمتُ متأملة بأن مقته الشديد للشحم سيعمل على إيقاظه بكامل وعيه فاقداً لأعصابه، خاصة مع حرصه على تناول الطعام النباتي طيلة حياته، لكني لن أتوانَى بدوري عن تلقيمه طعاماً دسماً لتقوية

1- مؤسسة سميثسونيان أو معهد سميثسونيان: مؤسسة تعليمية وبحثية مع مجموعة متاحف تمولها وتديرها حكومة الولايات المتحدة، تأسست عام 1846.

جسده المنهك، فإن كان اللحم «دواءً» يساعد بتحسين حالته، سيتعين عليه تناول ملاعقه غير المحببة حاله حال الأدوية الأخرى.

ناولني السيد بروك فطيرة دافئة وضعها قرب النار، أكلتها بامتنان بعد اضطراره للوقوف كي أتمكن من الجلوس فوق صندوق أعواد الإشعال، أحضرت السيدة جاميسون كرسي المطبخ لتجلس عليه بينما ترفو جوربها، في حين حوّل السيد بولاند انتباهه إلى كتاب يحمله بيده، تقاسمنا ضوء الشمعة اليتيمة المتماوج بالمكان.

خطابان لأجلي ناولني إياهما السيد بروك، أحدهما مغلفٌ بظرفٍ نيّقٍ رفيعٍ منقوشٍ بخطٍّ دقيق غير مألوف، والآخر عبارة عن حزمةٍ منتفخةٍ مترعةٍ برسائلَ من المنزل، فككتُ عقدة الثانية بفارغ الصبر كي أطالع الرسائل المبهجة من نسائي الصغيرات مع أخبارهن المطمئنة المرسلة من حنا وعائلة لورانس، اضطررتُ للدنو فوق اللهب لفك تشفير الكلمات بما فيها خربشات جو الفوضوية الملطخة بالحبر، قرأتها بسرعة لمرة تلتها المرة، تذوقتُ بنهمٍ كل حرفٍ مؤنسٍ مشاركة بعض العبارات مع السيد بروك، الذي بدا متنبهًا لما كتبته ميغ على نحو خاص، التفتُّ بعد ذلك للظرف الآخر العابق بعطرِ اللافندر.

عزيزتي السيدة مارش

لقد أطلعتنا الآنسة كليمنت على تفاصيل شؤونك.

من دواعي سرورنا، الدكتور هيل وأنا استضافتك في منزلنا طوال الوقت الذي ترغبين.

أفترض أن عرضنا مقبول من قبلك، لذا سأرسل عربة تقلك مع أمتعتك عند الساعة الثامنة من صباح الغد.

نحن بانتظار وصولك.

كل المحبة

إميلي أ. هيل.

دعوةٌ كريمة من غرباء! قلتُ لنفسي مع توقد الارتباك بوجنتيّ، إنها شهادة

جديدة تؤكد لطف وطيبة غريس كليمنت الساعية عند آل هيل لدعوتي إلى منزلهم، تساؤلات نهمة لمحتُها بعينيّ السيد بروك، لكن تهذيبه منعه من طرح أي استفسارات عن فحوى ما قرأت، ياله من عرضٍ مجزٍ! فأنا تواقة بالفعل للإقامة بمكان محترمٍ هادئ بعيدٍ عن هذا الكوخ القذر الخالي من الخصوصية، لكني لن أوافق على ترك السيد بروك بمفرده هنا.

«لم أعلم أنك تعرفين أحداً في المدينة!»، نطق أخيراً.

«معارف قابلتهم مؤخراً، أقصد اليوم»، لم أرغب بسرد كل ما لدي في هذه الحجرة الصغيرة المزدحمة، «سيد بروك هلا سألتك شيئاً – –»

قاطعني بلطف قائلاً: «أعتقد أن الوقت حان لمناداتي بجون»

«جون؛ هلا تفضلت بمرافقتي إلى مركز البريد، عليّ إرسال خطابٍ رداً على هذا الخطاب، الليلة بالذات»

«بالطبع سأرافقكِ، بكل سرور»، قال بينما يُجلب معطفه، ليساعدني بعد ذلك بارتداء معطفي.

بمجرد مغادرتنا للكوخ نضح بروك بكلماته المسجّاة بالنسائم المنعشة قائلاً: «كان بإمكاني بكل سرور بعث الرسالة بدلاً عنكِ، إلا أنني وددتُ مخاطبتكِ بحريةٍ وخصوصية أكثر، لقد استلمتُ بدوري خطاباً من السيد لورانس عبّر فيه عن إعجابه بجلدك وصبرك رغم امتعاضه من الاختيار الرديء لمربَع إقامتنا، مناشداً إيانا بإلحاحٍ لتغيير النُزل والانتقال لفندق ويلارد، يعتقد السيّد أنه نظراً لكوني وكيلاً لمصالحه، لا بد من تقديم نفسي لمعارفه على نحو لائق، خاصة أننا لا نكرّمه على الإطلاق، حين نصرّ على الظهور كـ «زوج من المتسولين!» على حد تعبيره – حسنًا، سامحيني، لكنكِ تعلمين أسلوبه الصريح المباشر بالحديث، لا أعرف حقاً كيف يمكنني تجاهل رغبته فيما أراد! فهلاّ أرشدتني من فضلك، لأجيب بردّ مناسب؟».

شعرتُ بعرفانٍ تجاه العجوز السخي، رافقه ارتياح شديد لأنني سأتمكن من رفض إحسانه برقيّ دون إلحاق الضيق بالسيد بروك.

«لا حاجة لنصب العناء من أجلي يا جون، أرجوك تقدّم بجزيل شكري لعطاء السيد فقد استلمت للتو عرضاً مفاجئاً سمِحاً للإقامة بمنزلٍ مريحٍ

وملائم جداً في جورج تاون، فإن وافقتَ على الذهاب إلى فندق ويلارد سأحظى بحرية قبول الدعوة والاعتكاف عن ردٍّ بالاعتذار أوشكت على إرساله لهم»

«كنت سترفضين من أجلي؟ أنتِ طيبة للغاية»

«لم أفعل شيئاً».

صافحني ثم اعتذر بالمغادرة ليتمشى بمفرده، استدرت وعدت لأرقد لليلةٍ أخيرة فوق سريري الهزيل.

في صباح اليوم التالي، رأيتُ العربة وفق الموعد المحدد مركونة بانتظاري حيث تقاطعتِ الدروب عند سفح التل المنحدر، حمل السيد بروك أمتعتي بينما قمتُ بدفع الأجرة للسيدة جاميسون مودّعة متمنية لها التوفيق، أثناء تمعّنها بالأوراق النقدية تبدى وجه المرأة في ضوء الصباح الباكر، شاحباً متجهماً فياضاً بالضيق، لعلّ رحيلنا سيحرم هذه الأرملة دخلاً بالكاد يسدّ حاجاتها، وصلتُ إلى حقيبة النقود، انتشلت المزيد دون عدّ ثم أغلقتُ كفّها على المال.

مضت العربة في رحلةٍ قصيرةٍ جدًا لا تستحق تسخير الخيول لنقلي، لكن سرّني تجنب صعود الدرب الشاق لقصرهم مشياً على الأقدام، عند البوابة وجدتُ الخادم الزنجي ماركهام بانتظاري متهيئاً بلباقة لمساعدتي على النزول، أهلّت بعدها السيدة هيل متأهبة للخروج من المنزل بملابس بسيطة أنيقة تعلوها عباءة جَمَليّة اللون، كانت تعتمر قلنسوة مزينة بالريش متنعلة حذاء من جلد العجل.

«سيدة مارش؛ تفضلي بقبول اعتذاري لتقصيري بالإشراف الشخصي على حسن ضيافتك في دارتنا، فاليوم مخصص لتقديم المساعدة للزنوج المُهربين من الإسكندرية[1]، ولا أريد للسائق أن ينتظرني أكثر، أرجوكِ اعتبري المنزل منزلك، ريثما أعود لمشاركتكِ العشاء، لعلّك لا تعلمين كم

1- الإسكندرية: مدينة أمريكية تقع بولاية فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، على الضفة الغربية لنهر البوتوماك على بعد ستة أميال جنوبي العاصمة واشنطن.

أتوق لمجالستك والإصغاء لأخبار نشاطاتك المتعلقة بمهمات السكك الحديدية التي ذكرتْها الآنسة كليمنت، ممجدةً تاريخ عائلتك الطويل بما يخص الشأن هذا -لكنني لن أفرض الأمر خاصة مع تفهمي لحاجة المكوث قرب زوجك في المستشفى، حينها سيقوم الطباخ بإرسال أطباق العشاء لكما، ما انفكت مواعيد «الأطباء» غير المنتظمة تقيد نظام أسرتنا، لذلك لا ترددي بطلب ما ترغبينه بأي وقت، لقد أشرتُ بوضع أمتعتك في الغرفة الصينية الطراز؛ أرجو إعلام ماركهام أو هيستر بحاجتك لأي شيء يوفر راحتك- أي شيء على الإطلاق».

فوق ذراعي وضعت يدها التي واراها القفاز، ثمّ شيعتني بنظرةٍ عطوفة: «آمل أن يمسي السيد مارش بحالٍ أفضل اليوم».

حاولتُ التعبير عن شكري لجزيل لطفها، لكنها قاطعتني بالقول: «لا على الإطلاق يا عزيزتي، يكفي ما سمعته من الآنسة كليمنت عن زوجك الاستثنائي، كلاكما في الواقع تستحقان التقدير والاهتمام، في حال انقلبت الأدوار، فأنا على يقين أنك ستقومين بالمبادرة ذاتها من أجلي».

حسنًا يا سيدة هيل، فكرتُ بعدما أغلق ماركهام باب الغرفة الصينية خلفي، لم أكن لأتوانى عن مزاولة الجودِ عينه في أزمنة خلت، لكن مرّ وقت طويل منذ آخر استضافةٍ سخيّةٍ مماثلةٍ في دارتنا، يا للغرفة الفاخرة! نافذتان طويلتان مشرعتان على الأفق، سكبتا الضوء غزيراً فوق سريرٍ قرمزيّ مصقولٍ مظللٍ بستائر مُسدلة من الحرير المطرز، سيقانُ ياسمين نضرة تدلت من مزهرية تانغ الخزفية، واشية بنبوءةٍ دامغةٍ عن ربيعٍ آتٍ، خزانة مرصّعة بعروقِ اللؤلؤ انتصبت جوار مكتبٍ ذي قوائمَ منحوتة مزخرفة، يتوسطه كرسيّ من الطراز ذاته تعلوه العباءة الدافئة المبطنة التي وضعتُها على كتفي أثناء زيارتي السالفة، كم تقتُ للانغماس بحشيّة السرير البضّة بغية الإغفاءة لأسبوع وأكثر! لكنني بدلاً من ذلك، سارعتُ بترتيب أغراضي القليلة داخل الخزانة، ثمّ غادرت ما أتمناه قاصدة المستشفى.

من الجليّ أن الآنسة كليمنت مارست سطوة عائلةِ الطبيب هيل لفرضِ عنايةٍ خاصةٍ بزوجي، أمر تيقنتُ منه مع وصولي إلى جناح الحمى ورؤيتي

لفلين، الممرضة التي ما برحتُ متوجسة من مقابلتها أثناء فترة خدمتها، تقلصت نبضات قلبي مشارفة على التوقف، فتسمرتُ مكاني مترقبة عبورها بوجهٍ مطرقٍ، لكن عينيها المتحجرتين لم يفتهما التعرف عليّ، عقدت حاجبيها واتجهت بعزمٍ صوبي، أومأتْ برأسها باقتضاب ثم قالت بنبرة جلفة يكتنفها قليلٌ من الرهبة: «طلب الجراح هيل إخباره بوصولك، سأعلمه بأنك هنا».

بان جلياً أنها انتهت توّاً من معاينة زوجي، إذ وجدته راقداً بسريرٍ مرتب، وقد دُهنت تقرحات فمه بمرهمٍ أخضر، رغم تبدد شحوب وجهه لكن باطن كفي وشى بارتفاعٍ حرارة جبينه.

سرعان ما حضر الجراح هيل، متقدّماً بتحيةٍ راقيةٍ معتذراً عن أسلوبه الجاف إبان لقائنا الأول، «لم أعُد شاباً مثلما كنتُ يا سيدة مارش، قدرٌ كبيرٌ من المشاغل يعيقني عن حفظ الحالات الطبية جميعها في ذهني، الحالات الجراحية مسألة أخرى، لأنني حين أغرز مبضعاً برجلٍ لا أنسى وجهه؛ أما حالات الحمى أو الإسهال فتتشابه عليّ إلى حد كبير، ألّا توافقينني الرأي؟».

لم يكن لدي ما أقوله فالتزمتُ الصمت، كان الطبيب هيل رجلاً نحيلاً قصير القامة، في منتصف الستينيات من عمره، أما الإيقاع الناعم لصوته فوشى بأصوله الجنوبية، في الواقع لم يفاجئني ذلك لأن واشنطن كانت حتى اندلاع الحرب وما بعدها، جنوبية أكثر منها مدينة شمالية، أما السيدة هيل فلديها أسلوب يانكي جليّ، تساءلت عن الظروف التي جمعتِ الزوجين معًا.

لا فكرة لدي إن أزعج الجراح نفسه ببذلِ جهدٍ إضافي للكشف الطبي على زوجي يوم قبوله أول مرة، في الواقع لا أظنه فعل ذلك انسياقاً خلف المتطلبات الملحة لأجنحة الجراحة، أما الآن فأراه يجري فحصاً دقيقاً شاملاً: بدأ يجسُّ كل شبر من صدره، ربت البطن، رفع الجفنين وفحص الفم والحلق، كان من الصعب التحديق بما يفعل، أما المستحيل فالابتعاد بالناظريْن، مع انتهاء الجراح من مهمته، سارعتُ بإسدال عباءة على جسد زوجي العاري الذابل وستره بغطاء السرير، حوّل الجراح هيل انتباهه لبعض الملاحظات التي قدمتها غريس كليمنت، ثمّ هز رأسه بالقول: «وفقاً لما

سمعته، فقد أُفرغت أحشاء زوجك ثماني عشرة مرة خلال الثلاثين ساعة الماضية، بما لا يتوافق مع أي أمل في شفائه، فالكالوميل أو ما يسمى بكلوريد الزئبق -يستهدف معالجة الحمى، لكنه ملين قوي في الوقت ذاته، أما مفعول الصبغة الأفيونية فلا يخلق توازناً على نحوٍ كافٍ، أقترح تجربة القيام بإيقاف العقارين معاً والتركيز على مفعول الكينين وحده، أرجو التأكد من حصوله على المزيد من السوائل كل ساعة دونما انقطاع- ماء الشعير وماء الأرز والمرق، سنراقب حالته ونرى مدى قدرتنا على معالجتها!»

«هل،، هل سيتعافى؟»

هزّ رأسه: «لا يمكنني الجزم بتعافيه، إن عمره يشكل عائقاً لشفائه، بعكس أجساد الشباب المرنة القادرة على تحمل الداء، التمسك بالأمل يا سيدة مارش، هذا كل ما بوسعنا فعله من أجله».

الأمل! الرجاء! آه كم تمنيتُ أن يتلبسَ الأمل قامة بشرية! أن تتجسد أمنياتي فتخطو صوبه، تلفّ ذراعاً حوله، تحيطه تحاصر تفاصيله! كما كان جسدي فيما مضى، يكتنفه شغِفاً توّاقاً لجسده، كم صبوتُ لتطعيم روحه المنهكة بروحي الحيّة، لاقتلاع ذكرياته الدميمة، لإخماد كوابيسه الآثمة! هفوتُ لشتل أراضي رؤاه بلحظاتنا السعيدة، بالرضا بالسكينة! حتى مغيب الشمس، جلستُ جوار سريره أهمس في أذنيه عن ذاكرة الأيام المشرقة والتفاح الناضج المتهاوي حول الجذوع، عن الضحكاتِ الغرّة الحائمة، عن العقول العظيمة المتقدة بالأفكار الحصيفة.

استغرق نظام علاجه المغاير يومين للحصول على أثر ملموس، حتى أعلن الأمل انتصاره صباح اليوم الثالث، أخيراً فتح زوجي جفنيه للعالم، مدّ يده قابضاً على يدي التي لم يحررها، حتى عندما طلبتُها لأتمكن من مساعدته بتناول القليل من الكسترد - الطعام الصلب الأول الذي تناوله منذ أسابيع، تمكن مع نهاية ذاك اليوم من الجلوس بمساعدتنا، ثمّ استطاع الوقوف لبضع لحظات في اليوم التالي، أما بحلول نهاية الأسبوع فبات قادراً على شق طريقه إلى دورة المياه متكئاً على كتف الممرض، أصغيتُ لما مرّ به، محاولة صرف تفكيره عن إحساسه بخيبة مساعيه، موكّدة نشوب الأمل

واتقاده هنا وهناك مضيئاً القضية العظمى التي كافح في سبيلها،، بدا مُنصتاً لما أقوله أحياناً، متبرماً في أحيانٍ أُخر، لم أناكفه أو أحاججه متأملة بالوقت الكافي لإصلاح معنوياته وتعافي جسده المنهك.

الطقسُ الذي تحسن بدوره، دفعني في أحد الصباحات لمرافقة الآنسة كليمنت بصحبة السيد والسيدة هيل إلى الكنيسة، لم أعِ مع انهمار الندف الرقيقة متى تجمّلتِ المدينة فجأة؟ كم أشرق الصباح بغرفتي الدافئة يوماً بعد يوم، وأينعت روحي الجذلة بعالمٍ متجددٍ نقيّ وضّاء، بدا أن حياتي بدأت تستعيد رونقها مرممة تفاصيلها المحببة.

تمكنتُ أخيرًا من كتابة أخبارٍ سارة للفتيات، ليأتي ردهن برسائل مرحة وأغانٍ تبهج قلب العليل، جلست جوار سريره أطالع برقيتهن الأخيرة، لقد أدرجتْ جو في الرسالة شيئاً ما يشبه الشِّعر منحتْه الفتاة عنوان «أغنية الرغوة»، تعبيراً عن نضالها لإتقان الأعمال المنزلية:

بشغفٍ تعلمتُ القول:

«فكّر أيها الرأس، أيا فؤادي آنِس

يا يديّ، أتقنا العمل!»

«أصغ لجو التي أشارت إلى حالها المنقلبة رأساً على عقب!»

«كم أفتقدهن!»، تنهد.

«ستقابلهن قريبًا، وتجالسهن بما فيه الكفاية»، قلت بتفاؤل.

منذ فترة، بعدما أمست احتياجاته أقل إلحاحًا، أحضرتُ سلة الحياكة والتطريز لأمضي بقية الوقت جواره، أصلح ملابس المرضى المتماثلين للشفاء، انحنيتُ لوضع الرسائل جانباً، التقطتُ قميصًا لأتفحص تمزقاً بين ثناياه، غافلة عما يكابده زوجي بصمتٍ حتى تناهتْ لمسامعي شهقات نحيبه.

«ماذا؟ ما الذي حدث؟»، هرعتُ نحوه ملقية بالقميص جانبًا، محاولة الوصول بيدي إلى خديه.

«لا يمكنني العودة إليهن أو إلى الديار!»، «ليس بعد!»

«بالطبع ليس الآن» أجبتُ بهدوء؛ «فقد نصح الدكتور هيل بعدم التفكير

بنقلك خلال ثوران العواصف الثلجية، لعل الفرصة تسنح مع تحسن الطقس، كي تعود إلى المنزل مع حلول عيد الميلاد»

هز رأسه معترضاً: «لا،، لا أستطيع العودة إلى المنزل، لم يؤذن بإنهاء خدمتي في الجيش بعد»

«لكن هذا مجرد إجراء قانوني - ذكر الدكتور هيل أن الأمر لا يستغرق أكثر من يومٍ أو يومين،،،!»

«لستُ مستعدًا أبداً للتقدم بطلب إعفاءٍ من الخدمة».

«ماذا تقول؟ أمازلت تهذي؟»

بمجرد نطقي بالكلمات، تمنيتُ لو أني ابتلعتها، في الواقع؛ لم أرغب بتذكيره بعذابات تلك الأوقات العصيبة.

«مهمتي لم تنتهِ بعد»، قال هامسًا: لم تأتِ جهود العام الفائت إلا بثمارٍ عفنة، أبرياءُ كُثر قضوا بسببي، رجال ونساء اقتيدوا إلى العبودية من جديد، أعجز عن العودة للمنزل طلباً للراحة والسلام - حتى أعوض تلك الخسائر الفادحة»

«كيف السبيل إلى ذلك،،؟» رددتُ بنبرةٍ باردة: «ماذا تقترح لنيل مبتغاك؟ أخبرني! التحقتَ بالجيش العام الفائت بعمرٍ فاق قدرتك على المجازفة، فماذا عنك الآن؟ انظر إلى نفسك كبيرَ السن عليلَ الجسد، أنى لك تقديم المساعدة لأحدٍ؟ أنت العاجز عن الذهاب إلى دورة المياه دون مساعدة؟»

جفل وجهه متغضناً بقهر، فقمتُ بالعض على لساني، مازال الرجل بحاجة إلى التعاطف بدل التأنيب.

«لم يذهب ما فعلتَه سدى يا زوجي العزيز»، أردفتُ بلطف، «إذ لا يمكننا إغفال قيمة التعليم الذي وهبته للكثيرين، ألا ترى كيف ساهمت الأحرف التي علمتها لتلك الفتاة -قلت اسمها زانا صحيح؟- بإنقاذ حياتك؟ لو لم تُدرِّس طلابك جيدًا لكنت الآن في عداد الموتى، كيف ترتاب بنفيسٍ ما قدّمت؟».

أومأ بيده بوهنٍ مبدياً إنكاراً للجهد الشاق الذي بذله خلال شهور عديدة، «ما نفع الأحرف لامرأةٍ فقدتْ طفلها الوحيد؟ أو لرجلٍ سُلبت حريته؟»

«أنت لم تقتل الطفل، الكونفدراليون من فعلوا، أما بالنسبة للأسرى الزنوج، فالحرب مستعرة لعتقهم معك أو بدونك كما تعلم، رجالٌ آخرون ما انفكت مجهوداتهم ناجعة لتحرير هؤلاء الأشخاص -جميعهم- بمن فيهم أصدقاؤك، لعله الغرور ما يسوق تفكيرك بهذا الاتجاه! تغطرسٌ يشعرك بأهميتك، كما لو أنك شخص لا يمكن الاستغناء عنه»

«غرور؟»، قال مفرجاً عن ابتسامةٍ باهتةٍ، «كيف يمكنكِ اتهامي بالغرور؟ في حين لم يذر ضعفي أي كبرياء داخلي، كم أحتقر نفسي لضنكِ جُبنها! خذلتُ جرحى معركة الجرف، ثمّ تخليت عن سيلاس ستون ليقضي غارقاً في النهر،،،!»

سارعتُ بمقاطعته خشية استرسال عقله باستعادةِ أحداثٍ مريرةٍ ستفجر نحيبه ثم تحيله إلى نوبات سعالٍ يليها فقدان شهية وإحجام عن جرعةِ تعافيه اليومية.

«توقف عن هذا أرجوك! فكر بفتياتك، كيف ستثلج قلوبهن لمجرد تواجدك في المنزل،،،!»

«كيف اسمح لنفسي بالإسهاب في أفكار تخصّ رجوعي إلى الوطن، دون تذكر أولئك المحرومين من العودة؟ الجرحى الذين لم أنقذهم؟ كيف أصمّ أذنيّ عن صراخ الشاب ستون يستنجدني غارقاً؟ أولئك فقدوا فرصة القفولِ إلى ديارهم لأنني لم أكن شجاعاً بما فيه الكفاية»

«شجاعٌ بما يكفي! أيّ شجاعة تحتاجها لترضي نفسك؟ كنت محقة حين نعتُّك بالمغرور، الصلفُ عينه جليّ بين كلماتك، لم يرضك وصف الآخرين لك بالجسور،، أوه: تريدهم أن يسِمُوك بأحد الجبابرة[1] القادرين على حمل جرحاهم على أكتافهم خارج ميدان المعركة!، لا تكتفي بمحاولةِ نجدة أحدهم! بل تلح على إنقاذه، فإن عجزت تخفي رأسك تحت أكوامٍ من الرماد، كما لو أن اللوم يقع عليك – متغافلاً عن واجبِ الجنرالات الّذين

1- الجبابرة أو عرق التيتان: حسب الميثولوجيا الإغريقية، عرق من الآلهة الأقوياء الذين حكموا الأرض خلال العصر الذهبي الأسطوري، وهم العرق السابق للآلهة الأولمبية، يعدون غالبية الأوقات تجسيدات لقوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة.

قادوك إلى المعارك، أو حاملي النقالات الفارين للنجاة بأرواحهم، أتراك مسؤولاً عن هلعِ ستون؟ أو واقعِ عدم تكليف نفسه عناء تعلم السباحة؟ أتُذمّ ولو بقدر ضئيل، لجرمِ الرجل الذي أطلق النار عليه،،،؟ لم تقتل سيلاس ستون ولا طفل زانا،، إنها الحرب من اغتالت كليهما، عليك أن تتقبل هذه الحقيقة»

«كان من الممكن إنقاذهم، رجلٌ يدعى جيسي سلمني مسدسًا لكنني أعدته إليه، يبدو أنني قدّرتُ مبادئي أكثر مما ثمّنت حياتهم، سلوكٌ غير مسؤولٍ تمخض عن استعبادٍ جديدٍ وأرواحٍ مهدورة»

«ما أنت بإله، ولا من مهامك تحديد المصائر، أما العواقب فليست جوهر موضوعنا»

«ما جوهره إذاً؟»، همس بصوتٍ متحشرجٍ جاف، كنسمةٍ اخترقت أوراق أغصان يابسة.

«لبُّ المسألة يحملُ شرف المحاولة - المسعى المخضب باليقين بالإيمان المخلص، بوصية الكتاب المقدس القائلة: «لا تقتل»[1]، التي اتبعتَها بوفاء، صحيح أنّ الأحداث أربكتك -بالطبع أقدّر كم من الصعب التجلد أمام محنِ الحرب- لكن ثَمَر الرُّوحِ مَحَبَّةٌ وصَلاَحٌ، أما الأعمال فلا تسبق الإيمان والخلاص، في الحقيقة تتبعهما، إنّ إيماناً لا يهب ثماراً إيمانٌ بلا حياة، كيف فاتتك الحكمة المفضية إلى أنّ اليقين العاري بهتان، فيما العمل المجرد من الروح والفكر هو الضلال ذاته؟ يا له من ضياعٍ تحاسبُ عليه وتلام إن لم تدرك هذا التآلف!».

قلت ما قلته متأملة بفكرتين اثنتين: إن وقفتُ موقف المتفرج من جديد مصغية خاضعة لقراره بالذهاب إلى الحرب، سأكابد وبيلَ صمتي مرة أخرى رغم درايتي بالأيام الرهيبة اللاحقة لرحيله، أما سؤاله بفعل خلاف ما ينويه، فما هو إلّا التماس لتغيير هذا الرجل الذي أحببته، الرجل الحالم المُختلّ التوازنِ المُدمَّر.

1- «لَا تَقْتُلْ» (بالعبرية: לֹא תִּרְצָח) الوصية السادسة من الوصايا العشر في الكتاب المقدس العبري، التي كُتبت على ألواح موسى.

أغمض عينيه مقطباً حاجبيه مُفرجاً عن أنفاسٍ أجهد زفيرَها حديثنا، جلتُ بقطعة من القماش فوق جبهته المقطرة بالعرق، استسلم للحظة أواثنتين، ثم دفع يدي بعيدًا.

«دعيني الآن»، قال: «أحتاج إلى النوم»

«حسنٌ»، قلتُ محاولة ضبط نبرة صوتي، كي لا تشي بارتباكي متأثرة بالإساءة التي نالتني منه.

«ذلك أفضل بالطبع».

انحنيتُ لأطبع قبلة فوق جبينه، فلم يفتح جفنيه ولم يتفاعل أو يستجب بأي شكل من الأشكال، جمعت أغراضي قاصدة مخرج العنبر، استدرت قبل عبور الباب، فأبصرتُ مقلتيه مفتوحتين على مصراعيهما تحدقان بالسقف، غادرتُ دون أنْ يرمقني بنظرة.

الفصل الثامن عشر

شؤون غريس

أبقيتُ جفنيّ مُغمضين حتى توهمتُ رحيلها، مدّعياً الرقاد بسكون مصغياً لانحسار طقطقة كعبيها عن ألواح الأرضية الخشبية، لكنني أخطأتُ التقدير بفتح مقلتيّ قبل الوقت الملائم، لأنها توقفت للحظاتٍ في المدخل ملتفتة للنظر إلي، شعرتُ باختراق نظراتها المضطربة حين رأتني مستيقظاً، لكني لم أدر رأسي، فلا أتحمل إعادة دوران الحديث مرة تلو المرة، ما من وسيلة ناجعةٍ لإفهام هذه المرأة!

استلقيتُ مغالباً النوم مشرّعاً أبوابي للأشباح، عينيّ لرؤاهم، روحي لسياطِ اتهاماتهم، لطالما علقني الفجر على صليبِ الإرهاق هناك حيث دعوتُ أطيافهم لأحلامي، ذلك أقل ما أمكنني فعله.

منذ قدومها، اعتدتُ الاستيقاظ على وجهها ويديها اللتين تتنقلان بين قطعة قماش دافئة وطبقٍ من الشوفان أو الذرة المطحونة مع محاولتها لإقناعي بتناول أحدهما، كل صباحٍ عدا اليوم؛ لم تأتِ! يا لبهجة روحي! كيف أشرح لها أن خدماتها الطيبة ليست سوى طعناتٍ وتعذيب؟ أنني أصطلي بأقمشتها الدافئة، أما شوفانها فعالق بحلقي كشظايا الزجاج؟ كيف يرضيني الكفاف والدفء والطهارة، بينما يئنُّ الآخرون جوعاً وبرداً وقذارة؟!

أمضيتُ صباحاً رحيماً، وحيداً منعّماً بالسلام باستثناء التكدير الروتيني لبعض الممرضات، رقدتُ لبعض الوقت بإغفاءات متقطعة حتى وقعت عيني على الشاب جون بروك متخذاً مكانها المعتاد، استبشرتُ بحضوره الذي لن يقضّ مسمعي بكفاية ما أنجزتُه خلال الحرب.

بكياسةٍ ألقى تحية الصباح، ثم سألني عن احتياجاتي، فأومأت بالشكر، حينها فقط لاحظتُ أن ملامحه مكفهرة، فيما ابتأستْ عيناه الغائرتان الداكنتان، ورقة ملفوفة في يده تلوّت بين أصابعه المتوترة.

«هل من أمرٍ تودّ الإفصاح عنه يا جون؟»

«سيدي، أنا – لا أرغب بإثقال كاهلك، لكن للأسف لدي بعض الأخبار غير السارة، برقية وصلتني مساء أمس من قبل تلميذي لوري يخبرني أن الصغيرة بيث تعاني من الحمى القرمزية منذ أيام مضت، معلومة أخفتها السيدة موليت وبناتك عن السيدة مارش لعلمهن بانشغالها برعايتك، لكن يبدو أنّ القلق نال من السيد الشاب تيدي لوري، فأقنع جده بأن مرض الفتاة الصغيرة وصل إلى مرحلة حرجة تتطلب إعلام السيدة مارش، باختصار، غادرت زوجتك واشنطن الليلة الماضية ومن المفترض أن تصل إلى المنزل مع إشراق فجر الغد، تركتْ بعهدتي ملاحظة لا تتجاوز السطر كما قالت، متعذرة بنفاد الوقت لكتابة المزيد».

سلمني بروك قصاصة من الورق المتغضن، بالكاد استطعت قراءتها عبر غشاوة اجتاحت عينيّ:

«أرجو أن تتفهم الحاجة إلى وجودنا معاً كعائلة، صلِّ لي، وعد إلينا بأسرع ما يمكن».

هويت برأسي فوق الوسادة، «أدعـوك يا رب أن تصل في الوقت المناسب!» بالكاد أصغيتُ لبروك أثناء شرحه لما عرفه عن أعراض الحمى وآثارها بعد استفساره من الممرضات، لدي من العلم ما يكفي: فقد سهرنا ليالي طوالاً قلقيْن حينما أصيبت ميغ وجو، رغم أنّ جسديهما أبديا قوة وجلداً على مقاومة المرض، لكن بيث الحساسة ضعيفة البنية، فقد أُترعت سنوات عمرها القليلة بأمراض انحدرت بحياتها لحافة الموت مرة تلو المرة، بدا لي أن تمسكها بهذا العالم لا يتجاوز بأس قبضتها على بتلة وردة متفتحة، مع ذلك ما انفكت بيث أفضل أفراد عائلتنا، بيث! شبحي الصغير الذي سينضم إلى حشد التقريع حول سريري الليلة!

سرعان ما تناهى بوحُ قصبٍ بعيدٍ إلى مسامعي، صوتٌ يتأهبُ لمطاردة

أحلامي القادمة: «أبي، لماذا تركت فأرتك الصغيرة ومضيت؟ لو أنك مكثت معنا،،،».

شعرتُ بصدري يضيق ينقبض ويتشنج، استسلمتُ بعدها لنوبة حادة من السعال تاركاً لقلبي مهمة تمزيق أحشائه، كنت أتمنى ذلك بالفعل، لم تكن فكرة السلوان في تلك اللحظة أكثر من وعدٍ بإطلاق سراحٍ أخيرٍ للروح.

ولما استيأستُ من الرحمة، خَلُصتُ نجياً.

لا بشائرَ أو مسرّات توقظ من لم يغفُ ليلته متهجداً مع مكابدات طفلته البعيدة، لكن يمكنني القول إنني التفتُّ مع خيوط الصباح الأولى، لأرى السيد بروك يدخل الجناح بملامح من طمأنينة وفرح بشراني بما تحمله البرقية الجديدة.

وصلت مارمي لتجد صغيرتنا تتماثل للشفاء: يبدو أنّ الحمى بدأت بالانحسار مع لحظات توجه زوجتي شمالاً، لتفتح ابنتنا الصغيرة جفنيها المتعبين على وجه أمها الحبيبة بعد صراعٍ مريرٍ مع المرض.

خطابها التالي حمل عباراتٍ بسيطة توضح أنها ستمكث قرب الصغيرة خلال فترة نقاهتها، مؤكدة عدم رجوعها إلى واشنطن مسلِّمة مهمة الاعتناء بي ومراقبة حالتي للسيد بروك، مشيرة إلى أن الجميع في المنزل ينتظرون بشغف تحسن الجو من أجل لمّ شملنا السريع.

ليس بالإمكان وقوع ما خمنته زوجتي على الإطلاق، لا أدري بالفعل بم أحكم على محتوى خطابها؟ أتراه محسوباً قصدتْ من خلاله التظاهر بافتراضِ مسارٍ معينٍ للأحداث، يجعلني أكثر مرونة للاستجابة لوجهة نظرها، أم أنّ بلادتها حقيقية ولا شيء مما قلتُه اخترق درع عنادها،،!

إن الحقيقة كامنة باستحالة عودتي إلى الديار، فلا أملك هذا الحق بظلّ خدمتي غير المنتهية، فإن جاهدتُ لتسريع زمنِ شفائي، فالسبب عائد لحرصي على وضع قدمي على درب التكفير عن خطاياي، لعلني أجد ركناً لرجلٍ ضعيفٍ قادرٍ على جلب منفعة متواضعة لأحدهم، لا بد أن السيد بروك أساء فهم رغبتي الحثيثة بقبول الطعام وممارسة الرياضة، مفترضاً بطبيعة الحال أن جهودي المضاعفة منبثقة من مشيئتي بلمّ شمل عائلتي، بدا تحريره من أوهامه أمراً شائكاً ومعقداً، لذا تركته يفكر كما يشاء.

رويداً رويداً؛ استعدتُ قوة التحكم بأطرافي لأتمكن فيما بعد من مشاركة المتماثلين للشفاء بأعمالهم لبضع ساعات يومياً، يا لفيلق الواهنين نحن! بذلنا قصارى جهدنا للكنس والتنظيف، لخدمة وحمل الجنود الأشد مرضًا بغية تخليص الممرضات من أعباء روتينية كهذه، حتى وإن ساقتني المهام إلى أسفل الدرج لقسم الجراحة أكثر من أي مكان آخر، فلن أعتذر عن تأديتها بظل شعوري بالرضا عن القيام بأي مجهود ضئيل قد يقلل من المهام الملقاة على عاتق غريس كليمنت التي حازت مهاراتٍ استثنائية بالتمريض مثلها مثل اللائي يحتللنَ مراتب عالية في التطبيب.

لم تكن غريس مؤيدة لاستخدام المتماثلين للشفاء كمساعدين للممرضات، أخبرتني بهذا أثناء تعليمي كيفية تعقيم طرفٍ مبتورٍ لفتى يدعى سيفاس وايت: «كان ينبغي أن يغادر المستشفى على قدمين لولا إثقالِ كاهله بأعباء جمّة قبل التعافي التام لإصابة ساقه»، من حسن حظ الصبي أنه لا يزال فاقداً للوعي بعد الجراحة، إذ اضطر الجراح بعد بتر ساقه لتنظيف جرحه من العفن بالكامل عبر تجريف الفخذ والمغبن، فبدا نيئاً مثيراً للاشمئزاز كلحمٍ بقري ممددٍ فوق وَضَم الجزار، لا بد أن المسكين سيستيقظ على ألمٍ مبرّح.

كما وجهتني غريس؛ قمتُ بصبّ الماء البارد بروّية فوق ضماداته حتى تشبّعت، ثم عدلتُ المشمع تحت سريره لتلقفِ القطرات المتساقطة، كان يعاني من الحمى، فوضعت غريس كمادات باردة على جبينه: «معجزة إن غادر الصبي المكان حيّاً»، ثم نظرتْ نحوي عبر جسده التالف موعزة بالقول: «من الأفضل أن تأخذ العناية بصحتك بعين الاعتبار، احذر أنْ ينال المرض منك مجدداً وإلا ستطول فترة إقامتك معنا أكثر من الحاجة»

«وما الضير في ذلك طالما عثرتُ على سبيلٍ لمنفعة الآخرين؟ هنا على الأقل، يمكنني تقديم بعض المساعدة لك»

رفعت حاجبيها وأردفت: «ربما ستساندني لأسابيع معدودة لا أكثر، فالهيئة الطبية المُخطط لإنشائها منذ زمن لخدمة الكتائب من ذوي البشرة السوداء ستشرع بأعمالها قريباً، وقد وافق الدكتور هيل على انضمامي إليها».

مع عبارتها انزلق مقبض الإبريق من يدي لتتدفق مياهه فوق المشمع،

يبدو أنّ احتمال الحرمان من صحبتها بعد فترة وجيزة من لمّ شملنا، فجّر المخزون العاطفي الدفين الذي أكنه لها.

«لقد خططتُ، أقصد كنتُ آملُ أن أعمل معك بغية تعلم بعض المهارات الأساسية التي تعينك، فأمسي مفيداً للآخرين مثلما بتِّ أنتِ بعد مرافقتك للدكتور هيل،،،»

«عليك التفكير بالعودة إلى ديارك بدلاً من ذلك، محاولاً استعادة عافيتك بأسرع وقتٍ، إنّ مكوثك هنا لن يهبك الشفاء التام، أما مناعتك الضعيفة فستجعل منك فريسة لأمراض المستشفى، لنفترض أنك نجوتَ من العدوى بوباءٍ جديد، لا يمكنك التغافل عن طبيعة الحمى التي تأبى أن تفارقك»

«لكنني لا أبحث عن تعافٍ أو مأوى! كيف أنشد راحتي في ظلّ معاناة الآخرين -لن يطاوعني ضميري بالتنعم مطمئناً في المنزل بينما يرقد الصبي وأمثاله الكثيرون هنا؟»، انخفضتْ نبرة صوتي بعدها فهمستُ بتأوه: «تعلمين كمّ خطاياي وإخفاقاتي بمسائل جسيمة- أحتاج التكفير عنها كلها»

«لستَ الوحيد المُكره على معاشرة ضميرٍ مكروب»، ردّت ثم أردفت بصوت خفيض: «الكثيرون منا تحملوا وزر ما فعلوه – آثام ساقتنا الظروف المعاندة لاقترافها»

نفد صبري منها فقلت: «أنتِ! أنتِ لا يخصك أيّ شيء مماثل، إنكِ أنبل شخصٍ قابلته على الإطلاق، ماذا عن خيارك الشهم بالعناية بالرجل المدعو والدك، حينما كان بإمكانك التخلي عنه دون أن يلومك أحد – ؟»

«هذا ليس مكانًا للتحدث بمثل هذه الأشياء»، أجابت بحدة ثم سارعت بالقول هامسة: «إنك مخطئ تمامًا، إن بقي الطقس دافئاً أدعوك للتنزه معاً بعد ظهر هذا اليوم المعتدل، سيفيدك المشي لمسافة قصيرة في الهواء الطلق، بانتظارك بعد الثالثة بقليل بالقرب من أنقاض المنزل المحترق للوزير الفرنسي، المكان ليس بعيداً من هنا، أيّ شخص سيرشدك إليه».

استدارتْ مبتعدة مغيرة من اتجاهها صوب السرير التالي لمريضٍ فاقدٍ للوعي، عابرة الجناح لتغيير ضماداتِ رجلٍ يقظ، ما من سبيلٍ لمواصلة محادثتنا! هذا ما قصدتْه بجلاء.

مسحتُ الأرضية، ثم قصدت سريري بغية استجماع قواي للمشي، مع حلول الساعة الثالثة استعرتُ معطفًا كبيراً وقفازين من أحد الممرضين، إلا أنني قبل المغادرة، فكرت بالاطمئنان على الفتى المسكين وايت، كي أرى فيما لو استعاد وعيه فأسعى لحصوله على دواء يخفف من آلامه، لكن مع اقترابي من سريره بدا من الجليّ أن معاناته انتهت أخيراً.

سارعتُ بالبحث عن ممرضٍ لحمل الجثة إلى قسم الموتى، لكن الجميع بدوا منشغلين بنقل الجرحى من عربات الإسعاف الواصلة مؤخراً، عدتُ إلى سرير وايت متأملاً بإزالة الوسادة من تحت رأسه قبل تيبس أعضائه، ورقة رفرفت لتحط برفقٍ على الأرض، انحنيتُ لالتقطاها فلمحتُ أبياتاً من الشعر مكتوبة بخطّ أصابع مرتعشة:

التوقُ اندثر، الجرأة والقدرة

سريعاً خار كل شيء؛

أنا جاهزٌ للسكينة.

رَشَحتْ مهامي، طواها النهار

أخيراً أخيراً

نلتُ قسمتي.

ربي الحليم

أهبك

قلبي الصبور.

لعلّ الفتى كتب ما كتبه قبل شروع الطبيب بقطع ساقه، أتوقع أنه قاسى الأمرين ليتقبل مصيره المحتوم، «جاهز للسكينة!»، يا إلهي! أحرق السطر فؤادي، كيف لشابٍّ غير متعلمٍ مثل وايت أن يكتب بمثل هذه الحكمة والتسليم في حين قضيت عمري غارفاً من الكتب ناهلاً الفكر والفلسفة، لأخفِق تماماً ببثِّ الصبر في قلبي والسلوان؟ طويتُ الورقة بعناية ثم وضعتها مع أمتعة وايت القليلة قبل مغادرتي المستشفى.

مُرحّباً لفَحَ الهواء البارد وجهي، مقشراً عن دماغي أفكاره الكئيبة،

لتغمرني البهجة مع استجابة عضلات ساقيّ لإرادتي بالمشي، خطوتُ مُحتفياً برفاهية الترقب، التوقُ للبوح والإفراج عن أسرارٍ من المستحيل تحريرها بكنف المستشفى.

سهُل بالفعل العثور على الهيكل المتفحم حيث حددت غريس بقعة لقائنا، كان القصر المدمر متاخمًا لغابة صغيرة من شجر الأرز يقدّها مجرى فضيّ لجدول ضيق حيث تجمعت غاسلاتٌ زنجياتٌ من جورج تاون لغسيل ملابس زبائنهن، الوتيرة البطيئة لخطواتي أخرت وصولي، فوجدتُ غريس واقفة بانتظاري، أخبرتها عن وايت متحاشياً ذكر قصيدته، فأومأتْ برأسها بأسى رغم تكهنها الأكيد بموته، أشارت بحزنٍ إلى أن وفاته دون مزيد من المعاناة بمنزلة رحمة له.

مررنا بين الأشجار بعيدًا عن العيون النهمة، فأخذتْ ذراعي كما تفعل أي ممرضة لدعم خطواتي المضطربة في دربٍ مقلقل بالحصى، حينما ابتعدنا قليلاً، التفتت إليّ وخاطبتني بصرامةٍ مفاجئة:

«عليك التوقف عن الغوص بفكرة إدانة نفسك جراء الأحداث السيئة الخاصة بالعام الفائت، آلا تدرك أنّ الحرب ولاّدة المحن؟ من الحماقة أن تسمح لجلد الذات تشكيل مستقبلك».

نبرةُ صوتها الجادة وفتورها أثارا غضبي – أتراها المرأة عينها التي لم تبدِ بلادة قط!، «أنتِ لا تعرفين شيئاً مما تتحدثين»، أجبتها بفظاظة بدوري: «ما برحتِ تقدمين الأفضل والأجدى؛ جُدتِ بكل ما يخص التضحية بالنفس، ما الذي كابدتهِ مع ضمير مصطلٍ بالإثم؟ ماذا تعلمين عن ارتكاب الخطايا؟»

ردها جاء هامساً، ما يشبه الهسهسة.

«سفاح القربى؛ ألا يعتبر خطيئة؟ القتل أيضاً؟»

«ماذا؟»

توقفتُ متسمراً بمكاني بينما تنهدتْ أغصان الأرز فوقنا، أفلتتْ غريس مرفقي، محاولة استعادة رباطة جأشها، كما لو أنها تهدئ صراعاً مهتاجاً في أعماقها، كانت شفتاها مشدودتين ويداها محكمتي القبضتين، جمعتْهما معًا ثم رفعتْهما لأسفلِ فكها، تنفست بعمق، فركت وجهها، انثنت بكتفيها، ثم بدأت الكلام بنبرةٍ خفيضة موزونة:

«أخبرتك أن ابن السيد كليمنت قُتل من جراء إطلاق عيار ناري من بندقيته، أصاب وجهه حينما حُشر حذاؤه بدغلٍ من أغصان زهر العسل، إلا أنني لم أخبرك -بالأحرى،، لم أخبر أحداً- بالحقيقة الكاملة لتلك الحادثة، كما أنني لا أود البوح الآن»، ثم رمقتني بنظرةٍ فاحصة ما زلت أتذكرها منذ سنوات، «لم تعد ذاك الفتى البريء الذي زار منزل كليمنت في ربيعٍ سلف، أخمن أن ما رأيتَه من الشر كافٍ لتتفهم جيدًا كيف جرت الأمور، ما سأقوله التالي: رغم معرفته بحقيقةِ أبَوَيْ، مدركاً لأخوّته لي، أصرّ على اقترافِ خطيئة كبرى لا يرتكبها حتى المتوحشون، ألا أخبرك بانتهاكٍ أفظع شأناً؟ فقد اعتزم والدي شيئاً من هذا القبيل، حين قرر الاحتفاظ بي قاصداً إشباع نزواته الخاصة، بالضبط كما فعل مع والدتي، في الواقع جزء مما وقع لأخي حادثٌ، جزء منه فقط، لا أعتقد أنني قصدتُ قتله، لكني سعدت بموته يا سيد مارش!»

أبصرتُ للحظات توهجاً في عينيها بما يشبه نشوة النصر، تسارعت أحداث المشهد بلا إرادة في ذهني، لا أعرف حقاً، لن أعرف أبدًا إن كان ما رأيته الحقيقة؟ لقاء غير متوقع في حقلٍ خريفي، شاب منجرف خلف تلبيةِ شهوةٍ لحظية أو شبقٍ محرمٍ لسنوات،، شجارٌ وسط أجمة زهر العسل المصفر، سقوط، بندقية تُفرغ، وجه ينفجر أشلاء كثمرة بطيخٍ ممزقة، وجه آخر جميل عديم الرحمة، ينوء بصمته بعيداً عن الجثة النازفة.

أحنت غريس رأسها، ليأتي صوتها هامساً أخفض فأخفض: «أصابني الندم لاحقًا، حين رأيتُ لوعة الفقد بفؤاد والدي وبعيني السيد هاريس الذي بدأت المزرعة بعد مغادرته بالتفكك تدريجياً متسببة بمعاناة الجميع، بيعت برودنس وجاستس، غرقت آني، كل ما حدث، كله، كان نتيجة لأفعالي، لذا، لا تجزم بنقص خبرتي مع تأنيب الضمير المفترس لأحشائي كل يوم!»

«أياً كان ما فعلتِ - !» تلعثمتُ ثم عاودتُ القول:

«أيّاً كانت الأحداث التي طرحها حظك العاثر أثناء دفاعك عن نفسك-»، سارعتْ غريس بمقاطعتي، ملوحة بيديها بصبرٍ نافد كما لو أنها تهش غشاوة عن وجهي.

«لا أناشدك الغفران، بل أطالبك ببساطةٍ بالتيقن بفعلٍ واحدٍ علينا إنجازه بعد السقوط؛ النهوض والمضي قدماً بدربِ الحياة في محاولة لتكريس الخير قدر المستطاع ومنحه لكل شخصٍ يعترض سبيلنا، على الأقل هكذا رسمتُ طريقي الشخصي»

«حسنٌ، إذاً»، قلت متبرماً بعض الشيء، «هذا ما أنويه بدوري، يمكنني معاونتك حينما أستعيد قواي، احتياجاتٌ كثرٌ، متطلبات لا تنتهي ستقع على كاهلنا مع تجنيد القوات من ذوي البشرة السودا،،»

قاطعتني من جديد، لكن بنزقٍ هذه المرة.

«لقد سئمنا منكم أنتم البيض المتحكمين بوجودنا! انظر إلى رجالٍ من عرقي! إنهم على دراية بمسائلِ النقل والحمل والرعاية أكثر من أي وقت مضى، ثمة كثير من الوعاظ الزنوج العارفين باللغة الحقيقية لأرواحنا، لذلك دعوا شعبنا الحر يتعلم كيفية إدارة مصيره نفسه بنفسه!»

صدح صوتها عالياً مع توقدٍ في المقلتين، أشحتُ بوجهي بعيدًا مندهشًا من شدة إصرارها على رفض مرافقتي، «عد إلى ديارك، يا سيد مارش»، خفّت نبرة صوتها: «إن كنت تود بصدق مساعدتنا، ارجع إلى كونكورد ونوّر تفكير شعبك، اكتب عظاتٍ من شأنها إعداد جيرانك لقبولِ عالمٍ يقف فيه الأسود والأبيض على قدمٍ من المساواة خلال الأيام القادمة»

«لكني لا أعلم بمدى قدرتي على الوعظ من جديد،،،»، تحشرج صوتي لأنينٍ مرتفع كمراهقٍ يقف على أعتاب الرجولة، لا بد سيخذلني هذا الصوت إن قمت بصعود درجات المنبر ثانية، الصمتُ من وجهة نظري، بات أكثر بلاغة من الخطابات والعظات جميعها.

تحركت نحوي ثم ألقت بيدها على ذراعي، اذهب للمنزل،، كن أباً لبناتك،، هذا أقل ما يمكنك فعله،، إنهن من يحتجن إليك.

من شفاه مغلقة صدح صوتها بكلماتٍ غير منطوقة علقت في الهواء بيننا، لعل نسائي الصغيرات بالفعل يفتقرن إلى وجودي، لكن غريس لم تعد تحتاجني بكل تأكيد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع عشر

كونكورد

تابعْ المسير، خطوة فخطوة تقدمْ، ثمة صوت رقراقٌ خلفك، تظاهر بالصمم استمر قُدماً، وجعُ الخطوة صوب المنزل البني الصغير، تجاهلها،، من عساك تكون؟ لستَ سوى دجّالٍ أفّاك! ما الذي تفعله هنا في أركان رجل آخر؟ أتراك تتذكره، الخلوق الحكيم؟ أتعرفه؟ ذاك الشجاع المقدام بعيون الآخرين،، لماذا تتنكر على هذا النحو متقنعاً بالجسارة، موارياً الحُمق والجبن مرتاباً بكل شيء؟

لو كنتُ بمفردي لاستدرتُ آنذاك وعدت أدراجي متلاشياً كثلجِ صباحٍ دافئ، متناثراً كذرّاتٍ سحلها الفيض الهائل المتدفق بين ضفاف الحرب، ولتعش فتياتي بذاكرة خالصة بهية عن أبيهن الحقيقي، غير مضطرات للتعرف على رجلٍ ضئيل المكانة منحط القدر سيحلّ محله.

لكني لم أكن بمفردي، فقد رافقني جون بروك بقبضةٍ أحكمت قيدها فوق ذراعي، بينما تقافز الفتى لورانس بحبورٍ بالكاد يتحكم بخطواته الحماسية كما لو أنه يحمل هدية مغلفة بورقٍ لامعٍ ليوم عيد الميلاد، ليته يدري! فما يثيره ليس سوى سلعة رديئة زائفة، جذبتُ وشاح وجهي محاولاً إخفاء الارتعاش في زوايا شفتي، فما من مهمة أنجزتُها في الحرب توازي الجسارة لغرز خطواتي في درب العودة!

اقتحم الصبي باحة المنزل مُشرعاً الباب المؤدي إلى الردهة محتجباً خلفه، توقفتُ متكئاً على طاولة خارجية، حتى ظن جون بروك أن وهناً

أصابني لطول الرحلة، فقام بشد ذراعٍ قوية حول ظهري جاذباً إياي إلى الأمام سواء رغبتُ بذلك أم تمنعت.

عيناي المغشيتان بضياء الثلج فاتهما اقتناص معالم الداخل، حاول بروك قول شيء، لكن كلماته تلاشت مع ضجيج عارم ترافق مع أذرعٍ ناعمة ملقاة حول رقبتي، أحدٌ تعثر عند قدمي غير مكلف نفسه عناء النهوض، ليشرع باحتضان حذائي، نظرت إلى الأسفل فوقعت عيني على خصلات ذهبية مجعدة، إنها حبيبتي إيمي، أما جو -فأسلمت رأسها ليدي- شعرها المجعد المجزوز -كما لو أنها على وشك الإغماء، أما ميغ- أتراها ميغ حقاً؟ هذه الأنثى النضرة؟ - رحبت ببروك بارتباك واحمرار بعد اصطدامٍ غير مقصود، بكلماتٍ خجلة واعتذارات متلعثمة، ميغ مع جون -ثمة حكايةٌ إذاً- لمحتُ مارمي هادئة في مركز الدوامة، بوجه مرهق الملامح مبتسم، شعرت بقوة إرادتها كرمحٍ طعنَ أعماقي، إنها عزيمتها التي خلقت هذا اليوم، إصرارها على إعادتي إلى متن القارب كي تبقي عائلتنا عائمة، كلنا معًا، بغض النظر عن حالتي المُدمّرة، أو وضعها المأزوم، أو تململ أمواج المحيط.

رفعتْ يدها في إشارة مناشدة الهدوء.

«صه!» قالت، «تذكروا بيث!»

لكن بيث بالطبع ما غفلت عن الضجيج، فكيف يكتمه ذلك الكوخ الصغير؟ ركضت فأرتي الصغيرة بثوبها الأحمر المرفرف نحوي بخطوات متعرجة، بغريزة الأبوة فتحت ذراعي وحملتها - يا لخفة وزنها وضعفها، حتى أنا، المستنزف تمكنتُ من رفعها دون جهد.

تخبّطتُ في الساعات التالية وشعرتُ على نحو ما بأنني ملفوفٌ بقماطٍ كالمومياء، أو أنني أتطاير بخراً خارج قماش مبللٍ بالإيثر، كنتُ على دراية بلمساتهن لكن من دون أي إحساس بجسدي، كنت أستمع لأحاديثهن إنما بذهنٍ مغيّبٍ لمعاني الكلمات، أوه! لعلني أجبتُ ببعض العبارات؛ أعلم هذا، إذ شعرتُ بفمي يشكّل الكلمات، لا بدّ نطقتُ بردود معقولة، لأن الوجوه ما برحت هادئة المعالم مصغية خاوية الذهول أو الدهشة، مع ذلك؛ لا يمكنني تذكر كلمة واحدة سمعتها أو نطقتها مذ شققتُ طريقي من ردهة

الاستقبال إلى مائدة عشاء عيد الميلاد لأجلس أخيراً إلى كرسي بذراعين جوار موقد النيران.

انخفضت درجة الحرارة بحدة مع حلول المساء، ثم بدأت الثلوج تنهمر في الخارج، أي عابر سبيل يجتاز الدرب الناصع مسترقاً النظر لنافذتنا الوضاءة، لرأى لوحة مثالية لعائلة مجتمعة مبتهجة، بيث جالسة على ركبتي، ميغ بيدٍ مستلقية على ذراع الكرسي جوارها، تقابلها جو من الجهة الثانية، لتجثو إيمي على مسند القدمين الخشبي أمامي.

أثناء الحديث وقعت عيناي على يد ميغ، حيث تجعّد الجلد واشياً بندبة، فجأة، لم يعد حرق الموقد الطفيف ما رأيته، بل لحم جيمس المهتوك المتغضن، الذي بان بعد شفائه أبيض كنسيج العنكبوت مشوهاً راحة يده معطلاً بسطها، كم كنت أخشى أن تزعجه في وقت آتٍ من حياته! لكن لا حياة لاحقة تنتظره بعد الآن!

على الرغم من الفكرة التي طوقت ذهني ملقية بظلالها على قلبي، تمكنت شفاهي بطريقة ما بإدلاء ملاحظاتٍ صغيرة حول ميغ وأعمالها المنزلية الدؤوبة، كيف بدت يدها المليئة بالندوب أجمل بنظري من تلك المعتادة على استخدامها بصورة أقل والتي لا تشوبها شائبة.

دنت بيث بوجهها الصغير بالقرب من أذني، بسؤال عن رأيي بالتغييرات التي أصابت جو خلال العام المنصرم، فلم أتوانَ عن الإشادة بجلدِها وصبرها الحديث العهد، إضافة إلى رعايتها الدقيقة لأختها الصغيرة، في الواقع كنتُ طوال الوقت أتحدث بقلبٍ منفطرٍ متفكراً بتلك الممرضة وصبرها النبيل، حين تنطلق قريبًا لرعاية الجرحى من ذوي البشرة السوداء، تلك الفاتنة التي لن أراها مرة أخرى.

«الآن دور بيث»، قالت إيمي المتكئة على ركبتي، أجبتُ مثنياً على قدرة فأرتي الصغيرة على التخلص من بعض الخجل، عباراتي المرتلة كالببغاء، اجتاحتها عاطفة متوقدة حين تذكرت كيف كدت أفقدها، احتضنتها وهمست: «الشكر للرب أنك بأمان يا عزيزتي، أرجوك يا الله احمها من كل ضُر».

نظرت إلى الأسفل، ثم بدأتُ بذكر التغييرات التي طرأت على إيمي،

وكيف عاينتُ أناتها على مائدة العشاء وتقديرها المميز للآخرين، رفعت الفتاة رأسها جذلى بمديحي، فأعاد ميلانُ رأسها والضوء الساطع في عينيها ذاكرة تلميذتي سيلا، تلك الفتاة الصغيرة المسكينة التي أخفقتُ مهزوماً في حمايتها، ترنح ذهني بذكرى جراحها الرهيبة، ببطنها المبقور، بطنين الذباب، بالرائحة الكريهة،،، شعرتُ بالغثيان، مدركاً عجزي عن متابعة الكلام، ليس بالأمر السهل، لكن عليّ الآن بذل قصارى جهدي للتعايش مع عالم سريعٍ مكتظّ بأشباح الموتى.

لحسن الحظ، أنجدتني جو في تلك اللحظة حين همست بطلبٍ من بيث، ليتحول الحديث عني إليها، انزلقت فأرتي من حضني قاصدة البيانو الصغير الخاص بها، لمست المفاتيح برفق، وبدأت تغني:

قاطنُ القاع لا يخشى السقوط.

لا كبرياء للوضيع،،.

حطّت الأنظار مشيعة الفتاة، قبل أن تفكر إحداهنّ بسؤال والدها كيف غيرته سنة مريرة بين براثن الحرب، أخفيتُ وجهي في الظلام المتكاثف حتى دخول مارمي بشمعة صغيرة، لتنحني بخفة فوق المصباح مشعلة فتيله، أصغيتُ لطقطقة تثبيت البلورة الزجاجية ثمّ لقرصِ ضبط اللهب، توهج الضوء فجأة، وخلال لحظات غرقت أرجاء المكان بسناء.

كلمة المؤلفة

مارش عمل روائي مستوحى من حكايات وأحداثٍ تخصّ عائلة ألكوت إحدى العائلات الأمريكية العظيمة في القرن التاسع عشر في كونكورد، ماساتشوستس، أما هيكل حبكتها فاستعرتُه من رواية «نساء صغيرات» للكاتبة الشهيرة لويزا ماي ألكوت، التي كانت من بين أولى الروايات التي أطلعتني ولو بنظرةٍ خاطفة على الحرب الأهلية الأمريكية، الفضل والامتنان يعودان أولاً لوالد لويزا، المعلم والفيلسوف المتعالي[1] أ. برونسون ألكوت.

لا بد أنّ قرّاء كتاب نساء صغيرات يتذكرون أن الرواية بدأت عشية ليلةٍ مكفهرةٍ لعيد الميلاد في منزل عائلة مارش في ظلّ غياب والد نسائها الصغيرات ميغ وجو وبيث وإيمي، القسّ الغادي جنوبًا للالتحاق بصفوف قوات الاتحاد، بعد قطع ثلثي المسافة السردية في الرواية وفي لحظة مفاجئة تصل برقية مستعجلة تتضمن استدعاء السيدة مارش إلى واشنطن حيث يرقد زوجها عليلاً تحت وطأة مرضٍ خطير، أزمةٌ تنتهي مع الحضور المفاجئ للسيد مارش في يوم عيد الميلاد، بحيث تُنهي الرواية الأصيلة العام بلمّ شمل الأسرة من جديد، تهتم حكاية ألكوت بالتغييرات التي أحدثها مرور سنة قضتها النساء الصغيرات على حافة الحرب، لكن ماذا عن طعنات المرارة التي غرزتها الحرب بأعماق مارش؟ فجوةٌ حرضت خيالي وأشعلت فضولي بضرورة خلق شخصية للأب الغائب، اتبعت خطى ألكوت مستلهمة حبكتي من عائلتها الشخصية، فما كانت فتيات مارش إلا ألكوت وأخواتها:

1- الفلسفة المتعالية: حركة فلسفية نشأت في منتصف القرن التاسع عشر، قامت على الاعتقاد بأن المعرفة ليست محصورة في الخبرة والملاحظة.

بالطبع صوّرت جو ألكوت الطموحة، أما ميغ فمثّلت آنّا الطيّعة التي تزوجت في سن مبكرة؛ بيث كانت اليزابيث المنكوبة الرقيقة المرهفة؛ أما إيمي فأختهنّ الصغرى الفنانة مي التي حققت نجاحًا مبكرًا في أوروبا قبل وفاتها من جراء مضاعفات الولادة، بدا من الطبيعي لجوئي إلى المجلات والرسائل والسير الذاتية للسيد برونسون والد ألكوت، في سبيل الحصول على إلهام يخصني.

كان برونسون ألكوت راديكاليًا، حتى وفق المعايير الخاضعة لنيو إنجلاند في القرن التاسع عشر، صاحب أفكارٍ نالت استحسان أتباع كثر، تأملاتٍ جديدة خلاقة بدءاً من إعادة تقييم طبيعة الإله إلى إحصاء الفوائد الغذائية لمقرمشات غراهام، إحدى وستون مجلة نشرت مقالات عن حياته الخاصة، حُفظت مخطوطاتُ خطاباته داخل سبعة وثلاثين مجلدًا في المكتبة التابعة لكلية هارفارد، أمسى الرجل موضوع مذكراتٍ من مجلدين كتبها فرانكلين ب. سانبورن وويليام تي هاريس عام 1893، وبطل سيرة ذاتية كتبها أوديل شيبرد عام 1937، أصابعُ دافئة أشارت إلى برونسون ألكوت كمعلمٍ وملهمٍ في معظم الأحيان - خاصة في خطابات ومجلات رالف والدو إيمرسون وهنري ديفيد ثورو، اللذين كانا من أقرب أصدقائه.

اعتمدتُ بشكل كبير على هذه المراجع لخلق حياةٍ وصوتٍ لمارش، كما استعرت مقتطفات من عباراتِ برونسون الشخصية من حين لآخر: أذكر على سبيل المثال، عباراته المُترعة بالمودة لعائلته، وهي عبارات ضمنتُها في رسالة السيد مارش الأولى، كما استعنتُ بتوصيفه الجسدي لجون براون، كذلك في بعض الأماكن استخدمتُ الكلمات الفعلية لإيمرسون وثورو (سيتعرف القراء على بحيرة والدن، جنباً إلى جنب مع النقد الذي طال تسمية بحيرة فلينت)، على الرغم من منحي السياق قدرًا كبيرًا من الحرية.

نشأ برونسون ألكوت بعهدةِ أبوين بالكاد متعلميْن داخل مزرعة تعلو هضبة في كونيتيكت، ليتخذ في أواخر سن المراهقة قرار الرحيل إلى الجنوب للعملِ كبائع متجولٍ للكتب والنظريات قاصداً داراتِ المزارعين الأثرياء، بدت مدوناته المبكرة كفيفة عن الوحشية العبودية، منغمسة في حنايا مرهفة لعقلٍ غير معارضٍ لخدمة العبيد تحت نير أصحابهم المُلّاك، بعد سنوات

تلت منتصف عمره، عاد إلى نيو إنجلاند فيلسوفًا، مجازفاً بحياته بالوقوف احتجاجاً قرب خط النار في سبيل إعادة عبدٍ هارب إلى وطنه.

اتخذ تطرفه أشكالاً عديدة، أولها الاعتماد على الطعام النباتي، وثانيها تأسيس بلدة أطلق عليها اسم فروتلاندز[1]، المتطرفة جدًا في طوباويتها لدرجة أن قاطنيها يمتنعون عن ارتداء الصوف ويرفضون استخدام روث الحيوانات، باعتبارهما ممتلكاتٍ للحيوانات ذاتها، مشروع أخفق منذ شتائه الأول من جراء إصابة محصول التفاح بالديدان القشرية، في حين رفض سكان فروتلاندز اللاعنفيون اتخاذ تدابير لإبادتها.

تختلف سيرة السيد مارش ضمن رواية نساء صغيرات عن السيد برونسون ألكوت في عديدٍ من النواحي المهمة، ليس برونسون برجل دين، بل كان مربيًا (يُنسب إليه اختراع مفهوم العطلة ومحاولة تشكيل أول الفصول الدراسية التي تضم أعراقاً مختلفة)، مع اندلاع الحرب الأهلية، لم يتمكن برونسون ذو الحادية والستين سنة من الالتحاق بقواتِ الجنوب كما فعل السيد مارش الذي تم تصويره بعمرٍ يصغره بأكثر من عقدٍ من الزمان، لذا تخيلت حربًا سيخوضها قسيس مترعٌ بجملة قناعاتٍ تخصُّ برونسون ألكوت المتعالية وأفكاره التنويرية عن إبطال العبودية.

التقويم الزمني كان المشكلة الأولى التي واجهتها، أيُّ سنة من الحرب الأهلية نتعامل معها يا ترى؟ أخذتْ لويزا ماي ألكوت زمام الأمور قبلي، ليأتي التأريخ الوحيد في كتاب «نساء صغيرات» بوقتٍ متأخر جدًا من الأحداث عبر نقشٍ وحيدٍ فوق الوصية الأخيرة لإيمي مارش: (نوفمبر 1861) ما يجعل افتتاح الرواية عشية عيد الميلاد السابق عام 1860، وبما أنّ شرارة الحرب الأولى لم تنطلق في حصن سمتر حتى أبريل 1861، لم يكن من الممكن تواجد السيد مارش «بعيدًا جنوبًا حيث تدور المعارك» خلال

1- فروتلاندز (fruitlands) بلدة طوباوية في هارفارد، ماساتشوستس، أسسها برونسون أثناء وجودهم هناك، حيث سعت العائلة لإخضاع أجسادهم وأرواحهم بناءً على تعاليمه عبر ارتداء الكتان، لأنه غير ملوثٍ بالسخرة كما القطن أو الصوف، واستهلاك الفاكهة والماء، وعدم استخدام العمالة الحيوانية لزراعة الأرض، إلى جانب التمنع عن الاغتسال بالمياه الدافئة.

عيد الميلاد ذاك، لذا امتلكت حريتي بدفع العمل لعام قدماً مختارة زجّ السيد مارش بمعركة الجرف المنحدر لأن أرض ذاك الاشتباك القصير الرهيب مع ذلك، تقع على بعد أميال قليلة فقط من منزلي في فيرجينيا، ولأن العديد من الجنود من ماساتشوستس كانوا أول من «رأوا شعار الفيل[1]» هناك، أدينُ بتفاصيل تلك المعركة للعمل التوضيحي الرائع لطاقم الحديقة الوطنية؛ لجون كوسكي في متحف الكونفدرالية في ريتشموند، وإلى كتاب (من بولز بلاف إلى جيتيسبيرغ،،، وما بعدها) رسائل الحرب الأهلية للجندي رولان إي بوين، 15 مشاة ماساتشوستس 1861–1864، محررة بقلم غريغوري أ. كوكو.

قمتُ بمراجعة كتابين رائعين عن قساوسة الحرب الأهلية: الإيمان في القتال لجون دبليو برينزفيلد[2] وآخرين، إضافة إلى كتاب القتال الشجاع والموت الواثق من تأليف وارن ب، أرمسترونج، لكنني استندت بشكل كبير إلى مذكرات القسيس فولر المكتوبة عام 1864 بقلم شقيقه ريتشارد ف، فولر، كان القس آرثر بكمنستر فولر مقرباً لدى برونسون ألكوت؛ أما مارغريت المشرقة، شقيقة القسيس الكبرى، فقد عملت لفترة من الوقت كمساعدة في مدرسة ألكوت تمبل في بوسطن.

أثناء بحثي عن الدور المنوط برجال الدين في نيو إنجلاند، فتنتُ بقصة التهريب والتدوين المتباين بين الأيديولوجيا العالية وبين الإهمال والوحشية الصريحة، ثلاثة أرباع مليون أمريكي من أصل أفريقي –واحد من كل خمسة من سكان الكونفدرالية السود– كانوا ضمن الخطوط الفيدرالية خلال الحرب.

1– ظهر رمز الفيل لأول مرة كشعار للحزب الجمهوري في دعاية سياسية مؤيدة لأبراهام لينكولن خلال الانتخابات الرئاسية عام 1860، حيث كانت البلاد تواجه انقساماً بين الشمال والجنوب بسبب اختلاف الآراء بشأن قضية تحرير العبيد، قرر لينكولن حينئذ خوض تلك الانتخابات –التي فاز فيها– أملاً في توحيد البلاد أو التقليل من حدة الانقسام، وتحول الفيل عام 1874 إلى شعار سياسي للحزب الجمهوري الذي أسس عام 1854.

2– الإيمان في القتال: قساوسة الحرب الأهلية، جون دبليو برينزفيلد.

على الرغم من دراستي الموسعة لتجارب سي آيلاند في رويال بورت -رسائل ومذكرات لورا م تاون بتحرير روبرت سارجنت هولاند، وبروفه لإعادة الإعمار لويلي لي روز، والتي كانت مفيدة جدًا لي- فإن الحالات الفردية داخل مزارع القطن المؤجرة كانت أقل توثيقًا، اعتمدت على قصة توماس دبليو نوكس، نار المعسكر وحقل القطن؛ الرواية اللافتة النزيهة التي تتحدث عن مغامرةٍ جنوبيةٍ لمراسل حرب يانكي قام بإدارة مزارع القطن بمحاولةٍ لكسب ثروةٍ سريعة، في سبيل خلق عالم ملائمٍ لمارش، التزمت جداً بما كتبه نوكس، لذلك تجدون النتيجة المأساويةَ في أوك لانديغ خاضعة لوصف نوكس للنهاية المروعة لمشروعه الخاص، كتابان آخران أفاداني كثيراً: لويس س، غيرتيس من مُهرَّبٍ إلى طليق ومذكرات إليزابيث هايد بوتوم عام 1893، الأيام الأولى بين المُهربين، بالنسبة لأولئك المهتمين بمثل هذه الأشياء، أعترف بحرية حصولي على جوازٍ روائي ضئيل ضمن ذاك الإطار الزمني الحساس، فالمزارع على نهر المسيسيبي لم تكن لتؤجر للشماليين في بدايات الحرب.

لتمكين رجل مثل مارش من إلقاء خطابٍ أمريكي أفريقي، حاولتُ اتباع التقاليد المذكورة في كتابات نوكس وتاون وغيرهما من الشماليين الذين ذهبوا جنوبًا تلك الفترة، على الرغم من أن شخصية غريس كليمنت متخيلة تمامًا، فإنّ صوتها مستوحى من السيرة الذاتية الرائعة والمؤلمة لهارييت آن جاكوبس[1] عام 1861، وقائع في حياة فتاة مُستعبدة، التي كتبتها بنفسها.

ممتنة للإطلاع الواسع الذي منّ به الدكتور نورمان هورويتز، حين عرفني بعظمة ساق دانيال سيكلس[2] المتهتكة المعروضة مع مخلفات الحرب

1- هارييت جاكوبس (1813-1897) كاتبة أمريكية من أصل أفريقي، ولدت في العبودية في إدينتون، كارولاينا الشمالية، تعرضت للتحرش الجنسي من قبل سيدها، عندما هددها ببيع أطفالها، اختبأت في جحر صغير تحت سقف منزل جدتها، حيث لم تكن قادرة حتى على الوقوف لمدة سبع سنوات، تمكنت أخيرًا من الفرار إلى نيويورك، حيث أُعيد لم شملها مع أطفالها، عملت مربية للأطفال، تعتبر سيرتها الذاتية (وقائع في حياة فتاة مستعبدة، التي نشرت في عام 1861) من «الكلاسيكيات الأمريكية».

2- دانيال سيكلس: خدم كقائد لواء وفرقة وقائد فيلق في بعض الحملات المبكرة،

الأهلية الشنيعة الأخرى في المتحف الوطني للصحة والطب في مركز والتر ريد الطبي العسكري، أما المؤرخ درو جيلبين فاوست فقدم لي تفاصيل مفيدة حول كيفية التعامل مع الموتى خلال الحرب الأهلية الأمريكية، في سبيل الحصول على مشهد للحياة في مستشفى واشنطن، دققتُ بالصور الخاصة بلويزا ماي ألكوت، المحتفظة بها كمذكرات عن خدمتها القصيرة بالتمريض إبان الحرب الأهلية، فقد خدمت ألكوت في مستشفى الاتحاد الذي كان فندقاً في جورج تاون ثم كتبت بوضوح عن عيوبه ضمن نص قصير سبق إصدارها لكتاب «نساء صغيرات» محققاً نجاحها الأول بعد نشره، القصيدة المنسوبة لسيفاس وايت ألّفها جريح لم تشر ألكوت لاسمه، مرسلة إياه بنسخةٍ مطبوعة لخالتها، بينما يُحتفظ بالأصل بين المخطوطات النادرة في مكتبة الكونغرس.

أقدر كذلك الفضل العظيم للمكتبات الرائعة، الجديدة والمستعملة، جنباً إلى جنب مع المتاحف الساحرة في كونكورد، لا تزال ذكرى قاطنيها السالفين جائلة في أركانها في ظلّ الفخر بالعراقة التاريخية التي تسود المدينة، على بعد مسافة قصيرة خارج مدينة هارفارد، تم إحياء حلم برونسون ألكوت الخاص ببلدة فروتلاندز على نحو لم يكن ليتخيله هو نفسه، فقد أحيل المكان إلى متحفٍ مثير للاهتمام وبقعةٍ مترعةٍ بجمالٍ استثنائي.

أود أن أشكر كلاً من المحررتين مولي ستيرن ووكيلتي كريس دال، قرائي الأوائل، دارلين بونجي وليندا فونيل وبريان هول، وإلينور وجوشوا هورويتز وصوفي إنوالد وغراهام ثوربورن ووليام باورز، أشكر كذلك ماريتيس باتاك وأماندا ليفيك، الداعمتين اللتين لا يمكن الاستغناء عنهما.

كحالِ الكثير من الأحداث المفصلية في حياتي، يدين كتاب نساء صغيرات بوجوده لوالدتي غلوريا بروكس التي أهدت الكتاب لفتاةِ العشرة سنوات كي تقرأه للمرة الأولى، على الرغم من توصيتها بالكتاب فإنها نصحتني بالنظر بعين الارتياب والتفحص قائلة: «ما من امرأة واقعية نموذجية كمارمي في

انتهت مسيرته العسكرية في معركة جيتيسبيرغ في يوليو 1863، بعد أن نقل فيلقه الثالث دون أوامر إلى موقع لا يمكن الدفاع عنه، حيث تم تدميرهم وإبطاء مناورة الجنرال جيمس لونجستريت المرافقة، أصيب بنيران مدفع في جيتيسبيرغ واضطر إلى بتر ساقه، ليحصل في النهاية على وسام الشرف عن أفعاله.

الحياة»، بالفعل كانت محقة في فكرتها كحال الكثير غيرها، فعائلة لويزا ماي ألكوت الحقيقية أقل مثالية، وبالتالي بدت أكثر إثارة لاهتمامي من عائلة مارش القديسة.

في النهاية أستعير سطراً من رواية مِدِل مارش[1] لجورج إليوت[2]، وجهته لزوجها بالقول: «زوجي العزيز،،، في السنة التاسعة عشرة لاتحادنا المبارك» أما عني فأقول: في العام التاسع عشر لاتحادنا المبارك، أتراجع من دون تحفظ عن توصيفي السابق لزوجي طوني هورويتز، برجلِ الحرب الأهلية المُضجر، علاوة على ذلك، أود الاعتذار عن كل المرات التي رفضت فيها الخروج من السيارة أثناء تجوالنا في ساحة أنتيتام[3] الوطنية، أو لتذمري من ارتفاع درجة الحرارة في جيتيسبيرغ؛ أو عن شكاويَ المتعلقة بأرففٍ استعمرتها مجلداته الخاصة بالحرب الأهلية، أو عن أنيني المرافق لرحلات نهاية الأسبوع المخصصة لأحداثٍ مملةٍ كزيارة مدفن حصان ستونوول جاكسون[4].

لست متأكدة تمامًا متى أو أين؟ لكن على دربٍ ما،، غريقٍ! أخيراً أبصرتْ عيناي النور.

1- تعتبر رواية «مِدِل مارش» إحدى أهم روايات الأدب الإنجليزي وأكثر روايات الكاتبة إليوت تميزاً إذ تم اختيارها من قبل الموسوعة البريطانية كأحد أعظم الأعمال الغربية منذ العصور اليونانية والإغريقية حتى عصرنا الحاضر لتكون أحد تلك الأعمال الرئيسية التي ظهرت في ستين مجلداً، تكمن أهمية رواية «مدل مارش» في تصويرها حياة المجتمع الإنجليزي في مطلع القرن التاسع عشر بجميع شرائحه وطبقاته وعلى جوانب حياة أفراده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافة دون أن تهمل تأثير التطور العلمي والاكتشافات الحديثة في ذلك المجتمع.

2- الاسم الحقيقي للكاتبة هو ماري آن إيفانس (1819–1880) ولكنها اختارت أن تحمل أعمالها اسم رجل (جورج إليوت) لأنها تمنت، على حد قولها، أن تؤخذ أعمالها بجدّية بالغة. شيد لها نصب تذكاري بعد مرور مئة عام على وفاتها في عام (1980).

3- معركة أنتيتام (1862) بالإنجليزية: Battle of Antietam وتسمى أيضاً معركة شاربسبرغ من معارك الحرب الأهلية الأمريكية، وتعتبر حتى الوقت الحالي من أضخم المعارك في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وأكثرها دموية من حيث عدد الضحايا (قتلى وجرحى) الذين بلغوا ثلاثة وعشرين ألفاً من الطرفين.

4- الحصان العسكري الأكثر شهرة في التاريخ الأمريكي.

نبذة عن مارش

بعد روايتها سنة العجائب، أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم والحائز على استحسانٍ عظيمٍ من قبل النقاد، تمت الإشادة بأسلوب جيرالدين بروكس العاطفي وبحثها الدقيق، التمحيص والتوثيق جنباً إلى جنب مع خيالها الجامح حين قامت بإعادة خلق وقائع تاريخية عن سيرة الطاعون الدبلي الذي نهش قرية إنجليزية صغيرة في القرن السابع عشر، لتحوِّل بروكس مواهبها مع روايتها مارش كاشفة النقاب عن الدمار والتعقيدات الأخلاقية لحربٍ أهليةٍ قاهرةٍ عبر إطلاق مخيلتها ببراعة لسرد حكاية السيد مارش، الأب الغائب عن «نساء صغيرات» للكاتبة لويزا ماي ألكوت، حيث ابتكرتْ بروكس في روايتها رجلًا متناقضاً وحساسًا للغاية، أبًا يكافح من أجل التوفيق بين مهمته الإنسانية وواجباته تجاه أسرته على خلفية أكثر الفترات ظلمة في التاريخ الأمريكي.

في 21 أكتوبر 1861 بالكاد نجا قسيس الجيش من الموت بعد عبور وحدته نهر بوتوماك بمعركة بولز بلاف الرهيبة، لكنه حينما جلس ليكتب رسالته اليومية إلى زوجته الحبيبة مارمي، استهلها بعبارة: «*الغيوم الليلة تزركش الأفق*» محاولاً الاعتكاف عن ذكر الموت والدمار المحيطين به لشدة شوقه للوطن وافتقاده لبناته الجميلات الأربع، «لم أَعد قط بأنني سأكتب الحقيقة!»، قال معترفاً، «حتى لو لنفسي!».

أول تجنيده، سعى مارش لتجسيد المثالية موقناً قبل أي شيء بالعدالة والواجب الوطني لخوض هذه الحرب في سبيل نصرة قضيةِ الاتحاد، لكنه

لم يتوقع مطلقاً أنه سيهوي في سعير الأرض، حيث الخطوط الفاصلة بين الصواب والخطأ، الخير والشر، مبهمة غائمة المعالم.

مع ذلك، لم يكن لديه الخيار آنذاك إلا بالمضي قدماً، حين أُصدرت الأوامر بالتحرك صوب مستشفى مؤقت، مبنى عتيق وجده مألوفًا على نحو غريب، تذكره! هنا، قبل أكثر من عشرين عامًا، التقى لأول مرة بغريس، الفتاة المُستعبدة الفاتنة المتعلمة، التي أذاقته نكهة القبلة الأولى وغيرت مجرى حياته.

مقاطعة كليمنت من جديد، ما كانت أجمل أرضٍ يومًا، شوهتها بشاعة الحرب ودمرتها، إلا أن الإقامة القصيرة لمارش هناك، انتهت بتكليفه بمهمة تأسيس مدرسة في إحدى المزارع المحررة، أوك لاندينغ - ليقاسي أياماً كارثية أحالته جسداً هامداً.

على الرغم من إنقاذه ونقله إلى مستشفى في واشنطن حيث تحسنت صحته الجسدية، لكن مارش ما زال رجلاً محطماً، مسكوناً بكل ما شهده من مرارة جنباً إلى جنب مع «ضميرٍ مشتعلٍ بالذنب» جراء عجزه التام عن التأثير في مجرى الأحداث، أو الحدّ من سفك الدماء، أو تغيير الأسلوب الوحشيّ الذي كان يدير الحرب رغم عدالة قضيتها، يحين وقت المغادرة، فيرفض العودة إلى منزله، لائذاً بمعشوقته غريس طالباً مشورتها آملاً بصحبتها من جديد، هدأتْ من روعه: «لا أحد منا بلا خطيئة!»، لتسارع بعدها بإحباط آماله: «عد إلى ديارك يا سيد مارش».

يعود مارش إلى زوجته وبناته، مفتّتاً، مُعذّباً بالماضي، قلقاً حول مستقبل بلاده، لكن حاضره على الأقل مابرح مؤكداً: زوجٌ وأبٌ آمنٌ داخل منزله، فهل عساها من حياة تكفيه أو تنجده من ماضيه؟!

مقابلة مع الكاتبة جيرالدين بروكس

1. في خاتمتك، تقدمتِ لزوجك، الكاتب المشهور طوني هورويتز، المولع بالبحث والتقصي عن الحرب الأهلية، باعتذارٍ لطيف عن افتقارك إلى تقدير شغفه في السابق، لم تحددي «متى أو أين» حدث ذلك، ما الذي غيّر رأيك نحو اهتمامٍ جديدٍ وعميقٍ بالحرب الأهلية الأمريكية الذي كللته بكتابة روايتك مارش؟

في أوائل التسعينيات، اخترنا الإقامة بقريةٍ صغيرةٍ من قرى فيرجينيا حيث أحاطت ذكريات الحرب الأهلية بنا من كل جانب،، آثار طلقات نارية على آجر الكنيسة المعمدانية حيث وقعت الاشتباكات وإبزيم حزام جنديّ من الاتحاد بالقرب من بئر قديمة في فناء المنزل، القرية التي تسودها الكونفدرالية، قطنها الكويكر اللاعنفيون ذوو الأفكار الخاصة بإلغاء العبودية، إلا أنّ الحرب المندلعة أيقظت ضمائر سكان البلدة، فقام القليل منهم بالتضحية بمبادئهم لتكوين فوج للقتال إلى جانب الاتحاد، التفكير بالأشخاص الذين عاشوا في منزلنا ذات يوم والتحديات الأخلاقية التي واجهتهم من جراء الحرب، أشعلوا اهتمامي بتخيل أشخاص مثاليين يضيعون بين رحاها، استحوذتْ علي قصص تعود إلى أقرانِ أوليفر ويندل هولمز، حين وصفهم ببلاغة قائلاً: «في شبابنا كانت قلوبنا مستعرة بالنيران» ما برحت غير مهتمة بترتيب زمن اندلاع المعارك، حتى قدتُ طوني إلى الجنون من شدة فشلي بالحفاظ على التسلسل الزمني الصحيح، إنها بالضبط كالتعقيد المرتبط بالاختيار بين موعدين مع طبيب الأسنان أحدهما بمنتصف الصيف، لكنني مع ذلك؛ أجد نفسي في بعض الأحيان، وحيدة داخل ساحة

المعركة حيث يلتهم الضباب أعشاب الأرض، لأسافر عبر الزمن، ثمّ أولد هناك بهيئة أشباح الأولاد المفقودين جميعهم.

2. غريس كليمنت شخصية غير عادية ولها دور محوري في تشكيل حياة مارش، أخبرتِنا أن صوتها مستوحى من سيرة ذاتية لفتاةٍ مستعبدة تعود لعام 1861، ما الذي ألهمك لإنشاء علاقة رومانسية بين غريس ومـارش؟ هل هناك أي إشـارات تاريخية لعلاقة غرامية تخص ألكوت كهذه؟

فكرة التجاذب بين مارش وغريس متخيلة تمامًا،لا علاقة لها بسيرة برونسون ألكوت على الإطلاق، عشقٌ نشأ بشكل طبيعي عبر السرد: شاب وشابة فاتنان يلتقيان لأول مرة، مارش مثالي، غريس امرأة خاضعة لموقف درامي مؤثر، بدا إنشاء علاقة بينهما أمراً لا مفر منه.

3. بعد عام من تجنيده صرّح مارش: «أتمنى يومًا ما أن أعود إلى زوجتي، إلى بناتي، إلى الرجلِ ذي البصيرة الأخلاقية الذي كنتُ عليه،،، النقي، الواثق المدرك لما كان من المفترض فعله بالضبط!»، هل تعتقدين بقدرته على العودة؟ أمن الممكن حقاً؟ هلا أخبرتنا عن رؤيتك للتغيرات التي أصابت مارش بنهاية الرواية وأيّ الأجزاء من روحه أفلتتها الحرب؟

لا يمكنه العودة من وجهة نظري، في الواقع ليس من الضروري حدوث ذلك، فاليقين الأخلاقي قد يحجب الناس عن أي حقيقة مغايرة لحقيقتهم، صحيح أن مارش بحلول نهاية الكتاب لم ينجُ من الضرر، لكنه ما زال مثاليًا؛ كل ما في الأمر أنه عاين تكلفة مثُلِه بفطنةٍ وجلاء، مستوعباً أنه ليس من دفع الأثمان وحده.

4. تناولتِ في كتابك تسعة أجزاء من الرغبة قضايا المرأة المسلمة، ثم سلمتِ دفة بطولة روايتك سنة العجائب لأنثى (آنا فريث)، كيف وجدتِ الكتابة من وجهة نظر الرجل هذه المرة؟

لطالما اعتقدتُ أن فؤاد الإنسان هو فؤاد الإنسان، بغض النظر عن الزمن الذي يعيش فيه، أو البلد، أو الجنس، هذا كتاب عن مشاعر قوية نابضة بالحب، مترعة بالخوف. لا أوقن بأن هناك فارقًا كبيرًا بين الرجل والمرأة من حيث تأثير التجارب التي يخوضها أيٌّ منهما، هذا عدا المدونات اليومية والرسائل الخاصة ببرونسون ألكوت، التي لعلها أكملت الصورة الحقيقية لأعماقِ رجلٍ منتمٍ للعصر الفيكتوري تخيلتها ثم تحريتُ عنها.

5. **فاجأنا سماع صوت مارمي على عتباتِ الجزء الثاني، هلا أخبرتنا كيف ولماذا قررتِ تغيير هوية المتحدث في تلك اللحظات؟**

بنيتُ الهيكل العام لرواية مارش في مخيلتي قبل البدء بخطّ سطرها الأول، لأن شخصيتي موجودة مسبقاً في قصة نساء صغيرات للويزا ماي ألكوت، بما يعني أن مارش كان عليه الذهاب إلى المستشفى في حالة مرضية خطيرة، قبل وصول مارمي لرعايته هناك، كان من الممكن أن يكون البديل الاستمرار بالسرد بصوت مارش، المشوش بحكم هذيانه، في حين بدا إعطاء صوت لمارمي فرصة بالنسبة لي، للإضاءة على موضوعات سوء الفهم وفشل التواصل بين الزوجين على نحو أفضل، إن إصابتي باضطراب عاطفي من جراء تغطيتي للحرب على العراق، أثرت على أسلوب كتابتي للرواية، لعلّ التحدث بصوت مارمي، ما مكنني عفوياً من التعبير عن الإحباط والحزن والارتباك المشترك بيننا.

6. **اتسمتِ الحرب الأهلية الأمريكية بتعقيداتٍ شديدة حكمتها عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية مختلفة لعبت دورًا مهماً، ما أكثر ما أثار دهشتك أثناء تفرغك للبحث؟ بخلاف النقلة النوعية الجليّة لاهتمامك الحديثِ بالحرب، هل تغير رأيك الحالي عما كان عليه سابقاً؟**

حتماً تقع الدول جميعها بفخ إضفاء الطابع الرومانتيكي على جيوشها، ليذهلنا كشف الستار عن الفظائع المروعة التي ارتكبوها بحق الأبرياء، الحال ذاته في الحروب كلها، الكثير من العنصريين المثقلين بالكراهية قاتلوا

جنبًا إلى جنب في جيش لينكولن مع رجال نزيهين شرفاء، أعتقد أنّ ذعر مارش المتنامي حين ألمّ بالحقيقة لا يعكس سوى رحلتي الشخصية نحو فهمٍ أكثر اكتمالاً.

7. هلا حدثِتنا قليلاً عن تأثير عملك السابق كمراسلةٍ أجنبيةٍ للإعلام الحربي على كتاباتك الحالية؟ ما الذِي يحققه الخيال التاريخي[1] وفق اعتقادك ويعجز الخيال الشخصي عنه؟ هل تخطر ببالك كتابة رواية واقعية عن الأحداث الجارية؟

(اكتبْ ما تعرفه)، إنها نصيحتي الأولى لكل كاتب، لقد استفدت بالفعل من التجارب التي خضتها أثناء تغطيتي كمراسلة لأحداثِ الحروب، وقائعُ صادفتني لا يمكن التغافل عنها على الإطلاق، إلاّ أنّ أكثر ما يجذبني للخيال التاريخي الاستناد إلى الحقائق المعروفة كسقالةٍ أوليّة، لأسمح لخيالي فيما بعد ببناء هيكلٍ يعبئ الفجوات التي لا يمكن تأكيدها على وجه اليقين، مستفيدة من التجارب الشخصية قدر الإمكان، صحيح أنني أحب قراءة الخيال المعاصر[2]، لكنني لست منجذبة لكتابته، لعل التفسير يرجع للصحفية داخلي الخاضعة لتعرية الواقع لمنبرها؛ الملتزمة بكتابة قصصٍ واقعية، أعتقد أنني أجد الحاضر مربكاً للغاية.

1- في الواقع يروي الخيال التاريخي قصة ذات صلة بالتاريخ، مع اختراع شخصيات أو ثيمات تاريخية فعليّة للتفاعل مع أولئك الذين عاشوا الأحداث التاريخية الفعلية، ويقدّم هذا النوع للقارئ حقائق مثل الأوقات الفعلية والأماكن والشخصيات التي كانت مهمة في الماضي، أما الخيال المطلق الذي يتمثل الواقع، فهو يبدو واقعياً نظرًا للأحداث والشخصيات -التي يمكن تصديقها- والتي تشكل جزءاً محورياً من القصة، لكنّها من جهة أخرى خيال مطلق أبطاله شخصيات لم تكن موجودة قط وأحداثها لم تحدث قط.

2- يصف مصطلح الخيال المعاصر الروايات التي تدور في العصر الحديث والتي لا تجلب أياً من عناصر الخيال، من الناحية الفنية هو نوع من الخيال الواقعي، ويتم استخدام مصطلح «المعاصرة» على وجه التحديد لتمييزه عن الخيال الواقعي مع ضبط تاريخي.

8. ما الذي تعملين عليه الآن؟

أكتب رواية تاريخية مبنية على قصةٍ حقيقيةٍ مجهولة الحقائق والتفاصيل، ما ترك فجواتٍ مثيرة للفضول أسلّم للخيال مهمة ملئها، مثلها مثل مارش وسنة العجائب، يتعلق الأمر بالإيمان والفاجعة.

أسئلة للمناقشة

1. على الرغم من حبهما الكبير، بدا أن مارش ومارمي طوال الرواية يسيئان فهم بعضهما لبعض إلى حد كبير، وغالبًا لا يخبر أحدهما الآخر بالحقيقة كاملة، ناقش متى وأين حدث ذلك؟ كيف يفترض للأمور أن تنقلب على نحو مغاير، إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، لو التزم كلاهما بالصدق التام، هل يتوجب حقاً في بعض الأوقات عدم إخبار أحبائنا بالحقيقة؟

2. يُعزى اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية إلى أسباب متعددة ومتداخلة، أخبرنا عن رأيك بهذه الحرب قبل إطلاعك على الرواية للمرة الأولى، هل تغيرت نظرتك إليها بعد قراءة رواية مارش؟

3. تعتبر علاقة مارش مع كلٍّ من مارمي وغريس محوريتين في حياته، ناقش الاختلافات بين هاتين العلاقتين، كيف ساعدتا بتشكيل شخصية مارش ونظرته إلى مستقبله، ما الأشخاص والأحداث المحورية الأخرى التي سبكت معتقدات مارش برأيك؟

4. هل تعتقد أن قرار مارش بتقديم الدعم المادي والمعنوي لجون براون، الداعي إلى إبطال العبودية في الشمال، كان قراراً صائباً؟ لعلّ تكتيكات براون مثيرة للجدل، لكن هل الغاية تبرر الوسيلة؟

5. «لو أمكن وصف أيّ حرب بالمنصفة، فلا بدّ أن الحرب التي نخوض

غمارها عادلة؛ إنها كفاح في سبيل قضية أخلاقية ذات دعائم فكرية عظيمة، إلا أن الظلم لا ينفك ظافراً في المعارك حيثما التفتُّ حولي»، كما يقول مارش في (الفصل الرابع)، هل تغيرت معتقدات مارش حول عدالة الحرب من عدمها مع نهاية الرواية؟ لم لا؟

6. ما رأيكِ في اختيار مارش الانضمام إلى صفوف الجيش؟ هل توجب عليه المكوث في المنزل لرعاية عائلته؟ متى نقرر تفضيل مبادئنا على التزاماتنا الشخصية؟

7. عندما تحدثت مارمي عن تجنيد زوجها في الجيش أدلت باعترافٍ بليغٍ للغاية: «ما برح العالم يدعو التضحية نبلاً، لكن أين العالم الآن من تجشّم محاولاتي اليائسة لترميم ما دمرته الحرب؟» (الفصل الرابع عشر) هل لكلماتها أي صدى مجدٍ في عالمنا المعاصر؟ ما وضع الجنود الذين يخوضون حروبهم اليومية؟ هل نولي اهتماماً كافياً بعائلاتهم في ظلّ غيابهم؟ هل تأثرت مواقفنا بأي حال من الأحوال من ناحية تجنيد النساء في الجيش؟

8. دامت الحرب لسنواتٍ عديدة بعد رجوع مارش إلى الوطن، كيف تتخيل حياته إبان تلك الفترة؟ ما شكل علاقته مع مارمي؟ أتراها تغيرت أم بقيت على حالها السابق؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

روايات الكاتبة الأسترالية
جيرالدين بروكس

سنة العجائب

من أكثر الكتب مبيعاً على مستوى العالم وفق نيويورك تايمز، مستوحاةٌ من قصةٍ حقيقية ترجع أحداثها إلى عام 1666 تسردها جيرالدين بروكس عن الطاعون الذي ضرب بلدة إيام الإنجليزية في القرن السابع عشر، والحظر الطوعي الذي فرضه القرويون على أنفسهم، في مقاربةٍ شائقةٍ ولافتة، يباين عبرها القارئ أساليب البشر بتدبّر أمورهم لقطع سلسلة العدوى بالأمراض القاتلة، أساليب ما انفكت تتأرجح بين الشعوذة والإيمان واليأس والعلم، رغم مرور ما يقارب أربعة قرون.

منمنمات تاريخيةٌ صغيرة، وأطلال حكايةٍ، جمعتها الكاتبة الأسترالية التي عملت لسنواتٍ مراسلةً صحفية أثناء زيارتها لديربيشاير في إنجلترا عام 1990: يافطةٌ نُقش عليها «بلدة الطاعون»،، أنباء متفرقة عن عدد الضحايا الذي جاوز ثلث سكان البلدة، وبضع رسائل ناجية خطّها كاهن إيام، ذكر في طياتها تدابير الحظر، وخادمته التي سلمت من المحنة، وإصابة زوجته، من ثمّ وفاتها؛ لتلوح مصائرهم في وجدان بروكس مستدعيةً قدرتها الروائية على حبك حيواتهم ومعاناتهم في مواجهة الموت الأسود.

تعدّ الرواية بمنزلة استحضارٍ لتفاصيل غنية، وللحظاتٍ فريدة في التاريخ بذكاءٍ عاطفيٍّ مذهل، حيث تقدم الكاتبة بطلةً ملهمة، تمزج بين الحب والتعلّم، الفقدان والتجديد في قراءةٍ مذهلةٍ لا تُنسى.

صورة الوجه الأول لكتاب سنة العجائب

أهل الكتاب

في عام 1996، عُرض على الأسترالية حنا هيث خبيرة الكتب النادرة وظيفة تفحص دراسة وترميم هاجادا سرايفو التي لا تقدر بثمن، بحكم أنها إحدى أقدم المخطوطات اليهودية على الإطلاق، تكتشف حنا مجموعة من البقايا المنسية بين دفتي الكتاب -جزء من جناح حشرة، بقع من النبيذ، بلوراتٍ من الملح وشعر أبيض- فتباشر الخوض بمغامرةِ حل ألغاز هذه المخطوطة المُضاءة النادرة، لتُغرقها التحقيقات بين مكائد مزوّري الفنون الإبداعية وذوي النزعات القومية المتطرفة، عبر تقصٍّ مضنٍ تختبر حنا خبراتها، إيمانها بنفسها وبالرجل الذي أحبته.

(أهل الكتاب) رواية طموحة، ناجحة كلياً في إعطاء فكرة المعجزة، إنها تحزم جوهر التاريخ بين أوراقها النفيسة، أما سلاسة تشابك الأديان الإبراهيمية الثلاث في الرواية، وجاذبية الشخصيات المتخيلة والأحداث المدهشة خلال أكثر الأزمنة اضطرابًا في تاريخهم، جنباً إلى جنب مع الحفاظ على النص المقدس جعل من الكتاب تحفة ثمينة فاقت شيفرة دافنشي مبيعاً.

فازت الرواية بجائزة الكتاب الأسترالي وجائزة الخيال الأدبي الأسترالي في عام 2008.

صورة الوجه الأول لغلاف أهل الكتاب

(الوتر السري) حكاية (الملك داوود)

أغنى الشخصيات في الأدب وأكثرها غموضًا؛ الرجل الوضاء عبر التاريخ، تقشر بروكس الأسطورة عنه، متتبعة رحلته من رجلٍ مغمور إلى شهير، من راعٍ إلى جندي، من بطلٍ إلى خائن، من ملكٍ محبوبٍ إلى طاغية قاتل.

(الوتر السري) ملحمة مكتوبة بأسلوب مدهش جميل مجسدة الإيمان والرغبة والطموح والخيانة والقوة الآسرة.

(تسعة أجزاء من الرغبة)

لعلّ قدرة بروكس الإبداعية خُلقتْ من رحم خبرتها إبان الحروب والصراعات، راسمة ما قاسته طوال الوقت متأملةً المرارة التي يتجرعها البشر عبر أزمنة الكوارث، لا ريب أن كتابها (تسعة أجزاء من الرغبة) أتى بناءً على تجربتها بين النساء المسلمات في الشرق الأوسط، وبات من أكثر الكتب مبيعاً على مستوى العالم، تمت ترجمته إلى 17 لغة.

معبر كالب

ما انفكت بروكس سيدة بإحياء الماضي بين يديها الماهرتين، مترنمة بصدى مخاوفنا العميقة في الحب والخسارة، الدراما والمأساة، الفوضى والوحشية.

تنقل بروكس القراء في روايتها (معبر كالب) إلى مارثا فينيارد وكامبريدج إبان ستينيات القرن السادس عشر، لتخبرهم بقصة قدرين متداخلين لأول أمريكي أصلي تخرج من كلية هارفارد وشابة مضطربة وفضولية تكافح للعثور على موقعها في الحياة، انتصارات وهزائم جمعت روحين جسورتين خافقتين غامرتا بكل شيء بحثاً عن المعرفة في أزمنة الخرافات والجهل عن قصة حقيقية لعاشقين سردتها جيرالدين بروكس في حبكة مترعة بالعاطفة والإيمان والسحر والمغامرة، مؤكدة ما أعلنته على الدوام بالقول: «أحب العثور على قصص غابرة حيث يمكننا الإلمام بمعرفة شيء من الحقيقة الواقعية المثيرة للفضول، مع فجواتٍ تُفسح المجال لطواف الخيال الثري».

الصفحات الافتتاحية من رواية معبر كالب

آنا

1660 في العام الخامس عشر للميناء العظيم

-1-

إنه قادم في يوم الرب، وصلتني الأخبار برمتها على الرغم من حرص والدي حجبها عن مسامعي.

افترضوا أنني غارقة بالنوم، كما يتحتم على الفتاة فعله باكراً كل مساء، في معظم الليالي خلف الستار الذي قسم غرفتنا إلى حجرتين، لطالما جلب همس والدي وهمهمة ماكبيس الراحة لفؤادي، لكن إلحاح ماكبيس في تلك الليلة طال أذنيّ قبل مسارعة والدي بمحاولة كتمه، تبعه استياء مفاجئ وتبدل مفرط لمزاج ولده، جدالٌ عدّل من وضعية استلقائي في محاولة لاستراق

السمع متسائلة بتكاسل، ما الذي أثار غيظ شقيقي؟ لم أستطع سماع وشوشة والدي، لكن سرعان ما ارتفع صوت أخي مرة أخرى.

«كيف يمكنك فضح بيثيا بهذه الطريقة؟».

بالطبع، أدى نطق اسمي لتنبيه حواسي بالكامل، رفعت رأسي مجاهدة لسماع المزيد، أمر لم يك بالصعب مع فقدان ماكبيس القدرة على التحكم بلسانه وإيقاع صوته، على الرغم من تلاشي ما قاله والدي بالكامل، فإن شظايا العبارات التي أطلقها أخي كانت مفهومة بوضوح.

«إنه يصلي، هذا ما يهم؟ إنه مجرد - -ماذا؟- ليس بعد عام؟ -تم تطهيره من الوثنية وعبودية الشيطان- ذاك الأكثر عناداً وخطورة بينهم جميعًا، كما قلتَ مرارًا وتكرارًا يكفي،،،،».

صمت والدي في تلك اللحظات، لكن ماكبيس أبى التوقف عن الكلام.

«بالطبع لا يا أبي، فأنا لا أشكك في قدرته، لكن اتقانه للغة اللاتينية لا يعني بالضرورة إلمامه بالآداب الضرورية المتبعة في منزلٍ مسيحي، الخطر،،،».

صرخةٌ صدحت في تلك اللحظة، إنها سولاس، سارعتُ نحوها بحركة نبهتهما لاستيقاظي، فآثرا الوجوم والصمت،، لففتُ الصغيرة بغطاء ثم حملتها إلى فراشي، فتكورت كفرخِ طائر مستغرقة بالنوم، استلقيتُ متيقظة أحدق بالظلمة، أجول بيدي على طول الحافة الخشنة لعارضة السقف التي تميل بطول ذراع فوق رأسي، بعد خمسة أيام من الآن، كلانا سيعلو رأسه السقف ذاته،، كالب قادم للعيش في هذا المنزل.

لم أتحدث عند الصباح بما تسلل إلى مسامعي أمس، فالاستماع لا الكلام ما ينبغي عليّ اتباعه، لعلني بتّ بارعة بإتقان الصمت أكثر بكثير من أمي التي علمتني إياه، المرأة التي لم يسمع صوتها أكثر من عشرة أشخاص في هذه المستوطنة،،! يا للنبرة الخفيضة الهادئة! المحمّلة بإيقاع قروي، المذيلَة قوافيها بكلمات غريبة وسمت مسقط رأسها (ويلت شاير الإنجليزية) حيث أمضت طفولتها، عبارات اختزلت حكايات

وأماكن مجهولة بالنسبة لنا: كاتدرائيات وعربات، أنهار رحيبة، متاجر مصطفة على ضفاف الشوارع، حيث يمكن لصاحب المال شراء البضائع بأنواعها، أحاديثها لم تدر إلا مع أفراد العائلة داخل المنزل، فإن تجولت بين الناس، خرسٌ يختم شفاهها، وغمٌّ يحجبُ عينيها، مثلُها مثل فراشة صاخبة بالألوان والحيوية مع إطلاق جناحيها، بالكاد منظورة إن طوتهما، ملاءة من الاحتشام أُسدلت فوق قامتها بالوداعة مزخرفة بالحكمة، لطالما جالت بين الأشخاص كطيفٍ غير مرئي، حتى إن الكثيرين لم يتوانوا عن ذكر أحوالهم أمامها دونما تحفظ، في وقت لاحق، ضمن اجتماعات عائلية - إن ناسب الحديث مسامعنا الطفولية، تقوم بربط هذا أو ذاك بأخبار مهمة أو مسلية تخصّ جيراننا وأفعالهم، حتى إنّ ما تقوله بات في كثير من الأحيان، مفيدًا للأب في كهنوته، أو للجد القاضي في محكمته، حين صرت نسخة عن شخصيتها اشتعلت الخشية والمخاوف من فقدانها، ما زلت أذكر ذاك النهار حين أرسلتني جارتنا القابلة غودي برانش، لجلب المزيد من شراب الشعير من كوخها، أملاً بتبريد حمى النفاس التي أوقدت جسد والدتي، مع حِملي من الشراب، تسمرتُ لبضع دقائق قلقة أمام المزلاج مصغية لأمي التي أعلنت اقتراب أجلها، انتظرتُ من غودي برانش التفوه بكلمة تخمد قناعتها تلك، فأسارع بإخبارها أن كل شيء سيكون على ما يرام، لكن لا كلمات من هذا القبيل نُطقت، وعود بدلاً من ذلك تخص الاهتمام ببعض الأمور المُقلقة لوالدتي، من شأنها أن تهدئ دماغها المضطرب بحساباته قبل الرحيل.

ثلاثة أيام مرتْ، ثم وارينا جثمانها التراب، إنه الربيع وفق التقويم لكن الجليد ما زال عالقاً بالأرض، أضرمنا نيراناً فوق بقعة اختارها والدي، واقعة بين قبريْ أخي التوأم زوربيل، المتوفى في التاسعة من عمره، وشقيقي الرضيع الذي لم يمكث فترة كافية لإطلاق اسم عليه، نارٌ استعرت حتى مطلع الفجر، مع ذلك انهالت مجرفتا والدي وماكبيس بالرنين جراء ارتطامهما بالأرض المتصلبة، صليلٌ حفرَ عميقاً في ذاكرتي وجهدٌ أضنى الأب المكلوم، مسمّراً أطرافه بعد إرقاد زوجته داخل مثواها الأخير، إنه حال السُكنى في جزيرةٍ مقفرةٍ حيث نقف بوجوهنا ترقب البحر ملقين بظهورنا للبراري، بالضبط

كعائلة آدم بعد السقوط، بِالتَّعَبِ نأكل منها كل أيام حياتنا[1]، قاسينا مشقات جمة لم تبدأ بالتعدين، الخَبز، العطّارة ولم تنتهِ بمكابداتِ حفر القبور، مهما كانت المهمة صعبة لا بد من إنجازها، أو سنلقى الحرمان من منافعها.

عام بعد وفاة والدتي، تسلمتُ إبانه دقّة المسؤوليات عن إدارة شؤون المنزل ورعاية سولاس، كم أحنُّ إلى أمي! أعلم بافتقاد والدي لها، ماكبيس أيضًا، على الرغم من عواطفه الأقل دفئًا بيننا وإيمانه الأقوى من حيث قدرته على قبول أقدار المشيئة الإلهية، أيامٌ وليال مؤلمة قصيناها متأملين بأرواحنا وسلوكنا لنفهم المغزى الذي قصده الرب من خطف روحها؛ ما خطايانا المستحقة لهذا العقاب؟ ما الذنوب؟ على الرغم من مُجالسة والدي طوال فترات تأمله الروحيّ، لكنني لم أعطه لمحة عن حقيقة الإثم الذي اقترفته.

أنا من قتلتُ والدتي! لعل البعض يقول إنها مجرد طفلة احتال الشيطان عليها وتلاعب، لكن بالنسبة للروح لا طفولة مبرر لبراءتها، لا كهولة مغفور لها، الخطيئة تلطخنا منذ ولادتنا مظللة كل ساعة من حياتنا، هذا ما يخبرنا الكتاب المقدس به: «فِي وَقْتٍ تَزِلُّ أَقْدَامُهُمْ، إِنَّ يَوْمَ هَلاَكِهِمْ قَرِيبٌ والْمُهَيَّآتُ لَهُمْ مُسْرِعَةٌ[2]»، هكذا زلّت قدمي دونما اعتبارٍ لعدد السنين، حينما تخليتُ عن ادعاءات براءة الطفولة، أما خطاياي فلم تك مجرّد أذى ساذج بل إثماً منحوتاً على ألواح الضلال المُهلكة، حين قمتُ بكسر الوصايا وصيّة بعد وصيّة يوماً يتلوه يوم، عن درايةٍ واعيةٍ متعمدة، أنا ابنة الكاهن: ما عساي قوله؟ فحالي ليست بأفضل من حال حواء المتعطشة للمعرفة المحظورة، حواء المسارعة لتناول الفاكهة المحرمة، التفاحة لحواء، الحوذان الأبيض لي،، كلاهما من اليد نفسها،، من الثعبان المحبب ذاته –لقد رأيته بأمّ عيني، أبهرتني حراشفه اللامعة المتلألئة حينما صبّ العذوبة فوق أكتاف ضحيته، يا للمقلتين المرصعتين اللامعتين تحدقان في عينيها!– كذلك عينا شيطاني الفاتنتان حين أغواني بهيئة بديعة بهية لا تقاوم.

اكسر شريعة الله، ثمّ قاسِ غضبه، حسنًا هذا شأني؛ ثَقُلَتْ وَطْأَةُ الرَّبِّ

1- (سفر التكوين 3: 17) «بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ».
2- (تث 32: 35).

على كاهلي فأضنتني بالكدح والعذاب، محمِّلة إياي بالواجبات التي تركتها أمي جنباً إلى جنب مع مهامي طوال النهار، قبيل انسلاخ الفجر، حتى تفتق عتمة السماء، فتاة الخمسة عشر ربيعاً ناءت بأعباء امرأة ناضجة حتى صارتها مبكراً، لا يسوؤني الأمر في الواقع، فها أنا الآن منشغلة بما يكفي لتجنب الوقوع بآثامِ مراهقةٍ مالكةٍ أمر الزمن، حتى غدت ساعاته هبة سخية ولحظاته هدايا ثمينة، يا لتلك الظهيرة الحارة! حين تهبّ نسمات مالحة على طول قوس الشاطئ اللامع بعيداً حتى انزلاق الجروف، يا لصباحِ السهوب الطينية المرقطة بالوريقاتِ والتوت القرمزي الغضّ، يا لمذاق حبّاته حين تتقطر حلاوة في فمي! استملكتُ هذه الجزيرة ميلًا بعد ميل، استحوذتُ على صلصالها الطري المترسب فوق المنحدرات الملونة بألوان الطيف، اقتنيتُ صخور الغرانيت المتناثرة بين الحقول، الناتئة الصلدة المحبطة للمحراثِ، المظللة للأغنام، كم أحبُّ نقاب الضباب الأبيض المنسدل فوق كوخنا والرياح المتأوهة فوق مدخنته طوال الليل.

إن كسا الجليد المالح خط انكسار المد البحري، أو انسحقت دروب الغابة تحت قبقابي، لا أتوانى عن غرف الهواء البارد ونهلِ الوميض الأزرق المتلألئ فوق الثلج، كل رأسٍ هنا، كلّ خليجٍ أحبه، لا أدري لمَ يعادون الطبيعة، لماذا علمونا وجوب إخضاعها؟ لقدْ وجدتُ نفسي رويداً رويداً أعبدها، يمكنك القول إن هذه الجزيرة وخيراتها أمست أولى آلهتي المُضلِّلة، خطيئتي الأصيلة التي أطلقت أجنحة وثنيتي.

صحيح أن أبي لم يعلمني الكتابة، لكنني خلال الأيام المتبقية لمجيء كالب إلينا، عزمتُ على خربشة مذكراتي الروحية لعلني أتمكن من تقديم تقرير مفصلٍ عن الأشهر الحاجبة فؤادي عن الله، قمتُ بجمع ما أمكنني من قصاصاتٍ ورقية من الأغراض الخاصة بأخي، ثم استرقتُ لحظاتٍ معتوقةً من أيام شقائي، لأنقش غير آبهةٍ طلاسم مبهمة لن ترصدها إلا عيناي، ما من شجاعة أمتلكها حتى اللحظة للاعتراف يومًا ومحاسبة نفسي أمام الجميع، أعلم ذلك علم اليقين، إلا أنّ الإقرار الذاتي كل ما بوسعي فعله، ناشدتُ الرب تهوين محنتي وقد زهُقتْ سُبل النجاة جميعها، حدقتُ بيدين ومعصمين تشوبها ندبات الحروق من جراء تطاير الجمر وحماوة أواني

الطهي، فجلب كل أثر محمرّ أو تغضن مبيض استعار نارٍ سرمدية واحتشاد أجسادٍ ملتويةٍ ملعونةٍ عليّ مشاركتها أبديتها الرجيمة.

الرب وحده عالمٌ بالناجين وبالملعونين، بالهلاك الذي نقشته على هذه الصفحات، لكن بما أن كالب قادم إلى هنا، بأدخنة نيرانه الوثنية، برياحه الجامحة وبصيرته النافذة، فإنني أحتاج إلى صفاءِ ذهني وفؤادٍ نقيّ كي أتّخذ لقدميّ موطئاً بعيداً عن هذه الاعتبارات، بالطبع! يتوجب عليّ فعل ذلك لأجله ولأجلي في الوقت ذاته، أعلم أن الأب يعول على كالب كثيراً، متأملاً بقدرته الفائقة على سيادة شعبه أكثر من أي شخص آخر هنا، من المؤكد أن كالب يودّ ذلك بدوره؛ فلم يناضل أحد بجدّ في سبيل الكتاب مثله، ولم يجمع غيره حصاداً غنياً من المعرفة في السنوات العجاف كما فعل، لكنني أعلم على وجه اليقين أنّ روح كالب مشدودة كحبلٍ ممدودٍ بين والدي الأب وعمه الكاهن الوثني، مثلما يأملُ والدي، كذلك يتمنى ذلك الساحر؛ فكالب سيقود شعبه! متأكدة من ذلك، لكن بأي اتجاه؟ هذا ما كنتُ أجهله.

2

في ليلةٍ عاصفةٍ قبل شتاءين، كافحنا لسحب القوارب وربطها بأمان عند الشاطئ في مجابهةٍ مع مطرٍ غزيرٍ ورياح عاصفة، لنرجع إلى المنزل بمعاطف غريقة، وخصلات شعر مبللة متجمدة متشابكة متمايلة بتثاقل فوق الأكتاف، حشرنا الجص داخل شقوق وتصدعات الجدران مجاهدين بأيدٍ مخدّرة لإصلاح ورق الشمع المتمزق فوق النوافذ (فلا زجاج كان يغطيها آنذاك)، لاحقًا، بينما كنتُ جالسة أمام النار، بدأ جليدُ قامتي يذوب لتتجمع مياهه حول قدمي، سأل ماكبيس الأب السؤال المتشكل في ذهني تلك اللحظة: لماذا قصد الجد هذه الجزيرة تحديداً؟ لماذا أراق سبعة أميال من الأمواج المضطربة بينه وبين الإنجليز الآخرين، في وقت مُنحت أراضٍ خصبةٌ وفيرة لمن أراد تأسيس مستوطناتٍ جديدة؟

أجاب الأب بأن الجد قام بخدمةِ الآخرين في شبابه، باذلاً قصارى جهده ومهاراته في العمل كوكيلٍ لأعمال نبيل ثري، ليكافأ ختاماً باتهاماتٍ لا أساس لها من الصحة وُجِّهت ضده، الجد، على الرغم من قدرته على تبرئة

نفسه، لكن المحنة سقته مرارة وخذلاناً لاجمة إياه عن الرد، جون وينثروب، حاكم مستعمرة خليج ماساتشوستس؛ رجل ذو مآثر جديرة بالتقدير، لكنه كان مُبغضاً لمن لا تتفق أفكارهم مع أفكاره، شغوفاً بفرضِ عقوباتٍ وحشية ضدهم، لقد قُطعت آذانٌ بأمرته وجُدعت أنوف؛ نساء متمردات، منهن حبالى وأخريات مع أطفالهن طردن جميعاً إلى القفار من أخواته وإخوانه المسيحيين على حد تعبير والدي، ناطقاً بالمسموح قوله واللائق بأسماعنا بما يخص قبيلة البيكوات: «شعر جدكما بإمكانية فعل شيء ما، لذلك قام بابتياع الامتياز الخاص بملكية هذه الأرض الخارجة عن نطاق إدارة وينثروب، ثم جمع العديد من الرجال ذوي التفكير المماثل المرحبين بكفّه الممدودة تجاههم، أما عني فقد أمسيتُ أول من أرسل للقيام بالعبور الأول في عام 1642، إنه لمن دواعي اعتزازي يا بني، أن جدك على الرغم من دفعه الثمن مقابل الحصول على امتياز ملكية الجزيرة من السلطات الإنجليزية، فإنه أصرّ في الوقت نفسه على تسديد أثمان أراضي السونكم[1]، كل كوخ أقيم هنا، بُني فوق أرضٍ مباعةٍ عن طيب خاطر عبر مفاوضاتٍ نزيهة أجراها والدك بشرف، لعلك سمعت أن جُلّ السونكم لم يتفقوا مع رئيسهم بما يخصّ هذه المسألة، بينما صرح البعض بجهله بمآربنا مدعياً نوايانا الخبيثة باستلابٍ أبديّ لأراضيهم، مهما كان الأمر، ما جرى قد جرى بسبلٍ قانونية مشروعة».

تأملتُ بيني وبين نفسي، متفكرة بأن الجد بالكاد كان مطلعاً على النقاط الدقيقة الخاصة بقانون الملكية الإنجليزي المعوّلة على السمعة الحسنة لما يعادل ثلاثة آلاف شخص السابقة لمرسى قواربنا في ضفافهم، إن كان ثمة فخر يؤخذ بعين الاعتبار، فليس سوى مكر الجد، مضافاً إليه شجاعة ولباقة الأب المنوطة به مهمة تنفيذ خطته، لا ريب أن الأب البالغ التاسعة عشرة من عمره آنذاك، تمكن عبر حيويته ومزاجه اللطيف من إقناع السونكم بوداعة وسلمية، بحنكة «الرجال ذوي المعاطف» كما كانوا يطلقون علينا، فما الضرر المرتقب من مجموعة عائلات قليلة، جالسين جنباً إلى جنب

1- Sonquem هي إحدى المفردات التي تستخدمها قبيلة وامبانواغ (قبيلة من الهنود الحمر) في محاولة ليروكس لدعوة القارئ إلى معرفة ما تعنيه ضمن السياق.

على شفا جبهة الميناء، بينما تجوب فرقهم القوية بالمئات عبر الجزيرة حيثما شاءوا؟

التقط الأب خيط فكرته، كما لو أنها شُلة متشابكة أقلقته، «لقد كنا جيرانًا طيبين، نعم أعتقد ذلك» ثمّ أردف متابعاً بالقول: «ولم لا؟ فلا سبب يدعونا إلى غير ذلك، بغض النظر عن افتراءٍ ألقته عائلة ألدن أو تلفيقٍ تقدم به فصيلهم، (يمكنك مضايقة الشيطان وإغضابه، لكنك لن تخلق مسيحيين هناك) – على حد تعبير جايلز ألدن مشيعاً انطلاقتي التبشيرية الأولى نحو الأكواخ المقببة، لم يمضِ الوقت طويلاً حتى أثبت الرجل أنه مخطئ! فقد لبثت لسنوات عديدة، غارفاً غبار تلك الأكواخ البدائية مقدماً المعونة قدر استطاعتي لأجلهم، سعيدًا بالفوز بإصغاء شخصٍ أو اثنين لبضع كلمات عن المسيح، أما الآن فأحاول جاهداً تقطير خلاصة الإنجيل داخل أذهانهم، عساي أنقذ الناس الضالين في دروبهم نحو الجحيم، فأتمكن من تغيير وجهتهم مرشداً إياهم إلى سبيل الله،،، هذا ما يجب النضال من أجله، إن كنتَ تواجه صعوبة في التعرف عليهم يا بنيّ، دعني أعلِمك أنهم أناس رائعون من نواحٍ كثيرة».

كم كنت سأذهله في تلك اللحظة مثيرة دهشة شقيقي بدوره، لو تجرأت بفتح فمي وغامرت بالاعتراف بدرايتي الخاصة بتفاصيل قبيلة الوامبانتواغ، بما يفوق معرفة أبي مبشرهم وكاهنهم، لكن كما ذكرت، مبكراً تعلمت قيمة الصمت، كسمةٍ لا يمكنني التخلي بسهولة عنها، نهضت بعيداً عن الموقد كي أشغل نفسي بمزج الخميرة والطحين وتخميرهما لتحضير خبز اليوم التالي.

جيراننا،، تسمية لم تخطر ببالي حينما كنت طفلة، مثلي مثلُ الجميع الذين كانوا يلقبونهم بالبدائيين، الوثنيين، البرابرة والهمجيين، في الحقيقة، بالكاد اكترثتُ لوجودهم آنذاك مترعرعة مع أخي التوأم فوق ذراعي أمّنا في تلك الأيام المنعزلة عن أي أفعال تخصهم أو طقوس، سمعت أن الأمر استغرق عاماً ونيّفاً قبل اقتراب أيّ روحٍ من مزرعتنا بهدفِ مساعدةٍ أو إزعاج، فإن كُلف والدي بشأنٍ في مستوطناتهم نيابة عن الجد، قصد هذا أو ذاك بمفرده بمهمة لا أعرف عنها شيئًا.

في وقتٍ لاحقٍ -لستُ متأكدة متى حدث ذلك بالضبط- لكن بعد تشييد أهالي قرية غريت هاربور لمجلس اجتماعاتهم، قام المجتمعون بازدراء أحد الفقراء الأذلاء متربصين به كل سبت، الرجل ذو الأصلِ الوضيعِ والسيماء اليائسة، كان منبوذاً بين أقرانه، غير لائق من وجهة نظرهم ليكون محاربًا أو ممتلكاً للحق العام بالصيد مع السنكم أو المشاركة بتجمعاتِ تقديم الزاد والفرائس بسخاء للجميع.

كل ما عرفته أن والدي أبى إلا أن يخدم الرجل دونما الالتفات إلى هذه المسألة، بدا الأمر ممارسة اعتيادية للأعمال الخيرية المسيحية كما أمرنا الرب: «بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ،،،»[1]، لكن من الفلزّ غير الواعد، بدأ الأب بسبك صليبه، في أحد أيام السبت تفاجأت الأم إلى حد ما، باستضافة الأب لهذا الرجل المدعو إياكوميس في دارتنا، إلا أنّ صاحب الهيئة الدميمة أثبت مع الزمن أنه ذو عقلٍ متقد، فقد تعلم الحروف بشغفٍ ليقوم بالمقابل بتعليم الأب لغة وامباناونتونك بغية تعزيز مهامه التبشيرية، أبي المكافح لتلقن اللغة الجديدة، جهُل بطفلته التي تلقفتها برغبةٍ عارمة محاصرة بين حافة الموقد والفناء، بينما مدَّ الكبار أمواج معرفتهم وانحسروا حولي، أجدتُ اللغة بسهولة تعلم الإنجليزية، في حين أظهر عقلي اللين استعداداً دائماً لتلقي كلماتٍ جديدة وحفظها، كلما جلس الأب وإياكوميس، مرددين عبارة ما مرارًا وتكرارًا، انسكبت مطواعة بين شفتيّ قبل وقت طويل من إتقان والدي لها، تعلم الأب ثم سعى بدوره لتعليم كلمات مفيدة لبيتر فولجر، الكاتب التابع لجدي، الحكيم بما يكفي ليعرف قيمتها الثمينة أثناء تنفيذ عمليات التبادل التجاري وعقد المفاوضات، كنا صغاراً جداً حينما ابتكرتُ مع زورييل لعبة خاصة بنا، نتحدث إبانها على انفراد بلغتنا السرية تلك، لكن زورييل بعدما كبر، أحجم عن طوفانه حول الموقد، مندفعاً هنا وهناك كما يُسمح عادة للأولاد دون الفتيات، فقد الكلمات مفردة فأخرى في حين تابعتُ غرفها حتى ذبلت

1- (متى 25: 40)

لعبتنا وفقدت بريقها، تساءلت كثيرًا عما حدث لاحقًا، أتراها جذور الطفولة الموغلة بي؟ لعلها اللغة الهندية العالقة بقلبي مع ذكرياتي المبكرة مع أخي! أيّ مشاعر رقيقة كامنة داخلي تتوقد مشتعلة كلما التقيت بشخص من نفس عمره يتحدث بها، بحلول الوقت لمقابلة كالب، كنت قد اكتسبتُ مخزوناً كبيراً من الكلمات والعبارات الدارجة للغةِ الغريبة بدأت منذ ذلك الحين بتسطير حروفها في شعابِ أحلامي.

في طفولتي ذات مرة؛ أتذكر أنني أشرت إليهم بـ «البدائيين» على مسمع من والدي الذي سارع بتوبيخي منذراً: «لا تدعيهم بالبدائيين، استخدمي اللقب الذي يطلقونه على أنفسهم وامبانواغ، بمعني المشرقيين».

يا للأب المسكين! بدا فخورًا جدًا بجهوده لحفظ كلماتهم الصعبة؛ مفردات طويلة يظن المرء أن جذورها نشأت ونمت منذ سقوط برج بابل، مع ذلك، فإن الأب لم يُجِد نطقها على النحو الصحيح، محروماً من نيل الشرف النبيل لإتقان لغتهم، كما أنه لم يستوعب طريقة بناء الكلمات صوتاً فصوتاً لإنشاء معانٍ معينة: «مشرقيون (Wampanoag)» بالفعل، كأنهم يتحدثون عن الشرق أو الغرب كما نفعل تماماً، ما من وضوحٍ في تلك اللغة على الإطلاق: فـ Wop كلمة تعني الأبيض المحمل بإحساسِ الضوء الأول الناصع المُشرق بالأفق قبل طلوعِ الشمس، أما الصوت في النهاية فيشير إلى الكائنات الحيوية، لذلك، فتسميتهم لأنفسهم، إن رددت بشكل صحيح باللغة الإنجليزية: (People of the First Light) أهل الإشراقة الأولى، منذ ولادتي في هذا المكان، شعرت بدوري أنني أنتمي إلى خيط الضوء الأول، أنا الجاثمة بأقصى ضفة العالم الجديد، الشاهدة الأولى على كل فجر يتلمس الكرة الأرضية، ليس غريباً أن يلاحظ المرء شروق الشمس من البحر وغروبها فيه بيوم واحد، على الرغم من أن الوافدين الجدد كثيراً ما يتعجبون من غرابة الظاهرة، أسارع إلى الشاطئ مع غروب الشمس –من الصعب عليّ تفويت المشهد اليومي الخلاب– أتوقف هنيهة لتأمل القرص الساحر مشعلاً الأمواج الملحية، غامراً نفسه في المرق الملتهب، فإن ادلهم الأفق، أفكر بمن غادرناهم في إنجلترا، مرتقبين الضياء المتسلل إليهم مع

سيادة ظلامنا، أفكر بحالتهم المستيقظة على فجر قمعٍ جديد تحت نعل ملكهم الطالح، في إحدى الأمسيات، ألقى أبي علينا قصيدة لأحد إخوتنا المصلحين هناك:

نخطو على رؤوس أصابعنا في هذي الأرض.

مرتقبين الرحيل إلى الضفة الأمريكية

اعتدتُ الصلاة لأجلهم، عسى الله يمهد طريقهم إلى هنا، ويمنحهم صباحاً لا يشوبه خوف، أماناً يماثل أماننا، وسلاماً يسوده قضاء جدي وخدمات والدي الكهنوتية.

أفكر في الأمر الآن، متأملة بالصلاة التي قاطعتها منذ فترة، فالسلام الذي تمنيته لهم، تلاشى من خافقي مندثراً بالكامل!

المحتويات

مقدمة الترجمة 7
إطراءات بحقّ الرواية.. 11
الجزء الأول 19
الفصل الأول: الدربُ الوعرُ إلى فرجينيا........................ 21
الفصل الثاني: جوزة الطيب الخشبية........................ 32
الفصل الثالث: نُـــــــدوب 70
الفصل الرابع: القليل من الجحيم........................ 92
الفصل الخامس: قلم رصاصٍ أفضل 113
الفصل السادس: خميرة من الشمال 129
الفصل السابع: الخبز والمأوى 154
الفصل الثامن: مذبح التعليم........................177
الفصل التاسع: باكورة الإزهار........................191
الفصل العاشر: الحُمى المتكررة 200
الفصل الحادي عشر: قرع الأجراس........................211
الفصل الثاني عشر: القمرُ الدموي 228
الفصل الثالث عشر: رجلٌ طيبٌ عطوف 236
الجزء الثاني 249
الفصل الرابع عشر: مستشفى بلانك 251
الفصل الخامس عشر: لمْ الشمل 267

الفصل السادس عشر: نهرُ الجحيم 277
الفصل السابع عشر: إعادة البناء 290
الفصل الثامن عشر: شؤون غريس..................... 306
الفصل التاسع عشر: كونكورد..................... 315
كلمة المؤلفة 319
نبذة عن مارش 327
مقابلة مع الكاتبة جيرالدين بروكس..................... 329
روايات الكاتبة الأسترالية جيرالدين بروكس..................... 335

مكتبة
t.me/soramnqraa

«في كثير من الأحيان؛ يمكن تشريح الكتب الجيدة وتحليلها أكثر من تلك العظيمة المذهلة، خاصة مع محاولة نقل قوتها وتأثيرها تقصياً عن ملامحها المُشعلة للفضول والارتياب، أعتقد أن رواية جيرالدين بروكس كتاب رائع للغاية كونه يبث حياة جديدة في خيالٍ تاريخيٍّ عبر استعارة شخصية من واقع عميقٍ عتيق، أو لنقل رواية قديمة بأسلوبٍ شخصي، أعتقد أنها تستحق التكريم والاحتفاء كأفضل رواية خيالية».

شيكاغو تريبيون

«مارش حكايةٌ جميلةٌ عن قسوة الحرب وهدمها للمُثُل والمبادئ الأخلاقية، إسفين من تجاربَ مريرةٍ وذكريات قاهرة بين زوج وزوجته».

لوس أنجلوس تايمز

«رؤية جليّة عبر سردٍ فاخرٍ دقيق، تفاصيلُ تاريخية غير متوقعة يخوضها رجل عادي ضمن مفارقاتٍ لا يمكن تصورها، يكرس مارش دور الزوج السلس بين الحقيقة والخيال، نسخة بروكس لحكاية مارش مروّعة ومؤثرة في الوقت ذاته، الرواية ناجحة للغاية، تلقي تعويذة ما على القارئ لتدوم في ذهنه أبداً».

كارين جوي فاولر، واشنطن بوست عالم الكتب

«بعد بحثٍ تاريخيّ أخّاذ، تلتحم مارش بإخلاص مع روح رواية ألكوت الأصلية، يعزز الكتاب العمل الشقيق منذ عام 1868 بدلاً من الاستيلاء عليه، لا بد أنّ لويزا ماي ألكوت سعيدة للغاية».

الإيكونوميست

«مبهرٌ... الشقاق بين الذات الداخلية (ما يعرفه المرء ويشعر به) والمظهر الخارجي (ما يسمح المرء للآخرين برؤيته ومعرفته عن نفسه) انفصالٌ زوّد روايتنا الرائعة بتوترٍ سرديٍّ مذهل، الصراع -بين إنسانيتك ومبادئك- سعياً للتوازن هنا تكمن ضربة بروكس الإبداعية المبتكرة، في حين أشرقت الفضائل متوعدة في (نساء صغيرات) شقيقة مارش مختارة الخنوع التام للمبادئ، سمحت جيرالدين بروكس لشخصياتها بأن تمسي بشرية بالكامل، إذ لديهم بالنهاية ما يودون تعليمه لنا».

جريدة أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن

telegram @soramnqraa

9 789933 635244